مير بصري

أعلام الأدب في العراق الحديث

الجُزء الأوّلُ

تقديم
د. جليل العطيّة

دار الحكمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلام الأدب
في العراق الحديث
١

ISBN 1 - 898 209 - 456
الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88 Chalton Street London NW1 1HJ. Tel: 071 - 3834037 / Fax: 071 3830116

ميّ بصري رائد «فن التراجم» الأدب العربي الحديث

بقلم: د. جليل العطية

■١■

نشأ فنا السير والتراجم وترعرعا في أحضان علـم التاريخ، وتأثرا بمفهوم الناس عنه على مرّ العصور، فكانا تسجيلاً للأعمال والأحداث.

وعندمـا تغيّر مفهوم التاريخ، وأصبحت لـه فلسفة خاصة، أنكـر بعض الباحثين المحدثين أن تكون السيرة أو الترجمة جـزءاً من التاريخ، وبين هؤلاء كولنجـوود وتوينبي فهما يُخرجان من دائرة التـاريخ ما يتصل بالسير الـذاتية كاعترافـات القديس أوغسطين وروسو أو حياة الملكة فكتوريا لستراتشي.

يقول توينبي: إن هذه الكتب تشتبك بالتاريخ لأنها تدور حول أناس لهم قيمتهم في الحياة الاجتماعيـة. وبعد أن يبين خصائص بعضهم يقـول: إذا علقنا التـاريخ بالسيرة وقعنا في الخطأ من حيث الطريقة.

على أننا إذا استبعـدنا هذه النظرة الحديثـة، وجدنا أن فن التراجم من ناحيـة عملية هو تـاريخ في نشأته وغايته، ويمكـن أن نقرر أنه: كلما كانت الترجمة تعـرض للفرد في نطاق المجتمع، وتعرض أعماله متصلة بالأحداث العامة أو متأثرة بها، فإن الترجمة تحقق هدفاً تاريخياً.

وكلما كانت الترجمة تفصل المترجم عن مجتمعه ووطنه، وتجعله الهدف الأسمى وتنظر إلى كل ما يصدر عنه نظرة مستقلة، فإن صلتها بالتاريخ تكون هشة بل مبتسرة.

ولقد وعـى ابن الجوزي ـ المؤرخ البغـدادي الشهير ـ أن التاريـخ عبارة عن مجمـوعة متنوعـة من السير والتراجم عندما قـال في مقدمة كتـابه (شذور العقـود): إن التواريخ وذِكـر السير راحـة للقلب وجـلاء للهم وتنبيـه للعقل فإنـه. إن شَرحتْ سيرة حـازم علّمت حسن التدبير، وإن قَصّتْ قصة مفرط خوّفت من إهمال الحزم.

وفي القرون الماضية ركد فن التراجم وانكفأ، شأن ألوان الفنون والعلوم الأخرى، وفي بواكير القرن العشرين سار الكتّاب العرب باتجاهات مقاربة لما في الغرب، فتأثروا بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية، وأصبح بعضها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلّت الرغبة في تاريخ الحياة نفسها.

ومن بين المحاولات ذات الطابع الأدبي في السيرة الحديثة يمكن الإشارة إلى (حياة الرافعي) للعريان، (وعبقريات العقاد، وجبران) لميخائيل نعيمة. وأرّخ زيدان وأحمد حسن الزيات والإسكندري وحنا فاخوري للأدب العربي في عصوره المختلفة، وقدّم خير الدين الزركلي كتابه «الأعلام» الذي عني فيه بترجمة المئات من أعلام العرب والمسلمين والمستعربين، غير أن ترجمته ـ على دقتها ـ كانت موجزة، لأنه أراد استيعاب أكبر قدر من الشخصيات في كتابه.

وفي العراق عني عدد قليل من الأدباء والمؤرخين بفن التراجم لمع منهم: رفائيل بطي (ـ ١٩٥٦م) وجعفر الخليلي (ـ ١٩٨٥م) ومير بصري.

والمؤسف أن الجهود المضنية التي بذلها بطي بقيت محدودة الفائدة، لأن التراجم المهمة التي كتبها بقيت مطوية في الصحف والمجلات ولم تجمع في كتب. أما الخليلي فإن كتابه (هكذا عرفتهم) بأجزائه الستة المطبوعة، يعدّ مرجعاً لا يستغني عنه كل مَن يرغب رصد الحركة الأدبية والثقافية خلال القرن الماضي، غير أن ما يؤخذ عليه ـ رحمه الله ـ أنه رسم لوحات انطباعية لمن عرفهم كأنه كتبها من الذاكرة، لأن معظمها تفتقد إلى التوثيق والتواريخ وما أشبه.

■٢■

ولد مير شاؤل بصري في بغداد في التاسع عشر من أيلول ١٩١١ في أسرة عراقية عريقة عرفت باسم «عوبديا»، وقد ذكر الرحالة بنيامين أنه التقى عمّ أبيه الذي كان يشغل منصب رئيس المحكمة الشرعية في بغداد سنة ١٨٤٨م. درس مير في مدرستي التعاون والأليانس، ولازم الأب أنستاس ماري الكرملي والدكتور مصطفى جواد حيث أخذ عنهما اللغة العربية، كما درس تاريخ العراق على عباس العزاوي والعروض على الشاعر محمود الملاح.

وعمل في الوظائف العامة والخاصة سنوات عديدة (ما بين ٢٨ ـ ١٩٥٢) أمضى شطراً منها في وزارة الخارجية. وقد أهلته كفاءته لتمثيل العراق في عدة مؤتمرات عقدت في نيويورك وباريس وغيرها. وبعد سنة ١٩٥٣ انصرف إلى الأعمال الحرة.

كان أثره الأدبي الأول شعراً منثوراً عنوانه الحرية (بغداد ١٩٢٨) على طريقة جبران والريحاني، وعمل في أوقات مختلفة محرراً اقتصادياً وباحثاً في الصحف والمؤسسات الاقتصادية العراقية.

أما المؤلفات التي أتيح له نشرها حتى الآن فهي :

مباحث في الاقتصاد العراقي (١٩٤٨)، رجال وظلال (١٩٥٥)، رسالة الأديب العربي (١٩٦٩)، أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (١٩٧١)، أعلام اليهود في العراق الحديث (١٩٨٣)، أعلام السياسة في العراق الحديث (١٩٨٧)، أعلام الكرد (١٩٩١)، أغاني الحب والخلود (١٩٩١) وأنجز مؤلفات أخرى تنتظر النشر.

بقي مير بصري في بغداد يمارس نشاطه الأدبي والاقتصادي والروحي وبعد أن دخل العراق في بحر الانقلابات والاضطرابات، تعرض إلى الاعتقال والأذى (١٩٦٩) فاضطر إلى ترك وطنه (١٩٧٤). حيث استقر في لندن مواصلاً نشاطه الأدبي والاجتماعي بكل همة وتجرد وإخلاص وظل يحمل لوطنه في حنايا ضلوعه وخفقات قلبه، فمما قاله في بغداد :

على الأوطـــان في جبـل وسهـل ... ســـلام الله، عطـــر مـن ســـلام
بـــلادي حبهـــا مـــددي وديني ... تغلغـل في ا لجوارح والعظـــام
هـي الأم التـي خلقـت كيـــاني ... وجــادت بـــالحشـاشـــة والقـــوام
وأرهفـت المشـــاعـــر في حنـــان ... وأوقـــدت القـــريحة بـــالضرام
ولقنّـت المكـــارم والسجـــايـــا ... وأوحـت بـــالخواطـــر والكـــلام
ونـــزهـت الفـــؤاد مـن الـــدنـــايـــا ... ورفعـــت الضمير عـــن الملام
رضعـت لبـــانها طفـــلاً صغيراً ... وذقـت نعيمهـــا منـــذ الفطـــام
عبيـت مـن الهواء الطلـق صفـــواً ... ومـن مـــاء ألـــذّ مـن المدام
وكحلـت العيـــون بسحـــر حسـن ... تـــلألأ في الضيـــاء وفي الظـــلام
فيـــا للحسـن من بغـــداد أضفـى ... على الـــوديـــان وشيـــاً والاكـــام
مغـــانٍ قـــد صفـــا فيهـــا شرابي ... وراق العيـش في عـــزّ المقـــام

تتوزع اهتمامات مير بصري بين الشعر والقصة والرواية وكتابة التراجم والملاحم والترجمة والبحوث الاقتصادية. وقارىء آثاره التي أتيح لها النشر يقرّ له بالجودة والمستوى الرفيع في كل الفنون المختلفة التي مارسها باعتراف كبار النقاد.

يعتقد بصري أن الشعر والأدب يجب أن يرميا إلى مثل أعلى وهو التفاهم البشري والتعاون ونشر الأخوّة والمحبة والسلام.

■٢■

ويبدو لي أنه وجد أن مؤرخي العراق قد قصّروا في فن التراجم، ولعله لمس من صديقيه الكرملي ومصطفى جواد التشجيع في الانصراف إلى هذا الفن، الذي لا يجرؤ على خوضه إلاّ مَن أحاط بعدة علوم وفنون في آن واحد!

فكان أن صرف أكثر من خمسة عقود من عمره وهو يدون ويوثق ويسجل تراجم

الشخصيات التي ساهمت في بناء نهضة العراق الحديث على مختلف مذاهبهم ومشاربهم فكان كتابه الحالي (أعلام الأدب في العراق الحديث) ثمرة مجهود مضنٍ .

يشمل الكتاب على تراجم نحو مائتين وخمسين أديباً وشاعراً ممّن كان لهم الأثر في بناء كيان العراق الأدبي والثقافي والفكري خلال أكثر من قرن . ويمكن اعتبار الشاعر عبد الغفار الأخرس المتوفى سنة ١٨٧٥م أقدمهم وفاة ، وبينهم أدباء وشعراء لا يزالون على قيد الحياة ـ أمدّ الله في أعمارهم .

قدم بصري لكتابه الضخم الذي شرفني بكتابة هذه المقدمة له ، بتوطئة موجزة تناول فيها الأدب العربي في عصور الانحطاط والنهضة والعهد الانتقالي وختمها بالعبارات الآتية :

أرجو أن تكون الصفحات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدباء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام .

ولعمري أنه تواضع جمّ من قبله ، فالعمل الذي نهض به جبار، لا يقوى على تقديمه بهذا الشكل المتقن ، الموثق فرد!

على أن غَيرته على الأدب والأدباء ذللت له الصعوبات التي واجهها في تأليف هذا السفر الفذّ .

ينفرد مير بصري عن كل مؤرخي التراجم بنقاء العبارة ، ورشاقة الأسلوب والبعد عن التعمل والتصنع ، يحيط بتاريخ العراق والعرب إحاطة واسعة ، وقد رزق ذاكرة قوية ، لا ينسى ما يقيّد ولا ما لا يقيّد وغلب عليه التواضع والحياد .

ومما ينفرد به إجادته اللغة الفرنسية واطلاعه الواسع على الأدب الفرنسي ، وقد أفاد القارىء بمعلومات غزيرة عندما عقد مقارنات واقتبس أشياء لها صلة بالمترجم لهم وطائفة من شعراء فرنسة وأدبائها .

ولا أريد هنا أن أكشف كل مزايا هذا الكتاب الموسوعي ، فيكفي أن ألمّح إلى أنه حفظ لنا مختارات شعرية مجهولة لشعراء لم يسعفهم الحظ بنشر نتاجاتهم خلال حياتهم ، كما أن معرفته بعدد منهم مكنته من الاطلاع على آرائهم وأفكارهم ، وإذا كان الكتاب قد اشتمل على تراجم المشهورين المعروفين ، فإن المؤلف قدم لهم نماذج أدبية غير معروفة .

ختاماً أبتهل إلى الباري عزت قدرته أن يمدّ في عمر الأستاذ مير بصري ليواصل إتحاف المكتبة العربية بنتاجاته الأدبية والتاريخية . ولي الثقة بأن (أعلام الأدب في العراق الحديث) سيأخذ مكانته اللائقة في الخزانة العربية كواحد من أهم مراجع دراسة الأدب العربي الحديث .

المحتـــويات

عصر النهضة

الشعر

الشعر العامّي

عصر النهضة

النثر

الجزء الثاني

رجال الفقه والدين

الصحافة

الموجة الحديثة

شعر

الموجة الحديثة

نثر، تاريخ، قصص

الشعر الجديد

الشعر الحر

شعراء وأدباء

سجّلت تراجم الشعراء والأدباء الآتي ذكرهم في كتابي «أعلام الوطنية والقومية العربية» المعدّ للطبع :

(١) عبد المطّلب الحلي

(٢) خيري الهنداوي

(٣) محمد حسين آل كاشف الغطاء

(٤) محمد باقر الشبيبي

(٥) محمد مهدي البصير

(٦) عبد الرحمٰن البناء

(٧) محمد باقر الحلي

(٨) حمد فهمي المدرس

(٩) هبة الدين الشهرستاني

(١٠) أحمد عزت الأعظمي

(١١) ساطع الحصري

(١٢) محمد كاظم الخراساني

(١٣) محمد كاظم اليزدي

(١٤) محمد تقي الشيرازي

(١٥) فتح الله الأصفهاني

(١٦) محمد حسين النابيني

(١٧) مهدي الخالصي

(١٨) محمد الخالصي

(١٩) عبد الغفور البدري

(٢٠) إبراهيم صالح شكر

(٢١) علي الخطيب

(٢٢) عيسى عبد القادر

(٢٣) عبد الرحمٰن البزّاز.

سأصرف وجهي عن بـــلاد غـــدا بها ... لســـانِيَ معقـــولاً وقلبيَ مقفـــلا
وإنّ صريح الحزم والـــرأي لامــــرىءٍ ... إذا بلغتــــه الشمس أن يتحـــوّلا

أبو تمام
(٨٠٤-٨٤٦م)

كـن ابن مَـن شئـت واكتسـب أدبــــاً ... يغنيـك محمــــــوده عـن النّسـب
إنّ الفتى مَـن يقـــول: هـــا أنَـــذا ... ليـس الفتى مَـن يقـــول: كــــان أبي

أبو العتاهية
(٧٤٨-٨٢٦م)

إذا ورّث الجهّــــال أبنــــاءهم غنـى ... وجـــاهـــاً فما أشقى بنـي الحكماء!

محمد حفني ناصف
(١٨٥٧-١٩١٩م)

المصادر والمظانّ

هيّئت لي معلومات وافية من الشعراء والأدباء الـذين عرفتهم ومن أصدقاء الراحلين والمتصلين بهم. ووجدت في الجرائد والمجـلات العراقية والعـربية خـلال نصف قرن أو يزيد أخباراً كثيرة حرية بالتدوين. وفي الكتاب أشعار لم تنشر أو نشرت في الصحف ولم تجمع في ديوان فآثرت إثباتها تخليداً لأصحابها.

وفيما يلي جدول ببعض المراجع والمظان التي قد يرغب المتتبع في الرجوع إليها زيادة في الفائدة:

(١) مير بصري: أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث (بغداد ١٩٧١).

(٢) إبراهيم الواعظ: الروض الأزهر (١٩٤٨).

(٣) محمـد مهـدي البصير: نهضـة العراق الأدبيـة في القـرن التـاسع عشر (بغـداد ١٩٤٦).

(٤) خير الدين الزركلي: الأعلام (الطبعة الثالثة).

(٥) محمد صالح السهروردي: لبّ الألباب (جزآن، بغداد ١٩٣٣).

(٦) عبد الرزاق الحسني: تأريخ الصحافة العراقية (١٩٣٥).

(٧) عبـاس العزاوي: تأريخ الأدب العـربي في العـراق (بغداد، جـزءان ١٩٦١ - ٦٢).

(٨) السيد حيدر الحسيني الحلي: العقد المفصل (جزآن).

(٩) محمد بهجت الأثري: أعلام العراق (١٩٢٧).

(١٠) رفائيل بطي: الأدب العصري في العراق العربي (جزآن، القاهرة ١٩٢٣).

(١١) رفائيل بطي: الصحافة في العراق (١٩٥٥).

(١٢) مصطفى علي: أدب الرصافي (١٩٤٧).

(١٣) مصطفى علي: الرصافي (الجزء الأول ١٩٤٨).

(١٤) مصطفى علي: محاضرات عن معروف الرصافي (١٩٥٤).

(١٥) جورج جبّوري: الكرملي الخالد (١٩٤٧).
(١٦) كوركيس عواد: معجم المؤلفين العراقيين (٣ أجزاء، بغداد ١٩٦٩).
(١٧) كوركيس عواد: الأب أنستاس ماري الكرملي (١٩٦٦).
(١٨) مصطفى جواد: المباحث اللغوية في العراق (١٩٥٥).
(١٩) الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦
(٢٠) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠
(٢١) السيد جعفر الحلي آل كمال الدين: سحر بابل وسجع البلابل (صيدا ١٩١٣).
(٢٢) عبد الغفار الأخرس: الطراز الأنفس في شعر الأخرس (الأستانة ١٨٨٧) نشره أحمد عزت الفاروقي.
(٢٣) عبد الله الجبوري: من شعرائنا المنسيين (بغداد ١٩٦٦).
(٢٤) محمد الهاشمي: سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (بغداد ١٩٥٩).
(٢٥) محمد مهدي البصير: البركان (بغداد ١٩٥٩).
(٢٦) أحمد الصافي النجفي: التيار (دمشق ١٩٤٦).
(٢٧) محمود الحبوبي: شاعر الحياة (النجف ١٩٦٩).
(٢٨) بدر شاكر السيّاب: قيثارة الريح (بغداد الطبعة الثانية ١٩٧١).
(٢٩) محمود العبطة: بدر شاكر السياب والحركة الشعرية الجديدة في العراق (بغداد ١٩٦٥).
(٣٠) حافظ جميل: اللهب المقفّى (بغداد ١٩٦٦) نبض الوجدان (بغداد ١٩٥٧) أحلام الدوالي (بغداد ١٩٧٢).
(٣١) غازي عبد الحميد الكنين: شعراء العراق المعاصرون (جزآن ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨).
(٣٢) محمد رضا الشبيبي: ديوان الشبيبي (القاهرة ١٩٤٠).
(٣٣) محمد مهدي الجواهري: ديوان الجواهري (عدة طبعات).
(٣٤) محمد مهدي الجواهري: أيها الأرق (بغداد ١٩٧١).
(٣٥) محمد مهدي الجواهري: خلجات (بغداد ١٩٧٢).
(٣٦) نعمان ماهر الكنعاني: المعازف (بغداد ١٩٥٠).
(٣٧) نعمان ماهر الكنعاني: الشعر في ركاب الحرب (بغداد ١٩٤٨).

(٣٨) عبد الحسين الأزري : ديوان الحاج عبد الحسين الأزري (بيروت) .

(٣٩) علي الشرقي : عواطف وعواصف (بغداد ١٩٥٣) .

(٤٠) علي الشرقي : ديوان علي الشرقي (بغداد ١٩٧٩) .

(٤١) معروف الرصافي : ديوان الرصافي (القاهرة ١٩٤٩) .

(٤٢) ديوان السيد محمد سعيد الحبوبي (بغداد ١٩٨٠) .

(٤٣) الدكتور محسن غياض : شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي (بغداد ١٩٧٦) .

(٤٤) الدكتور داود سلوم : تطور الفكرة والأسلوب في الأدب العراقي (بغداد ١٩٥٩) .

(٤٥) تذكرة الشعراء لعبد القادر الخطيبي الشهراباني (نشره الأب أنستاس الكرملي ، بغداد ١٩٣٦) .

(٤٦) الدكتور يوسف عز الدين : شعراء العراق في القرن العشرين (بغداد ١٩٦٩) .

(٤٧) يوسف أسعد داغر : مصادر الدراسة الأدبية (٤ أجزء ، بيروت) .

(٤٨) الدكتور شوقي ضيف : الأدب العربي المعاصر : في مصر (القاهرة ١٩٥٧) .

(٤٩) الدكتور جمال الدين الرمادي : من أعلام الأدب المعاصر (القاهرة ١٩٦٠) .

(٥٠) محمود شكري الألوسي : المسك الأذفر (بغداد ١٩٣٠) .

(٥١) مجلة كلية الآداب (العدد ١٨ ١٩٧٤) بغداد ، عدد خاص بأربعينية الدكتور محمد مهدي البصير.

توطئة
الأدب العربي في عصر الانحطاط

عرف العصر الذي تلا سقوط الدولة العباسية في العراق سنة ١٢٥٨م بعصر الانحطاط. فقد خمدت الحركة الأدبية وأصبح الشعر والنثر يتّسمان بالتقليد والإسفاف، وكادت المواضيع تقتصر على المدح والهجاء والرثاء والغزل والمراسلات الإخوانية. كسدت سوق الأدب وزال الإبداع والإشعاع في البلد الذي أنجب الفرزدق وابن المقفّع والأصمعي والجاحظ وبديع الزمان والحريري والفراهيدي وسيبويه وبشار وأبا نواس وأبا العتاهية وأبا تمّام وابن الرومي وابن المعتز والمتنبّي وابن خلكان وصفيّ الدين الحلي وأضرابهم من أساطين البلاغة والبيان والقريض.

ونبغ في عهد الانحطاط شعراء فرس وترك كانوا في طليعة أدباء الدولتين الفارسية والتركية، منهم، من رجال اللغة الفارسية: سلمان ساوجي، وخواجو كرمانو وعبيد زاكاني وحافظ، ومن رجال اللغة التركية: فضولي البغدادي المعروف في تركية بـ «رئيس الشعراء»، وقد توفي سنة ١٥٥٥م، وابنه فضلي، ورضائي وعهدي وشمسي، وحسيني المتصوف المتوفى سنة ١٥٧٧، وروحي المتوفى سنة ١٦٠٥، وغيرهم. ولا يزال الأدب التركماني مزدهراً في كركوك وأنحائها، ومن أعلامه عبد الله صافي المتوفى سنة ١٨٩٨، والشيخ رضا الطالباني المتوفى سنة ١٩١٠ وكان يعدّ أبلغ شعراء الكرد، لكنه كان ينظم باللغات التركية والفارسية والعربية أيضاً. وقد سافر إلى تركية، ومضى إلى القاهرة فعهد إليه بتدريس الفارسية لأنجال الخديوي إسماعيل، على ما قيل.

ولا بدّ من ذكر أحمد هاشم الألوسي البغدادي الأصل (١٨٨٥ ـ ١٩٣٣) الذي يعدّ من أعظم شعراء تركية في العهد الأخير، وقد عرف بشعره الرمزي وشعر الطبيعة والجمال. ومن شعراء التركمان في كركوك وأنحائها محمود هجري ددة (١٨٨١ ـ ١٩٥٢) وخضر لطفي (١٨٨٠ ـ ١٩٥٩) والأديب ناجي الهرمزي (١٨٨٧ ـ ١٩٥٢) ومحمد صادق (١٨٩١ ـ ١٩٦٧) والقاضي أحمد فائز (١٨٤٢ ـ ١٩١٨) صاحب المؤلفات باللغات العربية والتركية والكردية والفارسية.

ولعلّ خير أنموذج للأدب التركي في العراق في أوائل القرن التاسع عشر ما سجله كتاب «تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة المرحوم داود باشا والي

بغداد»، وهـو من تأليف أو ترجمة عبـد القادر الخطيبي الشهـراباني. عني بنشره ا لأب أنستـاس ماري الكـرملي سنة ١٩٣٦ ذكـر هذا الكتـاب تراجم مختصرة لنحـو خمسين شاعراً وكـاتباً عاشوا في عهد الـوالي، وجلّهم إن لم نقل كلهم، من النكرات المحسوبين على الأدب ومن موظفي الـولاية وكتابها. ولم يخلفـوا أثراً سـوى واحد هو رسـول حاوي مؤلف «دوحة الوزراء» في تأريخ ولاة بغداد، وقد توفي سنة ١٨٢٦

أما الأدب الكردي فـانتعش في السليمانية وأنحائها، وكان من أعـلامه العالم الأديب رسول مستي الملقب بشيخ الحكماء (١٨٢٣ ـ ١٩٠٨) والشعـراء محمد المحوي (١٨٣٦ ـ ١٩٠٩) وأمين يُمْني (١٨٤٥ ـ ١٩٢١) وأحمد الملا قادر (١٨٥٤ ـ ١٩١٠) وأمين فيضي (تـوفي ١٩٢٨) وصـالح حريـق (١٨٦٦ ـ ١٩٠٩) وحسن البـامـرني (١٨٦٧ ـ ١٩٣٧) وأحمد مختـار الجاف (١٨٩٦ ـ ١٩٣٣) وعبـد الله كَوران (حلبجـة ١٩٠٤ ١٩٦٢) وفائق بيكاس (١٩٠٥ ـ ١٩٤٨). ولا بـدّ من ذكر الكاتب المربّي رفيق حلمي (١٨٩٨ ـ ١٩٦٠) وحسن فهمي الجاف (١٩٠٥ ـ ١٩٧٣). وأشهر شعراء الكرد على الإطـلاق توفيق بيره مـرد (السليمانية ١٨٦٧ ـ ١٩٥٠). ولا ننسى الـوزيرين العـالمين المؤرخ محمـد أمين زكي (١٨٨٠ ـ ١٩٤٨) والبحـاثـة المحقق تـوفيق وهبي (١٨٩١ ـ ١٩٨٤) مـؤلف القامـوس الكردي الإنكليـزي المطبوع في لنـدن (بالاشتراك مع الميجـر أدموندس).

الأدب العربي في عصر الانحطاط

كان الأدب العربي في عصر الانحطاط مظهراً من مظاهر التقليد والجمود والجفاف. فشت العجمة في الفكر والبيان، وطغت اللهجة العامية، وغلبت التركية لغة الدواوين والطبقة الحاكمـة. على أن النجف بقيت واحـة عربيـة ازدهر فيها الفقـه وعلوم الـدين واللغة والشعر التقليدي. وكان أبرز ممثلي الأدب العربي في ذلك العهد:

(١) الشاعر المدّاح الشيخ كاظم الأزري (١٧٣٠ ـ الكاظمية ١٧٩٦).

(٢) الشيخ صالح التميمي (١٧٦٢ ـ ١٨٤٤) ولـد في الكاظمية ودرس في النجف ومدح بشعره الولاة والأشراف.

(٣) المؤرخ عثمان بن سنـد البصري (١٧٦٦ ـ ١٨٢٧) مؤلف «مطـالع السعـود في طيب أخبار الوالي داود».

(٤) الشاعر المجيـد عبد الباقي العمري (١٧٨٩ ـ ١٨٦١)، موصلي الأصل وكان معاوناً لوالي بغداد.

(٥) مفتي بغـداد عبد الغني جميل (١٧٨٠ ـ ١٨٦٣) من وجهاء عصره وأغنيـائه،

نظم الشعر واشتهر بمطارحاته مع عبد الغفار الأخرس، وقد نشرها المؤرخ عباس العزاوي.

(٦) الشاعر عمر رمضان الهيتي، توفي سنة ١٨٣٦

(٧) المفتي أبو الثناء محمود شهاب الدين الألوسي. (١٨٠٢ ـ ١٨٥٤) صاحب الرحلات والمقامات والتفسير المشهور.

(٨) الشاعر النجفي الشيخ محسن الخضري (١٨١٩ ـ ١٨٨٥) اشتهر بمدائحه للوالي علي رضا باشا.

(٩) العالم الأديب المؤرخ إبراهيم فصيح الحيدري ولد في بغداد (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣).

(١٠) الشاعر الشيخ حمّادي آل نوح الحلّي (نحو ١٨٢٥ ـ ١٩٠٧).

(١١) الشاعر أحمد عزت باشا العمري الفاروقي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٢) ولد في الموصل وعاش في بغداد واستانبول وطبع ديوان الأخرس في العاصمة التركية سنة ١٨٨٧

(١٢) الشاعر العاشق الشيخ عباس علي النجفي (١٨٢٨ ـ ١٨٥٨)، وهو صاحب القصيدة المشهورة:

عديني وامطلي وعدي، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

(١٣) الشاعر أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ـ ١٨٩٩).

(١٤) الشاعر السيد حيدر بن سليمان الحلّي (١٨٣٠ ـ ١٨٨٧) مؤلف «العقد المفصّل» في مدائح آل كبّة. وقد اشتهر بمراثيه الحسينية الشجيّة.

(١٥) نعمان خير الدين الألوسي (١٨٣٦ ـ ١٨٩٩) وكان عالماً لغوياً أديباً.

(١٦) الشيخ جعفر الشرقي (١٨٤٤ ـ ١٨٩٢) الشاعر الفقيه، والد الشاعر الشهير علي الشرقي.

(١٧) السيد جعفر الحلي من آل كمال الدين (١٨٦١ ـ ١٨٩٧) نشر ديوان شعره بعنوان «سحر بابل وسجع البلابل» وطبع في صيدا.

وقد غالى الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه «نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر» في تقييم أدب ذلك العهد، فقال: «إن أدبنا . يمثل كل لون من ألوان الأدب العربي القديم وكلّ فن من فنونه . .» وقال: إنه يمثّل حياتنا الاجتماعية والسياسية والدينية. وبالغ في نعت الشعراء، فهذا خليفة أبي نواس والآخر خليفة أبي العتاهية وذاك صنو ابن الفارض وقرين أبي تمّام، وهلمّ جرا.

كان الشعر بضاعة كاسدة لا تكاد تحظى بشيء من التقدير المادّي أو الأدبي. والمديح والرثاء زاخران بالمبالغات الصارخة، فكأن كل ممدوح نابغة عصره وسيّد مصره، وكل مرثيّ فاق الثقلين وغادر الأرض قفراً يباباً:

فالموت نقّاد على كفّه جواهر يختار منها الجياد!

ونرى السيد جعفر الحلي يرثي القتيل ويهنىء القاتل في نفس واحد، يرثي الشيخ مزعل ويهنىء أخاه خزعل خان الذي اغتاله وحلّ محله على دست إمارة عربستان. ثم نراه يمدح قاطع الطريق من عشيرة شمر فيصفه بالليث الذي أوكل رزقه ببراثنه!.

وخلاصة القول: إن شعر عصر الانحطاط يكاد يخلو من المعاني والأفكار الأصيلة والبوارق الصوفية واللمعات الذهنية واللمحات الوجدانية. وإذا كان يمتاز بسلامة اللغة والبلاغة في أحايين كثيرة، فإنه يتّسم بالجمود والتقليد والصرامة وضحل الخيال.

وقد ترجمت لشاعرين يمثلان عصر الانحطاط الأخير أحدهما بغدادي (عبد الغفار الأخرس) والآخر نجفي (إبراهيم الطباطبائي).

عصر النهضة

أطلّ فجر النهضة الأدبية في مطلع المائة العشرين، وكان في الطليعة من روّاده الشاعران جميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي، ثم تبعهما عند إعلان الدستور التركي محمد رضا الشبيبي وأخوه محمد باقر وعلي الشرقي وخيري الهنداوي وكاظم الدجيلي ومحمود الملاح.

ونبغ من الكتّاب والعلماء محمود شكري الألوسي والأب أنستاس ماري الكرملي وفهمي المدرس ومحمد حسين كاشف الغطاء. ونشأت الصحافة سنة ١٩٠٨ مع إعلان الحرية، فبرز فيها عبد اللطيف ثنيّان وداود صليوا وإبراهيم صالح شكر وإبراهيم حلمي العمر، ثم رزوق غنام وعبد الغفور البدري ورفائيل بطّي وتوفيق السمعاني وسليم حسّون.

ويمكن القول: إن الأمة العربية «أمّة الشعر». فقد كان للشعر منذ الجاهلية المقام البارز والأثر البليغ في الحياة الاجتماعية والسياسية والنهضة العلمية والأدبية. وكان الشعر يقوم مقام المقالات الافتتاحية قبل أن توجد الصحافة مع مزيّة أخرى له هي سهولة الحفظ والنقل والتداول والخلود.

وقد قلت في البحث الذي قدمته بعنوان «دور الأديب العربي في بناء المجتمع العربي العصري» إلى مؤتمر الأدباء العرب السابع المعقود في بغداد في نيسان ١٩٦٩ «يضطلع الأديب بتبعة جسيمة في بناء مجتمعه والمجتمع العالمي. فالأديب الحق يحمل مشعل التقدم والنهوض لينير السبيل لأبناء أمته ووطنه. ولئن كان ذلك صحيحاً مذ وجد الأدب ووجدت رسالة الأديب، لقد أصبحت هذه الحقيقة أشدّ خطراً وأبلغ أثراً في المجتمع العربي الحديث الذي يمرّ، من الجهة الواحدة، بطور انتقال، طور امتدّ منذ

حقبة طويلـة ولا يزال جارياً بدرجـة متفاوتة وتفاعل ملحوظ في مختلف أقطـار العروبة لأجل إزالة آثـار التخلف واللحاق بموكـب الأمم العالمة العاملـة، ويخوض، من الجهة الأخرى، معركة ضارية فرضتها عليه قوى الاستعمار والرجعية. . ».

وقلت إن الأدب العربي قام في العصور الماضية بدوره في بناء المجتمع وتوطيد أركانه، وكان من أقـوى عناصر القوة والتماسك التـي تربط بين أبناء الشعب العـربي في أقطاره المنبسطة شرقاً وغرباً. وقد رأينـا الشعراء والأدباء في العراق والوطن العربي أجمع في عصر النهضة الحديثة يلهبون مشاعر الأمـة وينيرون لها طريق الحرية والاستقلال ويدعونها إلى اليقظة والانطلاق.

قامـت معارك اجتماعيـة ووطنية وسيـاسية خـاض غمارها الأدب وكـان النصر فيها حليف قـوى التقدم والعـرفان. وحسبنـا أن نـذكر مثـالاً معركـة تحرير المرأة والسفـور والحجاب التي احتدمت بين الأنصار والمعارضين. وقـد تعرّض الزهاوي للمحنة لمقال كتبـه في الـدفـاع عن المرأة فبقـي حبيس داره أيــامـاً خـوفـاً من سخط الجماهير، حتى ليخاطب زوجه قائلاً:

أبثينَ، إن أدنـى العــــــــدوّ حمامـي	بمســـدس يـــذكيـــه أو بحســـام
فتجلـــدي عنـــد الـــرزيّـــة واحسبي	أني اجتمعـت إليـك في الأحـــــــلام

وقال الرصافي:

لقـــد غمطـــوا حق النســـاء فشـــدّدوا	عليهـنّ في حبس وطـــــول ثـــــواء
وقـــد ألـــزمـــوهن الحجـاب وأنكـــروا	عليهـنّ إلاّ خـــــرجـــــة بغطـــــاء

ودعا شعراء النهضة إلى العلم والحرية. واتخذ كتّاب الرواية والقصة والمسرحية آثارهم أداة لرسالة الثقافة والاستقلال. ثم تشعبـت نواحي الأدب في مناهجه وأهدافه، وظهر الشعر المنثور والحرّ ومذهب الرمزيـة والسّوريالية، واتّسع مجال الأثر الأدبي بنشوء البثّ الإذاعي والتلفزيوني ونقل الشعر والنثر العربي إلى اللغات الأخرى بعد أن مرّ دور الترجمة والتعريب.

وأرجو أن تكون الصفحـات التالية سجلاً لتعريف الشعراء والأدبـاء وبيان أثرهم في النهضة الحديثة، وذلك قصارى الجهد وغاية القصد والمرام.

لندن، شباط ١٩٩٤

مير بصري

القصص الشعري

أولع شعراء الشباب في مطلع القرن العشرين بالقصص الشعري، وكانت قصصهم في الغالب ساذجة شجيّة تنتهي بالفواجع، وكأنّ الدهر مأساة لا تبقي على غنيّ ولا متنعّم. ولعلّ أولئك الشعراء قد تأثروا بمصطفى لطفي المنفلوطي، الأديب المصريّ الأنيق الذي كان له تأثير عظيم في النصف الأول من القرن في طول الأقطار العربية وعرضها.

حدثني عبّاس العزاوي أن الكتب والمجلات كانت ممنوعة في عهد الاستبداد الحميدي، ولم يسمح بورودها إلا بعد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ و إطلاق حرية المطبوعات. أخذت المجلات والصحف المصرية كالمقتطف والهلال والمقتبس والزهور وغيرها ترد إلى بغداد فيتلقفها الشباب المتعلم ويطالعها بشغف ولهفة.

قال العزاوي: كنّا ننتظر وصول المجلات والكتب بنافد الصبر، فإذا تأخّر البريد مررنا بالمكتبات في سوق السراي كلّ يوم، بل كل ساعة، نسأل عنها ونستفسر عن أسباب التأخير. وكانت مقالات المنفلوطي التي تنشرها جريدة المؤيد تحظى باهتمامنا قبل غيرها، ولا سيما النظرات والعبرات والروايات المترجمة التي نشرت بعد ذلك كتباً مستقلة. فإذا وردت المؤيد أقبلنا على مطالعة مقالات المنفلوطي في المكتبة أو الطريق، ولم نصبر عن قراءتها حتى الوصول إلى الدار!

وللمنفلوطي نفسه قصص شعرية، منها منظومة «بين أسماء وعبد الله». تلك قصة أسماء بنت الصديق وولدها عبد الله بن الزبير الذي طلب لنفسه الخلافة فحاصره الحجاج بمكة وعرض عليه التسليم. لكن أمه أشارت عليه بالمضيّ في القتال حتى الموت:

إنّ أسماء في الورى خير أنثى ... صنعت في الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يسحب درعاً ... تحت درع منسوجة من نجيع
قال: يا أمّ، قد عييت بأمري ... بين أسر مُرٍّ وقتل فظيع
خانني الصحب والزمان، فما لي ... صاحب غير سيفيَ المطبوع
وأرى نجميَ الذي لاح قبلاً ... غاب عنّي ولم يعد لطلوع

بــذل القــوم لي الأمــان، فما لي غيره إن قبلتــه من شفيـع
فأجــابت، والجفن قفــر كأن لم يكُ من قبلُ مــوطنــاً للـدمـوع:
لا تسلّـم إلاّ الحيــاة وإلاّ هيكــلاً شـأنــه وشـأن الجذوع
إنّ مــوتــاً في ســاحــة الحرب خير لـك من عيـش ذلّــة وخضــوع

وختم الشاعر قصيدته قائلاً:

وأتـى أمّــه النّعيُّ فجــادت بعــد لأيٍ بــدمعهــا الممنــوع

ونظم المنفلـوطي أيضـاً رواية بـولس وفـرجيني لبرنـاردان دي سان بيير، وهي قصـة الطبيعة الساذجة والطفولة البريئة، ومطلعها:

يــا بني الفقــر، ســلامــاً عــاطــراً من بنـي الــدّنيــا عليكم وثنــاء

نشأ الطفلان في جـزيرة نـائية، وتمتّعـا بمشرق الشمس ومغيبها، ولعبـا معاً في ظل الأشجار الوارفـة وعلى ضفاف الجداول الرقراقـة. وقد تبادلا الحبّ وعزمـا على الزواج، لكن الفتـاة مضت إلى فرنسـة للمطـالبة بإرث لها فلم تحصل على المال. ولما عـادت إلى جزيرتها حيث ينتظرها الحبيب هاج البحر وماج، فغرقت السفينة وجرفت المياه العروس العائدة جثة لا حياة فيها ألقتها على الساحل.

كان جميل صدقي الـزهاوي من مبتدعي القصص الشعري، وقـد نظم عدة قصائد في هـذا البـاب، منها: أرملـة الجنـدي، سليمى ودجلـة، طـاغية بغـداد، الغـريب المحتضر، على قبر ابنتها، أسماء، مقتل ليلى والربيع، سعـاد بعد زواجها، ليلى وسمير، إلخ.

فأسماء فتاة تهوى أحد الشبـان، لكنّ أهلها يزفّونها إلى شيخ فانٍ له ثـلاث نساء فلا تجد مخرجاً من مأساتها إلا بتناول السمّ والموت في ميعة الصبا.

وأرملة الجندي يعضها الفقر بنابه بعد وفـاة قرينها فتصاب بالسلّ ولا تنال الكفاف من القوت مع طفلها لضآلة راتب التقاعد الذي يصرف لها.

ويقف الرصافي بين شعراء الشباب في العراق على قمة عالية لا تصل إليها الأبصار. إن منظوماته القصصيـة قصائد رائعة تجمع جمال الشكل إلى سموّ المعنى ولطف الأداء. إننـا نقـرأ «المطلقة» و «أمّ اليتيم» و «الفقـر والسّقـام» و «اليتيم في العيـد»، فنحلّق مع الشاعر في عالم روحانيّ من الرحمة والمحبّة وتخفق قلوبنا بالعواطف الإنسانية الرفيعة.

هذه المرأة تئنّ في سكون الليل، وقد لفّها الظلام والـوحشة والفقر بدثار قاس أليم، وإلى جنبها طفل جـائع ينتظر رجـوع أبيه الذي قتـل في مذبحة همجيـة. وهذه الـزوجة المخلصة المحبوبة يطلّقها زوجها لزلّـة لسانية بدرت منه يحيلها جمود المجتمع وجهله إلى مأساة لا مخرج منها.

وهذا الصبيّ اليتيم البائس، صبيح الوجه، شاحب اللون، يخرج في صباح العيد ملتفعاً بأسماله البالية فيزيد من أساه وحرمانه ضجيج الناس وفرحهم ولعب الصبيان الذين يرتدون الملابس الزاهية ويمضغون السكر والحلوى ويضحكون ويمرحون في فيض من السعادة والهناء.

أما موشّح الفقر والسّقام فهو أنّة المضنى الكئيب ترتفع في الظلام يطلقها الفقير المريض الذي لا يجد طبّاً لعلّته ولا نفقة لأسرته. بشير الكادح الذي كان يسعى طول النهار ليكسب قوتاً زهيداً وليعيل أخته العانس أقعده المرض عن العمل:

إنّ سقماً بـــــه وعقماً ألمّا تركاه يذوب يوماً فيوما
فهو حيناً يشكو إلى السّقم عُدْما وهو يشكو حيناً إلى العُدْم سقماً

باكياً من كليهما بانتحاب

وفي ليلة زمجرت العاصفة واكفهرّ أديم السماء والتمع البرق ودوّى هزيم الرعد، قضى بشير نحبه. ولم تلبث أخته أن تبعته إلى رحاب الموت، منطلقة من قبضة الحياة القاسية الشديدة.

لقد أبدع الرصافي الشاعر في تصوير قسوة الطبيعة وثورة عناصرها الهوج وسخرية القدر، وتجسيم الموت الذي ينشب مخالبه كالوحش الضاري في بني الفقر على الفراش البالي وفي ضياء السراج الضعيف. وبرع في الإفصاح عن رزايا الفقر وأوصاب المرض وسعار الجوع، ووصف عبرات الأرامل والأيتام وأنين المكلومين الذي يقطع الأحشاء بسيف مثلّم ويهزّ نياط القلب، والليل ساج حالك السواد، وكأنّ نجومه تصيخ إلى الزفرات المجمجمة. وبرع في تصوير البيت الخاوي المتهدّم الذي ينوء بأثقال البؤس، والجسم الهزيل الشاحب الذي يهدّه الجوع والسقام، والطفولة التي تشكو ضراوة الدهر قبل أن يتفتّح ذهنها لحقيقة الوجود، تغذيها أمها بالدموع إذا أعوز الخبز. والجمال الذي يذوي من الوجد في عنفوان الشباب، وذلّ مجتمع البؤس وتضامنه وتعاطفه وتبادله العون والحنان والنزر مما يمتلكه من حطام الأرض، وشموخ مجتمع الغنى والبذخ وعدم مبالاته واستهانته بالدموع والدماء، أليس كلّ ذلك وكثير غير ذلك قد عبّر عنه شاعرنا ألطف تعبير، ينفذ إلى مكامن النفس البشرية ويثير فيها أسمى العواصف والعواصف؟ وهل عجب أن يرسم الرصافي صورة حية للحزن، وهو القائل:

أنا للحزن دائماً ذو انتساب؟

إنّ الرصافي يروي قصص الأسى والألم والموت بصيغة المتكلّم، فهو قد رآها وسمعها وعاشها، أصغى إلى أنين الملهوفين وسأل عمّا أصابهم وخفف من آلامهم وودعهم يوم مماتهم الوداع الأخير وسكب على قبورهم دمعة حرّى صادقة هامعة من جفن قريح.

وقد كان إبراهيم صالح شكر، وهو الأديب الذوّاقة، معجباً باستعارات الرصافي

وتشبيهاته يعدّها من الروائع. استشهد بقوله في «أمّ اليتيم»:

أرى فحمة الظلماء عند أنينها ... فأعجب منها كيف لم تتضرّمِ

فقال ـ على ما أذكر ـ إن شاعرنا قد شبّه الأنين ضمناً بالنار فعجب كيف لم تضطرم فحمة الظلماء.

ومن تشبيهاته الأخرى في نفس القصيدة خفوق أنين الأرملة في قلبه كرنّة الدرهم في قلب الفقير المترب. ثم شبّه تقطّع أحشائه بضربة سيف مثلّم، ولا يخفى ما تسببه ثلمات حدّ السيف من الألم عند تمزيقها الأعصاب. ثم انظر إلى الأحزان التي هاجت فاغرة الفم، وإلى الدار التي هوى بها زلزال الخطوب إلى حضيض الشقاء، وإلى العين التي سال دمعها بكاءً ونظرتها تبتسم، وهلمّ جرا.

إنّ خيري الهنداوي صديق الرصافي وعشيره لا يرقى مرقاة صاحبه، لكنه مع ذلك يحسن نسج القصة الشعرية وحبك وقائعها. ففي قصيدته «فتاة سلانيك» يروي حديث حبيبين عاشا زماناً في بلهنية الصّبا وصفاء السلم والوداد، حتى نشبت الحرب. ومضى الفتى إلى ساحة الوغى فقتل وأسرت الفتاة الحزينة.

وقصيدته «زينب وخالد» أو «فتاة بغداد وفتاها» ملحمة المآسي والأحزان. ومن زينب؟ ـ هي فتاة عربية نشأت في أحضان الفضيلة والعزّ والدلال:

فجاءت كغصن البان يورق ناضراً ... وكالشمس إلاّ أنها ليس تغرب

خرجت ذات يوم مع صديقاتها في نزهة، فالتقت بفتاها جالساً في ظلّ دوحة. وقعت عينه عليها:

فجنّ بها حباً، ولم يدر قبلها ... بأن الهوى يأتي الفتى وهو يلعب

ورأته هي أيضاً فهامت به حباً:

مضت ومضى للحيّ، كلٌّ مولّه ... بصاحبه يدعو الرشاد فيعزب

ومرض خالد وقد تيّمه الحبّ،

ينوح كما ناح الحمام صبابة ... ويشهق من فرط الغرام وينحب

وعرفت أمه بالسرّ الذي يطوي عليه جوانحه، فخطبت له الحبيبة وهيّئت أسباب الزواج. غير أنّ القدر يقف للمحبّ السعيد بالمرصاد، فقد جاء جند جنكيز واقتادوا خالداً وزجّوه في السجن، ثم ساقوه إلى سيواس. وماذا كانت جنايته؟

لقد كان صبّاً بالعراق وأهله ... يثور إذا سيموا الهوان ويشغب
يدافع عن أحسابهم وحقوقهم ... ويطعن في صدر العدوّ ويضرب
وهل ريبة أن ذبّ عن مجد قومه ... فتى عن بنيّات العلى لا ينكب؟

أعــدلاً يــرى الأقــوام حبس ابن حــرّة　　يغــــار على مجد العـــــراق ويغضــب؟
إذا كـــان في حب الـــديـــار جـريـــرة　　فكلّ فتـى فـــوق البسيطـــة مـــذنب!

وبعد أعوام قضـاها في المنفى البعيد، عاد بطل قصّتنـا فوجد أمه قـد ماتت. وأمدّه صديق وفيّ بالنّقود فاقترن أخيراً بحبيبته زينب. لكنه عاد إلى العمل السياسي لتخليص بلاده من ربقـة الاحتلال، فقبض عليـه، وهو في غمـرة أفراح ختـان طفله، وسيق إلى المعتقل النائي مكبلاً بالحديد. وابتلي بالسلّ فقضى نحبه بعيداً عن أهله وأصحابه.

إيه، أيها الشاعر. لقـد أحكمت حلقات المأساة، وأعرت الأيام مخلبـاً ونابـاً فلا تهدأ حتى تنشب أظفارهـا بالأرملة واليتيـم وتختم الفاجعة بـلا رحمة ولا تلكّؤ. وتخاطب الأم طفلها وهي تشعر بدنو الأجل:

بنـيّ، إذا مـــــا مـتّ مَن لـك راحـم　　ومــن بــك يعنـى أم لأجلـك يتعــب؟
بنـيّ، يتيماً أنت بعـــــدي مسيّـــــباً　　تعيش كما عـــــاش اليتيـم المسيّـب
بنيّ، لقــد هــان الــردى بعـد خــالـد　　ولكنـــــــه في يتـم نفسـك يصعـب

وجاءت جـاراتها في الصباح فـوجدنها ميّتة وطفلهـا يعول باكيـاً. وشغلوا بـدفنها، فسهوا عن الطفل الذي خرج من الدار يسير على غير هدى حتى غرق في دجلة.

وهذا كـاظم الدجيلي وقصيدته «بـوليس بغداد»، فهل نستطيع أن ننعتها بـالقصة؟ إنها إلى الحكاية أقرب وبالسّرد أوثق نسباً.

يستهلّ الدجيلي قصيدته بـوصف مجلس شراب، فيصف الخمرة التي تميت الأحزان والخلاّن الذين اختلسوا لحظـات من السعادة والصفاء. وإذا بالشرطـة تداهمهم وتلقي بهم في غيـابة السجن. وهنـاك يلتقي الشاعـر بأبناء البـؤس الذين أنـاخ عليهم الظلم بكلكله: الفتاة المعسرة التي لم يخنها ضميرها، والمرأة البـاكية التي ترضع طفلها في ذلك المكان الموحش، ولكل منهما قصة عذاب وشقاء.

ومن قصص كـاظم الدجيلي الشعـري قصيدتـه «مريم وحسّـان» وهي تروي قصـة «رومية مـن غيد بغدان» (أي بغـداد) زارته قبيل الفجـر ترفل في حلـة لا كمّ لها ولا ردن وتتهادى في سيرها غنجاً. لكن عصابة شريرة اختطفتها. وجاءها جندي تركي فاتهمها بالخلاعـة، لكن رجلاً شهماً استطاع إنقـاذها. غير أن الجنـود قبضوا عليه وسـاقوه إلى القـاضي الـذي أمـر بحبسـه، وقضى الفتى نحبـه في السجن. ورأت مـريم جنـازتـه فصعقت وسقطت ميتة هي الأخرى!

وهي قصة متهافتة نظماً ومعنىً وسياقاً؛ ولا شك أنه نظمها في مستهلّ شبابه.

ويلقي إبراهيم منيب الباجه جي دلوه بين الدلاء، فينظم قصيدته «إقبال وإدبار».

فتـــاة مـن الأعــــراب هيفـــاء مُعْصِرُ　　يقـــال لها في ســـالف الـــدهــر مَنْــوَرُ

ولعلّه استعار كلمة «معصر» من عمر بن أبي ربيعة فأساء فهم معناها، فالمعصر هي التي تقدم بها العمر وليست الغيداء الشابة.

وصف حسنها وحياءها وسحر عينيها وتورّد خديها ولين عطفيها وشقرة شعرها. نشأت في قصر منيف وترعرعت في بحبوحة العزّ في ظل أب نبيل حكيم. وأتى ظالم شرير من الغرب يريد خطف الفتاة، فقتل أباها بخنجره وفرّ هارباً واستغرقت منور في جزعها وحزنها، فوضعت نهاية لحياتها بأن رمت نفسها من سطح الدار. ثم تبعتها أمها إذ ألقت بنفسها في بئر عند قبر ابنتها!

أما عبد الرحمٰن البناء فروى في «فتاة العرب» قصة رمزية تشير إلى اعتداء الدول الغربية على السلطنة العثمانية الهرمة وتكالبها على تمزيق أشلائها.

قال البناء:

قضت حقبة في عالم الشرق زينبُ	لها المجد أمّ والفخار لها أب

عاشت زينب في صفاء ونعمة تجرّ ذيول الدلال وتمرح في روضة الشباب. تاهت يوماً في الصحراء، فلم تشعر إلا والليل قد أسبل على الكون رواقه الحالك. وأجالت طرفها في حيرة ووجوم، فرأت شبحاً قادماً خالته في بادىء الأمر صديقاً، ولما اقترب منها وجدته شيخاً أجرب من الغرب، دميم الخلقة، أحدب الظهر، أشعث الشعر. هددها بمديته فلم تغنِ عنها ضراعتها، وسلبها ملابسها وحليها. ولما طلع الصبح عادت إلى أهلها، وكانوا في أسى وقلق على مصيرها، فنادت أمها بالويل والثبور، وأهابت بالقوم إلى الثأر لابنتها:

أراكم حيارى ليس فيكم حميّة	على طفلة من أمة الشرق تسلب
فقدتم بهذا الجبن كلّ مزيّة	وعام بكم في لجّة الذلّ مركب
ألا فانهضوا واسعوا وجدّوا وسارعوا	وكرّوا على دفع الأذى وتقرّبوا
حناناً حناناً، أيّها الأمّة التي	لها عند أخذ الثأر عزم مجرّب
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهم	لهم هيبة منها المقادير ترهب؟
ألستم بني الشرق الذي قيل عنهُمُ:	إذا غاب منهم كوكب لاح كوكب؟

وفي منظومة أخرى يروي عبد الرحمٰن البنّاء قصة لبنى الفتاة الجميلة التي درجت في حجر أمّها الحنون. وقد ماتت الأم، واقترن الأب بامرأة شرسة خبيثة كرهت لبنى وسامتها الذلّ والعذاب، ثم لم تتورّع أن خنقتها في حندس الليل!

وماذا فعل الأب؟ لام زوجته،

ثم نادى عليّ بالنعش حتى	ندفن الميت في المقابر دفنا
فأتوه بالنعش سرّاً، وفيه	ليس يدري أقصى الأنام وأدنى

وضعــوهـــا بـــالنعش مـن غير غسلٍ ثـم ســــــاروا بها مسير الهوينـــــــا
ثمّ آبـــوا بجمعهم بعـــدمــــا قــدْ تــركــوهــا في ظلمـــة اللحـــد وَسْنَى
ثم قـــالـــوا من مكـرهـم حين عـادوا: ربٌ إنّـــا إليك نــــرجـع، إنّـــا

وهي كما نرى قصة متهافتة متفكّكـة العرى، سقيمة اللفظ والسياق والمعنى، لكنّها تهوّل صورة اجتماعيـة فظّة من صـور المجتمع العراقي في العصـور المظلمة، وتـدعو إلى التأمل والاعتبار والإصلاح.

ولا بـدّ لنـا بعد ذلك أن نـذكـر قصيـدة الفتـاة المخدوعـة والشرطي الأثيم لمحمـد الهاشمي. لقد أحبَّ صالح الشرطي فتاة طاهرة الذيل، جميلة القسمات (شأن القصص الرائجة في ذلك العهـد). وشجعته أمّها العجوز الماكرة، لكن الفتـاة أوجست منه ريبة وأحسّت أنه يريد اللهو بها لا الزواج منها. قالت الأم:

واضيعتي بعــد عمـر قــد وقعت بــه على تجاريـب إدبـــــار وإقبــــــال
دعي، ابنتي، هــذه الأفكــار واتّئــدي فـإنّ غشّك لم يخطــــــر على بـــــالي
وهـل سمعـت بـأم تخدع ابنتهـــــــا كيما تبيـت على حـــــزن وبلبــــال؟
مــــاذا يـــريبك منـــه؟ إنــه لفتى مـــؤدب النفس لا جــافٍ ولا ســـالِ
زيـن الشمائل يسبي القلب منظــــره يحدّث العين عـن فضـل وإجــــلال
لــو لم يحبّك حبّ الصـدق كـان لــه عــذر بهجـرك هجـر المعـرض القـالي

ولما قضى الأثيم منها وطراً لم يكتفِ بهجرها، بل أخبر بأنها بنت مريبة فأخذت قسراً إلى المباءة العـامة. وشاء الشـاعر بعد ذلك أن يحبـك المأساة من جميع أطرافهـا، فابتلى الفتاة المسكينة بالسلّ وسرعان ما أدركها الموت.

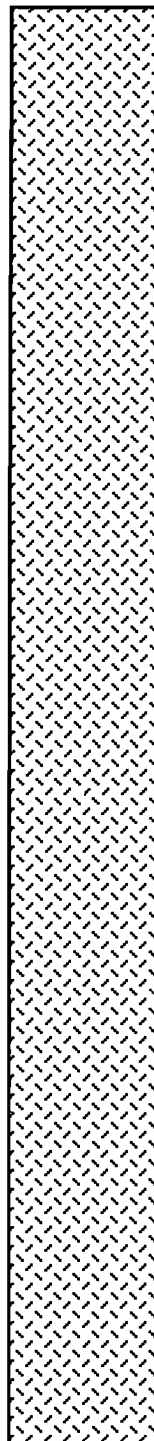
إنّ القـاسم المشترك بين شعراء النهضـة الأدبيـة الحديثـة كان، ولا ريـب، الشعـور الإنســاني والعطف على مجتمع البـائسين. عبّر عن ذلـك الـرصـافي، وعبّر عن ذلك الزهاوي الذي قال:

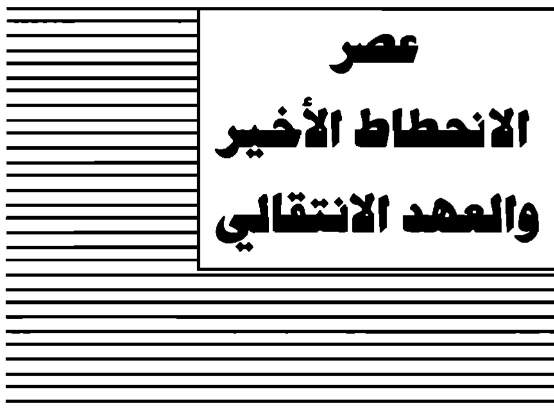
يــا شعــر أنت، إذا وصفتك مــوجـزاً شكـــوى الكظيم ونفثـــة المصـــدور

وعبّر عن ذلك محمد الهاشمي إذ قال:

سـألقي نظــــرة ملئت حنــــانـــاً على البـــؤســـاء مـن طَـرْفٍ خَشُـــوع
يعيـش الأغنيــــــاء على رخـــــاءٍ ونحـن نعيش في بـــــؤس وجـــــوع
تنـــام عيـــونهم بـــالليل، لكـن عيـــون البـــائسين بـــلا هجـــوع

ولقد اضطلع الشعر العربي في عصر النهضة برسالة سامية لحفز الهمم وطلب العلم والإصلاح وتحريـر المرأة واستقلال الوطن. ولا ريب أن القصـص المنظومة كـانت جزءاً هادفاً من شعر النهضة الاجتماعية في مطلع القرن العشرين.





عصر
الانحطاط الأخير
والعهد الانتقالي

عبد الغفـار الأخـرس

ولـد في الموصل وعاش في بغـداد وتـوفي في البصرة، وكـان همزة الوصل بين القـرنين التاسع عشر والعشرين. فلقـد اتصل بداود باشا آخر ولاة المماليك الذي عزل ونفي في سنة ١٨٣١ ومدح السيـد عبد الرحمٰن النقيب الـذي ولي رئاسة الحكومة الـوقتية في سنة ١٩٢٠ وتوفي سنة ١٩٢٧

ذلكم السيـد عبد الغفـار عبد الـواحد وهب المعـروف بالأخـرس لحبسة كـانت في لسانه، ولعله كان أنبه شعراء بغـداد ذكراً وأبعدهم صيتاً في عصر الانحطاط. وقد ردّد ذكر عقلة لسانـه في شعره فقال من قصيدة يمدح أبا الهدى الصيـادي الرفاعي حين زار بغداد سنة ١٨٦٧، وقد اشتهر بعد ذلك بصلته الوثقى بالسلطان عبد الحميد الثاني:

فهـو عـن مـدح سـواكـم أخـرس وبكـم أفصح حـزب الشعـرا

وقال يمدح المفتي أبا الثناء السيد محمود شهاب الدين الألوسي:

وقـد أخـرستني من عـلاك فصـاحـة ألست تـراني أخـرس النطق أبكما؟

وقال:

هـذا لسـاني يعـوقـه ثقـل وذاك عنـدي من أعظـم النـوب
فلـو تسببت في معـالجتي لنلـت أجـراً بـذلك السبب

ولـد الأخرس في الموصـل في نحو سنـة ١٨٠٥ وقـدم بغداد شـابـاً ولم يلبث أن ولج محافلها الأدبية واتصل بالوالي داود باشـا الذي كان يعطف على العلماء والأدباء. وديوان الأخرس الذي جمعـه أحمد عزت باشا الفـاروقي وطبعه في الأستانة سنـة ١٨٨٧ قد ضمّ مقطوعتين للشـاعر قالها في عهد هـذا الوالي، أولاهما بيتان قالهما «حينما حبسـه المرحوم داود باشا من جهة مـا زوّره عن عبد الرحمن باشا والي الموصل وكان ذلـك سبباً لاتصاله به»:

أقـول للشـامت لما بـدا يكثـر بـالتعنيف والشين
أليـس يكفينـي فخـاراً وقـد أصبحـت في قيـد وزيـرين؟

ولا نعلم شيئاً عمّا زوره الأخرس عن والي الموصل فكان سبباً لسجنه في بغداد واتصاله بواليها . أما المقطوعة الثانية فقصتها أنه كان واقفاً بين يدي داود باشا فأعطاه عريضة وأمره بأن يتلوها ويلخصها فارتجل البيتين الآتيين :

فديتك لا ترجو لنطقي تكلما ... فإن يراعي عن لساني يترجم
غرقت ببحر من نوالك سيدي ... فكيف غريق عائم يتكلم؟

ويروي جامع الديوان في ترجمته للشاعر أن داود باشا أرسله في صباه إلى بعض بلاد الهند ليصلحوا لسانه ، فقال له الطبيب : أنا أعالج لسانك بدواء فإما أن ينطلق وإما أن تموت ، فقال : لا أبيع كلي ببعضي وقفل راجعاً إلى بغداد . ولا ندري مبلغ صحة هذه الرواية ، فظاهرها يدل على الصناعة والتنميق . ولم يكن مألوفاً إرسال المرضى للعلاج في خارج البلاد ، وكانت صلة الوالي داود باشا في آخر عهده غير طيبة بالمقيم البريطاني في بغداد وبحكومة الهند . وديوان الأخرس على كل حال خال من أية قصيدة في مدح داود باشا في إبّان ولايته ، لكن الشاعر مدحه بقصيدة طويلة بعد عزله أنفذها إليه إلى الأستانة ، ومطلعها :

بوادي الغضا للمالكية أربع ... سقتها الحيا منّا جفون وأدمع

ويقول منها :

فهل أنت مثلي قد أضرّ بك الهوى ... وهل لك قلب لا أبا لك موجع؟
لئن نشرت طي الغرام الذي لها ... فقد طويت مني على الوجد أضلع

ومنها :

أراني مقيماً بالعراق على ظما ... ولا منهل للظامئين ومرتع
وكيف بورد الماء والماء آجن ... يبلّ به هذا الغليل وينقع؟
لعلّ وما يجدي لعلّ وربما ... غمائم غمّ أطبقت تتقشع
يعود زمان مرّ حلو مذاقه ... وشمل أحبّائي كما كان يجمع
فقد كنت لا أعطي الحوادث مقودي ... وإني لريب الدهر لا أتوجع
كأني صفاة زادها الدهر قسوة ... من الصمّ لا تبلى ولا تتصدع
فسالمت حرب النائبات فلم تزل ... تقود زمامي حيث شاءت فأتبع
وكنت إذا طاشت[1] سهام قسيّها ... وقتني الردى من صنع (داود) أدرع

ثم يذكر جود الوزير وفضله وبأسه ويقول :

أبا حسن ، هل أوبة بعد غيبة ... فللبدر في الدنيا مغيب ومطلع
لئن خليت منك البلاد التي خلت ... فلم يخل من ذكرى جميلك موضع
ففي كل أرض من أياديك ديمة ... وروض إذا ما أجدب الناس ممرع

---

(١) لعل الكلمة «راشت» فهي أدل على المعنى .

وهـو لا يفتأ يذكـر داود باشـا في شعره بعـد أعـوام طويلـة ، فإذا مدح السيـد علي النقيب قال :

فبـــورك مـن لا زال يـــورثني الغنـى وذكــــرني أيـــام داود ذي الأيــــدي

وإذا ذكر ابتلاءه بحرفة الأدب قال :

وليس لي حـــرفـــة ســـوى أدب جـم ونظـم القـــــريـض والخطـب
مـن بعـــد داود لا حـــرمت منـى فقـــد مضـت دولــــة الأدب

لقد مضت دولـة الوزيـر داود باشـا لكن دولة الأدب لم تمض ، فقـد وجد الشـاعر الأخـرس من بعده حماة ورعـاة كالسيـد محمـود نقيب الأشراف والمفتي أبي الثناء محمـود شهاب الـدين الألوسي ومحمد أمين الـواعظ والشاعـر عبد الباقي العمـري والسيد علي النقيب وولديـه سليمان وعبد الرحمن وعبد الغني الجميل وابنـه محمّد وغيرهم من أشراف بغـداد وعلمائها الـذين حبـوه بعطفهم وجودهم واتخذوه نـديماً وزينة لـدواوينهم . ومن الغرابة أن صلة الشاعر قد قطعت بالموصل مسقط رأسه أو كادت ، فديوانه الضخم لا يحوي سوى قصيدة واحدة يمدح بها رئيس علماء الموصل عبد الله الفاروقي . لكنه وجد بـديلاً طيبـاً في البصرة التي زارها غير مـرة ومدح أشرافهـا ونقباءهـا واستمتع برفـدهم وودهم .

كـان الأخرس لطيفـاً ظـريفـاً يضفي مع رفيقه عبـد الله الخيـاط (المتـوفى نحو سنـة ١٨٩٠) على مجالس بغداد ودواوينهـا رائعاً من النوادر والفكاهـات . وقد اعتبر الشعر تجارة يروج سوقها حيناً ويكسد أحياناً ، فقال يخاطب السيد علي نقيب أشراف بغداد :

تـــاجـــرت في شعـــري إليك ، وإنما نفق القـــريض لـــديك بعـد كســـاده

وقال يمدح ولده السيد عبد الرحمن الكيلاني :

ربحـت فيكـم تجارة شعــــــــــري لا رمـــاهـــا في غيركم بـــالكســـاد

وقال في مدح عبد الغني جميل :

أتـــاجـــر في شعـــري ، وكل تجارة من الشعـــر إلا في عـــلاك لفي خسر

وقال يرثي عبد الواحد جلبي من أعيان البصرة :

وقـد كـان فيك الشعـر ينفق سـوقـه لـــديك ويبتـــاع الثنـــاء ويشتري

ردّد هذا المعنى كثيراً في شعره لكنه كان مع ذلك عزيز النفس أبيّها ، فإذا هنأ الشاعر عبد الباقي العمري بمنصبه الكبير قال :

ســواي يـــروم المال مكترثـــاً بـــه ويـــرغب في غير الـــذي أنـــا راغب
وإنـك أدرى النـــاس فيما أريـــده وأعلمهـم فيما لـــه أنـــا طـــالـب

وإذا سمت نفسه إلى المعالي اعتذر فقال :

أسفــــاً للشعــــر، لا حـظ لــــه		في زمـــان الجهل والقـــوم اللئـــام

وقال:

لــــو تنبهـت لها مجتهــــداً		كيف بـالحظ إذا مـا الحظ نـامـا؟
أو رأى المقـدور فينـا رأيـه		مـا تكلفت نهوضـاً وقيـامـا

وهو لا يفتأ يندب جور الزمان وظلمه فيقول:

وإن فـاض دمعي لا أزال أريقـه		فمن كبـد تصلى ومن لـوعـة تصلي
وجـور زمـان لـو أرى فيـه منصفـاً		لحاكمتـه فيـه إلى حكـم عـدل
أمثلي يطـوف الأرض شرقـاً ومغـربـاً		على أرب يـرضى من الكثـر بـالقلّ؟
وتقـذفني الأسفـار في كل وجهـة		فمن مهمـه وعـر إلى مهمـه سهل
وتحرمنـي الأيـام مـا أستحقـه		فـلا كـانـت الأيـام إذ ذاك في حلّ
وأرجع أختـار الإقـامـة خـامـلاً		حليف الجهـول الـوغـد والحاسد النـذل
يطـاولني من لست أرضـاه مـوطئـاً		وأكـرم نعلي أن أقيـس بـه نعلي
وفـاخـرني من يحسب الجهل فخـره		ونـاظـرني مـن لم يكن شكلـه شكلي
فتبـاً لـدهـر تستـذلّ قـرومـه		وتستكبر الأنـذال فيـه وتستعلي
أقـامـوا مقـامي مـن جهلت بـزعمهم		فما قـام في عقـد هنـاك ولا حلّ
ولـو طلبـوا مثلي لعـزّ وجـوده		ومـا وجـدوا مثلي وأنّـى لهم مثلي؟
إلى مَ أمنّـي نفس حـرّ أبيـة		شـديـد عليهـا في الـدنى مـوقف الـذلّ؟

ويثور وهو الساكن الهادىء فيصرخ قائلاً:

تـركـت لكم، أعيـان بغـداد، منـزلاً		تجور عليـه النـائبـات وتعتـدي
ففيم مقـامي عنـدكـم ظـامىء الحشـا		ولا أنـا بـالـواني ولا بـالمقيّـد
وإني عـزيـز النفس لـو تعـرفـونني		ولي بينكـم ذلّ الأسير المصفّـد

ويقول:

وسـاء زمـان بعـد أن سرّهـا بهم		فماذا يـلاقي الحرّ في الـزمـن الـوغـد؟

ويقول أيضاً:

نتنفّس عـن وجـد تـوقـد جمره		فأجـرى مسيل الـدمع ينهـلّ قطـره
وبـات يعـاني الهم ليس ببـارح		على قلبـه إقـدامـه ومكـرّه
تمنّى ومـا يغني التمنّـي مطـالبـاً		حـريّ بها لـولا الـدنيّـة دهـره
ودون أمـانيـه عـوائق جمة		يضيق لها في المنـزل الـرحب صـدره
تحمـل أعبـاء المتـاعب والتقـى		على غـرّة صرف الـزمـان وصبره
وأشقى بنـي هـذا الـزمـان أريبـه		وأتعب مَـن فيـه من النـاس حـرّه

ويقول:

إذا الحرّ ألفى الضيم شرط حياتـه رأى الـرأي فيهـا أن يمـوت ويقبرا

ولكنه بالرغم من كل ذلك رضخ لجور الدهـر واستسلم لظروف الزمان. ولقد قيل: «إن سيّد نفسه يرث الآلام» فاطمأن شاعرنا إلى الدعـة والخمول واتخذ ممدوحيه أسياداً يسترفد رفدهم ويعيش في ذراهم ولا يأنف أن يقول في بعضهم:

أراني - والخطـوب إذا ألمـت - رجعـت إلى جميـل أبي جميـل
كـأن الله وكلـه بـرزقي وحـولني على نعم الـوكيـل

ويقول أيضاً:

كفـاني المهمات عبـد الغني وذلـك مـن بعض أفضـالـه
فـإن نلت مـالاً فمـن جـاهـه وإن نلت جـاهـاً فمـن مـالـه

إن شعر عبد الغفـار الأخرس مثال لشعر عصر الانحطاط الأدبي، فهو شعـر جامد جافّ يغلب عليه روح المحاكاة والتقليد ويكاد يخلو من الإشراق والانطلاق والابتكار. ويمكن القول إنّ قيمته قد أصبحت تاريخية أكثر منها أدبية. أما مواضيعه فتقتصر على المديح والتهنئة والرثاء والغزل والبكاء على الطلـول وقد تتناول شيئاً من الوصف والهجاء شابتها المبالغة المستهجنة وشانها الإسراف الممجوج والتكرار المملّ. وهذا أخرسنا يهنىء السيد سلمان بنقابة الأشراف فلا يملك إلا أن يردد قول أبي العتاهية:

أتتـك النقـابـة تسعى إليـك تجرّ مـن التيـه أذيـالها
إذا لم تكـن أنـت أهـلاً لها مـن الأنجبين فمـن ذا لها؟

وهـو يكثر في نسيبه من وصف المحبوب بـالجؤذر والغزال والمتيم بـالأسد الضرغـام ويتساءل كيف يتسنى للغزال أن يتصيّد الأسد محاكياً في ذلك ابن الفارض الذي قال:

هـل سمعتـم أو رأيتـم أسـداً صـاده لحظ مهـاة أو ظبـي؟

فإذا عرضت له مناسبة للإبداع - وقلما تعرض له - لم يستطع التحليق في شعره كما في وصفه للباخرة حين استقلها عائداً من البصرة فلم يقل فيها إلا أبياتاً متهافتة:

قـد ركبنـا بمـركب الـدخـان وبلغنـا بـه أقـاصي الأمـاني
حين دارت أفـلاكـه واستـدارت فهي مثـل الأفـلاك بـالـدوران

إلخ.

ولا يخلو ديوان الأخرس مع ذلك من الشعـر الطريف، فمن ذلك وصفه لسرقة داره قبيل عيد الفطر.

يـا ليلـة في آخـر الشهـر قـد جئت بعـد الصـوم بـالفطـر
كشف الصبـاح لنـا حـوادثهـا وتكشفـت عن مضمـر الغـدر
أصبحـت منهـا غير مفتقـر أبـداً إلى حـرس على وكـر

ثم يصف منزله الـذي «أخذوا مساحته يومـاً فما أوفى على شبر» ويصف صبيته الغرّ

الوجوه، السود الحظوظ الذين فرحوا بالغلائل الحمر فجرت دموعهم لضياعها، ويصف حليلته «نظيرة الخنساء» التي أسرفت في ندب أشيائها المسروقة وفقرها المدقع فيخاطبها قائلاً:

هل كنت قبل اليوم في سعة ... وملابس من سندس خضر؟
أو ما ذكرت العمر كيف مضى؟ ... لا كان ذاك العمر من عمر!

تلك قصيدة الأخرس في سرقة داره. ومن الطرافة أن نقابلها بقصيدة للشاعر الفرنسي كليمان مارو (١٤٩٧ ـ ١٥٤٤) Clément Marot في موضوع مماثل. يخاطب مارو ملك فرنسا عن سرقة داره، فيقول: إن سوء الحظ لا يأتي وحده بل يجلب معه مصيبتين أو ثلاث مصائب. ثم يقول إنه كان له خادم سكّير كذّاب جشع يجمع في نفسه كلّ الصفات المقيتة. وقد علم أن للشاعر كيساً ضخماً من النقود فابتدر غفلة منه وسرق دراهمه وملابسه، ثم امتطى ظهر حصان سيّده ومضى في الصباح الباكر دون أن يودّعه.

على أثر ذلك مرض الشاعر مرضاً شديداً ألزمه الفراش ثلاثة أشهر، ولم يبق منه سوى الفكر الذي ينتدب وينتحب. ولم ينفعه أطباء الملك الذين يعودونه ويتفقّدون صحته. ويمضي إلى القول إنه يخجل أن يطلب من الملك إعطاءه المال، لكن الدائنين يلحّون عليه مطالبين بدفع ديونه. وأخيراً يعد الملك بأن يفي صلته بمدائحه.

ومن جميل شعر الأخرس في الغزل:

إذا كان خصمي حاكمي كيف أصنع ... لمن أشتكي حالي لمن أتوجع؟
غرامي غريمي وهو لا شك قاتلي ... وكم ذلّ من يهوى غراماً ويخضع
أباح دمي بين الورى من أحبه ... فقلت وقلبي بالجوى يتقطع
دموعي شهود أن قلبي يحبه ... وحق الهوى عن حبه لست أرجع
وراموا سلوّي في هواه عواذلي ... وحق هواه لست أصغي وأسمع.
وأصبحت كالمجنون في حيّ عامر ... بليلى ومن وجدي أهيم وأولع
فلو زارني في النوم طيف خياله ... لكنت بطيف منه أرضى وأقنع

وقوله:

إلاّ يا فؤاداً قد أضرّ به النوى ... وأشجاه برق للحبيب لموع
إذا ما دعاك الصبر يوماً عصيته ... وأنت لما يقضي الغرام مطيع
كتمت الهوى دهراً فباحت بسره ... عيون وأفشت ما كتمت دموع
ويا منزلاً للّهو أبعده النوى ... ألِلمدنف النائي إليك رجوع؟
تذكرت فيك العيش، والغصن يانع ... ووريق، وشمل الظاعنين جميع

وقوله:

زيـد لـومـاً فـزاد في الحبّ وجـدا
مستهـــام تخيّـل الغـيّ رشـــدا
مـــازح الحب مـــرة فـأراه
أن هـــزل الغـــرام يصبـح جـــدّا
ورمـى قلبـــه بجـــذوة نـــار
أوقـــدتـــه بـــلاعج الشـــوق وقـــدا

وقوله من موشح :

حبـــذا مجلسنـــا مـن مجلس
جـــامع كـل غـــريب وعجيـب
نغـم العـــود وشعـــر الأخـــرس
ومحبّ مستهـــــام وحبيـب
يتعـــاطـــون حيـــاة الأنفـس
في بـــديع اللفـظ والمعنى الغـــريـب
بـــابليّ السحـــر معســـول الجنـى
أيـن هـــذا واشتيـــار العسـل؟
وإذا مـــرّ نسيـم بيننـــا
قلـت هـــذا ويحكـم مـن غـــزلي

وقوله وهو في البصرة وقد حنّ إلى بغداد :

فيــا زمن الصبــا ، هـل من رجــوع
ويــا عهـــد الشبــاب متـى تعـــود؟
ســلام الله أحبـــابي عليكـم
إلى بغـــداد يحملهـــا البريـــد
يهيّـج لـــوعتي وجـــد طـــريـف
لكـم ويشـــوقني وجـــد تليـــد
فهـل أخبرتـم أني بحـــــال
يســاء بها من النـاس الحسـود؟

وقوله :
مـن معيـــد لي أيـــامـــاً مضـت
كـان فيهـا الغيّ لــو أنصفت رشـدا؟
أهصر الغصن إذا مـــا كـــان قـــدّاً
وأشمّ الـــورد إذ مـــا كـــان خـــدّا
كم أهـــاج الشـــوق مـن وجـــد بها
كلما جـــدده الـــذكـــر استجـــدّا
وجـــرى دمعي مـن الـــوجـــد فما
يملك الطـــرف لجاري الـــدمع ردّا .

وقوله يتحسر على الشباب :
ذهبت لـــذاذات الصبـــا وتصرّمـت
أوقـــات أنسك في الــزمــان الغـابـــر
وإذا امـــرؤ فقـــد الشبـــاب فما لـــه
في اللهـــو بعـد مشيبـه مـــن عـــاذر
ولقـــد أقـــول لطـامـع بـرجـــوعهـــا
كيف اقتنـــاصـك للغـــزال النـــافـــر؟

وقوله في الشوق والوداع :

تحنّ نيـــاق الظـــاعنين ، ومـــا لها
تحنّ وفي القلـب المشـــــوق حنين
أبـالنـــوق مـا بـالنـــازحين من الأسى
ووجـــد بأحشـــاء الضلـــوع كمين؟
ولما التقينـــا للـــوداع عشيّـــة
وبـــاحت بـأسرار الغـــرام عيـــون
بـــذلـت لها مـن هـــذه العين عبرة
وإني بها لــــولا الفـــراق ضنين
فـــلا القلـب لما أزمع القلب صـــابـــر
ولا الـــدمع من يـــوم الفـراق مصـــون
فلـــولاك مـــا قـاسيت، يـا غـايـة المنى
حـــوادث تقســـو مـــرة وتلين
إذا كنت لا تـدريـن مـا الشوق بـالحشـا
سليني عـن الأشـــواق كيف تكـــون
جننت بـــذكـــر العــامـــريـــة ، والهوى
جنـــون ، ولكـن الجنـــون فنـــون

ومن بديع حكمياته :

نـــؤمل أن يطـــول بنـــا الثـــواء ونطمـع بـــالبقـــاء ولا بقـــاء
وتغـــرينـــا المطـــامع بـــالأمـــاني ومـــا يجري القضـــاء كما نشـــاء
تحدثنـــا بـــآمـــال طـــوال وليـس حـــديثهـــا إلا افتراء
وإن حيـــاتنـــا الـــدنيـــا غـــرور وسعـي بـــالتكلـف واعتنـــاء
نسرّ بها نســـاء بـــه ونشقـى ومـن عجـب نسرّ بها نســـاء
ونضحـك آمنين، ولـــو عقلنـــا لحقّ لنـــا التغـــابن والبكـــاء
إلى مَ يصـــدّنـــا لعب ولهو عن العظـــة التـي فيهـــا ارعـــواء
وتنـــذرنـــا المنـــون ونحن صـمّ إذا مـــا أسمع الصـمّ النـــداء
ظهـــرنـــا للـــوجـــود وكل شيء لـــه بـــدء لعمـــرك وانتهـــاء
لئـن ذهبت أوائلنـــا ذهـــابـــاً فـأولنـــا وآخـــرنـــا ســـواء
نـــودّع كـل آونـــة حبيبـــاً يعـــزّ على مفـــارقـــه العـــزاء
تسير بـــه المنـــايـــا لا المطـــايـــا إلى حيـث السعـــادة والشقـــاء
ولـــو يفـــدى فـــديـنـــاه ولكن أسير الموت ليس لـــه فـــداء

وقوله :

ومـا حيلـة الإنسـان في مـا ينـوبـه إذا كـان أمـر الله فيـه مقـدرا
وهبـك اتقيت الـرزء حيث رأيتـه فكيف بمـن يأتيك مـن حيث لا تـرى؟
ونحن مـع المقـدور نجـري إلى مـدى وليـس لنـا في الأمـر أن نتخيّرا

وقوله :

نـؤمـل في الـدنيـا حيـاة هنيئـة ومـا نحن إلا عـرضـة للمصـائب
ونغترّ في بـرق المنى وهـو خلّب وهيهـات مـا في الآل مـاء لشـارب
نصـدّق آمـالاً محال بلـوغهـا ومن أعجب الأشيـاء تصـديق كـاذب
تسـالمنـا الأيـام والقصـد حـربنـا ومـا هي إلا خـدعـة من محارب
ونطمـع أن تبقـى ويبقـى نعيمهـا فلـم يبق منهـا غير حسرة خـائب

أولع الأخرس بالخمر حتى شبهه الدكتور محمد مهدي البصير بأبي نواس ولكن أين هو منه؟ فالنواسي مجدّد في عصره، مبتكر في شعره، مفرد في وصفه، أما الأخرس فببغاء تردد معاني الأقدمين وأخيلتهم.

قال الأخرس :

أعنـــدك علـم بـأن الهمـــوم على خـــاطـــر المرء مثـل الجرب
ولا مـــن دواء لأدوائهـــا ولا بـــرء منهـــا كبنت العنب
وحشر مع الغـــانيـــات الحســـان إذا حشر المرء مـــع مَـــن أحـــب
وإني فقير إلى قهـــوة ومَـن لي بها مثـل ذوب الـــذهـب

تقــوّي العظــام وتشفي السقــام ويــذهب عـن شــاربيهــا النصب
إذا مــزجـت بــابـن مــاء السماء تــولّــد منهــا لآلي الحبب

وقال :

قـد نحـرنـا الـزقّ يـوم العيـد نحـرا وأذبنــــا بلجين الكـأس تبرا
وتخيلنــا الحميّــا لهبـــا وحسبنـــا أنها بـــالماء تـــورى
قــال لي الســاقي وقــد طــاف بها : هـي خمر وتـــراهـــا أنـت جمرا
يــا نــديماً قــد سقــاني كأســه اسقنيهـــا في الهوى أخـرى وأخـــرى
إن أحلى العيـش مــا مـــرّ على روضـــة غنـــاء والكــاســات تترى
ويـــد المزن وأزهـــار الــربى نشرت مـن بعـــد ذاك الطـيّ نشرا
لا تخف مـن وزرهـــا في شربها أو تخشى مـع عفـــو الله وزرا؟
راحـــة الأرواح بـــالـــراح التي لم تـــدع للهمّ في الأحشـــاء ذكـــرا

وقال :

إذا مــا الشيخ في الكـأس احتســاهـــا غـــدا في الحال أنشـط مـن غــلام
لئن عللتني يـــا صـــاح يـــومـــاً بـأحبـــابي فعللني بجـــام
ومن لي بـــالكـــرى يـــومـــاً، لعلي أرى طيـف المليحـــة في المنـــام
ومــا أنسى لها في الـــركب قـــولي وقـــد نظـــرت لأجفـــان دوام
نحـــولي مــا بخصرك من نحـــول وسقمي مـــا بطـــرفك مـن سقـــام

وقال :

قــام يجلــوهـــا وبــرد الليـل معلم خمرة مـــا اجتمعت يـــومـــاً مع الهم
فهــــــي تبر في لجين ذائب أو كنـــار في فــــؤاد الماء تضرم
نظـم المزج عليهـــا حببـــاً رصع اليــاقــوت بــالــدرّ المنظّم
مـــرة يجلـــو بها العيش وفي مثلهـــا قــد يحمـد الـدهــر المذمم
مـن رأى يـــا قـــوم منكم قبلهـــا قبـل هـــذا أن نـــوراً يتجسّـم
فهـي سرّ منعـت سرّ الضيـــا في ضمير الليـــل مـــن أن يتكتـــم
قـــدمت في عصرهـــا حتى لقـــد أوشكـت تخبرنـــا عمّا تقـــدم

وقال :

جـــلا في الكـأس جــاليـــة الهمــوم وقـــام يميس بـــالقـــدّ القـــويم
وقــد فــرش الـربيع لنـا بســاطــاً مـن الأزهـــار مختلف الـــرقـــوم
بحيـــث الأفـــق مغبر الحواشي ووجـــه الأرض مخضر الأديـم
هنـــالـك تطلـع الأقمار فيهـــا شمـــوس الـــراح في الليل البهيـم
كـأن حبـــابها نظمت نجـــومـــاً رجمت بها شيـــاطين الهمـــوم
وقـــد كـــانـت تـــدار عليّ راح تعيـد الـروح في الجســد الـرميم
أخــذت بكـأسهـــا وطـــربـت فيهـــا فسلنـي كيــف شئـت عـن النعيـم

بحيث الشمس طـــالعـــة مـــدامي وبـــدر التمّ يـــومئـــذٍ نـــديمي .

تلك أيـام صفت للشـاعـر فنعم فيها بـالحب والمدام، لكنـه علم أنها لا تـدوم وأن «الهوى أكبر داع للهوان» في «زمان من حقه أن يذمّا» فقال :

تـــركت الهوى بعـــد المشيب لأهلـــه وراجعنـي حلـم لسلمـي يصـــــارم
ومـــا أنسَ لا أنسـى زمـــانـــاً قضيتـــه وعـــود الصبـا ريّـــان والعيش نـــاعم

وبث شكواه فقال :

شكـــوتـك مـا يلقى فـــؤادي من الأسى ومـــا كـل مَن أشكـــو إليـــه رحيم
فـــؤاد شجـــاه مـــا شجـــا كـل وامق ومـــا هـــو بعـــد الـــراحلين مقيم
أرى صبـــوة المشتـــاق دائمـــة الهوى فما بـــال صبر الصب ليس يـــدوم؟

ثم استكان وعلل النفس وقال :

هـــذي هي الـــدنيـــا كما تـــريـــانها حـــرم اللبيب وفـــاز فيهـــا الأحمق
فصبرت فيهـــا والخطـــوب متـــاحـــة لا ضـــاجـــر منهـــا ولا أنـــا مشفق
حتى رأيـت النـــائبـــات تقـــول لي: عجبـــاً لصبرك كيـف لا يتمـــزق!

أشرف الشاعر على السبعين من عمره، لكنه لم يترك قـرض الشعر ولم يركن إلى العزلة والانـزواء ولم يملّ الضرب في الأرض في سبيل بلغـة العيش. ولعل آخـر قصائده تهنئـة السيد سلمان الكيلاني بنقابة الأشراف وورود الفرمان السلطاني بها إليه. وشدّ الرحال إلى البصرة فمرض فيهـا وأدرك حمامه في عشية عيـد الأضحى سنة ١٢٩١هـ ــ الموافق ليوم الأحد ١٧ كانون الثاني ١٨٧٥م.

وقد طبع ديوانه بعد وفاته بعناية أحمد عزت العمري الفاروقي، ونشر عباس العزاوي مجموعة له في شعر عبد الغني جميل وما قاله الأخرس فيه وطبعها ببغداد سنة ١٩٤٩

ولم يكد يمضي على وفاة شاعرنا الأخرس ثلث قرن ونحو ذلك حتى هبت على الشعر العربي نسمات جديدة ولاحت طلائع النهضة الأدبية الحديثة في وادي الرافدين، فكأنما بينه وبين الشعراء الذين تلوه دهر طويل .

إبراهيم الطباطبائي

الشاعر السيد إبراهيم بن حسين بن رضا بن السيد مهدي بحر العلوم الحسني الطباطبائي. اشتهر جدّه العلامة محمد المهدي بن مرتضى المعروف ببحر العلوم (١٧٤٢ ـ ١٧٩٧)، كما كان أبوه حسين (١٨٠٦ ـ ١٨٨٩) من شعراء عصره. ولد في النجف سنة ١٨٣٢، ودرس على والده الشاعر الفقيه. ونظم الشعر فتفوّق فيه وكان أستاذ عبد المحسن الكاظمي الذي لازمه حين قصد الطباطبائي الكاظمية وأقام فيها سنتين (١٨٨٧ ـ ٨٩). وتتلمذ عليه شعراء آخرون منهم محمد السماوي.

وقد توفي بالنجف سنة ١٩٠١، وطبع ديوانه سنة ١٩١٤ مصدّراً بمقدمة للشيخ علي الشرقي. قال الدكتور محمد مهدي البصير: «امتاز بخلال حميدة وصفات طيبة أهمها. اعتزازه بالعروبة وسرعة خاطره. وقوة حافظته. وخفة طبعه التي خلقت منه صورة مصغّرة لعمر ابن أبي ربيعة من حيث حبه للجمال وافتتانه به وتحدثه عنه. . ».

تبرّم بحاجته ورقة حاله، وهو الأبيّ المترفع، فقال:

لقد قسم الله رزق الورى ... وقتّر بالرزق أقسامِيَهْ

فما زلت أشكره حامداً ... وأقتل بالصبر آماليه

وهل نافعي أنني شاعر ... تضرّ وتنفع أشعاريه؟

أديباً وتدركني حرفة الأديب، ... فتعساً لآدابيه!

وشعره قديم الطراز، حسن الديباجة، أكثره في الغزل والفخر والوصف والمدح والرثاء والحكم والمواعظ.

ومن رقيق نظمه قوله:

أخي، هل راجع ليل فينظمنا ... بشطّ دجلة نظم العقد إخوانا؟

بتنا على البدر حيث النجم يرمقنا ... بطرفه في ضمير الليل نُدْمانا

بمجلس مشرف الأطراف مرتفع ... عالٍ تطول به الجلّاس كيوانا

يا حيّ دجلة، والجرفان قد طفحا ... فيضاً يسيل على الرّضراض عِقْيانا

نسرّح اللحظ في مجرى سبائكها فيصدر الطرف دون الورد حيرانا
لو كنت تطلبنا، والملتقى كثب، لما طلبت حياةً دون لقيانا
مضت بتلك الليالي الصالحات لنا نوىً شطون تمدّ البحر أشطانا
أحبابنا، إن تهن فيكم وسائلنا، فحسبنا كلّ شيء بعدكم هانا
هلاّ نكون كما كنا وكان لنا، فإنما العيش ما كنّا وما كانا

وقيل في ترجمة الطباطبائي أنه كان مكثراً من النظم، ولكنه لم يتخذه يوماً حرفة ولا جعله لنفسه ساعة مهنة يكتسب بها نشباً أو يلتمس بها من العيش سبباً.

كان سريع الخاطر، حاضر البديهة، متفتّح القريحة، أكّد علي الشرقي أنه ربما ارتجل القصيدة التي تتألف من مئة بيت في مجلس واحد، كما فعل بعده تلميذه عبد المحسن الكاظمي. وقال محمد مهدي البصير أنه كان قويّ الحفظ، ، حديد الذاكرة، أملى شعره كله على ولده السيد حسن وكان راسخاً في ذهنه. وكان إلى ذلك رقيق الطبع، خفيف الروح، تأسره الصباحة وتستهويه الملاحة.

من شعر إبراهيم الطباطبائي في جبل عامل:

أين السهول من جبال عامل حكت مناط الشهب بالكواهل
أخاشبٍ رواسب شوامخٍ بواذخ فوارع مواثل
عادية، بل قبل عاد رسخت معاقلاً للفضل والفواضل
يحجب قرن الشمس مشمخرّها حتى ترى الهجير كالأصائل
إذا النّسيم استنّ في ربوعها صحّ سقيم الروض في الخمائل

وقال يرثي الشاعر السيد حيدر الحلي:

لقد غلب الجرح أن يستطبّ، فمن أين أدمل فيك الجراحا؟
أرح فلغيرك هذا الرواح برحت ولست أطيق البراحا
أحيدر، زأراً بغيل القريض عسى أن تغضّ الكلاب النباحا

وإذا ذكر الشاعر إبراهيم الطباطبائي وآله فلا بدّ من ذكر مأساة غرامية سجّلها التاريخ إلى جانب قصص المجنون وليلى وروميو وجولييت وغيرهم من المحبّين. روى هذه المأساة محمد مهدي البصير ورواها قبله وبعده كثير من الأدباء.

كان الفتى الشاعر الوسيم عبّاس علي النجفي (١٨٢٦ ـ ١٨٦٠) تلميذاً للسيد حسين الطباطبائي (والد إبراهيم) فأحبّ ابنته وقال فيها قصيدته الشهيرة:

عِدِيني وامطلي وعدي، عِدِيني وديني بالصبابة فهي ديني

ومُنّي قبل بينك بـــالأمـــاني فـــإنّ منيّتـــي في أنْ تبينـــي

ومنها :

صِلِي دَنِفـــاً بحبّك أوقفتـــه نـــواكِ على شفـــا جـــرف المَنـــون

أمـــا لنـــواكُمُ أمـــد فيقضـى إذا لم تُقْضَ عنـــدكُمُ ديـــوني؟

وكنـت أظـن أنّ لكـم وفـــاءً، لقـــد خـــابت، لعمـــر أبي، ظنـــوني

هبـــوني أنّ لي ذنبـــاً، ومـــا لي ســـوى كلفي بكم ذنـب، هبـــوني

ألست بكـم أكـــابـــر كلّ هـــولٍ وأحمل في هـــواكم كـلّ هُـــونِ؟

أصـــون هـــواكم، والـــدمع يهمي دمـــاً، فيبـــوح بـــالسرّ المصـــون

يمينـــاً لا سلـــوتُهُم يمينـــاً وشلّـت إن سلـــوتُهُمُ يميني ،

إذا مـــا الليل جـنّ بكيتُ شجـــواً وطـــارحت الحمائم في الغصـــون

ولـــو أبقت لي الـــزفـرات صـوتـــاً لأسكتُّ السّـــواجـع بـــالحنين .

وقيل إن الأستاذ ارتضى بعبّاس صهـراً، لكن أبناءه الأربعة ـ ومنهم إبـراهيم ـ أنفوا من هذه المصاهرة فأهانوا الشاعر العاشق وضربوه ضرباً مبرّحاً .

وتوفّي عباس شاباً في الرابعة والثلاثين من عمره .

شهاب الدين المليسي

الشاعـر شهاب الـدين العلـوي المليسي المعروف بـالسيد شهـاب الموصلي، ولد في الموصل سنة ١٨١٥ وسافر في شبابه إلى بغداد والبصرة، وقضى فيهما نحواً من أربعين سنة ثم عاد إلى مسقط رأسه .

نظم الشعر المهلهـل في الأغراض القديمـة كالمديح والـرثاء ومـا ماثلهما . وقـد ذكره عبـاس العزاوي في الجزء الثـاني من «تاريـخ الأدب العربي في العـراق»، فقال : إن لـه قصائد كثيرة هي شعـر مناسبات، منهـا في الأستاذين أحمد شاكـر الألوسي ونعمان خير الدين الألوسي، وله أبيات في تقريظ جـريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق . وكـانت بينه وبين نـاصيف اليازجي مـراسـلات، وله قصـائد في رثاء الشيخ أحمد نـور الأنصـاري قاضي البصرة والسيـد سلمان النقيب وغيرهما . وقد مـدح والي بغداد محمـد نامق باشا الكبير.

وتوفي بالموصل سنة ١٩٠٧ (وقيل ١٩٠٤) .

من شعره : قال يؤرخ تعيين عبد الباقي الألوسي قاضياً لكركوك (١٨٧٧) :

هـو عبـد البـاقي الـذي ببقـاه قـد رمى بـالفنـاء أهل النفـاق
قـد أتى مسعـداً وجـاء معيـداً أملي لـلإثمار والإيـراق
كلّ وقت إليـه شـوقي جـديـد والليـالي قـد أخلفت إطـلاقي
علقت نفسـه بكسب المعـالي والمعـالي من أنفس الأعـلاق
وارث عن أبي الثنـاء أبيـه في المبـاني روح المعـاني الـدقـاق
قـد تحلّت بـه الشريعـة جيـداً وتحلّى الأعنـاق بـالأطـواق
لقيت شهـر زور للـزور منـه مـاحياً مـاحقاً شـديـد المحـاق.

إلخ.

وقال السيد شهاب الدين من قصيدة له في تقريظ كتاب مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي:

حـديقـة أثمـرت أوراقهـا حكماً لنـا شمارنجهـا امتـدّت وقـد ينَعَتْ
فمن يشأ يتفكّـهْ في منـاقبهـا ومن يشأ يتفقّـه بـالّـذي شَرَعَتْ
طـالعْ تقـابِلْكَ مـرآة الـزمـان بها وانظـر إلى صـورة الـدنيـا وقـد نصعت
كم أودعت نبـذاً للسّمع قـد عَـذُبَتْ ورْداً ومن قلب ذاك الصـدر قـد نبعت
محاضرات بها الحضّـار راغبـة غـابت عن الـراغب المفضـال وامتنعت

إلخ.

الشيخ حمّادي آل نوح

الشاعر محمد بن سلمان بن نوح الغريبي الكعبي المعروف باسم الشيخ حمّادي نوح، ولد في الحلة في سنة ١٨٢٥ وتأدب فيها وقرض الشعر. كان وثيق الصلة بآل قزوين كبير العلاقة بالإمام السيد حسن الشيرازي الذي ترك النجف في نحو سنة ١٨٣٥ ليقيم في سامرّاء.

اشتهر بمدائحه وتهانئه ومراثيه، فكان يقصد المحمّرة ليمدح شيوخها ويفوز بعطاياهم، كما كان يمدح آل القزويني الذين يكرمونه ويصلونه وسواهم من رجال عصره.

لكنه عرف بنسكه وتقاه وشعره الصوفي الذي يسبّح الذات الإلهية ويمجّدها حتى دعاه الدكتور محمد مهدي البصير «خليفة ابن الفارض». وقال إن الشيخ حمادي كان جليل القدر، رفيع المنزلة، محترماً عند أدباء عصره، ولم يكن يحفل بشعر أحد عدا السيد

حيدر الحلي . وكان متمكناً من اللغة ، سئل عن القاموس فأشار إلى صدره وقال : هذا هو القاموس . وتوفي في الحلة في آذار ١٩٠٧

قال البصير إن شعره يكثر فيه الغريب ويغلب عليه الغموض . ومن شعره في تقديس الله :

شمّر الوهم أن ينال ثناكا ... فخبا دون شارقات علاكا
خرق الغيب فالتوى الوهم صالٍ ... قبس النور من سناء بهاكا .
بك ، يا حيرة البصائر، ضلّت ... فِكَرٌ منك حاولت إدراكا
حاولت كنه ذي الجلال ، ولكن ... عبرت في دجى الضلال عداكا

إلخ .

محمد سعيد الإسكافي

الشاعر محمد سعيد الإسكافي النجفي المعروف بالإسكافي وهو الشيخ محمد سعيد ابن محمود سعيد نائب كليدار الروضة الحيدرية ، ولد في النجف في ١٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ ودرس العلوم الدينية والعربية ، وأخذ الأدب عن خاله الشاعر الشهير عبّاس الملاّ علي المتوفى سنة ١٨٦٠ صاحب القصيدة المشهورة :

عديني وامطلي وعدي ، عديني ... وديني بالصبابة فهي ديني

نشأ شاعراً فكانت له مساجلات أدبية مع أدباء عصره ، ومدح آل بحر العلوم وآل كاشف الغطاء وغيرهم كما مدح والي بغداد سرّي باشا (١٨٩٠ ـ ٩١) . وقد ترجم لهذا الشاعر ونشر نماذج من شعره محمد علي اليعقوبي وعلي الخاقاني وسلمان هادي الطعمة ، وذكره عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق .

هاجر إلى كربلاء في عقد الثمانين من القرن التاسع عشر وأدركه الحمام فيها في ١٤ آب ١٩٠١

نظم الشيخ محمد سعيد الشعر بالعربية والفارسية . ومن شعره في الغزل :

فؤادي لوصل الغانيات مشوق ... فللشوق عندي زفرة وشهيق
بنفسي من البيض الحسان خريدة ... فؤادي بها دون الحسان علوق
إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما انثنت كالغصن وهو رشيق

وقال :

تذكرت عهداً بالحمى راق لي دهراً ... فهاجت تباريح الغرام لي الذكرى

وأومض من وادي الغضا لمع بارق فأذكى لنيران الغضا في الحشا جمرا
فيا حبذا تلك المغاني، وإن نأت، ويا ما أحيلى العيش فيها وإن مرّا
فيا طالما بالأنس كانت أواهلاً وإن هي أمست بعد موحشة قفرا

الشيخ محمد حسن كبّة

التاجر الوجيه والشاعر الفقيه الشيخ محمد حسن من آل كبّة من بيوت بغداد القديمة التي تنتسب إلى ربيعة، وهو بيت تجارة وأدب ورعاية للشعر والإحسان. ومحمد حسن ابن محمد صالح بن مصطفى بن درويش علي بن جعفر بن علي بن معروف، ولد في الكاظمية في حزيران ١٨٥٣، ونشأ في بغداد نشأة أبناء الأشراف. وعمل في التجارة، فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، انقطع إلى العلم والأدب. وتتلمذ على علماء النجف والكاظمية، ثم رحل إلى سامراء سنة ١٨٨٩، ودرس على فقيه عصره محمد حسن الشيرازي الحسني (المتوفى سنة ١٨٩٤). ولازم بعد ذلك الشيخ محمد تقي الشيرازي، ونال الإجازة في علوم الدين. ووضع مصنفات كثيرة، طبع منها بعد وفاته: الأحكام الشرعية في المواريث الجعفرية (١٩٣١) إلخ.

وتوفي في سامراء في ٢١ حزيران ١٩١٨

نظم محمد حسن كبّة الشعر، وكانت له مطارحات أدبية مع رجال عصره، ولا سيّما محمد سعيد الحبوبي، نشر معظمها في «العقد المفصّل» الذي ألفه السيد حيدر الحسيني الحلي المتوفى سنة ١٨٨٧ في مناقب آل كبّة وطبع ببغداد سنة ١٩١٣ ـ ١٤ وقد وصفه الدكتور محمد مهدي البصير فقال إنه كان كريم الطبع، سمح الكفّ، أريحي الروح، حاضر البديهة، رقيق الخيال، مشبوب الحسّ، محباً للأدب وأهله حباً جماً. وقال إن شعره في جملته يجمع بين الرقة والمتانة ونقاء الديباجة والجزالة.

وهو والد الشيخ محمد مهدي كبّة رئيس حزب الاستقلال.

من شعره في الغزل:

نحن قوم إذا نظرنا صبونا وإذا ما سلا الورى ما سلونا
فتنتنا بحسنها وجنات ككؤوس الطّلى صفاءً ولونا
وجفون رشقننا بنبال نحن منها، لولا الهوى، ما دنونا

وقال أيضاً:

عليك سلام الله ما ذرّ شارق وما أنّ مشتاق وما حنّ وامق
وما تيّمتني في هواك صبابة وما علقت بالقلب منك علائق
وما سجعت في أثل سَلْع حمامة كأني وإياها مشوق وشائق

وقال:

ضـــاع قلب المولّـــه المفتـــون بـــــربى الكــــــرخ لا ربى جيرون
فـــانشـــداه بين الظعـــون فـإني خلتـــه ســـار بين تلك الظعـــون
يـا غـزالاً تـاقت لـــه النفس شـوقـاً لا لغيــــــدٍ من الظبــــاء العِينِ
أنت ليـــلاي والــرصـافـة نجــدي وأنــــا في هـــواك كـــالمجنـــون

وقال أيضاً:

الصبر غــــار وأنجـــد الـــدمعُ من نـــاظــري فـاعشــوشب الــربع
والقلــب حيــث نـأى الخليــط نـأى رفقـــاً بـــه، فلـــه الهوى طبـع
-نتّــام تــرشـق بـاللحــاظ حَشـاً مـــا مسّهـــا لـــولا النّـــوى صـدع

وقال من قصيدة في رثاء والده:

أأُبيَّ، كيف تـــذوق عيني لحظـــة نـــومـــاً وكيف من المدامـع تجمـــد
أم كيف قلبي لا يــــذوب ومهجتي كمـــداً بنـــار الحزن لا تتـــوقّــد
وظعنــت عـن غـضّ النسيـم إلى البلى، يــــا ليت لــــو أنّي مكــــانك أُلْحَدُ!
وتـــركـت مَن تحنـــو عليـــه رقّـــة أسفـــاً يحنّ إلى لقـــاك وينشـــد

ومن شعره الغزليّ:

كم ليلـــةٍ من ليـــالي الشـــوق مقمـــرة هبّت بها نسمات الشّـــوق والشغـف
سهـــرتها محصيـــاً منهـــا كـــواكبهـــا مـــراعيـــاً بـــدرهـــا مـن شـــدّة الـدنف
فمـــذ أبت مقلتي إلاّ انسكـــاب دمٍ وأشرفـت كبـــدي الحرّى على التلـف،
قـال النـديم: علىَ مَ الـوجـد؟ قلت لـه: نعم، تـــذكّــرت مَن قـــد حلّ بـــالنجف
فقطّعت قلبـي الـــذكـــرى وبـــرّح بي شـــوق ملحّ وتـــوق أوهنـــا كتفي

محمد سعيد الحبّوبي

محمـد سعيد الحبـوبي من كبـار شعـراء العصر الأخير ولد في النجف في ١٩ نيسـان ١٨٥٠ وتوفي بمدينة النـاصرية وهو على رأس متطوعة العشائر لصـدّ الزحف البريطاني في ١٥ حزيـران ١٩١٥ وقد أوردت ترجمته في كتـابي «أعلام اليقظة الفكريـة في العراق الحديث» المطبوع في بغداد سنة ١٩٧١

طبع ديوانـه الكامل بعناية وزارة الثقـافة والإعلام في بغـداد سنة ١٩٨٠ وتحقيق ابن أخيه عبد الغفار الحبوبي. وهو محمد سعيد بن محمود بن قاسم بن كاظم بن حسين بن

حمزة بن مصطفى الـذي ينتهي نسبـه إلى الحسن السبط بن الإمـام علي بن أبي طـالـب. ومصطفى أول مَن تلقب «حبّوبي». وأصل الأسرة من الحجاز نزح جدها حميضة بن أبي نمي الأول إلى العراق سنة ١٣١٨م، ثم استوطنت النجف منذ عهد بعيد.

كان محمود أبو الشاعر مزارعاً يمتلك أراضي بالقرب من الكوفة والمسيّب، ثم ذهب إلى حائل يمارس التجـارة مع بعض أقاربه. وقـد التحق محمد سعيد بأبيـه في حائل من أعمال نجد، وكـانت تـابعة لحكم أمـراء آل رشيد، وظل فيهـا ثلاث سنـوات وعاد إلى النجف سنة ١٨٦٧ وانصرف إلى الشعـر، حضر المجالس الأدبية فجال فيهـا وصال. وكان يزور بغداد فيتصل بصديقه محمد حسن كبّة ويحضر ندوات الأدب. ثم انقطع إلى الفقـه وعلوم الـدين، فدرس على علماء كثيرين منهم الشيـوخ محمد حسين الكـاظمي ومحمد الشربياني ورضا الهمداني ومـوسى شرارة ومهدي الحكيم ومحمد طه نجف. وقال جامع ديوانه عبد الغفار الحبوبي إنه زامل أيام الدراسة السيد جمال الدين الأفغاني الذي مكث في النجف أربع سنوات يدرس الفلسفة والتصوّف.

ثم ترك نظم الشعـر وانصرف عنه انصرافاً كلياً إثـر حادثة حدثت لـه مع الملاّ كاظم الخراساني (الآخوند). قال جعفر الخليلي إنه ناقش الملا في مسألة تتعلق بعلم الأصول، وألح في المناقشة حتى قال له الخراساني: إنك رجل شاعر، فما أنت والمسائل الأصولية؟ ومنذ ذلك اليوم قرّر الحبوبي تطليق الشعر لينصرف إلى الفقه.

وقد قال الدكتور إبراهيم علي أبـو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر» وهو يتحدّث عن مصطفى لطفي المنفلـوطي الذي درس في ا لأزهر ثم انقطع إلى الأدب، إن علماء الأزهر كـان فيهم مَن يعتقد أن الأديب لا يكون عالماً، وربما كـانوا يرمون الشيخ محمد عبده بذلك أيضاً لغلبة البيان على منطقه وجريان الأدب في دمه.

ولما دخلت تـركيـة الحرب واحتلّ الإنكليـز البصرة في تشرين الثـاني ١٩١٤، دعـا الحبوبي إلى الجهـاد في صفوف الترك. وخـرج من النجف يتبعـه المجاهدون فـذهـب إلى سـاحـة الحرب في الشعيبـة. لكن القـائد سليمان عسكري بـك اندحـر أمـام القـوات البريطانية وانتحر، فقصد الحبوبي الناصرية واشتدّ عليه المرض فتوفي بها.

رثاه الشيخ جواد الشبيبي فقال:

فقيـــــد المسلمين غـــــداة أودى حسبـت الـــــدين بينهـم فقيـــــدا

وقال علي الشرقي:

حماة الحمى قـــد شيّعـوك إلى الثغـــر فبـــالـــرغـم أن يستقبلـــوك إلى القبر
وشـــاؤوك لـــلأوطـــان ظهـــراً ممنعـــاً ومـــا شعـــروا إلاّ بقـــاصمـــة الظهـــر

وممن رثـاه أيضـاً من الشعـراء جـواد البلاغـي وعبد الحسين الحويـزي ومحمـد رضـا الشبيبي ومحمد مهدي البصير.

شعر الحبوبي :

من رقيق شعره :

مـــا لقلبـي تهزّه الأشـــــواق؟ ... خبّرينـــا : أهكـــذا العشّـــاق؟
كـلّ يـــوم لنـــا فـــؤاد مـــذاب ... ودمـــوع على الطلـــول تُـــراق
عجبـاً كيـف تـدّعي الـــوِرْق وجـدي ... ولــدمعي بجيـــدهـــا أطـــواق؟
كم لنـــا بـــالحمى معـــاهـــد أنس ... والصّبـــا يـــانع الجنى رقـــراق .
فـــارحمي ، يـــا أُمَيْمُ ، لـــوعـــة صبّ ... شفّـــه الـــوجـــد بعـــدكم والفـــراق
كـــاد يقضي من الصبـــابـــة لـــولا ... أن تحامـــاه في الـــوداع العنـــاق

وصف شاعرنا الخمرة وقال فيها القصائد والموشحات ولم يخرج في خمرياته عن معاني الأولين . فالخمرة لديـه بيضاء كالشمس أو حمراء كالياقوت ، شـذا أنفاسها يعطر الجوّ ، عتقها القسّ في ديره سنين طوالاً فأدركت عهد الملوك الغابرين وشهدت دولهم دولة بعد دولـة . والخمرة تلطف الطبـاع وتبهج وتخدر الأحـاسيس ، وهي علاج للنفس الحزينـة وتردّ الروح إلى الجسـوم الراقدة في القبور . وقد قـال عبد الغفار الحبوبي أن عمّـه لم يعاقر الخمرة ولم تسلب لبّـه ، وقد وصفها عن مخيّلة خـلاقة وحسّ فني فجاءت كأنها منتـزعة من الواقع . وقد قال الحبوبي نفسه :

لا تخل ، ويـــكَ ، ومـــن يسمـــع يَخَلْ ... أنني بـــالـــراح مشغـــوف الفـــؤاد
أو بمهضـــوم الحشـــا ســـاهـي المقل ... أخجلت قـــامتـــه السّمـــر الصّعـــاد
أو بـــــربـــــات خـــــدور وكلـل ... يتفنّـن بقـــــــرب وبعـــــــاد
إنّ لي مـن شرفي بُـــــــــرْداً ضفـى ... هـــــو من دون الهوى مـــــرتهني
غير أني رمـت نهج الظُّـــــرَفـــــا : ... عفـــــــة النفـس وفسـق الألسـن

والحقيقة أن الحبوبي قرأ شعر أبي نواس وصحبـه فتمثّله وقلد معانيه أحسن تقليد ولم يخرج في خمريـاته على جمالها الفني وتـركيبها المتين بـرأي جديـد أو فكرة طـريفة . وهـو يذهب أحياناً مذهب الصوفية وينهج سبيل ابن الفارض فيقول :

وقـــد شفّـت فما ظهـــرت لـــراءٍ ... فكـــان خفـــاؤهـــا فـــرط الظهـــور

ويقول :

وانْعَتَنْهـــــا ويـكَ في ألقـــــابها ... فهـــي رَوْح وهـــي رُوح وهـــي راح

وذكر ناشر الديوان أن عمه قلما تطرق إلى الشعر الديني أو القومي ، فخلا شعره من المدائح النبوية والمراثي الحسينية خلافاً لرجال عصره ومصره .

جواد الشبيبي

شاعر يعدّ في الطبقة الأولى من شعراء المدرسة القديمة في العراق، وهو والد الشعراء محمد رضا ومحمد باقر ومحمد حسين ورئيس غرفة تجارة بغداد محمد جعفر الشبيبي.

وهو محمد جواد بن محمد بن شبيب بن راضي بن إبراهيم بن صقر، ولد في بغداد في ٧ كانون الثاني ١٨٦٥، وكان أبوه الشيخ محمد مقيماً بها فراراً من سطوة بعض شيوخ المنتفق. ولم تمض على ولادته أيام قليلة حتى توفي والده، فأخذته أمّه إلى أبيها الشيخ صادق أطيمش في الشطرة، ونشأ الطفل اليتيم في رعايته.

ولما شبّ عن الطوق قصد النجف سنة ١٨٨٠ فدرس على علمائها اللغة والأدب وعلوم الدين. وكان من أساتذته السيد عبد الكريم الأعرجي والشيخ أحمد المشهدي والسيد مهدي الحكيم ومحمد الطباطبائي، وتخرّج في الشعر على الشيخ محسن الخضري، والسيد محمد سعيد الحبّوبي.

وانصرف جواد الشبيبي إلى الشعر والأدب فبرز في النظم والترسّل. وكانت له مساجلات مع أبناء جيله كالسيد جعفر كمال الدين الحلي (١٨٦١ ــ ١٨٩٨) وعبد الحسين الجواهري وهادي كاشف الغطاء وعبد الكريم الجزائري. واستعان به المشير أحمد فيضي باشا وكيل والي بغداد (١٩٠٢ ــ ٠٤)، عند مروره بالنجف على رأس حملة عسكرية، في تحرير رسائل إلى شيوخ القبائل تحذيراً لهم من التمرّد والعصيان وترغيباً في الطاعة والإخلاد إلى السكينة.

وكان على وقاره حاضر البديهة، حلو الفكاهة، لطيف الدعابة. قال جعفر الخليلي: «وكان الشيخ جواد الشبيبي هو المجلّي في الغالب بشعره ونثره ونوادره وسرعة خاطره. وقد قيل أن نوادره الأدبية وتحفه الفنية من الكثرة بحيث تستوعب مجلدات ضخمة لو تصدّى أحد لجمعها». ثم قال: «. كان العلماء كثيراً ما يتخذون من قلمه ترجماناً للاعراب عن رغباتهم ومقترحاتهم، فيبعثون بها للباب العالي باسطنبول، أو يخاطبون بها الولاة ببغداد. وكثيراً ما يقصده أرباب الحاجة ممّن يريدون أن يسجلوا وصيّتهم بعد مماتهم، أو يريدون وقف أملاكهم أو تأسيس شركة لهم أو إجراء بيع أو شراء على الوجه الشرعيّ فيما بينهم، فيدبّج لهم بإنشائه وخطه وثيقة حسبها من القيمة الشرعية والعرفية أن يقال إنها من وضع الشيخ جواد الشبيبي. فقد عرف ببراعة إنشائه كما عرف بحسن خطه، ليس في النجف فحسب وإنما في جميع الأوساط الأدبية في العراق. وكثيراً ما كان ينظم الشعر الجيّد ويعطيه لمن ينتحله لنفسه لغرض من الأغراض».

وقد أقام جواد الشبيبي متنقلاً بين النجف وبغداد. وامتدّ به العمر، وسما أنجاله في عالم الشعر والأدب وتقلدوا المراكز الرفيعة في السياسة والتجارة والمال. وتوفي ببغداد في أوّل آذار ١٩٤٤

مؤلفاته وشعره :

ترك تآليف خطية لم يهيّأ لها الطبع ، منها ديوان شعره الذي جمعه محمود الحبّوبي ، ومجموعة مراسلاته وقد سماها «الروض الممطور بالدرّ المنثور» . وله كتاب في تراجم أدباء العصر، وآخر في حياة الشيخ خزعل آل الشيخ جابر أمير المحمّرة ، ونبذة في الأصول إلخ .

وشعره رصين الديباجة ، واضح الأسلوب يشتمل على المعاني القديمة والأغراض الاجتماعية والإخوانية والوطنية . فمن مدحه للسيد حسين القزويني :

أمنيع أركان الفتوّه … وربيع روّاد المروّه
وابن الزعامة والكرامة … والإمامة والنبوّه
ومن الإلٰه بجدّه … وأبيه في القرآن نَوَّهْ
قد ، والنبيّ محمّد ، … أصبحت للإسلام قدوه

ومن رثائه للسيد المومأ إليه أيضاً :

أصغت لرعدٍ أوقر السّمع هائله … فقلت : نعيّ في السماء زلازله
سما صوته حتى إذا استوعب السّما … تحدّر في الأرض العريضة وابله

ومن شعره يخاطب السيدة أم كلثوم :

قمريّة الدّوح يا ذات الترانيم … مع النسور على ورد الردى حومي
سيري مع الجحفل الجرار خافقة … وسابقي فوقه سرب القشاعيم
وناوحي الأمة الثكلى فقد رزئت … بلادها بالمطاعين المطاعيم
ما في العراق اذا استقريتِ بقعته ، … أذن تصيخ لأفكار الأناغيم

وقال شاكياً متألماً لحال أبناء الشعب :

يا ماطل الوعد ، ما هٰذي الأساطير؟ … زادت على السّمع هاتيك المعاذير
العدل منك سمعناه ولم نره … والجور منك أمام العين منظور
إن قلتَ : عصري عصر النور مفتخراً … فظلمة الظلم ما في فجرها نور
وهل يفيد جمال الوجه ناظره ، … والبرقع الدكن فيه الحسن مستور؟

حتى يقول :

يا حارث الأرض والسّاقي وباذرها ، … قتّر إذا نفع المحروم تقتير
إذا أتاك رجال الخرص فَالْقَهُمُ … بطلعة برقت منها الأسارير
إن باغتوك بنار شبّها غضب … وسعّرتها من العسف الأعاصير،

فـاحفـظ بقـايـا حبـوب منهُمُ سقطت، فللبقـــايـــا ببغـــدادٍ منـــاقير
طـــارت من الغـرب، والأطماع أجنحـــة، والغـــايـــة الشرق، واللّفـظ الــدّنـــانير

وقال في نهضة العرب:

يـــا عـــربُ، أين جيـــادكـم، وهي التي لم يثنهـــا في الـــروع جـــذب عنـــان
النـــاشرات من السبيـب مـــراوحـــاً يخفقن فـــوق منـــاكب الفـــرســـان
سل عـن جـــوانبهـــا: إلى كـم غـــرّبت مـــا بين ذي قـــار إلى حلـــوان؟

أما نثره فناصع الديباجة، واضح البيـان، قديم الأسلوب، كثيراً ما يزينه بالسجع. وقد نقل له عبد المحسن شلاش نصّ رسالـة حررها باسم المشير أحمد فيضي باشا، قال منها:

«ليعلم مَن وعت أذنـه من قبـائل جزيـرة العـرب وعموم أهل القـرى والطّنب، أن مـرهـب الـدول، خلف الســلاطين الأول، نـاشر العـدل في الأرض، معــدن البسط والقبض، صــان الله تعالى ببركة وجـوده بيضة الإســلام من الصدع، وجعلكـم كسائر رعايـاه ملقين له بالطاعـة والسّمع. أمرنا بالصفح عن الماضي، وسرنـا نحوكم لننشىء الإصلاح بينكم والتراضي، ونخمد نيران الفتن، وننهج بكم أوضح سنن، فوطأنا، ولله الحمـد، أرضاً مـا لسوى المسلمين بها وطأة قـدم، ولا لغير الموحّـدين يخفق في بقاعهـا علم. ورأينـا أن نقـرع أبـواب مسـامعكـم بخطـاب الإرشـاد، ونجمع شملكم، أيها المسلمـون، على الصفـاء والاتحاد. مـا جئنـاكم إلا لنختبر صفـاتكم ونحقن دمـاءكم ونحكم بالقرآن الشريـف والسنّة النبويّة ونؤلف بين قلـوبكم، ومن العدل التأليف بين الرعيّة.

دعـوا الشحنـاء والبغضـاء واجتنبـوا المغـازي وسفك الـدماء، فأنتم ملّـة واحـدة، والمسلمون أخوة سواء. وادخلوا حقيقة في مجاز الإيفاء لتغمركم الحاقة في الرّضى من بعد تلك الواقعة. ولا تصيروا أغماد سيوفكم هـواديكم فتضعفون، وفوق الضعف تشمتون أعاديكم الكافرين. . .».

من شعر الشيخ جواد الشبيبي:

قال يتألم من داء الشيخوخة:

طبيبي، مـــا عـــرفـت عيـــاء دائي وأنـت معـــالـج الـــداء العيـــاء
وبي ألم يـــــــــــــؤرّقنـي، فتعـى يميني فيـــه عـن جـــذب الـــرداء
وحمّى خـــالطـت عـــرقـــاً بجسمي فبـــاتـــا مـــزمعين على اصطـــلائي
وكنـت خلقـت مـن مـــــاء وطينٍ فهـــا أنـــا صرت مـن نـــار ومـــاء
مللت العـــائدين وقـــد أمـــالـــوا إليّ رقـــاب إخـــوان الصفـــاء

وقالوا: إنّ صحّته ترقّت، ... فقلتُ: أرى انحطاطي بارتقائي
وقالوا: قد شفيت، فقلت: كفّوا ... فمن عللي تعاليل الشفاء
أرى شبحاً يسير أمام عيني ... لغايته فأحسبه ورائي
وآخر عن مظالمه تنحّى ... وأكره في مغادرة الشقاء.

وقال الشيخ جواد:

ألا قتل الإنسان، ماذا يريده ... وقد جاز حدّ المسرفين، أما يكفي؟
أبى أن يساوي نوعه في شؤونه، ... فجار على صنف ورقّ على صنف
وعالج، لا عن حكمة، ضعف نفسه. ... متى عولج الضعف المبرّح بالضعف؟

وقال:

عمّ السؤال، فلات حينَ سؤال ... أو ما كفتك قرائن الأحوال؟
انظر بتاريخ الزمان الحالي ... نظرات عينك في الزمان الخالي
تجدِ الظروف هي الظروف، وإنّما ... تتفاوت النظرات بالأجيال
يتخالف الإنسان في أخلاقه ... إمّا اغتدى متوافق الأشكال
والملح والعذب الفرات كلاهما ... ماء ولا كالبارد السّلسال
والدّوح نبت والثمار مناسب ... والكرم أكرم من عروق الضّال
والأرض تلك الأرض ما إن بدّلت ... بقوارع الأرجاف والزّلزال.
واحسرتا خلت البلاد، فهل بها ... من شاغل هذا الفراغ الخالي؟
تركوه مغزى يستهان، وإنهم، ... لو يشعرون، ربائق الأنفال
لا يفلتون براءةً من شعبهم، ... والمري من دمه دم القِيفَال[1]
جهل النّصيح عليَّ أثقل موضعاً ... من غلظة اللوّام والعذّال
رمق السّراب فجرّدت أثوابه ... عنه ليسبح في عباب الآل
واستعمر الجوّ البعيد خياله ... فبنى على الأوهام والآمال
حرث الجبال، وتلك ضيعة أشعب ... يستصعد التيّار من أوشال
عقد المنى سرجاً على متوهّم ... فجرى ولكن في مجال خيال
وكأنّه شحذ الهلال مهنّداً ... أو جاء معتقلاً مذنّب «هالي»

ثم قال:

---

(١) القيفال عرق في الذراع يفصد.

قـالـوا: أتتك من المشيب غـلائل ... جـدد تطـرّز في نهى وجـلال
فتَعَـرَّ عن بُـرْد الشبـاب، فإنـه ... صـدىء المفـاضـة، أقتم السّربـال
حتّى إذا مـلأ القميص معـاطفي، ... أبصرت منـه طـرائق الإذلال
فطفقت أهتـف، والمسـامع لا تعـي: ... مَـن لي بـردّ بـرودِيَ الأسمال؟
بـرد الشبـاب، لأنـت نشـرتي التي ... فيهـا فللت مضـارب الأهـوال
لـو في متـون العيس همّي لانثنـت ... ملسـاً رمين الأرض بـالأثقـال
ولـو أنها بـالطّـود عـاديَّ الـذرى ... لا نهار عـن دعص النّقـا المنهـال

وقال يتشوّق إلى أصحاب له في النجف:

أروح على جمر الغـرام كما أغـدو ... فـلا الـدمع يطفيه ولا يسكـن الـوقـد
وحيّرني النّـائي، ومـوطنـه الحَشَـا، ... فـلا قـربـه قـرب ولا بعـده بعـد
أحبّـاي بـالوادي المقـدّس، أخـذكم ... عليَّ طـريـق الصبر ليس لـه ردّ
تـذكّـركم قلبي فطـار شراره ... كأنّ حصـاة القلـب يقـرعهـا زنـد
وطلّق عينـي غمضهـا، فهي بعـدكم ... تعـدّ الليـالي والشهـور وتعتـدّ
تحبّب لي نجـداً عـروبـة أصلكم ... وأين مـن المغمـوس في دجلـةٍ نجـد؟
تنسّمتُ فيهـا نسمـة مـن ريـاضكم ... يعطّـرهـا شيـح الجزيـرة والـرنـد
على ضـوء هـاتيك الثنـايـا زواهيـاً ... أطـالع صحفـاً من عنـاوينهـا المجـد
خطـوط بأقـلام الـرمـاح مشجّـراً ... بها النّسب الـوضّـاح والحسب العـدّ
يلـذّ بعيني السَّهـد في ذكـريـاتهم ... كأنّ مـذاق السَّهـد في مقلتي شهـد
ومـن ظلمات اللّيـل بحـر يخيفنـي ... فـلا الجزر ينجيني ولا يُعْبَر المدّ
أرى سـاحل الإصبـاح يَبْيَضُّ رملـه ... فيضربـه مـوج الظـلام ويسـودّ
بماذا أخـوض البحـر، والبحـر هـائج، ... ولا سـاعـد يقـوى عليـه ولا زنـد
أمـانيّ نفسي أجهـدتنـي تعلّـلاً، ... وإنَّ التمنّي جهـد مَـن لا لـه جهـد

وقال أيضاً:

يسـائلني عن مـوطن العـدل جـائر ... ويعلم أنّ العـدل مـوطنـه اللّحـد
على يـده أدلاه بـالحفـرة التي ... تبلّج فيهـا الحقّ وابتسم الـرشـد
ويسـألنـي عـن كنـز درّي مخاتـل ... وفي يـده ممـا احتفظت بـه عقـد
لـو انبسطت كفّـي على قـدر حقهـا ... أقمت عليـه الحدّ لـو أمكـن الحدّ

وقال جواد الشبيبي من قصيدة له بعنوان «تَنهّدات»:

عبر الــــزمــــان استحلبت عبراتي ... وألانت الأيـــام صـــدر قنـــاتي
أنّى أعـــان على الجهـــاد بـــواحـــد ... وخطـــوبها يمـــلأن ستّ جهـــاتي
أنّـى التفتُّ رأيـت خطبـــاً هـــائلاً ... فكـأنما الأهـــوال في لفتـــاتي
وإذا أردت صراعهـــا في نهضـــة ... عـــاقتني الأيـــام عـن نهضـــاتي
نفسي لماء الـــرافـــدين يسيلهـــا ... نفس يصعّـــده جَـوى الـــزّفـــرات
يحيـا بـــه خصمي فأشرق بـــالــرّدى ... وأُذاد عنـــه وفيـــه مـــاء حيـــاتي
لا دجلتـي أمّ السّيـــول بـــدجلتي ... كـــلاًّ ولا هـــذا الفـــرات فـــراتي

ثم يقول:

ليَ من جَنَـاي ــ ومـا اقترفتُ جنايـة ــ ... أشـــواكـــه والقطـف عنـــد جنـــاتي
وا ضيعـــة الأكفـــاء بعـــد منـــاصب ... حفظت مقـــاعـــدهـــا لغير كفـــاة
ولـــوا الأمـــور، ولـو أطـــاعـوا رشـــدهم ... لسعـــــــــوا وراء الحقّ سعـي ولاة
من كـل كـــاسٍ يستجـــدّ لنفســـه ... حلـــلاً ولكن مـن جلـــود عـــراة
النّـــاهبي رمق الضعيـف وقـــوتـــه ... والقـــاتلي الأوقـــات بـــالشّهـــوات
قطعـــوا البـــلاد ومنهمُ أوصـــالها ... والقطـع يـــؤلم من أكـفّ جفـــاة
سكـــروا بخمـــر غـــرورهم والعـــامل (م) ... المجهـــود بين الموت والسّكـــرات
غـــزوا المصـــايـف والهوى يقتـــادهم ... لمســـارح الفتيـــان والفتيـــات
هم أغنمـــوا مغـــزوّهم وتـــراجعـــوا، ... أفهـــذه العُقبـى مـن الغـــزوات؟
مـــال تكفّلت الجبـــاة بعسفهـم ... إحضـــاره لخزائن اللّـــــذّات
نهب من الحُجُـــرات صِيـحَ بـــه، وفي ... عـــزف القيـــان يُـــرَدُّ للحجـــرات
طـــارت شعـــاعـــاً فيـــه أيـدٍ لم تـــزل ... مخضـــوبـــة بـــالـــراح في الحانـــات.

عبد المحسن الكاظمي

الشاعر العربي الذي عرف بالارتجال وطول النفس وجزالة الألفاظ، ولد في بغداد يوم الأربعاء ٣ كانون الثاني ١٨٦٦، وهو عبد المحسن بن محمد بن علي بن محسن بن محمد بن صـالح بن علي بن هـادي النخعي. وقـد درس في مسقط رأسـه ومـارس التجـارة والزراعة زمناً، ثم انصرف إلى مطالعة الكتب الأدبية وحفظ الشعر والنظم.

وقدم جمال الـدين الأفغاني منفياً من إيران سنـة ١٨٩١ فلازمه الكاظمي وأخـذ عنه

وتشرّب منه مبادىء الإصلاح. ولما خرج الأفغاني من بغداد أصبح الكاظمي موضع ريبة وتعقيب، فلاذ بالوكالة الإيرانية ثم غادر الزوراء خفية إلى البصرة ومنها إلى أبي شهر في الخليج العربي.

وقد عاد إلى بغداد بعد ذلك، ثم رحل من العراق سنة ١٨٩٧ فقصد إيران والهند، وألقى عصا الترحال في القاهرة (١٨٩٩). ونال الحظوة لدى الشيخ محمد عبده، واتصل بالمحافل الأدبية والقومية فكان موضع التجلّة والاحترام.

وقيل إن محمود سامي البارودي الذي عرف الكاظمي وقرّبه إليه بعد عودته من منفاه في جزيرة سيلان، قسّم شعراء عصره إلى طبقات فاستثنى الكاظمي واكتفى بالقول إنه «أمّة في الشعر وحده».

لكنه ضاق بمعيشته ولم يصب منها الكفاف. وقد قال وليّ الدين يكن في «تجاريبه»:

«علم من أعلام العراق، هو أبو القصائد المحبّرة والقوافي المحكمة، نزيل بمصر، مقيم في دار حزنه يعالج أيامه ويعاني شدائدها. وليس بمصر مَن يقول له: أين أصبحت، أيّها الأديب العظيم؟».

وتوفي في القاهرة في أول أيار ١٩٣٥

طبع الجزء الأول من ديوانه في دمشق (١٩٣٩) والثاني في القاهرة (١٩٤٨). ونشرت له: معلّقات الكاظمي (١٩٢٤) عراقيّات الكاظمي (١٩٦٠). وله كتب نثرية منها: البيان الصادق في كشف الحقائق، تنبيه الغافلين.

شعره:

من شعراء الطبقة الأولى، في شعره أنفاس البداوة ومتانة المدرسة القديمة. أما مواضيعه فأغلبها قومي وطني، يدعو فيها العرب إلى اليقظة والنهوض وينعى عليهم الغفلة والجمود.

هامَ الكاظمي بالحرية فقال:

مهما تباعد فهو منك قريب ... يوم له بين الضلوع دبيب
فإذا تباعد فالحبيب مبغّض ... وإذا تقارب فالعدوّ حبيب
لا فرق بين المشرقين سوى الذي ... يصفو به هذا وذاك يشوب
كالشمس ما بين الأنام مشاعة ... ولها شروق مرة وغروب

واستنهض همّة قومه فقال:

سيروا بنـا عنقـاً وشـدّا   سيروا بنـا ممسىً ومغـدى
سيروا فـرادى او ثنـى   والجمـع للغـايـات أجـدى
لا يقعـدنَّ بعـزمنـا   يـوم يـرينـا الهزل جـدّا

حتى يقول نادباً حال وطنه :

بـالله، يـا وطني، أجب   مـا بـال قلبك ليس يهدا؟
كـلٌّ يبـلّ غليلـه   ممـا رجـاه وأنت تصـدا
يـرضيك تصبح للخـراب   وكنت للعمـران مهـدا؟
يـا أيها الـوطن الـذي   نـادى بنيـه واستمـدّا
وأسرّ نـاراً كلما   قيـل اخمدي تـزداد وقـدا
ورمـى بكلتـي مقلتيـه   ولم يجد مـن ذاك بـدّا
يـدعـو كهـولهم كما   يـدعـوهم شيبـاً ومُـرْدا
لـك مـن بنيـك النّجـب   كـل غضنفـر وقّى وفـدّى
روّح فـؤادك واسترح   فبنـوك لا يـألـون جهـدا.

أحبّ الكاظمي البلاد العربية قاطبـة، وتوزّع قلبه بين موطنه العراق ومسكنه مصر. قال يحنّ إلى مسقط رأسه :

ألا خبر مـن ثنـايـا العـراق   يطلـع أو زورة تطـرق؟
هل الـدار بعـدي كعهـدي بها   يبـاكـرهـا العـارض المغـدق
أم البين أسلمهـا للبلى   وعـاث بها الـذئب والخرنـق
رعـى الله أهـل الحفـاظ الألى   كما لقـي القلـب فيهـم لَقُـوا
أحبّـاي، هـل كلـف شيّـق   ينـاشـده الكلـف الشّيّـق
وإن خفـق البـدر نحـو الحمى   نـزت كبـدي نحـوكم تخفـق
على حـرق أضلعي تلتـوي   ومـن علـق أدمعي تـدفـق

وقال يبارك مصر ويشكرها على رعايتها له :

تعـدّت صروف الـدهـر مصر وأهلهـا   ولا زال في أرجـائهـا البشر يسطـع
نعـم، أهـل مصرٍ، أنتـمُ خير أمـة   ومـا الخير إلاّ منكم يتفـرّع
لقـد شـاع عنكـم كل فضل وسـؤدد   وسـوف نـرى للفخـر مـا هـو أشيع

وتمنّى لو كان العالم بأسره عرباً :

ليـت الأنـام جميعهم عـرب   شبّـوا وشـابـوا بعـدمـا اكتهلـوا
أوليـت كـل المالكين لهم   عـرق بـذاك الأصل يتّصـل!

وقال يحنّ إلى مسقط رأسه بغداد:

أبغـــداد، لا فـــاتتك مني تحيّـــة ... يفسّر منهـــا مـــا أراد المفسّر
حنينـــاً إلى تلـك البقـــاع، إلى التي ... تطيـب، إلى تلـك التي هـي أطهـــر
حنينـاً إلى الـزّوْرا، حنينـاً إلى الصّبـا، ... حنينـاً إلى العـود الـذي هـو أنضر
حنينـاً إلى تلك القـرى وإلى الـذي ... يعشّي بهاتيـك القـرى ويبكّـــر
حنينـــاً إلى أرض حييت بتربها، ... ويـــا ليتنـي في ذلـك الترب أُقْبَرُ
هنـاك شبـابي قـد تقضّى، وهـا هنـا ... مشيبي، وفي الحالين أشكـو وأشكـــر
لقـــد زعمـــوا أني نسيت، وأنني ... غـــدوت بهٰذي دون تلك أفكّـــر
وكيف تـــراني نـاسيـاً ذكـر مـوطنٍ ... لـــه مـــورد في كـل سمع ومصـــدر؟
منى النفـس أن يلقى العـــراق وعـــزه ... مـن الخير مـــا يهوى ومـــا يتخيّر

مات عبد المحسن الكاظمي في مصر، فرثاه معروف الرصافي قائلاً:

أيها النـــادبـــون، غيريَ غُـــرُّوا: ... بـــرح اليـــوم للّبيب الخفـــاءُ
يُكْـــرَمُ الميِّت بـــالثنـــاء، وتحيـا ... عنـــدكـم في المَهَـــانـــة الأحيـــاء
إن جفتنـــا بـــلادنـــا فهي حِبٌّ، ... ومـن الحِبّ يستلـــذّ الجفـــاء
لم نَحُلْ عـن عهـودهـا مـذ جفتنـا، ... بل لها الـودّ عنـــدنـا والـوفـــاء
إنّما هـــذه المواطـن أمّ ... مُسْتَحَقٌّ لها علينـــا الـــولاء

وقال الزهاوي:

يـا بلبـل الشعـراء، مـالك صـامتـاً ... من بعـــد تغـــريـــد بشعـــرك مُشْجِنِ
قـــد سرت قبلي للـــرّدى متعجّـــلاً ... ولعلّنـــي بـــك لاحـــق ولعلّنـــي

وقال إبراهيم عبد القادر المازني: «وجـاء الكاظمي إلى مصر، وكان الأدب فيهـا قد أخذ يشيح بوجهه عن زيف المقلّدين والعابثين من المتأخرين، وينثني راجعاً إلى الشعر الجيّـد والشعراء المخلصين، فنـزل منـزل الكـرامة بين فحـول ذلك العصر. وزيّنت لـه الإقامة ففعل، وعاش في مصر كريماً أبيـاً لا يمتهن نفسه ولا يهين شعره. ولم يعرف عنه قطّ أنـه مدح أحـداً مبتـدئاً، وإنما كان يشكـر المستحق على الصنيع الحسن. واشتهـر بـالقـدرة على الارتجال مع المحـافظة على طبقـة شعـره. والارتجال عسير، وقـد تسعف القريحة بالبيت، ولكن الكاظمي كان يسحّ بالعشرات ولا يقصر عن المئات. ولا شك أن ضخامة محفوظه من اللغة والشعر، وطول اعتيـاده الإملاء حين ينظم، كانا ممّا أعانه على الارتجال. ولكن كثرة المحفوظ وحدهـا لا تكفي وعادة الإملاء لا تغني، ولا بدّ من استعداد خاص حتى تسعف القريحة وتؤاتي السليقة.

«وقد تغيّرت الدنيا في الشرق بسرعة تغيّراً ترك الكاظمي غريباً فيها. فهو لا يحسن إلا أن يقول الشعر، ولا يستطيع مع هذا أن يتكسّب به، وقد فطره الله على العزوف الشديد والإباء المرّ. فلا قدرة له على التزلّف والمصانعة، ولا قبول منه لحسنة أو صدقة أو معونة في صورة من الصور. وكان المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده يرعاه ويتفقده بانتظام، وظلّ مواظباً على ذلك كاتماً له حتى توفي. فلما مات الشيخ محمد عبده اضطربت حياة الكاظمي واصطلحت عليه الفاقة والعلة، ولكنه احتملهما وصبر على بلائهما صبر الحرّ الكريم. وبلغ من أمره في ذلك أن كثيرين من ثقاته كانوا يجهلون مكان بيته في العام الأخير من حياته، لفرط تكتمه حقيقة حاله وإخفائها حتى عن أقرب الناس إليه وأصدقهم ودّاً له».

هذا وقد قال الكاظمي معبّراً عن إبائه وتعفّفه:

لو على قدر همّتي واعتزامي ... صال نطقي بلغت كلّ مرامي
همّة ترهق النجوم وعزم ... ضارب في الجبال والآكام
وأراني أرى القلوب رواءً ... غير قلب ما بين جنبي ظام
وإبائي يرى من الضيم أن يحمل (م) ... في الدهر منّة للغمام...
ليس عيش الفتى زخاريف لبس ... وشراب مصفّق وطعام
إنما العيش أن تكون عظيماً ... عالي الذكر في الأمور العظام
ليت أمي، إذ بشّرت بغلام ... بعد لأي، لا بُشِّرَتْ بغلام
ولدتني مجسّماً من إباء ... وجلال ورفعة واحتشام
فترعرعت بين أكرم قوم ... شمخوا عزّة على الأقوام
ولأن أدبرت حظوظي أضحت ... حسناتي تعدّ من آثامي
أيها المشفقون، إنّ فؤادي ... أقصدته بها تصيب المرامي
فاثأروني بمهجتي أو دعوني، ... أنا عرّضتُ مهجتي للسّقام

حتى يقول:

ألمي إن خلوت من آلامي ... وسقامي متى فقدت سقامي
ما شكت لي الضنى عظامي لكن ... قام يشكو لي الضنى من عظامي
فإذا كانت الحياة كهذي ... فعلى هذه الحياة سلامي

تحدث عبد المحسن الكاظمي عن نشأته الأدبية فقال: «أدخلت في أوائل صباي بمكتب فقيهة بالبلدة، ثم خرجت منه إلى معلم فارسي لأدرس اللغة الفارسية، لأن آبائي تجار، وللعراق صلة تجارية بإيران والأفغان والهند، والتخاطب التجاري باللغة

الفارسية في هذه البلاد كثير. فمكثت عنده ستة أشهر أمكنني بعدها أن أقرأ وأكتب. . وذهبت إلى معلم عربي، ولكن ما لبثت أن خرجت من عنده. ثم أخذت أنظر في المخطوطات العربية والفارسية.

ولما بلغت الثانية عشرة من حياتي تطفّلت على موائد العلم بالكاظمية. وكان أخي محمد حسين مشتهراً بالأدب، فأخذت أطلع مثله على كتب الأدب، ولكن الأساتذة كانوا ينهونني عن ذلك بحجة أن هذه الكتب تشغل الطالب عن العلم وتؤخّره في تحصيله. فلم أستمع إليهم، ووجدت في نفسي شوقاً إلى الأدب والشعر، وصرت أكبّ على مطالعته في يومي الخميس والجمعة، وأكتب القصائد القديمة وأحفظها سراً حتى حفظت عشرة آلاف بيت. وحدث أن أخي وزميلاً له كانا يوماً يتطارحان الشعر وأيّهما غلب يكسب الرهان. وكان الاتفاق بين الفريقين على أن زملاء الرئيسين يتطارحون الشعر، فإذا عجز فريق منهم أنشد الرئيس بدله. ولما جاء الدور عليّ بدأت بهذا البيت:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي مَن به صمم

واسترسلت في المطارحة حتى عجز الزملاء والرئيسان. ومن ذاك الوقت كان المتطارحون يتنافسون عليّ، وكانت سنّي وقتئذٍ ستة عشر عاماً. وقد نظمت قصيدة غزلية يبلغ عدد أبياتها ٥٥ بيتاً لا أذكر منها الآن غير الشطر الأول، وهو:

أيها الرامي وما أجرى دما.

وبعدها نظمت عدة قصائد. ولكن أول قصيدة ظهرت لي كانت رثاء لأحد علماء العراق. وذلك أنه كان من العادة عندنا، إذا أريد رثاء أحد الموتى، وقف منشد خاص لتلاوة ما نظمه الشعراء من القصائد. وكلما أتى إلى قصيدة، قال له الحاضرون: لمن؟ فيقول: لفلان. فيردّون: أنعم وأكرم. أما إذا لم يرد الشاعر ذكر اسمه فإن المنشد يجيب الحاضرين عن سؤالهم بقوله: لبعض المحبّين.

«فلما أتى دور قصيدتي في ذلك اليوم الذي أريد رثاء العالم فيه، لم ينسبها المنشد إلي لأنّي صغير. وكان هناك في هذه الأثناء أديب كبير يدعى السيد إبراهيم الطباطبائي فنسب الحاضرون هذه القصيدة إليه. فحزنت وطربت في آن واحد. حزنت لأنّ قومي لا يفرّقون بين قائل وقائل، وطربت لاشتباه شعري بشعر أديب كبير. ولكن لم تمض مدّة حتى ظهر اسمي، وانقلبت الآية فصار الناس ينسبون إليّ كلّ ما يستحسنون. . ».

عبد المحسن الكاظمي:

ارتأى الدكتور إبراهيم السامرائي أن الشعراء الذين نشأوا في المواطن الشيعية كالنجف وكربلاء والكاظمية والحلة قد تأثروا بالشريف الرضيّ نقيب الطالبيين (٩٧٠ ـ

١٠١٥م) ودعبل الخزاعي (٧٦٥ ـ ٨٦٠م) والسيد الحميري (٧٢٣ ـ ٧٨٩م)، وفي مقدمة هؤلاء الشعراء عبد المحسن الكاظمي وجواد الشبيبي وولداه محمد رضا ومحمد باقر وغيرهم. وقد رأى السامرائي تأثير قدماء شعراء الشيعة ظاهراً في الطريقة التقليدية والروح البدوية ومراثي آل البيت.

والحقيقة أن لشعر الشيعة طابعاً خاصاً يتمثل في المراثي عامة وخصائص الحزن والتفجّع. على أن شعراء العصر الحديث فتحت لهم آفاق جديدة وسّعت شمول معانيهم ومواضيعهم مع احتفاظهم بالأساليب التقليدية القديمة، فقلّ تأثير الشريف الرضيّ وأمثاله من القدماء في شعرهم.

***

عبد المحسن الكاظمي: ممّن أخذ عنهم في النظم في صباه أخوه الأكبر الشيخ محمد حسين الكاظمي المتوفى في رشت من أعمال إيران سنة ١٩٣٦، والشيخ جابر الكاظمي المتوفى سنة ١٨٩٩، والسيد إبراهيم الطباطبائي الشاعر الشهير.

الكاظمي وثورة الحجاز سنة ١٩١٦

نهض الشريف حسين وأعلن ثورته العربية الكبرى على الأتراك خلال الحرب العظمى، فاستبشر بها الوطنيون العرب، ومنهم عبد المحسن الكاظمي الذي حيّا الثورة وقادتها بقصائد عامرة ومدح الملك حسين وأنجاله ورجاله أمثال جعفر العسكري ومولود مخلص وفؤاد الخطيب. قال في الملك حسين:

هـذا الحسين وذاك أوّل مَن دعـا ... والـرأس أولى بـالعـلا أن تـرأسـا.
ذو عـزمـة جعل الإلٰـه شبـاتها ... نقماً تصبّ على الطغـاة وأيـؤسـا

وقال أيضاً:

مليك، وهـل للعـرب مثل حسينهـا ... مليـك تـوالى مَنّـه وأبٌ بـرّ؟
أمحيي رجـاء العـرب من بعـد موتـه، ... أسيفك أمضـى أم عـزيمتـك البكـر؟

وكان الكاظمي في شعره من دعاة الحركة الوطنية المصرية ومريدي زعيمها سعد زغلول، مدحه في حياته ورثاه عند وفاته.

ورحب الكاظمي بمبادىء الرئيس وودرو ولسن وعدّها وسيلة لتحرير الشعوب، فقال يخاطبه:

عمـــرت مجالسنـــا بـــذكـــرك وانحنى لـــرفيـع قـــدرك ســـائر المعمـــور
وأراك قــــد حمّلت مـن أعبـــائهـــا مـــا فـــوق طـــاقـــة ألبهـــا وثبير
طهّــرت وجــه الأرض من بغي الــورى، ولـــربّ مـــاء كـــان غير طهـــور.

شعر عبد المحسن الكاظمي :

في شعر الكاظمي جزالة وفيه جرس موسيقيّ عذب كأنّـه صدى من ألحان الأجيال الغافية في الصحـراء. ولكنّك تفتقد في ذلك الشعر تلك الطراوة وذلك الـوهج اللذين تلمسهما في شعر المجدّدين من معاصريه كشوقي وحافظ ومطران والزهاوي والرصافي. ولعلَّ الأمـر يرجع إلى تطـويله في قصـائده وتكراره للمعـاني واستعماله لحوشيّ الألفـاظ وضيق آفاقه وثقافته القديمة. فإذا حلّلنا قصيدته:

سيروا بنـــا عنقـــاً وشـــدّا سيروا بنـــا ممسى ومغـــدى

نجـد أنها في أبيـاتها الستة والتسعين لا تخرج عن حثّ الأمـة على التقـدم والسير إلى الأمام ومجانبة التخلّف وتحفيز الهمم والالتفاف حول الوطن.

تفتّحت شـاعرية الكـاظمي واكتملت في العراق في أواخـر القرن التـاسع عشر قبل رحيله إلى مصر ومعايشتـه للنهضة الأدبية التي حمل لواءهـا البارودي وإسماعيل صبري وخلفاؤهم من بعـدهم، فكان أقرب إلى شعراء عصر الانحطاط المتـأخّر كحيدر الحلي وإبراهيم الطباطبـائي وجعفر الحلّي ومحمد سعيد الحبّوبي. وقد أفـاد من اتصاله بجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في التطلّع إلى آفاق فكـرية جديدة كالنزوع إلى الحرية والدعـوة إلى النهضة والعلم والعـدالة والاستقلال والـدفاع عن الإسـلام وذكر الشرق، وهو الاصطلاح الذي انتشر في مصر سابقاً لذكر العروبة وانتقل منها إلى العراق.

قال الكاظمي:

مهما تبـــاعـــد فهـــو منك قـــريب يـــوم لـــه بين الضلـــوع دبيب
لا فـــرق بين المشرقين ســـوى الـــذي يصفـــو بـــه هـــذا وذاك يشـــوب
هيهـــات يصبيني ســـوى حـــرّيـــة يصبـــو الشبـــاب لـــذكـــرهـــا والشيب
حـــريـــة الأمصـــار أنـت حبيبـــة في حبّهـــا يستعـــذب التعـــذيب
يـــا حبّـــذا يـــوم الجمال وحبـــذا يـــوم الـــوصـــال وأجـــره المكســـوب
يـــوم يعـــود بـــه لنـــا استقـــلالنـــا ويـــردّ فيـــه حقّنـــا المغصـــوب
حتّـــام نحتمـل المذلّـــة طـــوّعـــاً ولنـــا بـــآفـــاق البـــلاد وثـــوب؟
لا فـــاتنـــا عـــزّ الحيـــاة ولا عـــدت شعبـــاً تُـــذِلُّ بها الحيـــاة شعـــوب

وقال:

سيروا إلى الــــــــوطــن الموقّــى ... بـــــالنقـــــائب والمفــــــدّى
يـــــا حبّـــــذا وطـن أعـــــاد ... الفضـل في الـــدنيـــا وأبـــدى
يـــــا حبـــــذا وطـن يغنّـى ... بـــاسمـــــه أبـــــداً وَيُحْدَى
أوطـــــانـنـــــا أرواحنـــــا ... بـل إنها بـــالـــروح تفـــدى
أبـــداً نطـــالب بـــالحقـــوق ... حقـــوقنـــا أو نستردّا
أبـــداً نجـــاهـــد دونها ... ونكـــافح الخصـم الألـــدّا

وقال :

سيروا نُشِـــدْ لـــديـــارنـــا ... عـــدلاً يهدّ الظلـم هـــدّا
مـــا كـلّ مَن ســـاس الأنـــام ... قضـى فـــريضتهـــا وأدّى
شتّـــان مـن ســـاس الـــورى ... عـــدلاً ومن بهم استبـــدّا .
يـــا حبّـــذا العَلَـمُ الـــذي ... إن تقصر الأعـــلام مـــدّا .

ومن قصائده الشهيرة «العينيّة» التي تبلغ أبياتها ١١٤ عدّاً . يستهلّها الشاعر بمعنى عزيـز على شعراء الجاهلية ، وهـو إدارة الطرف في الأرض البلقع والبكـاء على الطلول ، وذكر الأحبّة الذين مضوا ، والشوق إلى أيام القصف والهناء ، والأسى لساعة الوداع . ثم يذكر سفره بالباخرة تاركاً المطايا في بواديها واقتحامه جيوش الأمواج التي ترتفع إلى عنان السماء ، حتى وصـوله إلى مصر ، يجاذبـه الحنين إلى وطنه في بـلاد الـرافدين والاستبشـار ببلوغه وطنِ الحريـة والنهوض . لكنه يشكو مقامه في دار الغربـة وضياع مثله في خضمّ الحياة الـدفّاقة . ويمضي إلى الإشـادة بمصر وأهلها الذين يصفهم بأنهم خير أمـة يتفرّع منها الخير والفضل والسؤدد . ويدعوهم إلى شحـذ هممهم وشدّ عرى أوطانهم والدفاع عن عزّهـا ومنعتها . ويتلذّذ حينـاً بالفخر بنفسه ، وهـو الأريحيّ السّميذع الذي يـزعزع فكره أبطال الوغى ، ويقول :

وكيف أخـــاف الخطب يســـودّ ليلـــه ... وأسيـــاف عـــزمي في دجـى الخطب لُمَّعُ
فكـم غمّـــة كشّفتهـــا وعظيمـــة ... تسنّمتهـــا ، والليل أســـود أسفـع

وينتقل من ذلك إلى مهاجمة المنـدّدين بالإسـلام المتحاملين عليه من رجـال الغرب ، وفي مقـدمتهم السياسي الأديب الفـرنسيّ جبرائيل هـانوتـو Gabriel Hanotaux الذي تعرّض للدين الإسلامي فردّ عليه محمد عبده وأفحمه .

والحقيقة أن الكاظمي في شعره جسر يصـل عصر الانحطاط بعصر النهضة الجديد ويضفي ثوباً من الديبـاجة القديمة على المعاني التي أخذ يردّدهـا شعراء الأمة المتفتحة على حياة العصر ، المتحفّزة إلى الوثوب واليقظة من غفوة الأجيال .

أحمد الفخري

شاعر الموصل وقاضيها السيد أحمد الفخري، وهو ابن محمود بن محمّد أمين بن محمّد بن حامد بن فخر الدين بن يحيى، ينتهي نسبه إلى النقيب السيد فخر الدين الأعرجي الحسيني. ولد في الموصل سنة ١٨٥٨ وتعلّم في كتاتيبها وحفظ القرآن، ثم درس العلوم العربية والدينية على علماء عصره كالملاّ علي الحصيري وعبد الوهاب الجوادي والشيخ محمد النقشبندي. قال الشعر وهو يافع، ثم برع فيه وتفوّق. ووظّف في المحكمة الشرعية كاتباً وأصبح رئيساً لكتّابها ودرّس في المدارس الأهلية والرسمية. وعيّن على أثر احتلال الموصل قاضياً (أول أيار ١٩١٩) ونهض بمنصب القضاء حتى عيّن وزيراً للعدلية في وزارة جعفر العسكري (٢٢ ت٢ ١٩٢٣ ــ ٣ آب ١٩٢٤). وانتخب نائباً عن بلده في المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) وأعيد بعد تخليه عن الوزارة قاضياً للموصل (٢ أيلول ١٩٢٤) حتى تأليف مجلس الأمة العراقي إذ اختير عضواً في مجلس الأعيان (تموز ١٩٢٥). وأدركته الوفاة في الموصل في ٩ تشرين الثاني ١٩٢٦

وقد عني بجمع شعره المتفرّق الأديب الفاضل السيد علي العلوي الذي استطاع أن يدوّن له نحواً من ١١٠ قصائد ومقطوعات في زهاء ٢٤٢٠ بيتاً. وصفه السيد العلويّ فقال: «كان وسيم الطلعة، معتدل القامة، عذب الصوت، كريم الخلق، أنيس المحضر، سريع الخاطر، حاضر البديهة، يرسل النكات من دون تكلف فيطرب لبراعتها الحضور، متواضعاً، محبّاً للغناء، مغرماً بالصوت الجميل».

كانت الموصل في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في عزلة وانزواء، فلئن كانت جزءاً من العراق، لقد كانت أقرب إلى حلب منها إلى بغداد. وكانت الرحلة إلى بغداد بطريق القوافل أو طريق الأرماث النهرية طويلة شاقة، فكانت الحدباء أوثق صلة بحلب الشهباء تتصل بها بأسباب تجارية وأواصر فكرية وروحية. فلا بدع أن حرمت الموصل النهضة الأدبية والوطنية التي لاحت بوادرها في بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني.

إن بلدة أبي تمّام قد غطت في نوم عميق خلال عصور الانحطاط، فلم ينشأ فيها سوى نظامين لهجوا بالمدائح والمراثي، حتى إذا ما بزغ فجر القرن التاسع عشر، ظهر شاعران لهما شأنهما في ذلك العهد، وهما عبد الباقي العمري وعبد الغفار الأخرس، لكن كليهما نزح إلى بغداد وتفتحت شاعريته فيها. وعرفت الموصل بعد ذلك شعراء مقلّدين كأحمد عزت الفاروقي (المتوفى سنة ١٨٩٢) والسيد شهاب الدين العلوي المليسي (المتوفى سنة ١٩٠٧) وداود الملاح (المتوفى سنة ١٩١١) والشيخ محمّد ضياء الدين الشعار (المتوفى سنة ١٩١٢) ونجيب جلميران (المتوفى سنة ١٩١٧).

في تلك البيئة المغلقة المنطوية على نفسها نشأ شاعرنا الفخري وقال الشعر، فنظم المدائح الإلهية والنبوية ونسج القصائد الصوفية والوجدانية وأجاد في الوصفيات والإخوانيات وجانب من المدائح والمراثي والموشحات والتخاميس. وقد أدرك القرن العشرين وأصبح وزيراً وعيناً في الحكومة الوطنية وعاصر الزهاوي والرصافي وسائر أساطين النهضة الأدبية الحديثة، لكنه كان أقرب بشعره إلى عصر الانحطاط السالف وأدنى نسباً إلى ابن الفارض وأقرانه من شعراء التصوّف والغزل الأقدمين، ذلكم أحمد الفخري الذي يقول:

هـــذا الغــرام وتلـك حــاجــر ... والــدمـع ليس عليــه حــاجــر
وبـــــروقهـم لاحـت فما ... لسحـــاب دمعك غير مـــاطـــر؟
أخـــلا فـــؤادك أم حـــلا ... لـك غيرهم أم أنـت صـــابـــر؟
أم مـــــاء عينـك جـفّ مـن ... حـــرّ الصبـــابـــة في الضمائر
أم رمـــــت كتمان الهوى ... والحبّ ليـس عليــه ســـاتـــر
وإلى مَ تكتـم لـــوعـــةً ... شهـــدت عليـك بها الظـــواهـــر
وعلى مَ لا تبـــدي الجوى ... أمـن الملامـــة أنـت حـــاذر؟
إن كـــان حبّـك صـــادقـــاً ... فـــدع العـــذول ولا تحاذر
اي والـــذي أحيـــا بـأسرار ... الهوى منّـــي السّرائر
أنـــا عـــاشـق أنـــا مغـــرم ... أنـــا ذو هـــوى في القلب ثـــائر
كيـف الحيـــاة بـــلا هـــوى ... إنّ الهوى أحـــد العنـــاصر
في الحبّ طـــاب تهتكّـي ... فهتكـت عـن سرّي الستـــائر
لا أرعـــوي، لا ألتـــوي ... لا أنثني بمـــلام زاجـــر
مـــاذا يقـــال ســـوى الـــذي ... قـــد قيل في مجنـــون عـــامـــر؟

وليس من ريب أن الشعر الصوفي في العهود المحافظة المتزمّتة تنفيس عن المشاعر الملتهبة، فإذا قرأت شعر الفخري الوجداني لم تدر أين ينتهي الحبّ الإلهي ليبدأ الإحساس العاطفي.

وشعر الفخري راتب النسق، مفرد النغم، قديم الوحي في معناه ومبناه، بيد أنه يفيض بالبوارق الوجدانية التي تهزّ النفس واللوامع الفكرية التي يرتاح لها الذهن. يختلط فيه الغزل المكرّر المبتذل بعاطفة حب صوفية تنبثق من صميم القلب، وتعبق موشحاته بأنفاس الأندلس الزكيّة.

يؤمن الفخري بالحبّ ولا يخشى فيه لوم اللائم ولا تقريح العذول، فاستمع إليه يقول:

إن كـــان حبّـك صـــادقـــاً ... فـــدع العـــذول ولا تحاذر

وهو يجاهد نفسه في الغرام فيوماً يذعن لها ويوماً يتغلب عليها:

لاح للنفس غيّهــا من هـــداهــا وبُهاهــا عـن الهوى قــد نهاهــا
وصحت بعــد سكــرة الجهـل، لكن بعــد فيهـا بقيّــة من صبـاهــا
هـي تـأبـى إلاّ الغـــرام وأأبـى أن أرى الــذلّ بـاتبـاع هــواهـا
فتراهـــا طـــوراً تميل عِنـــاني وتـــراني طـــوراً أطيل عَنَــاهــا

وقد نقل تفجّع الخنساء ونحيبها إلى لوعة العشق والهيام فقال :

ومـــا ذرَّ قـــرن الشمس إلاّ ذكــرتها وأذكـــرهـــا في وقت كـلّ غـــروب
وأذكـــرهـــا مـــا بين ذاك وهـــذه وبـــالليل أحــلامي وعنـــد هبـوبي
وقـــد شفّني شـــوقي وأبـــلاني الهوى وأعيــا الـــذي بي طبّ كلّ طبيب
وأعجب أني لا أمـــوت صبــابـــةً ومـــا كمـــد في عـــاشق بعجيب
وكـلّ محبّ قـــد ســـلا، غير أنني غــريـب الهوى، يـا ويح كلّ قــريب!
وكم لام فيهـــا مـنِ أخٍ ذي نصيحـــة فقلـت لــــه : اقصر، أنت غير مصيب
أتأمـــر إنســـانـــاً بفـــرقـــة قلبـــه؟ أتصلـح أجســـام بغير قلـــوب؟

وعارض ابن زيدون في نونيّته فقال :

جــدّ الهوى ومضـى حكم القضـا فينـــا فهل لنـــا في الضَّنى آسٍ يـــواسينـــا؟
هيهـــات مـــا مـن دواء للغــرام، فقـــد عـــالجت نفسي من داء الهوى حينـــا
وكيف ننسـى حبيبـاً روحنـــا امتـــزجت بحبّـــه وهــــواه كـــاد يضنينـــا؟
قـد لاح كـالبـدر، والأبصـار شـاخصـة إليــه، فـاحتلّ دون الحيّ نـادينـا . .

والموصل التي لبثت تغطّ في نوم هادىء هنيء متمسّكـة بأهداب التقوى والورع، لم تزل على مرّ العصور تلتمس متعها البريئة ونزهاتها الجميلة في زيارة قبور الأولياء والخروج إلى ضواحي دجلة التـي يسبغ عليها الربيع أثواب الخضرة والبهـاء لعقد مجالس الطرب والحبور بين الماء والخضراء وتحت زرقة السماء . فهذا محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل الذي نبغ بعد شاعرنا الفخري يصف أنس الربيع فيقول :

لقـــد ألبست قـــدّ الـــربيع يـــد المزنِ مـــلابس خضراً ذات لـــونٍ على لـــون
تفتحـت الأكمام عـن كـل زهــــــرة وزهـــــرة قلبي في كمائم مـن حـــــزن
نسيت، ومـــا أنسـى، بشـاطىء دجلـة لـــواعـج وجـد حـــرّكتهـا يـــد اللّحن
نسيت، ومـا أنسـى، أحـاديث صبـوةٍ يـــــردّدهـــــا سجـع الحمائم في أذني

ولئن كـان العبيدي قـد تـذكـر حبّه في مجالس الـربيع البهيّـة فـاستسلم إلى الوجـد والأسى، إنّ الفخري قد ألقى بروحه في تيّار الفرح والجمال الشامل فقال :

ويـــــوم تجلّى في الـــــربيع نهاره بُعَيْـــدَ حَيـــاً أحيــا الــربــوع انهماره
وقـــد كست الأزهـــار حلّـــة وشيهـــا أديم الحِمَـى فـــازدان منهـــا اخضراره
فنـــزّهـت في وجـــه البسيطـــة نـــاظـري فـــراق لـــديـــه حسنـــه وازدهـــاره
وجلتُ بـأكنـــاف الحمى متنـــزّهـــاً وقـــد فـــاح نشراً شيحـــه وعـــراره

وملت أريح النفس في ظلّ ربوةٍ ... يحلّي لجينَ الورد فيها نضاره

وهل يتمّ السرور في مجالس الطرب بغير العود والمزهر؟ فلنصغِ إلى شاعرنا يقول:

لو تسمع العود تدري ما الهوى وترى ... للروح أسرار وَجدٍ أودعت وترا
أريشة بيد العوّاد تخفق أم ... ذي مهجة الصّبّ، ليت الصبّ قد شعرا
وتلك أوتار عود دُقَّ فاضطربت ... أم ذي عروق شجيّ بالهوى استعرا
يجسّ جسّ طبيب نبض ذي مرضٍ ... عوداً يبثّ أنيناً يفلق الحجرا

والمعنى في البيت الثاني (أريشة بيد العوّاد. .) ينظر إلى قول الشاعر الدكتور نقولا فيّاض:

ليس «البيانو» الذي باتت تكهربه ... يداك أطوع من قلبي وأفكاري
لَمَسْته فتمشى السحر بي فكما ... تهتز أوتاره تهتزّ أوتاري
أصابع العاج هٰذي تلعبين بها ... أم تلعبين بأسماع وأبصار؟

وقديماً قال ابن الرومي:

غلط النّاس، لست تلعب بالشّطرنج ... لكن بأنفس اللّعباء
لك مكر يدبّ في القوم أخفى ... من دبيب الغذاء في الأعضاء

والفخري، بعد ذلك، شاعر مؤمن، سعيد بإيمانه، قويّ النفس بالله، فلنستمع إليه يتضرّع إلى العزّة الإلٰهية ويقول:

أيا ربّ، ما لي غير لطفك خيمة ... تقيني ممّا أتّقيه من الدهر
أيا ربّ، ظلّلني بفضلك واحْمِني ... بعزّك واشرح لي بنور الهدى صدري
أيا ربّ، واضرب لي سرادق عزة ... على عمد التوفيق في طنب النّصر
أيا ربّ، وامدد لي رواق عنايةٍ ... على خيمة العلياء في ساحة الفخر
أيا ربّ، واجعلني بفسطاط نعمةٍ ... أعيش بها في راحة سائر العمر

ولقد رأينا شاعرنا مولعاً بالبديع مغالياً في المحسّنات اللفظية، يطرّز شعره بالتشابيه والاستعارات الكثيرة. ففي هذه الضراعة إلى العزة الربانية جسّم الرحمة والعناية والتوفيق والنعمة بالخيمة التي تقي من الخوف وتؤمّن من الشر والعذابِ، فذكر السرادق والعمد والطنب والرواق. ورأيناه في قصائد أخرى يقرن فعل النهي بالنُّهى والحجى فيقول:

ونُهاها عن الهوى قد نَهَاها

ويجمع فعل الرؤية بالوتر قائلاً:

لو تسمع العود تدري ما الهوى وترى ... للروح أسرار وجد أودعت وترا

وأمثلة ذلك كثير في شعره.

ومن لطيف شعره في النزاع بين هوى النفس وحبّ الله قوله:

عجبت لها تجفـو، وتـدري بـوصلها حيـاتي وأني حيث تجفـو شهيـدهـا
فقـال النهى: لا تعجبنّ فحب مـا سـوى الله نـار في حشـاك وقـودهـا
سأتـرك للمـولى سـواه، فإن تكن حيـاتي على خَلْق فلست أريـدهـا

لكنه لا يلبث أن يستسلم إلى الهوى فيقول:

كلّ يـوم يمـوت بـالشـوق قلبي وبـذكـرى الحبيب يبعث حيًّـا
أيها النـاصح الخليّ اتّبعنـي في الهوى أهْـدِكَ الصراط السّـويّـا
كيف يصحـو ويقبل النّصح صبّ خـامـرتـه مـن الغـرام حُمَيَّـا؟

وامتزجت روحه بروح الحبيبة هياماً:

روحـان بعضهما ببعضٍ هـامتـا وجـداً، ولا إحسـاس لـلأشبـاح
روح إلى روح تـزفّ، وإنما ذاك الـزفـاف بعـالم الأرواح

ومن موشحاته الجميلة أنشودة الحبّ التي قال منها:

ذهبت في الكـون أنفـاس الصَّبـا بحـديث سلسـلته أدمعـي
سلسل الـدمع حـديث الشـوق عن
مقـل أحـرمهـا البين الـوسـن
عن فـؤاد يـوم جـرعـاء افتتن
بهوى مـن جـرّعـوه العطبـا بنـواهـم جـرعـاً في جـرع
والصبـا أهـدى حيـاة الأنفس
إذ بعَـرْف من شـذاهم قـد كُسِي
ثـم عـادت نفسـه من نفس
بسمـوم وهـي تحكـي لهبـا عـن سعير الشـوق بين الأضلـع.

ونراه في هذا الموشح وهو الشاعر الوجداني يغرق في الصناعة ويلبس ثوب المحدّث الفقيه. ثم يعود إلى حديث الهوى والحنين فيقول:

لم أكـن قبـل غـرامـي أعلم
أن جـرح القلـب لا يلتئـم
لائمـي، بـالله جـز حيّهُـمُ
وتبصّر ثـم عنّـف مـن صبـا ليـس مـن يبصر كـالمستمـع
نظـرات أعقبتهـا حسرات
في فـؤادي كـم لها مـن زفـرات
هـذه العين وتلـك العبرات
فـاسألَنْهـا زنـد وجـدي هل خبـا مـذ صبـا قلبي لـوادي الأجـرع؟

أنـــــــا والليـل ، إذا الليـل سجـى ،
في هـــــواهـم بين خـــــوفٍ ورجــــا
فـإذا مـــــا رقـــد النـــاس دجـى

وقضـى بـــــالأمـن كـلٌّ مـأربــــا		أتجافى عـن لــــــذيـــــذ المضجـع

لا تقـل : غــــاب ولا قـــــربٌ ولا
كـلّ بـــــدر بـــــازغ إن أفــــلا
هل تـــرى أنّـــا قطعنـــا الأمـــلا؟

لا، وإنّ عـــزّ لقـــاهم مطلبـــا		مـــا قلعنـــا منـــه سنّ الطمـع

إنّ أحمد الفخري قـد عاش في العصر الحديث ، لكنه في شعـره وغزله وتصوفـه كان يمتّ بصلة النسب الـروحي إلى أصحاب الموشحات الأندلسيّـة وإلى ابن الفارض وابن النبيه من أبناء القرون الخالية .

علي البـنّاء

الأُسْطَهْ علي البنّـاء الشاعـر الأمّي البغدادي تـرجم له علي عـلاء الديـن الألوسي في «الدر المنتثر» ونشر جانباً من شعره ، قال :

«هـو أعجوبـة بغداد في هـذا العصر، فإنـه ينظم الشعر مـع كونـه أمياً لا يقـرأ ولا يكتب ، ومشغول بصنعة البناء بعمله مكتسب» .

ولد علي البنـاء سنة ١٨٤٩ ، وامتهن حرفـة البناء، ونظم الشعـر الفصيح . وكانت وفاته ببغداد في ٢٤ نيسان ١٩١٨

وشعره تقليديّ جامد لا تتعدّى أغراضه المدح والرثاء وغيرهما . منه قوله :

أوجهك هــــذا أم سنـــا الشمـس لامع		من الشرق بـادٍ أم هـــو البــدر ســاطع؟
وذاك شـــذاك النـــافع العطـــر نـــافح		ببغـــداد أم نـــوع من الطيب ضـــايع
وهـــــذي معـــــاليك التـي وازر العلى		عــلاهـــا فأضحت وهـي شهب طــوالع
يسرّ حـــديث المجـــد يـــوم إيـــابـــه		بمـــدحي لعليـــاهـم تسرّ المســـامع
لقــد كــان وجــه العيش أسـود كــالحاً		ببعـــدك فهـــو اليـــوم أبيض نـــاصع

وقال في قصيدة له يمدح الوالي ناظم باشا عند قدومه إلى بغداد :

إليـك من الأمّـيّ وافتك مـــــدحـــــة		سرى ذكـرهـــا في نجـدهـــا والتهـائم

وقد دعي أحياناً علي المعمار البغدادي .

ذكـر لنـا التاريـخ الأدبي عدداً من الشعـراء الأميين منهم طـرفـة بن العبـد وغيره في الجاهليـة . أما في العصر العبـاسي فكان أشهـرهم نصر بن أحمد المعـروف بالخبـز أرزّي

المتوفّى سنة ٩٣٩م. كان يخبز خبز الآرز في مربد البصرة وينشد أشعاره الغزلية والناس يزدحمون على دكانه يأكلون خبزه ويستمعون إلى شعره.

عبد القادر العبادي

الشاعر عبد القادر بن عبد الله البزّاز العبادي المعروف بـ «عبد القادر شنّون»، عرف بالهجاء المقذع وروح الفكاهة والمجون، قال إبراهيم الواعظ:

إن كنت تهجو بأبيات منمّقة فإنني سوف أهجو هجو شنّون

ولد في بغداد سنة ١٨٦٥، ودرس على نعمان خير الدين ومحمود شكري الألوسيّين. ومال إلى النظم والظرافة شاباً، فلازم الفكه البغدادي الشهير عبد الله الخياط المتوفّى سنة ١٨٨٩ وحضر معه مجالس الأشراف ودواوين رجال الفضل والأدب.

ورحل إلى مدن العراق كالحلة والبصرة وحواضر الخليج، وزار الكويت والبحرين والحجاز انتجاعاً للرزق، ومدح الشيوخ والسراة. وعيّن قاضياً للقطيف فأصبح، كما قال عبد الله الجبوري في كتابه «من شعرائنا المنسيّين» (١٩٦٦)، ممدوحاً بعد أن كان مادحاً. لكن القضاء في تلك البلدة النائية لم يستقم له إلا شهوراً، وعاد إلى بغداد قبيل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨

عمل في الصحافة فتولى تحرير القسم العربي من جريدة الإرشاد التي أصدرها حسين فريد في شباط ١٩٠٩ ثم مضى إلى البصرة وحرّر جريدة إظهار الحقّ (أول حزيران ١٩٠٩)، وكان صاحبها قاسم جلميران. وعيّن كاتباً في المحكمة الشرعية براتب حسن، فقال ـ على ما رواه عباس العزاوي في الجزء الثاني من تاريخ الأدب العربي في العراق (١٩٦٢): «إن حظّي لا يحتمل مثل هذا الراتب، وهو مؤذن بقرب أجلي واستيفاء رزقي». وقد توفي بعد أشهر قليلة في البصرة في ٣ تشرين الثاني ١٩١٠ مصاباً بمرض الهيضة.

عاش عبد القادر شنّون بائساً عاثر الجدّ، ومات منسياً وتفرّق معظم شعره.

ولعلّه كان من حيث الفقر وسوء الحظّ والظرف والإقذاع في الهجاء أشبه بالشاعر المصري محمد إمام العبد (١٨٦١ ـ ١٩١١) صاحب حافظ إبراهيم، الذي قال:

أنا ليل، وكل حسناء شمس، فاقتراني بها من المستحيل!

شعره:

قال عبد القادر العبادي في جسر بغداد سنة ١٩٠٢:

هي الحضارة ما تعلو به الرتب وما سوى العدل في الدنيا لها سبب

وقد تخلّص إلى مدح السلطان عبد الحميد الثاني ووالي بغداد نامق باشا الصغير، ثم ذكر تشييده جسراً على دجلة:

كل البدائع جاءت في صناعته ... مستبدع الصنع، مأموناً به العطب
كأنه، ووضوح في طرائقه، ... مهنّد منتضى في متنه شطب
إن قال واصفه: فاق الحديد، فلا ... تعجب، فربّ حديدٍ فاقه الخشب

إلخ.

وقال في منارة سوق الغزل، وهي من بقايا جامع الخلفاء:

عُجْ بالرصافة وابكِ ربعها البالي ... وقف بجامعها إن كنت ذا بال
وانظر بعينيك في أطراف ساحته، ... هلاّ تجد أثراً من شامخ عال
فذي منارته في الجوّ شامخة ... كم أخبرت عنه في حالٍ وفي قال
جميلة ما رأى الرائي كرفعتها ... قامت على ساق تبجيل وإجلال
غريبة الشكل لا زالت تخبّرنا ... تغيّر الدهر من حال إلى حال
قد عشعش الذلّ في أعلى دوائرها ... من بعد عزّتها في حال إقبال
تمنطقت باسم بانيها مفاخرة ... أمثالها في زخاريف وأشكال

لقد أحبّ الكتاب واتخذه صديقاً وسميراً فقال:

كتابي، لا أروم سوى كتابي، ... فكم خفّفت فيه هموم ما بي
أجيل الطرف فيه فيجتلي لي ... مخائل حكمة في كلّ باب
إذا غمزت قناة الدهر قلبي ... أداوي في مباحثه مصابي
لئن أخطأت في فكري ببحثٍ ... ففيه قد هُديتُ إلى الصواب
وإن شاهدت من قومي جفاءً ... يسلّيني بأقوال عذاب

ولا ندري هل ملك كتاباً في حياته، وهو البائس الفقير، أم كان في المتربة كصاحبه جعفر الحلّي الذي قال:

ملكت فكرتي بِكار المعاني ... وإلى الآن ما ملكتُ كتابا!

وكان عبد القادر شنّون كثير التحسّر على آثار المجد العربي، يبكي على أطلالها ويسترجع ما مضى من صورها وأشكالها، فقال في المستنصرية:

يا دار، ما بال ربع العلم ينعاكِ ... فما دها في الورى أعلى مزاياك
يا دار علم عفت منها معالمها ... يد الخمول، فمن أفتى فأغواك؟
لهفي على ربعك المأنوس إذ خليت ... منه أفاضل حلّوا في ثناياك
لهفي على حلقات العلم ما صنعت ... أبحاث علمهم في ظلّ جدواك

وقال يندب أطلال سامراء:

هــذي مبــانيهم، فأين البــاني؟ فتكت بها وبــه يــد الحدثــان
خلت الــديــار فليس تلقى بينهــا غير الــوحــوش ومجمع الغــربــان
غــدرت بها أيــدي الــزمــان، كأنها لم تحوِ من حــور ومن ولــدان

وأعلن الـدستور العثماني فـاستقبلـه شاعـرنـا، كما استقبلـه غيره من رجال الشعـر والأدب، بالبشر والأمل، وحيّا مطلع عصر الحرية فقال:

ألا إن عصراً جــاء بــالحقّ مشرقــاً هــو العصر لا عصر من الظلم أغبر
رعى الله عصراً فيــه للحــرّ راحــة يقــول فــلا يخشى الأنــام ويظهــر
يبيت قــريــر العين، غير مفكّــر بما كــان قبل اليــوم فيــه مفكّــر

عبد المهدي الحافظ

عبد المهدي بن صالح بن حبيب الحافظ من أعيان كربلاء وتجارها وأدبائها، ينسب إلى أسرة خفاجية استوطنت المشهد الحسيني. وقد ولـد في كربلاء ودرس في معاهدها، وأخـذ العـروض عن الشـاعـر الشيخ كـاظم الهرّ، وتعلم اللغـات التركيـة والفـارسيـة والفرنسية.

انتخب رئيساً لبلدية كربلاء، ثم ناب عنها في مجلس النواب العثماني من كانون الأول ١٩٠٨ إلى كانون الثاني ١٩١٢ وتوفي بكربلاء في شباط ١٩١٦

نقل عباس العزاوي في الجزء الثامن من كتابـه «تاريخ العراق بين احتلالين» إن عبد المهدي الحافظ كان ذكياً ذا سلطة وجرأة، تـزعم في أثناء الحرب العظمى حركة انتقاض على السلطـات التركيـة، فأهين الموظفـون وأخــرجـوا من الحاضرة ولم يعـادوا إليهـا إلا بمساعدة حكومة بغداد.

وترجم له سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء»، فقال إنه شبّ شاعراً متوقد الـذهن، بليغ البيان، واسع الاطلاع، حفظ عيون الشعر العـربي، وكان خطيباً مفوّهاً. وكان ديوانه المطلّ على الـروضة الحسينية محط أنظار رجالات البلد وملتقى أهل الأدب.

امتاز شعره بالرقة والعاطفـة المرهفة. ونظم قصائدة في الغزل والتشبيب على الطريقة القديمة، منها قوله:

إلى الله أشكــو مــا أقــاسي من الجوى غــداة استقلّت بــالحبيب ركــائبــه
وأقفــر ربع طــالما كــان حــاليــاً بــه فخلت أكنــافــه ومــلاعبــه
فبتُّ أقــاسي ليلــة مكفهــرّة وليس سـوى الشِّعْرَى بها مَنْ أخـاطبـه
أكفكف فيهـا الـدمع، والـدمع مـرسل كغيـث همى لما ارجحنّت كتــائبــه

وأنـدب عيشـاً حـرّمتــه يـد النّـوى		وعــاث بـه من جـائر الـدهـر لاعبـه
وأذكـــر داراً طــالما بتّ آنســاً		بها بأغنّ مـاطـل الـوعـد كـاذبـه
غــريـــر إذا مــا قصّر الليل وصلـه		أمـدّت ليـالينـا القصـار ذوائبـه .
فمن لي بـــربع غــاب عنـــه ربيعـه		ومَن لي بقلـب ودّعتــه حبــائبـه

حـدّثني أحمد حامـد الصرّاف أن الحاج عبد المهـدي توفّي كهـلاً وكان ينظم الشعـر الرائق باللغة الفارسية .

محمد رضا الأصفهاني

الشاعر الفقيـه محمد رضا الأصفهاني النجفي ، وهو ابن محمد حسين بن محمـد باقر بن محمّد تقي . عـرفت أسرته بالزعـامة الدينية في أصفهـان ، وأمهم بنت الشيخ جعفر كاشف الغطـاء . وجدّه الشيخ محمد تقي صـاحب كتاب هداية المسترشدين في شرح معالم الدين .

ولد محمـد رضا في النجف سنـة ١٨٧٠ ودرس في معاهـدها . وقـد نظم شعراً كثيراً وألّف كتباً منها : نقض فلسفة داروين (في جزءين) ، الـردّ على البهائية ، وقاية الأذهان (في أصول الفقه) ، إلخ .

توفّي بمدينة أصفهـان سنة ١٩٤٣ وكانت له في شبابه صحبة ومطـارحات شعرية مع السيد جعفر الحلّي المتوفى سنة ١٨٩٧ ، فكتب إليه الأصفهاني معاتباً ومداعباً :

حللـتُ حِمى الحلّيّ ألتمس القِــــرَى		فكـــان قــراه الهجـــو والشتـم والسّبُّ
جــــزاء سنمار جــــزاني، ولم أكـن		لأصحـب إلاّ إذا خـــانني الصَّحْـبُ
ولم يـــرعَ لي حـقّ الإخـــاء وسبّني		ومـــا كـــان لي إلا محبّتــه ذنب .
وكـــان لآمـــالي ربيعــاً ومــربعــاً		إذا مـا الـورى قـد عمّهـا القحط والجدب
فقـل لأبي يحيى ، وإن هــــو ملّني :		وإحســـانِكـم مـــا ملّكم منّي القلب
(صــــدودكم وصـل وسخطكم رضـــا		وجـــوركم عــــدل وبغضكـم حبّ)

فأجابه الحلّي بقصيدة قال منها :

وحقّكُـم مـــــا ازورّ لي عنكـم جنـبُ		ولا حلـن أحـــــوالي ولا انقلب القلـب
صبـــوت إليكـم قبل أن أعــرف الصّبـا		ومـا كنـت لـولا طيب إحسـانكـم أصبـو
رأيتكـــم أحنــى وأعطـــف مــن أبي		عليّ وأوفى الصحب إن خـــانني الصحب
فقلت لنفسي : هـــا هنـــا ويحكِ احبسي		فهـذا المكـان الـرحب والمنـزل الخصب

وقـال في الأصفهـاني بعض أدباء النجف : «وللشيـخ آغا رضـا . حظ وافـر من الأدب ، وباع طـويل في النظم والنثر، وشعر رائق جمع فيـه بين ظرافة الفرس وفصـاحة العرب» .

وقال الدكتور علي الوردي في مقدمة الجزء الثالث من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» إن مجلة المقتطف كانت تنشر مقالات متسلسلة في شرح نظرية داروين بقلم الدكتور شبلي شميل. وحين وصلت المجلة إلى العراق، انبرى لها بعض علماء الدين في النجف يردّون عليها ويفنّدونها، وكان أنشطهم في ذلك الشيخ آغا رضا الأصفهاني والشيخ جواد البلاغي، وألفوا في ذلك كتباً ضخمة بأسلوبهم الجدلي. وقد أرسل أحدهم كتابه في نقد النظرية إلى شبلي شميل، ظناً منه أن هذا الرجل سيقتنع بسقم النظرية بعد قراءته للكتاب وسيعلن تركه لها، لكن شبلي شميل أرسل إليه جواباً مقتضباً هذا هو: «عذرك جهلك، والسلام».

عبد الحسين الحويزي

الشاعر الشيخ عبد الحسين بن عمران الحويزي ولد في النجف في حزيران ١٨٧٠ من أسرة هاجر جدّها الأعلى من الحويزة وأقامت في الغريّ منذ سنة ١٨٣١ درس على إبراهيم آل بحر العلوم الطباطبائي ومحمد حسين الكشوان وغيرهما من العلماء والأدباء.

وامتهن البزازة تجارة والده، ثمّ بارت تجارته فمضى إلى كربلاء في سنة ١٩١٧ وأقام فيها يعاني البؤس وشظف العيش ويتكسّب بشعره.

وتوفي بكربلاء في آب ١٩٥٧ وقد نشر جزآن من ديوان الحويزي (١٩٦٤ ـ ١٩٦٥)، كما نشرت له ملحمة باسم «فريدة البيان» (١٩٥٥) في مدح الرسول الأعظم وآل البيت.

وشعر الحويزي تقليدي قديم الطابع مواضيعه المدح والرثاء والغزل والهجاء والفخر وما ماثلها من الأغراض. وذكر سلمان هادي الطعمة في كتابه «شعراء من كربلاء» أنه عاصر الحبوبي والزهاوي والرصافي والهنداوي وغيرهم من مشاهير الشعراء وكانت له معهم صولات وجولات في ميدان الأدب.

من شعره في ثورة العشرين:

أيطلق شعبنا للزحف ساقا ... وكم خطب له الحدثان ساقا
لقد عقد الضغائن فيه خصم ... بخدعته ليحتلّ العراقا
فأورى فتنة عمياء شبّت ... ليصلي حزب جيرته احتراقا

إلخ..

الملاّ عثمان الموصلي

من أذكياء المكفوفين وآيات الفطنة وحسن التصرّف، الملا عثمان الموصلي المولويّ، كان حافظاً مقرئاً وموسيقياً شاعراً يجيد اللعب بالشّطرنج والعزف على العود وآلات الطرب.

وهو عثمان بن عبد الله السقّاء ابن فتحي بن عليوي آل الطحّان. ورجّح الدكتور عادل البكري، الذي ألّف كتاباً فيه سنة ١٩٦٦، أنه ابن عبد الله بن محمّد بن جرجيس من البوعلوان إحدى فرق الدليم.

ولد عثمان بالموصل سنة ١٨٥٤ لأسرة فقيرة، وفجع بوفاة والده وعمره سبعة أعوام، وكان قبل ذلك قد أصيب بالجدري ففقد بصره. وتعهده الوجيه محمود بن سليمان العمري بالرعاية، فهيّأ له حفظ القرآن وتعلّم مبادىء اللغة. ومضى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٨٨١ بصحبة أحمد عزّت باشا ابن محمود العمري ودرس على الشيخ داود النقشبندي وبهاء الحق. ودرس المقام وأصول الغناء على مغنّي الموصل، ثم اتصل بالمشهورين من رجال الفنّ في بغداد وأخذ عنهم.

ذهب إلى الحجّ، ثم عاد إلى الموصل سنة ١٨٨٦، وقصد استانبول (١٨٨٩)، وقفل راجعاً إلى بغداد. وشدّ الرحال مرة ثانية إلى قاعدة السلطنة والخلافة، وعرج على مصر سنة ١٨٩٥ فلبث فيها خمسة أعوام طبع في أثنائها كتبه وأصدر في القاهرة مجلة «المعارف» (١٨٩٧).

وفي سنة ١٩٠٠ مضى إلى استانبول، ثم قصد الشام وبقي فيها من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩ وأدّى فريضة الحج ثانية، وعاد إلى دمشق، ثم زار بيروت واستانبول ودمشق وحلب، حتى عاد أخيراً إلى الموصل في حزيران ١٩١٣

أخذ عنه فريق من المغنّين والموسيقيين في مصر ودمشق، منهم الشيخ سيّد درويش ومحمد كامل الخلعي وعلي محمود وأحمد أبو خليل القبّاني. وعلت له شهرة في دار الخلافة في قراءة الموالد وإحياء حفلات الذكر ومجالس الصوفية.

قدم بغداد في نيسان ١٩١٤ فعيّن شيخاً للقرّاء بمدرسة جامع المراديّة. وعرفت بغداد فضله، فكان محور حلقاتها وواسطة عقد أنديتها والمجلّي في محافل الأنس والطرب. ذكره إبراهيم الواعظ في «الروض الأزهر» بمناسبة عقد قرانه في تشرين الأول ١٩١٤، قال:

«ثم بعد أيام شرّف حضرة بلبل القسطنطينيّة ومصر والشام والعراق، الذي ذاع صيته حتى علا الآفاق، الأكمل اللوذعيّ والشاعر الألمعيّ المولويّ الملاّ عثمان أفندي الموصليّ حفظه الله إلى دارنا. وبعد تلاوة عشر من الكلام القديم، قال مؤرّخاً عام

القران، وفي الأبيات:

زفـافك، فـرع المصطفى وابن مصطفى، زفـاف على الـزُّهْـر السّواري بـه الفخرُ
تـوخّيت شمس الفضل عن جعفـر الهدى غـدت لك شمساً حيثُ أنت لها البـدر
شقيقك إسماعيـل أبـدي لـه الهنَـا وذلك بعـدي حيث لي عنـدكم ذكـر
بعـرسك هنّـان المنى قـال أرّخـوا: زفـافك، إبـراهيم، شـحّ بـه خير»

وقامت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ فكان للملاّ عثمان مواقف فيها محمودة شعراً وخطابة. وأدركته الوفاة ببغداد في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣

وقد أقيم لـه تمثال في مسقط رأسه الموصل سنة ١٩٧٠ رثاه عند وفاته عبد الرحمٰن البنّاء بقصيدة مطلعها:

رحلت، والصـدر بـالإيمان مـلآن، في ذمّـــة الله شيخ العلم عثمان

مؤلّفاته:

من مؤلفاته المطبوعة في استانبول والقاهرة: الأبكار الحسان في مدح سيّد الأكوان (١٨٩٥) تخميس لاميّة البوصيري (١٨٩٥) المراثي الموصليّة (١٨٩٧) مجموعة سعادة الدارين (١٨٩٨). ونشر أيضاً: الأجوبة العراقية لأبي الثناء الألوسيّ (١٨٩٠) الترياق الفاروقي (ديوان عبد الباقي العمري الفاروقي، ١٨٩٨)، إلخ.

قال عثمان الموصلي يمدح يوسف السويدي:

سلمنـا الخطـوب ونلنـا المرام ومقـدامنـا حلّ دار السّـلام
تنـاديـه أربـابنـا مـرحبـاً وأهـلاً وسهـلاً بمُـزْوي الأوام
بـآبـائه ضـاء نـور الهدى وفيـه سنحظى بصفـو المقـام

وقال فيه أيضاً:

رسـالـة البرق قـد جـاءت مبشّرة أهـدت إلينـا سروراً آخـر الـزمن
أنجى الإلٰـه عـزيـز المصر وانكشفت عنـه الظنـون وخـابت فـرقـة الضغن

ومن شعره الصوفيّ، قال:

بني المصطفى، قلب المتيّم قـد أبـدى لكم فـرط وجـد لا لسلمى ولا سعـدى

وقال:

قلبي بحبّكـم، والله قـد جـذبـا، وظـلّ فيكم عـن الأغيـار محتجبـا

ذكره الدكتور مصطفى جواد في بحث له عن الغناء والمغنين في العراق فقال: «.
وملا عثمان الموصلي الضرير كان من أعلام المغنين والموسيقارين، وله فيها تأليف، ويحسن قراءة المولد النبوي.

وكان من الخطباء المصاقيع في الحركة الوطنية بالعراق. أدركته، وكان يضع على رأسه القلنسوة المولوية البيضاء من اللّبد، توفي قبل عدة سنين».

وقال محمد هاشم الرجب استاذ المقام العراقي في معهد الفنون الجميلة ببغداد:

«الشيخ عثمان الموصلي. . وهو إمام أهل الفن في هذا المضمار (أي مضمار المقام العراقي) يبتدع القطعة ببراعة في الاسلوب ودقة في الأداء. يجيد الغناء بأفانينه، يرتجل الشعر الرصين في المناسبات حسب البحور اللازمة لكل مقام، كما يحسن الضرب على العود والنفخ بالناي والعزف على القانون. وهو كفيف».

وقال جلال الحنفي: «كان كثير الاسفار في البلاد والتجوّل فيها. وكان صوته غليظاً أجشّ وفيه بحّة ــ وإلى الملا عثمان تنسب عشرات التنزيلات والاشغال المولوية المستعملة اليوم في الموالد النبوية».

وذكره أيضاً ابراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون: أخبارهم ومجالسهم» باسم الشيخ عثمان البصير، فقال انه كان يتولّى تدريس علم التجويد والقراءات في جامع الخفافين ببغداد. ثم قال: «وكان حسن الصوت والأداء يخلب الألباب ويسحر العقول بنغماته الشجيّة، فضلاً عن كونه كان عالماً فاضلاً وشاعراً. وله إلمام في الموسيقى، وكان يحسن قراءة المولد النبويّ».

حدثني محمود صبحي الدفتري عن ذكاء الملا عثمان الموصلي فقال انه كان يعرف الناس من صوتهم أو لمسة يدهم.

قال الدفتري: سافر أبي فؤاد إلى استانبول سنة ١٩٠٥، فكان يجتمع دائماً بصديقيه موسى كاظم الباجه جي ووفيق الربيعي، فيأخذون الملا عثمان إلى بعض الأندية أو المقاهي ويتمتعون بفكاهاته ولطائفه. وذهبوا مرة إلى المسجد الذي كان يعظ فيه ويقرأ الأذكار، فلما أطال وأسهب، نبّهوه إلى وجودهم، فقال منغماً في أثناء ترتيله:

يا فؤاد، يا موسى، يا وفيق، إنني أنتهي قريباً، فانتظروني. وحسب الأتراك الموجودون في المسجد أن ذلك من جملة التراتيل فكانوا يردّون على أقواله: آمين، آمين!

ولم يلتقِ محمود صبحي نفسه بملاّ عثمان إلا في سنة ١٩٢٠ كان يسير بصحبة أحد أصدقائه، فتقدم محمود صبحي وسلّم عليه وصافحه قائلاً إنني أتشرّف برؤيتك لأول مرة، ايها الملا المحترم، ولكنني سمعت عنك الشيء الكثير من والدي. وتمايل جسمه يميناً ويساراً على عادته حين يفكّر، ثم قال على البديهة:

أوراق إخلاصي، إذا ما كتبت، تنشر في البلدان حسن الأسطر
كلّها محفوظة في مهجتي ومهجتي عند فؤاد الدفتري

الشيخ محمد السّماوي

من شعراء المدرسة القديمة في العراق وذوي البصر بالكتب والمخطوطات القاضي الفقيه، وهو ـ كما سمّى نفسه في تقريظ قديم لكتاب «الروض الأزهر» الذي ألفه مصطفى نور الدين الواعظ ونشره ولده ابراهيم الواعظ ـ محمد ابن الشيخ طاهر التركي الفضلي الشهير بالسماوتلي، ولد في بلدة السماوة على الفرات سنة ١٨٧٦ ولما بلغ العاشرة من عمره أرسله والده إلى النجف فدرس في معاهدها، ثم قصد سامراء ولازم عالمها الامام حسن الشيرازي. وعاد إلى مسقط رأسه سنة ١٨٩٧، ولبث متنقلاً بين السماوة والنجف حتى سنة ١٩١٣ حين قصد بغداد إذ أصبح عضواً في مجلس الولاية.

احتلّ الانكليز العاصمة العراقية سنة ١٩١٧ فبارحها إلى النجف، وعين قاضياً شرعياً بها في ٢٤ آذار ١٩٢١ ونقل قاضياً لكربلاء (حزيران ١٩٢٤) فبغداد (آب ١٩٢٥)، وعيّن عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري (١٩٢٦). وأعيد قاضياً جعفرياً في بغداد (كانون الاول ١٩٣١) فالنجف (شباط ١٩٣٤)، حتى أحيل على التقاعد سنة ١٩٣٥

وقد قيل إنه فصل من الخدمة وفقاً لأحكام قانون ذيل قانون انضباط الموظفين بناءً على مسعى السيد محمد الصدر، فداعبه محمد علي اليعقوبي قائلاً، بحسب رواية جعفر الخليلي:

قل للسّماوي الذي فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول) وأنت تضربك (الصدور).

وسكن السماويّ النجف بعد ذلك منصرفاً إلى عالم الكتب. وانتخب عضواً مراسلاً بالمجمع العلمي العراقي في ايار ١٩٤٩ وأدركه الحمام في النجف في ١٦ تشرين الاول ١٩٥٠

شعره ومؤلفاته:

نظم محمد السماوي الشعر، وهو في ميعة الصبا، فأكثر منه في الغزل والاخوانيات، ثم اقتصر في نظمه على مدح النبي وآله.

ومن مصنفاته: شجرة الرياض في مدح النبي الفيّاض (١٩١٢) ثمرة الشجرة في مدح العترة المطهّرة (١٩١٣) إبصار العين، في أنصار الحسين (١٩٢٣) ظرافة الأحلام (١٩٤١) تاريخ المعصومين، صدا الفؤاد (١٩٤١) عنوان الشرف في وشي النجف (١٩٤١) مجالي اللطف بأرض الطفّ (١٩٤١) وشائج السرّاء في شأن سامرّاء (١٩٤١) الكواكب السماوية في شرح قصيدة الفرزدق العلوية (١٩٤١) موجز تواريخ أهل البيت (١٩٦١) الخ.

ومن مؤلفـاته المخطوطـة: الطليعة في شعراء الشيعـة (ثلاثة مجلـدات) قرط السّمع (أرجـوزة في الـربع المجيّب). ونشر كتـاب المدهش في علـوم القـرآن والحديث واللغـة الخ. لابن الجوزي (١٩٣٠) ومقتـل الحسين للمـوفّق الخوارزمي (في جـزءين، ١٩٤٨).

نهج في شعـره على الطريقـة القديمـة، فـاستهلّ أماديحه متغـزّلاً، كما قال في مـدح الرسول الأعظم:

أخجلتَ جيـد الـريم بـالالتفـاتْ وفقت سلّ السيف بـالانصـلات
بسمـت زهـواً بشتيت اللّمـى فأيّ شمـل لم تـدعـه شتـات؟
تقـوّل النـاس بتحقيقـه والله قـد أنبت ذاك النبـات
ثغـر إذا لُحْنَ ثنـايـاه لي عجبتُ للـؤلـؤ وسط الفـرات
جـلا علينـا فمـه خمرة فهـاك، يـا سـاقي كأسي، وهـات

وقال في مدح علي السجّاد بن الحسين:

أبِـدِ لي مِمَّ احـورار المُقَـلِ أهـو مـن كحـل بها أم كحـلِ؟
بتُّ منهـا، وهي سكـرى، ثمـلاً هـل سمعتم ثمـلاً مـن ثمـل؟
تلفـت نفسي، أمـا يـرأف بي سـاحـر الأجفـان أو يعطف لي؟

وقال يتلهف على الشباب المدبر:

أبعـد أن عـرّى الصبـا أفـراسَـهُ تطلب إينـاس الهوى أو نـاسَـهُ؟
خفّض عليك فـالمشيب قـد أتـى يضحك منك كـاشراً أضراسـه
لم تـدع الخمسـون منك جـانبـاً إلاّ وهـدّ مـرهـا أسـاسـه
سـوّد لي غـض الشبـاب كُتُبَـهُ وبيّض الشَّيـبُ بها قـرطـاسـه.

وقال متغـزّلاً في مطلع قصيدة له مـدح بها السيد مصطفى نور الـدين الواعظ مفتي الحلة:

صليني، يـا أميمُ، كما قطعتِ وعـاصي العـاذلين كما أطعتِ
فـديتـك قـد شربت بماء وجهـي رضـاك فما رضيـت ومـا قبلت
أتيتـك أشتكـي فصفحـت عنـي كـأنّك مـا رأيت ومـا سمعت
تقـولين: السلـوّ بـه حقيـق عفـا الـرحمن عنـك، لقـد ظلمت
سلـوّي مثـل وصلـك مستحيـل فـإن أسلـو، ولن أسلـو، وصلت
أجـدّك هل علمـت طـويـل ليلي فإني قـد سهـرت ومـا سهـرت.

وقال في النجف :

ألمّ على ذكـــوات النجـف ... ولاحـظ بطـــرفك تلك الطُّــرَفْ
هــواءً نقيـــاً تحفّ النفــوس ... بطيـب هـــدايــا لـــه أو تحف
وتـــربــاً زكيـــاً يـــودّ الفـــؤاد ... يـــلاصقـــه مـن وراء الشغـف
وعـــرفـــاً ذكيـــاً بغير الكبـــا ... إذا الأنـف نـــاشقـــه وائتنـف .
وإخـــوان صـــدق رقيقي الطبـــاع ... تكـــاد طبـــاعهُـمُ تـــرتشـف
كماة كـــرام يـــرون الشرف ... بفـــرط الشجـــاعـــة أو بـــالسّرف
يـــؤلّفهـم جـــامع مـن ولا ... عليّ إذا مـــا القبيـل اختلف
كـأن الجماهير حـــول الضريـح ... حجيـج بمكــــة ذات الشرف
كـأنّ صفـــوفهـم في الصـــلاة ... أكـــاليل درّ بتـــاج تُصَـف
كـأن العلـــوم إذا دارســـوا ... بحـــار بأفكـــارهـم تغترف
سـل الصحـن كـم فيـــه مـن لائذ ... يقـــول عليّ لـــه : لا تخف
وكـم فيـــه مـن مستقيـل يقـــال ... لـــه قـــد عفـــا الله عمّا سلـف
وكـم فيـــه مـن ذاكـــر ربّـــه ... تقـــرّب بـــالمرتضى فـــازدلـف

ونظم محمد السماوي أراجيز في تاريخ النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء ، قال في مطلعها :

أحمد مـن قـــد أنشـأ السماءا ... والأرض وامتـــازهما إنشـــاءا
واختـص بعـض الخلـق دون بعـض ... بفضلـــه مـن السما والأرض .

قـال جعفر الخليلي : «لم يعـرف التـاريخ عالماً في العصـور المتأخـرة أحاط بـالكتب القـديمـة وتـواريخهـا ومـواضيعها وقيمـة الكتب الأثـريـة ونفـاستهـا كـالشيخ محمـد السماوي . فهـو في عصـورنـا المتأخـرة كمحمـد بن اسحق (ابن النـديم) صـاحب الفهرست في عصره ، فقـد كان السماوي مـرجعاً فـذاً في تثمين الكتب القديمـة ومظان وجـودهـا . وقـد جـاءتـه هـذه الملكـة مـن افنـاء عمـره الطـويل في جمع الكتب ، والمخطوطـات بصورة خـاصة ، وللكتاب في نفسـه منزلـة ما حاكـاها شيء معزّة وحباً وتقديساً .

ولقد روى الراوون عنه ، على سبيل الفكاهة ، قوله : إنه عمل قاضياً اكثر من ثلاثين سنة (كذا) ، وكـان يجنّب نفسه الاتصال بغير أصدقـائه الخلّص المنتقين ، وكان يرفض قبول أية هـدية من أي شخص . حذراً من أن تشوب حكمه شـائبة من العواطف .
لقد قـال : «لقد حاول الكثير إغـرائي بشتى الطرق فلم يفلحوا لأنهم لم يكتشفـوا نقطة الضعف في نفسي ، ولو عرفـوا قيمة الكتب عندي ومنزلتها في نفسي لأفسـدوا لي برشوة الكتب كل أحكامي !»

وكانت له مكتبة نفيسة جمع فيها المطبوعات والمخطوطات النادرة، ولقد طالما نسخ الكتب بخطه وجلّدها بيده ليضمّها إلى خزانته. وقد بيعت بعد وفاته وتفرقت مجلّداتها.

وللشيخ محمد السماوي رسائل ذات الديباجة القديمة، منها ما كتبه في مقدمة رسالة إلى المفتي السيد مصطفى نور الدين الواعظ سنة ١٨٩٨

كفى حزناً أني أرى الورد حاضراً — لديّ ولكن لا سبيل إلى الورد
وما كنت أخشى أن تكون منيّتي — بكفّ أعزّ الناس كلّهم عندي

السلام الذي تهدّلت أغصانه النواضر، وتهلّلت غمائمه المواطر، وتنافحت نسائمه العواطر، فضاء برقه، وضاع عبقه، وارتاح ودقه. والتحية التي تحيي القريض، وتشفي المريض، وتبرد القلب الرميض، وتلبس ثوب المجد الطويل العريض، فهي أقرّ على العين من رؤية الروض الأريض. والثناء الذي عذب رقيق لفظه وملح حرّ معناه، وحلا بيته على كل سمع ولذّ مغناه، فهو أنظر من برد الشباب، وأنضر من مواصلة الأحباب، يهديها وينيرها ويسديها:

مغرم ما تنفّست نسمات الجوّ (م) — إلا وهيّجت أنفاسه
وإذا ما الوميض لاح تلظّى — وثنى طرفه وأطرق راسه

وهي طويلة نشر نصّها في كتاب الروض الأزهر في تراجم آل السيد جعفر لناشره ابراهيم الواعظ. وختمت الرسالة بقصيدة طويلة في مدح المفتي، ومطلعها:

صليني، يا أميم، كما قطعتِ — وعاصي العاذلين كما أطعتِ

حتى يقول:

همام قد تفرّع من همام — بأصل طيّب في المجد بَحْتِ
لقد غرسته دوحة آل فهر — بأطيب تربة وأعزّ نبت
أطاب الخلق منه حسن خلق — وزان الصّمت منه حسن سَمْتِ
تجمّع في علاه كلّ وصف — وحاز على علاه كلّ نعت

الخ.

رضا الهندي

الشاعر رضا الهندي ابن السيد محمد بن هاشم الموسوي، ولد في النجف سنة ١٨٧٣، ودرس على محمد كاظم الخراساني المعروف بـ«الأخوند». وقد تفقّه في علوم الدين وقرض الشعر فجوّده.

كتب عنه جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» فقال إنه بارع النكتة، لطيف المحضر، لم تنحصر صفاته بالأدب، بل كان فقيهاً غزير المادة، واسع الاطلاع، له في العلوم الدينية، ولا سيما الردود على الذين تناولوا الدين الاسلامي، جولات وصولات. وقال انه ولع بالبديع ولعاً كبيراً، ووضع «مقامات» هي شعر إذا شئتها شعراً ببحور مختلفة وقوافٍ متنوعة، وهي نثر إذا شئتها نثراً مسجّعاً أو مرسلاً. وله تواريخ شعرية غريبة في بابها، ومن قصائده التي اشتهرت «الكوثرية»، ومطلعها:

أمفلّج ثغرك أم جوهر ورحيق رضابك أم سكّر؟

قد قال لثغرك صانعه: «إنا أعطيناك الكوثر».

وروى جعفر الخليلي طرفاً من لطائف رضا الهندي، ومنها أنه حكّمه ذات يوم في قضية أدبية ـ وكان يحسب نفسه محقاً فيها ـ فحكم لخصمه. وغضب الخليلي لذلك الحكم، فقال له الهندي: «إذا كنت تريد العراك وكنت شجاعاً، فيجب أن تبحث عن «تركي» حادّ المزاج لا أن تقصد «هندياً» بارد الطبع مثلي».

توفي السيد رضا الهندي في حزيران ١٩٤٣ في الفيصلية.

طبعت قصيدته الكوثرية في مدح أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، وطبع من مؤلفاته: بلغة الراحل، الميزان العادل بين الحق والباطل (١٩١٣).

عبد الحقّ الأعظمي

عبد الحقّ حقّي الأعظمي الشاعر الأديب ولد في الأعظمية من ضواحي بغداد سنة ١٨٧٣ ودرس في معاهدها. ثم مضى إلى الهند، وهو شاب، فعهد اليه بالتدريس في كلية عليكره (وهي مدرسة أنشأها في تلك المدينة سنة ١٨٦٤ السر السيد أحمد خان ليجمع فيها التعليم الاسلامي القديم إلى العلوم العصرية، وقد رفعت الى مصاف الجامعات سنة ١٩٢٠).

عاد الأعظمي إلى بغداد بعد الحرب العظمى الاولى ونشر شعره في المجلات والجرائد. وألف: أعجب العجب من أحوال العرب (طبع بالقاهرة، ١٩٢٢).

أثنى عليه الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة «المنار»، وقد عرفه حين زار الهند سنة ١٩١٣ وقال إن الأعظمي كان مدرس اللغة العربية في مدرسة العلوم الكلية.

سافر إلى مكّة فوافته منيّته بها سنة ١٩٢٤، كما يستفاد من رثاء له بتوقيع «زهير» نشر في جريدة الضاد البغدادية لصاحبها محمد صالح سليم السهروردي (في العدد الخامس المؤرخ ٢٥ آب ١٩٢٤)، ومطلعه:

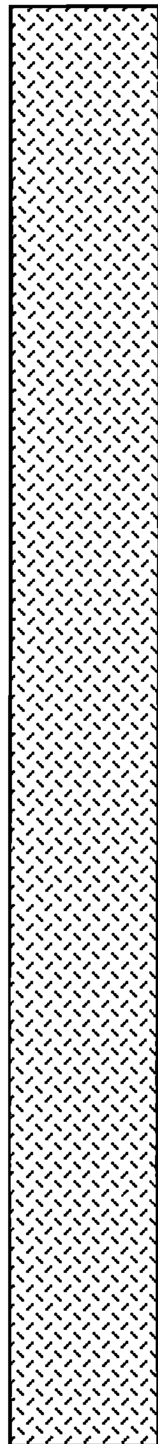
بكى العــراق بــدمــع ســال منسكبــا على الــذي يتَّم الأقــلام والأدبــا . .

تــالله قـد كــان عبــد الحقّ بـدر هــدى يهدي الــورى غير أنّ اليــوم قـد غــربــا

العلم مـن بعـــده قـــد بـــات منكسراً والشعــر من بعــده قـد صــار منعطبــا

والأعظميـــة في ثـــوب الحداد غـــدت تقــول: أين نــزيـل الهنــد قــد ذهبــا؟

منّــــا عليـك ســــلام كلما قـــرئت قصـــائد لك كـــانت تسحـــر الأدبــا



عصر النهضة

الشعــر

جميل صدقي الزهاوي

شاعر النهضة الأدبية جميل صدقي بن مفتي بغداد محمد أمين فيضي الزهاوي ولد ببغداد في ١٨ حزيران ١٨٦٣ وتوفي بها في ٢٣ شباط ١٩٣٦ كان نائباً في مجلس النواب التركي وعضواً في مجلس الاعيان العراقي. وقد ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية» ترجمة وافية. اهتم الزهاوي بتحرير المرأة واتخذ شعره أداة للدعوة إلى تثقيفها وانهاضها. وكانت شقيقته الآنسة أسماء الزهاوي من رائدات النهضة النسائية، إذ أسست «جمعية النهضة النسائية» في بغداد سنة ١٩٢٤ وانتخبت رئيسة لها. وعهدت بنيابة الرئاسة إلى السيدة نعيمة قرينة نوري السعيد.

عيّن الزهاوي على أثر احتلال بغداد عضواً بمجلس المعارف في أول ايلول ١٩١٨ واستمّر فيه إلى ٣١ تموز ١٩٢١ واختير في ١٩ شباط ١٩٢٠ مدرساً للّغة العربية بمدرسة الحقوق. وعيّن رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية في نظارة العدلية في أول آذار ١٩٢٠ حتى الغاء اللجنة في ٣٠ حزيران ١٩٢١

انتخب نائباً عن المنتفق في مجلس المبعوثان (١٩١٢) وناب عن بغداد في المجلس الذي تلاه. وقد عاد إلى بغداد قبيل نشوب حرب ١٩١٤ فبقي فيها ولم يعد إلى استانبول لحضور جلسات المجلس النيابي بخلاف زميله معروف الرصافي نائب المنتفق الذي لبث في العاصمة التركية إلى سنة ١٩١٩

وقد اشترك الزهاوي مراراً في مناقشات المجلس، فاعترض على جباية الضرائب من دور الفقراء واعفاء قصور الأمراء ووصيفات آل عثمان. وانتصر لحرية الصحافة عند بحث قانون المطبوعات فقال: أثبت تاريخ الأمم أنه كلما اشتد تضييق الخناق على حملة الأقلام والأفكار كان الانفجار عظيماً. وطالب الحكومة بجعل الأحكام العرفية تابعة للتمييز. وطلب جعل اللغة العربية لغة رسمية للمحاكم في العراق تحقيقاً للعدالة ولغة التدريس في المدارس. ودعا إلى تأسيس كلية طبية في بغداد أسوة بدمشق. وناقش شؤون الزراعة ودعا إلى العناية بها.

وذكر سليمان فيضي في مذكراته «في غمرة النضال» أن بعض القادة البحريين أوقفوا أوقافاً تصرف غلتها للأئمة الذين يقرأون البخاري في السفن الحربية. قال الزهاوي عند المذاكرة في ميزانية القوة البحرية إن البواخر تسير بالبخار لا بالبخاري وطالب بإنفاق

تلك الغلة على نشر التعليم ليتقن الناس استعمال البخار.

وفي مناسبة اخرى قال الزهاوي إن الآية الكريمة ﴿إنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ لا تعني بالصالحين العبّاد والنسّاك بل تعني الصالحين لإعمارها، وقوبلت كلماته بالضجيج والاستنكار والتكفير.

وكان في العهد الملكي عضواً بمجلس الأعيان (الشيوخ) (١٩٢٥ ـ ٢٩) فكانت الكلمات التي ألقاها ينصبّ معظمها على شؤون لغوية ولفظية. ولما انتهت عضويته في المجلس، وقد سقط بالقرعة، ولم تجدّد قال يخاطب نفسه:

سقطت فلا تحزن على ما فقدته، فما أنت بين السّاقطين بأوّل
فكم من وزير كان قبلك قد هوى (كجلمود صخر حطّه السّيل من عَلِ).

الزهاوي المتشكك:

كان الزهاوي متشككاً فحيناً مؤمناً وحيناً جاحداً وتارة اخرى لا أدريّاً. وقد استهوته نظرية التطوّر (أو كما كانت تدعى آنئذٍ: نظرية النشوء والارتقاء)، فطالع آراء داروين وهكسلي وغيرهما كما ترجمها «المقتطف» وعبّر عنها الدكتور شبلي شميّل والدكتور يعقوب صروف وفرح أنطون وإسماعيل مظهر. ونظم هذه الآراء في قصائده رغبة منه في التجديد كما نظم سواها من الأفكار العلمية والأخلاقية.

ولم يفهم نظرية داروين على حقيقتها، فظنّ أن الإنسان حسب نظرية التطور متحدّر من القرد فقال:

رجعت إلى الماضي البعيد بفكرتي وقلت لقرد الغاب: يالك من قرد
تقلبت في الأصلاب دهراً وبعده نسلت ابنك الإنسان نادرة الوُلْدِ

وقال أيضاً يخاطب الإنسان:

هل أنت إلاّ واحد من القرود في النسب؟
ألم تكن وأنت في طور الجنين ذا ذنب
مشابهاً جنين حيوان لو اسطاع وثب؟

وعلماء التطور إنما قالوا ان جدّ الإنسان والقرد كان واحداً قبل مئات الملايين من السنين، ثم اختلف النسلان على مرّ الدهور فأنجبا الإنسان والقرد في خط متواز كلاً منهما بمعزل عن الآخر. وقد قلت في ذلك:

يا قرود الغاب، نقريك السلام،
جدّنا كان لكم نعم الرفيق
أخرج الصوت شبيهاً بالكلام،

تــرك الأدغــال وارتــاد الطــريق .
زرع القمـح وأنـــواع النبـــات ،
شيّــد الــدور وقــد أحيى الفــلاة ،
وتعـــالى سيّـــد الأرض المطـــاع .
ومضى يـــومـــاً إلى الغـــاب البعيـــد
فأتـى بـــالقـــرد في طـــوق الحديـــد
هـــزأةً يسلـــو بــــه هم الصراع .

آمن الزهاوي بالعقل واتخذه نبراس الـوجود وحاول أن يستغني به عن الإيمان . لكن العقل قاصر يعجز عن ادراك منشأ الكون وخـاتمته وتصوّر اللانهاية المكانيـة والزمانية . وحار العقل في تعليل انبثاق الحياة وتطورها ، فاكتفى الزهاوي بأن قال :

مـــا حيـــاة قـــديمهـــا غير بـــاد لـــك الا تطـــــــــــوّر في الجماد

وقال :

رقيـت مـن الجماد فصرت حيـــــــاً تميّــز بـــالـــدراســـة والـــذكـــاء

وبينا نراه يكبر سلطان العقل إذا به يقول :

للكـــــون فيها بـــدا لي ظـــواهـــر وخفـــايـــا
مـــا قـــام فينـــا حكيـم يحلّ بعـض القضـــايـــا .

وهو يمعن في الإنكـار في «نزغـاته» التي نشرهـا هلال ناجي في القـاهرة (الـزهاوي وديوانه المفقود، ١٩٦٣) فيقول :

تـــوقّفتُ لا أدري تجاه الحقـــائق أأنّي خلقـت الله أم هـــو خـــالقـي؟
لئن وثـق الجمهـــور بـــالله خـــالقـــاً فـــربَّ حكيـم بينهـم غير واثـق!

لكنه في آخر الأمر يرتدّ نادماً ويستغفر قائلاً :

أنـــا فيما أبـــديتـــه من مقـــال مخطـيء ليس لي أقـلّ استنـــاد
شهـــد الله والملائكـــة الأبـــرار أنّي ركبـت غير السّـــداد .

وكذلك كان الزهاوي مؤمناً جاحدا لا أدريًا ، حكيماً حائراً متردداً ، جمع العبقرية في نقائضه وتقلباته .

جميل صدقي الزهاوي
روايـة ليـلـى وسميـر:

(نظمها سنة ١٩٢٧ ونشرها في مجلة لغة العرب)

يفتتح المشهد الأول بزينب تغني اغنية النوم لابنتها ليلى حين كانت طفلة :

نعست بعد الرضاع وللنعاس دواعي
تغفين فوق ذراعي والآن في المهد نامي

وهي أغنية رقيقة ساذجة العواطف تمثل نفس الشاعر الوجداني المحب للطفولة والبشرية.

ثم تكبر ليلى فيحبها الفتى سمير وتبادله الحب. ويلتقي الحبيبان على شاطىء دجلة في ليلة قمراء ويتحدثان في أمر الزواج. لكن الشيخ عبد الله رجل الدين الكهل الذي طلق نساءه الثلاث واحدة بعد واحدة يرسل الخطابات إلى أم ليلى فتردهنّ. ويحرّض الشيخ الوالي على سمير متهماً إياه بالطعن في الذات السلطانية، فلا يجد سمير مناصاً من الهجرة إلى خارج العراق وتقديم الشكوى إلى السلطان فيأمر هذا واليه بالكف عن تعقيب الفتى البغدادي.

يعود سمير إلى ليلاه ويستعد لعقد قرانه. لكن الرجل المسمي رجب الذي يتظاهر بصداقة سمير ويكشف أسراره للشيخ عبد الله يكتب نشرة مقلداً خط سمير وفيها حثّ على الثورة باسم الحرية. ويتهم سمير بالجريمة ويقبض عليه، بينما تمرض زوجته بعد ولادة عسيرة وتقضي نحبها. ويختتم شاعرنا روايته بقصائد حزينة أولاها لليلى في ساعة موتها، والثانية لزينب على قبر ابنتها. ويطلق سراح سمير بعد اعلان الدستور واطلاق الحريات، وقد مضى على نفيه عامان، فيعود ليرى طفله لأول مرة ويسمع خبر موت زوجته، فيلقي على جدثها قصيدة شجية:

هل ما أراه قبر ليلى ماثلاً يبدو أمامي
كذبوا فإنك في ظلام القبر يوماً لم تنامي...
سيظل طرفي هامياً يسقي ثراك على الدوام
ويظل قلبي خافقاً مما يقاسي وهو دامي

نوادر الزهاوي:

كان جميل صدقي الزهاوي في شبابه وكهولته مرحاً بعيداً عن التزمت واصطناع الوقار.

قال ناجي شوكت في كتابه «سيرة وذكريات ثمانين عاماً»: «كنت خلال هذه الفترة (سنة ١٩١٦) أتردد على دار العم مراد سليمان في أغلب الليالي. وكانت الدار المذكورة تضم من المداومين الدائمين السادة جميل صدقي الزهاوي وأحمد القيماقجي (من ظرفاء بغداد المعروفين) وعزّت الفارسي وعبد الرزاق الشيخ قاسم والدكتور سامي سليمان. وكان الزهاوي يسمعنا من شعره كلّ طريف ولذيذ، كما كان يسمعنا عن آرائه في الكون والعلم كلّ غريب، أما القيماقجي فكان يبتكر لنا الحكايات المضحكة التي تدخل السرور على قلوبنا».

ثم يذكر ناجي شوكت سهرات ليالي الجمعة في دار مراد سليمان الواقعة في الصليخ،

وهي سهرات أنس وطرب. قال: «وكان الزهاوي ينقلب في مثل هذه الليالي التي تمتد حتى الصباح إلى شخصية أخرى لا تمت إلى العلم والشعر بصلة. وعند الفجر كنّا نشكّل دائرة (حلقة) حول الزهاوي رحمه الله ونردّد الأغنية المعروفة «يا مسعد الصبحية».

ومن النوادر التي تروى عن الزهاوي أنه شوهد ذات ليلة في استانبول يسير في بعض الشوارع المشبوهة، وكان آنذاك يرتدي الجبّة والعمامة.

فرآه شرطّي من شرطة الآداب وقال له: أيها الخوجة (الملاّ)، ماذا أتى بك إلى هنا؟ وأصرَّ على أخذه إلى دار المشيخة الإسلامية. لكن شاعرنا تصنّع جهل اللغة التركية وأجاب بالفارسية أنه غريب وقد ضلّ طريقه. فأخذه الشرطي إلى دار السفارة الإيرانية وأخلى سبيله.

وكان الزهاوي يداوم الحضور في بغداد في مجلس محمد باشا الداغستاني. وكان لهذا القائد حديقة كبيرة ملاصقة لداره، وفيها أقفاص للأسود والحيوانات الضارية الأخرى. وكان من الذين يحضرون المجلس مدير الشرطة التركي، وهو رجل ضخم الجثة، شديد البأس، يبالغ في أحاديثه ويروي عن نفسه قصص بطولة عجيبة. وضاق الزهاوي ذرعاً بمفاخراته، فقال ذات يوم في المجلس الحافل: «هل تعلمون أن هرتز فلد العالم الألماني قد اكتشف في خرائب سامّراء آثاراً غريبة؟ وقد وجد في ضمنها صندوقاً أكل الدهر عليه وشرب ففضّه ووجد في داخله صندوقاً ثانياً وثالثاً ورابعاً. . »

وظلّ الزهاوي يواصل وصف الصناديق المحفوظة أحدها في داخل الآخر، فقال له الحاضرون: «وماذا كان في داخل الصندوق الأخير؟» قال: «وجد العالم في الصندوق الأخير ورقة عليها كتابة، فأكبّ على حلّ طلاسمها، فإذا فيها: لعن الله الكاذبين!».

وغضب مدير الشرطة وتحدى الزهاوي أن ينزل معه إلى قفص الأسد فيصارعه. وقبل الزهاوي التحدّي، فقام مدير الشرطة ونزع معطفه وقميصه واستعد للدخول في قفص الضواري، لكن الزهاوي أسرع بترك المجلس والخروج هارباً. وقد ضاق الزهاوي ذرعاً بأحد الكذابين فقال فيه:

ومدّعٍ بحياة البحر معرفةً ... ما حازها أحد في الأعصر الأولِ

فقلتُ: صف لي كيف الحوت ممتحناً، ... فقال لي: الحوت ذو قرنين كالجمل

وكان أصدقاء الزهاوي كثيراً ما يقسون في مداعبته. فمن ذلك أنه كان يحضر مجلس مراد سليمان صباح الجمعة، فأعدّوا له مهزلة أحكموا نسج خيوطها للسخرية منه. كان في بغداد رجل مهرّج يقلّد أصوات النساء، فاستدعي وكلّف أن يرتدي الملابس النسائية ويضع على وجهه النقاب ويأتي إلى دار مراد بك صباح الجمعة ليطلب مواجهة الشاعر الفيلسوف.

وفي ذلك الصباح، والمجلس حافل بزوّاره من أعيان بغداد وأدبائها، والزهاوي

جالس يبهر الحاضرين بشعره ونوادره، إذا بامـرأة محجبة تدخل إلى باحة الدار وتصرخ بصوت نسائي رفيع «اين جميل الـزهاوي؟ لقد وعد بزيـارتي مراراً وأخلف وعده. .» واستمّرت على الصراخ بكلام في هذا المعنى، والزهاوي يقول: «والله لا أعرفها، ولم أرها من قبل»، ويطلب من صاحب الدار أن يجدوا له مخبأ وأن يصرفوا تلك المرأة الرعناء.

وبعد ضحك طويل هدّأوا من روعه وجاؤوا بـالمرأة وأمروها برفع حجابها، فإذا هي رجل يسعى.

وكـان الزهـاوي يقـرأ شعـراً له في مجلس محمـود صبحي الـدفتري فـانتقده عـارف حكمت. فقال الزهاوي: إذا دخل عارف في الأدب فإننا نخرج عن الأدب!

ونظم الشـاعر قصيـدة وأبردهـا إلى مجلـة الهلال المصرية للنشر، ولم يكـد يرميهـا في صندوق البريـد حتى بدا لـه أن يغيّر كلمة فيها، فأسرع إلى الـدكتور فائق شـاكر مـدير البريد والبرق العـام وقال له: أرسلتُ قصيدة بـالبريد إلى مجلة الهلال في القاهـرة اليوم وأريد أن أصحّح بعض أبيـاتها، فأرجو أن تأمر باستخـراج الرسالة واعـادتها إليّ. قال المدير العام: إن استخراج رسالتك، يـا استاذ، من بين آلاف الرسائل المبردة أمر عسير والأفضل أن تردفها برسالة ثانية تصحّح فيها ما تريد تصحيحه. قال الزهاوي: ولكنني لا أريد صاحب «الهلال» ومحرريها أن يعلموا أنني أصحح قصائدي بعد نظمها!

واضطر الدكتور فائق شاكر أن يأمر موظفيه بفرز الرسائل المبردة إلى مصر واستخراج رسالة الزهاوي و إعادتها إليه.

وقـد حيّا الفنـانـات والفنـانين المصريين الذين قـدمـوا إلى العـراق، وعمره يقـارب السبعين، بقصائد عاطفية كفـاطمة رشدي ويوسف وهبي ومحمد عبـد الوهاب ونادرة وأم كلثوم وغيرهم.

وقال:

ليـــس الحديـــث عـن الهـــوى ... مـن شـــاعـــر شيخ جـــريـــرة

واعترض عليه بعض المتزمّتين فقال:

يـــريـــدون أن أحيـــا بعيـــداً عن الهوى ... فـــلا تبتغي عيني الحســـان النواهـــدا
يــريـــدون أن لا أهبط الـــروض منصتـــاً ... لشـادٍ وأن لا أطـــرّي الـزهـــر حـــامـــدا
ومـــــا كنت في دنيـــــا إليّ حبيبـــــة، ... وإن كـــدت استـــوفي الثمانين، زاهـــدا
أجل، كنت عينـــاً في زمـــاني ونـــائبـــاً ... ولكنني مـــا كنت للـــذوق فـــاقـــدا

الزهاوي في مهرجان الفردوسي:

أوفد الزهـاوي لتمثيل العراق في مهرجان الفـردوسي الذي أقيم في طهران في تشرين الأول ١٩٣٤، وكان معه «تلميذه» أحمد حامد الصرّاف.

ألقى الزهاوي قصيدة رائعـة بالفارسية في المحفل الذي عقد برعايـة رضا شاه بهلوي وحضور رجال الدولة والادب والمستشرقين. وكان قـد أعدّ القصيدة في بغداد قبل سفره وقـرأها على فهمي المدرّس فـاستحسنها. ولما فـرغ الزهـاوي من القائهـا ضجّ المجلس بالتصفيق، وقام إليـه الصدر الأعظم رئيس وزراء إيران فقبّل يده تقديـراً لأدبه واعترافاً بفضله.

عاد الزهاوي إلى الفندق فاستدعى إليه الصّراف وقال له: يا ولدي أحمد، هل رأيت الصدر الأعظم وما فعله حينما فرغت من انشـاد قصيدتي؟ قال: أجل، يا استاذ، رأيته يسحب يدك على ملأ من القوم ويقبّلها. قال الزهاوي: احفظ ذلك جيداً، يا ولدي، فأنت شاهدي الوحيد في بغداد!

حدثني أحمد حامد الصرّاف ان عبد الاحد حبّوش أصـدر مجلة أدبية باسم «الزنبقة» سنة ١٩٢٢، فقال له: أرجو أن تعرفني بالزهاوي لكي أسأله نشر شعره في مجلتي.

قال الصراف: اخذت عدد المجلة فوجدته مصدراً بقصيدة لمعروف الرصافي، فقلت لصـاحبي: هلّم نذهب إليـه الآن. وذهبا إلى داره، فأعطى الصراف العـدد إلى الخادم وقال له: إذا جلسنا بضع دقائق فجيء به وسلمه إلى الاستاذ.

وقدم الصراف صـاحبه إلى الـزهاوي وقـال انه من الشبـاب الناهض المثقـف، وقد أصدر مجلة أدبية راقية، وهو يرجوك أن تعطيه شيئاً من شعرك الجديد لنشره.

سرّ الزهـاوي ورحّب بالأديب وقـال له: اننا بحـاجة إلى مثل هـذه المجلات كي لا نكون عالة على المصريين واللبنانيين.

وفي تلك اللحظة دخل الخادم وقدم المجلة إلى الـزهاوي، فقال الصّراف: هذا عدد المجلة واسمها «الزنبقة».

وأخـذها الشـاعـر وفتح صفحتهـا الاولى فوجـد قصيـدة الرصـافي تحتل منهـا محل الصـــدارة، فقـــذف بها في الهواء حيث دارت دورتين أو ثـــلاثــاً ثـم سقطت على الأرض. وقال: يا رجل، إذا كنت من أتباع الرصافي المعجبين به فلم تأتي إليّ وتريد نشر قصائدي؟ ألا تعلم أن في أوروبة لكل شاعر أتباعاً، فالذي يتأثر خطى فكتور هوغو لا يقصد لامارتين، وهكذا؟

وخرج حبوش خجلاً يجرّ أذيال الخيبة.

وأقول: زرت جميـل صدقي الـزهاوي مـرتين أو ثلاثاً قبيـل وفاتـه في داره ببغداد في الشارع الذي سمّي بعد ذلك باسمه. وكـان يشكو كثرة متاعبه الأدبية، ويقول ان نظم الشعر يـؤرقه ويهدّ من قواه. وقال مـرة ان مجلة «الهلال» سألته عن رأيه في شـؤون أدبية واجتماعيـة ومالـه عـلاقة بنهضـة الشرق، وهـو يعاني تعبـاً في الـردّ وفي ارشاد الأدبـاء والمتأدبين الذين يتـوافدون عليه لـلاستماع إلى آرائه. ومع ذلك فهو يشعـر بواجب أدبي عليه في رعاية الجيل الطالع وتوجيهه بالرغم من شيخوخته وعجزه.

معروف الرصافي

شاعر العراق معروف بن عبد الغني بن محمود ينتمي إلى قبيلة الجبارة القاطنة في أنحاء كركوك. ولد في بغداد سنة ١٨٧٥ وتوفي بها في ١٦ آذار ١٩٤٥ أقام الرصافي دولة للشعر في القرن العشرين وخلّد اسمه بين الشعراء الأفذاذ كالفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي، فسارت قصائده مسير الأمثال في الاقطار العربية وسحرت أجيالاً من شداة الادب. شبهه عبد القادر المغربي بالبحتري في مزية السهولة ونمنمة الديباجة، ولكن أين البحتري من معاني الرصافي والآفاق الرحيبة التي فتحتها النهضة الحديثة في ذهنه العبقري؟

وردت ترجمته الوافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث».

حينما ألفت الحكومة الوطنية في العراق لأول مرة منذ العهد العباسي السالف وأسند العرش إلى الملك فيصل الهاشمي، أراد العاهل القادم إلى وطنه الجديد إشراك اتباع المذهب الشيعي في الحكم شيئاً فشيئاً بعد أن كانوا بمعزل عنه في العهد التركي المتعصب لسنّيته. ولم يجد الملك ولا الانكليز رجالاً من الشيعة يليقون للمناصب الإدارية والوزارية أو يرضون بتبوّئها، فدعوا إلى الوزارة بعض رجال الدين والوجاهة الذين رفضوها في بداية الأمر ثم قبلوها. والتفتوا إلى الشعراء والادباء من الكهول والشباب، فهيّىء لمحمد حسن أبي المحاسن ومحمد رضا الشبيبي وأمثالهما أن يصبحوا من وزراء الدولة. أما الشعراء من أهل السنّة فلم يلوا من المناصب سوى التدريس وعضوية مجلس المعارف، واللجان العلمية، وكانوا بعد ذلك نواباً وأعياناً. وكان ذلك مدعاة لتذمر الزهاوي والرصافي وأمثالهما الذين نفسوا على زملائهم من الشيعة مناصبهم الوزارية.

شعر الرصافي أكثر من سواه باستهانة الملك والحكومة بأمره وعدم منحه ما يستحقه من التبجيل والإكرام. ومع أنه ظل يمدح ويرثي في كل مناسبة عرضت فإنه لم يترك التذمر والتمرد حين يجتمع بأصحابه وأخصائه. وقال سنة ١٩٢٢ يخاطب رجال الحكم:

يا مبعديَّ بظلم عن مناصبهم ... وقاطعين إلى ما أبتغي طرقي
علمت كلّ خفيّ من ضمائركم ... وماعلمت الذي ترضون من خُلقِ
ماذا يوافقكم من شأن صاحبكم ... حتى يكون لديكم جائز السَّبق؟
إن كان عقل فإني عاقل فَطِن ... أو كان حمق فإني أحمق الحُمقِ

وقال أيضاً متجنياً ناقماً:

لنا ملك وليس له رعايا ... وأوطان وليس لها حدود
وأجناد وليس لهم سلاح ... ومملكة وليس لها نقود

أيكفينا من الدولات إنّا		تعلّق في الديار لنا البنود؟
وكم عند الحكومة من رجال		تراهم سادة وهم العبيد
كلاب للأجانب هم ولكن		على أبناء جلدتهم أسود

وقال:

علم ودستور ومجلس أمّة		كلٌّ عن المعنى الصحيح محرّف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها		أما معانيها فليست تُعرفُ

وقال:

دار ذا الدهر مداره		فرأى الناس ازوراره
كم وزير هو كالوِزْر		على ظهر الوزارة!

وزار المس جرترود بلّ يعرض اخلاصه ويطلب الإقالة والعون، ثم يقول في الوقت نفسه:

لقد جمع الدهر المكايد كلها		بقدر كبير صيغ من معدن الخُبْث
فصاغ طباع الانكليز من الذي		تقاطر في الانبيق كالمطر الدَّثِ.

وحاول مغادرة العراق. فردّه عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء الذي كان يودّه ويرعاه. وقد شكا إليه حاله فقال:

أعبد المحسن السعدون، إني		أراك مناط أسباب الرجاء
لذلك قد أتيت إليك أشكو		رثاثة بزّتي وبلى كسائي
فقد رقّت ثيابي اليوم حتى		تكاد تذوب من مسّ الهواء

وما هذه النقمة وذلك التمرّد سوى مظهر من مظاهر العبقرية التي تعتقد أنها مستهان بأمرها غير حائزة للتقدير الذي تستحقه. لكن الحكومة لم تغفل أمره، فقد عيّنته مفتشاً بوزارة المعارف واستاذاً بدار المعلمين العالية، ثم انتخبته نائباً في مجلس النواب بالرغم من معارضته وتركه بغداد إلى بلده الفلوجة ليقيم فيها في رعاية الوجهاء من آل عريم.

وكان راتبه يكفي لسدّ رمقه وهو الفرد الذي لا عائلة له ينفق عليها. ولم يعدم أصدقاء أوفياء ومحبين مقدّرين لشأنه يسعفونه ويرعونه بلا منّ، ومنهم فخري الجميل وعبد اللطيف المنديل وخالد سليمان وحكمت سليمان ومظهر الشاوي.

ولما رأى نوري السعيد، الذي طالما مدحه الرصافي وهجاه، ان راتبه التقاعدي لا يقوم بأوده خصّص له جعلاً من المخصصات السّرية يذهب به إليه صديقه محمود السنوي في كل شهر. ومع ذلك هجاه فقال:

ان نـوري السعيـد قـد كـان قبـلاً آدميـاً فـرُدَّ بـالمسخ قـردا

ولم تقم حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية سنة ١٩٤١ حتى بادر إلى تأييدها والتنديد برجال الحكم السابقين .

لقـد كان الـرصافي كسـواه من الشعـراء متردداً بين السلب والإيجاب ، يرضى حينـاً ويغضب أحيانـاً لدواع نفسية وظروف طارئة ، مفيـداً من الفرص العارضـة وناقماً عليها ضائقاً بها ذرعاً في آن واحد .

وقد قـال مصطفى علي مؤرخ الرصافي وراويـة شعره ان الرصافي يعـاف الذل ويأبى الاستعباد ويأنف من الدنيّة ، ويكره الاستعمار ويجتويه فلا يرضاه لبلاده ولا لأمتّه . وقد حاربه ما وسعه أن يحاربه ولم يهادنه حتى فارق دنياه . وقال مصطفى علي ان الرصافي في شعره الـذي ندّد فيـه بالـوضع السياسي في البلـد إنما كان لـرغبة منـه في مصارحـة أمته والامتناع عن غشّها فيقول خلافاً لما كان يـرى ، فلم يكتم ما كان يشعر به بل كان يعلنه ويـذيعه لما طبع عليـه من الصـدق والاخلاص والشغف بـالحقيقـة . واستشهد بقـول الرصافي :

أمـا الحيـاة فشيء لا قـرار لـه يحيـا بي المرء مـوقـوتـاً إلى حين
سيّـان عنـدي أجـاء الموت مخترمـاً مـن قبل عشريـن أم من بعـد تسعين

ولقد حاول بعض الادبـاء والمتأدبين بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ أن يقولـوا إن الرصافي كان مضطهداً في العهـد الملكي معوزاً لا يجد من التقدير والـرعاية ما قد كـان أهلاً له . والحقيقة أنـه بالرغم من تنديـده بالملك ووزرائه في عهد الانتداب لم يفصل من منـاصبه الرسمية ولم يحرم من النيابة . وقيل انه كان في خـلال الحرب العالمية الثانية يبيع السكاير لسدّ رمقه . وحقيقة الأمـر ان راتبه التقاعدي والمخصصات السّرية التي كـانت تقدم له والاعانات السخيّة التي تـرده من محبّيه والمعجبين به كانت تزيد عـن حاجة رجل فرد لم يعرف بالإفراط ، لـولا أن خادمه عبد كان يستولي على مـاله ويسطو على المآكل النفيسة التي تهدى إليه ، كما ذكر ذلك تفصيـلاً مؤرخه مصطفى علي . وقد حـذر الرصافي كثيراً من خيانة خادمه ، فلم يهتمْ ولم يطرده .

أما قضية بيعـه للسكاير فالحقيقـة ان صديقة الشاعـر أنور شاؤل ، وقد كـان محامياً لشركة طبّـارة وعبود صاحبـة معامل السكايـر ، رأى أن يفيد الرصـافي بعد أن أصبحت السكاير تباع بأسعار باذخة في السوق السوداء ، فحمل الشركة على تخصيص كمية منها له في كل شهـر. وكانت تباع هذه السكـاير مباشرة ويقدم فـرق أثمانها إلى الرصافي دون مشاركة أو جهد منه .

وضع الرصافي قصصاً شعـرية استوحى مواضيعها من البيئة العـراقية المحلية . ونرى في الوقت نفسه الشاعـر المصري الكبير اللبناني الأصل خليل مطران (١٨٧٢ ـ ١٩٤٩)

ينظم قصصاً متعددة، غير أنه استمدّ مواضيعه من مصادر أجنبية وتاريخية كمقتل بزرجمهر ونيرون وشيخ أثينا وفتاة الجبل الاسود الخ.

محمد رضا الشبيبي

نابغة من نوابغ الشعراء المتأخرين وزعيم وطني معروف المنزلة، ولد محمد رضا الشبيبي في النجف في ٦ ايار ١٨٨٩ وتوفي في بغداد في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥ تولى وزارة المعارف مراراً وكان رئيساً لمجلس الاعيان ورئيساً لمجلس النواب وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ومجمع اللغة العربية في القاهرة ورئيساً للمجمع العلمي العراقي. ومنحته جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ مرتبة الدكتوراه الفخرية في اللغة العربية والدراسات الإسلامية. ترجمت له ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية».

قالت المس بيلّ في رسالة لها إلى أبيها تأريخها ٤ كانون الأول ١٩٢٠ أنها حظيت بزيارة ممتعة من الشيخ محمد رضا الشبيبي الذي عرفته سنة ١٩١٨ وقد ذهب فجأة إلى الحجاز وسورية حيث كتب مقالات شديدة ضدّ بريطانية في الصحف المحلية منتقداً طريقة حكمها لهذه البلاد. ويظهر أنه أصيب بخيبة أمل من جراء استقرار السوريين في ظل الحكم الفرنسي، فأتى يعبر عن قناعته بأن ما يفعله الانكليز هنا هو الصحيح. وقالت إنه رجل معروف وله قلم ساحر، فإذا تعاون معنا مجازفاً بأن يدعوه المتطرفون انكليزياً فقد يكون ذا قيمة لا تقدر.

الشبيبي والمجالس الادبية
في صيدا والشام:

قضى محمد رضا الشبيبي في ربوع الشام شهوراً سنة ١٩٢٠ فاجتمع بأدبائها من الشباب الناهض الذي حلم بالوحدة العربية واستبشر بقيام الحكومة الفيصلية. وعقد المجالس الأدبية في صيدا مع سليمان الظاهر وأحمد عارف الزين وأحمد رضا وأديب الزين والدكتور شريف عسيران وغيرهم. وقال فيها قصيدته:

عروس من البلدان ليس لها مهر ... ومصر سبتني لا الصعيد ولا مصر

والتقى في دمشق بشفيق جبري وخير الدين الزركلي وسائر ادبائها فقال قصيدته:

ببغداد أشتاق الشآم، وها أنا ... إلى الكرخ من بغداد جمّ التشوق

فباراها شفيق جبري قائلاً:

أحنّ إلى بغداد من أرض جِلَّقٍ ... وأسأل أهل الشام عن كلّ معرق

ونظم جبري قصيدته:

شط المزار فربع دجلة نازح ... دون العراق سباسب وأباطح

قال إنه القى هذه القصيدة في سهرة بدار الزركلي، فلما فرغ من إنشادها ظهرت الكآبة على وجه الشبيبي وقال: لولا أن قصيدتك أبكتنا لصفقنا لكل بيت.

ثم قضى الفرنسيون على الحكومة العربية وأخرجوا فيصلاً، فذهبت الآمال وتبددت الاحلام. فقال الشبيبي قصيدته «دمشق وبغداد» ومطلعها:

ماذا بنا وبذي الديار يرادُ؟ فقدت دمشق وقبلها بغدادُ

محمد رضا الشبيبي يعالج شؤون القطر:

قدم محمد رضا الشبيبي قبيل وفاته (في ٢٨ تشرين الاول ١٩٦٥) مذكرة إلى رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز أوضح فيها القضايا والمشاكل الخطيرة التي تواجهها البلاد. وأشار إلى الأحداث والكوارث التي حلت بها نتيجة تصارع الآراء وتضارب الاهواء وتشجيع التفرقة، وطالب بإجراء الانتخابات ليقول الشعب كلمته في الحكم. وقال ان الوحدة العربية هدف يتم باستفتاء الشعب عليه، وأشار إلى أخطار الطائفية المقنعة التي تفتّ بعضد الوحدةالوطنية. وقال ان الشعب العراقي انتقض أكثر من مرة على سياسة التفرقة النكراء وعمل منذ ثورته الاولى سنة ١٩٢٠ على اقامة حكم وطني ديمقراطي يسهم بإقامته وينعم في خيراته أبناء الشعب كافة لا يفرقهم عنصر أو دين أو مذهب. وشجب بعد ذلك سياسة المحاباة التي كانت نتيجتها تبوّء المقربين لمناصب الدولة وهم محرومون غالباً من المؤهلات والكفايات والاخلاص.

وطالب الشبيبي في مذكرته بدرس القضية الكردية درساً دقيقاً لصيانة الوحدة الوطنية وحقن الدماء وإعادة السلام والطمأنينة إلى الربوع الشمالية لأن العرب والاكراد شركاء في هذا الوطن يتقاسمون غرمه وغنمه. ودعا إلى تحرير النقابات من الضغط السياسي وتوكيد حقوق العمال. ثم التفت إلى الاشتراكية ونادى بلزوم مراعاة الواقع في شأنها، إذ أن تطبيقها بقرارات ١٤ تموز ١٩٦٤ قد أدى إلى تخبط الاوضاع المالية وارتباكها وزيادة البطالة وقلة الانتاج وتبذير أموال الدولة وتهريب رؤوس الأموال وعجز الميزانية. ودعا إلى الديمقراطية الاقتصادية قائلاً إنه «النظام الذي يلائم ظروفنا وحاجاتنا» وان الفروق الاقتصادية الواسعة خرق للعدالة الاجتماعية التي نؤمن بها.

وذكر انه يمكن العمل على تقليل تلك الفروق عن طريق توزيع الضرائب وزيادة مكاسب الطبقة العاملة ووضع خطة شاملة للتنمية وزيادة الدخل العام.

ثم تناول القطاع الزراعي الذي يمثل في نظره مصدراً أساسياً من مصادر الثروة العامة، فأشار إلى أخطاء قانون الإصلاح الزراعي ـ تلك الأخطاء التي أدت إلى تخلّف الزراعة، وطالب بإعادة النظر في أسس ذلك القانون وتطوير شؤون الزراعة وحماية الانتاج وتحديد واجبات الزراع وتعويض الفئات التي تم الاستيلاء على أراضيها. وطالب بعد ذلك بإصلاح نظام الضرائب، واستخلاص حقوق البلاد من شركات

النفط و إعادة النظر في تكوين الاتحاد الاشتراكي العربي الذي تنازعته الأهواء وأفضى إلى احتكار العمل السياسي وتطبيق مبدأ الحزب الواحد المعارض للديمقراطية.

ولا شك أنّ هذه المذكرة التي قدمها الشبيبي إلى السلطات المسؤولة قبل شهر واحد من وفاته كانت أروع خاتمة لحياته الأدبية والسياسية ووصيّته التاريخية لابناء البلاد في تلك المرحلة الدقيقة.

محمد رضا الشبيبي: شؤون واحاديث

تعرّفت إلى محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩٣٩ وتوثّقت صلتي به بعد اختياري عضواً بنادي القلم سنة ١٩٤٢ وكان هو رئيسه. وزادت هذه الصلة إحكاماً بعد ذلك، فكنت في سنواته الأخيرة أكثر من زيارته في داره والمجمع العلمي، كما كان يمر بمكتبي مرة أو مرّتين في الاسبوع حتى توفاه الله.

وأذكر أنه كان يلقى عندي في بعض الأحيان علي الشرقي، وكانت بينهما جفوة، فبادره الشرقي بالسلام والكلام حتى استقام ما بينهما وعادت مودتهما القديمة شيئاً ما.

كان الشبيبي يحضر مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة كل عام ويقضي في مصر شهراً أو بعض شهر، فإذا عاد حدثنا بطرائف مما شهده وسمعه. وقال لنا ان الدكتور طه حسين سأله ذات يوم: «لماذا كان العراقيون دائماً ثائرين لا يستقرون على حال ولا يرتضون حاكماً؟ فقد قرأت تاريخ العراق منذ الفتح الإسلامي حتى الآن، وقلما وجدت حقبة خالية من الفتن والقلاقل». فأجابه الشبيبي: «أتسمح لي أن أسألك أنا أيضاً؟ لماذا كان المصريون دائماً خانعين خاضعين؟ لقد قرأت تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي وقبله أيضاً، فوجدت المصريين دائماً يسترضون حكامهم مهما جاروا وطغوا ويخفضون الهام لكلّ متحكم فيهم حتى لشجرة الدّر!».

قال الشبيبي: وقد اغتاظ طه حسين لجوابي، لكن الحاضرين قالوا له: لا يحق لك الغضب، يا دكتور، فجواب الشيخ من طبيعة السؤال.

وقد قيل قديماً: إن العقل لحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك. ولحق الشقاء بالبادية فلحقت به الصحة، ولحق الخصب بمصر فلحق به الذّل.

وكان أمين هويدي سفير مصر في بغداد والذي دعي «المندوب السامي المصري» وقد أصبح فيما بعد مديراً للمخابرات ووزيراً لحربية جمال عبد الناصر كثيراً ما يزور الشبيبي ويسأله عن رأيه في الاتحاد مع مصر. فأجابه الشيخ بصراحة أن العراق لا يحب عبد الناصر وان الاتحاد أو الوحدة سابق للأوان. وقال له: بلّغ الرئيس عبد الناصر أن لا يغرّه كلام عبد السلام عارف (رئيس الجمهورية آنذاك)، فالعراقيون عازفون عن الوحدة بالرغم من حبّهم لمصر واعترافهم بمكانة الصدارة التي تتبوّأها في مجتمع الدول العربية.

وقد اشتد الخلاف بين عبد السلام عارف والشيخ الشبيبي حتى أنه أصبح رئيساً اسمياً للمجمع العلمي العراقي لا يستطيع الحلّ ولا الربط، وقد تولى الامور فعلاً نائب رئيس المجمع بتشجيع من الحكومة، فكان الشبيبي يأتي إلى غرفته في المجمع ويخرج منها دون أن يباشر عملاً.

ودعيت مجامع اللغة العربية إلى عقد مؤتمرها السنوي العام في بغداد، فانتهز الشبيبي فرصة دعوة وجهت له للسفر إلى عمان، فزايل بغداد إلى الأردن وعقد المؤتمر في غيابه. وعاد من عمان بعد انتهاء المؤتمر، فلم يكد يصل إلى داره حتى قضى نحبه في نفس تلك الليلة.

* * *

أصدر الكاتب السوفياتي كوتلوف كتاباً عن «ثورة العشرين» نقلها إلى العربية عبد الواحد كرم. وقد ذهب الكاتب إلى أن الثورة العراقية كانت ثورة عمال وفلاحين على الاقطاع والرأسمالية على الرغم من قادتها من شيوخ الدين والعشائر، ومنح العوامل الاقتصادية والصراع الطبقي أهمية بالغة في نشوب الثورة. وسجّل للشيخ محمد رضا الشبيبي آراء تؤيد ما ذهب إليه. فسألنا الشيخ عن تلك الآراء، فقال ما معناه: جاءني ذات يوم المؤلف بموعد سابق ومعه مترجمان رجل وامرأة، إذ كان لا يحسن سوى اللغة الروسية. وقد بحث معي عن ثورة العشرين وأسبابها، وكان يتكلم بالروسية فينقل المترجم كلامه إلى الانكليزية ثم تترجمه المترجمة إلى العربية، فأردّ عليه وينقل كلامي إلى الإنكليزية فالروسية ليفهم صاحبنا مآله. وكانت تلك طريقة متعبة فضلاً عن احتمال ضياع المعنى أو اختلافه خلال هذا النقل المزدوج.

وقد أرسل المؤلف نسخة كتابه بالروسية إلى الشبيبي بعد طبعه (وذلك قبل سنوات من ترجمته إلى العربية)، فاستعان بأحد الطلاب العراقيين لترجمة ما جاء فيه على لسانه. ولما اطلع على الآراء المنسوبة إليه استنكرها وتناولها بالنقد والتجريح.

وقد ناقش الدكتور علي الوردي، في الجزء الخامس من كتابه «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث» (القسم الثاني)، آراء كوتلوف في ثورة العشرين، فأبدى عدم موافقته على ما ذهب إليه المؤلف من نسبة الثورة إلى جماهير الفلاحين والبدو وعمال المدن. قال الوردي: «وأعترف أني، حين قرأت الكتاب، شعرت كأنه يتحدث عن ثورة غير الثورة التي عرفناها وأدركنا رجالها، وعن بلاد غير البلاد التي نعيش فيها». وأضاف قائلاً: «ويبدو أن كوتلوف حاول أن يصبّ ثورة العشرين في القوالب التي يحملها في ذهنه بغضّ النظر عمّا جرى في الثورة من وقائع مشهودة».

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه هاجم نوري السعيد، وهو رئيس الوزراء، في مجلس الاعيان وندّد بسياسته تنديداً شديداً، فوقف نوري يردّ عليه بحدة وانفعال، وقال ما معناه: ليس هذا كلام سياسي مسؤول بل هو خيالات شاعر وأوهام كاتب.

ولم يكن من الشبيبي إلا أن التفّ بعباءته وخرج غاضباً من القاعة. ولكن لم يحلّ المساء حتى فوجيء بزيارة نوري السعيد له في داره يطيب خاطره. وهكذا كان رجال ذلك العهد يميزون بين المناقشات والمهاترات السياسية والعلاقات الشخصية. وقال له السعيد: سوف يأتي يوم تترحمون فيه على عهدنا.

* * *

كثيراً ما كنت أسمع محمد رضا الشبيبي بعد ثورتي ١٩٥٨ و ١٩٦٣ يشكو ويترحّم

على عهد الملك ونوري السعيد.

قلت له: كنت معارضاً مزمناً تسلق الحكومات المتعاقبة بألسنة حداد، فما عدا مما بدا؟ قال: أجل، كنت معارضاً أتسقط مخالفات الحكومة وانحرافها وأطلب الإصلاح، لكنني لم أطلب انهيار النظام وذهاب ريح السلطة واستبداد فئة قليلة جديدة لا خبرة لها ولا حسن نيّة بأمور البلاد. حين كنت أصارح المسؤولين وأتعقب أخطاءهم وسوء أعمالهم وآخذ عليهم التواء طرقهم كانوا يصغون إليّ ولو على مضض ويفعلون أحياناً أو لا يفعلون. أما هؤلاء الذين ينعتون أنفسهم بالثورية والتقدمية وسائر الصفات فلا يستمعون إلى أحد ولا يقبلون مصارحة، ويسرعون إلى اعتقال خصومهم والفتك بهم، وكمّ الألسنة والصحف وحرية القول. وبقي الشبيبي ساخطاً متألماً حتى أدركه الحمام.

وقد جاء إلى داره زبانية الأمن في عهد الرئيس عبد السلام عارف بعد منتصف الليل للقبض على ابنته المتهمة بالشيوعية. حاول الشبيبي اقناعهم بإرجاء الاعتقال إلى الصباح فلم يفلح. وأخيراً تمكن من الاتصال هاتفياً بعبد السلام فشكا له الأمر وترحّم على العهد الملكي البائد، فأمر الرئيس بصرف النظر عن اعتقال الفتاة.

انتخب الشبيبي عضواً بجمع اللغة المصري في مقعد الأب أنستاس ماري الكرملي، ولما كان المألوف أن يتكلم العضو الجديد عن سلفه الذي حلّ محله، فقد طلب إليّ أن يطلع على قاموس الأب «المساعد» ليبحث فيه. وقد اتصلت بالآباء الكرمليين في الدير وهيأت للشبيبي أن يطلع على مسوّدات المعجم، فوضعت تحت تصرّفه ونظر فيه ونقل ما يروم نقله لخطابه في المجمع المصري.

* * *

على أثر قيام ثورة ٨ شباط ١٩٦٣ والقضاء على حكم عبد الكريم قاسم، قررت حكومة الرئيس عبد السلام محمد عارف مفاوضة الملا مصطفى البارزاني الذي قاد التمرد الكردي منذ سنة ١٩٦١ وارتأت إيفاد لجنة مفاوضة للتعرّف على مطالب الاكراد وأسندت رئاستها إلى محمد رضا الشبيبي، وكان من أعضائها فائق السامّرائي

ذهب الشبيبي إلى المناطق الكردية وفاوض البارزاني، واتفق معه على منح المنطقة الكردية «لا مركزية» إدارية، وعاد فبلّغ السلطات العراقية بنتيجة مساعيه.

قال الشبيبي: بعد أيّام سألني الرئيس عبد السلام عارف عن معنى «اللا مركزية»، فقلت له: انني رجل لغويّ و «اللامركزية» ليست محددّة لغةً بل يحددّها الاتفاق على نطاقها السياسي والإداري، وذلك شأنكم أنتم السياسين.

* * *

جاء إلى بغداد سنة ١٩٤٧ رشاد بيبي مندوباً عن إذاعة الشرق الأوسط التي كانت تذيع من قبرص، فاتصل بالأدباء للحصول على أحاديث منهم.

وقابل محمد رضا الشبيبي الذي سأله: ما معنى لقبك «بيبي»؟
قال: انه الشبيبي بدون «ش».

* * *

توفي صديق للشيخ محمد رضا الشبيبي فمضى لقراءة الفاتحة على روحه تتبعه حاشية كبيرة من أقربائه وأصحابه، ولم يكن يعلم أن هذا الصديق الذي نعي إليه ولم يره منذ سنوات طويلة قد ترك داره في بعض شوارع بغداد القديمة وابتنى دارا انتقل إليها في أحد الأحياء الجديدة.

دخل الشيخ وجماعته إلى الزقاق الذي فيه دار الصديق الراحل القديمة فرأى رجالاً واقفين على الجانبين. ولم يكادوا يرون الشيخ حتى حفوا به واستقبلوه استقبالاً لائقاً وأدخلوه إلى الدار وأجلسوه وصحبه في صدر المجلس. ولكن. كان المقرىء يقرأ السورة القرآنية الخاصة بزواج موسى القويّ الأمين، وهي تقرأ عادةً في حفلات عقد القران. وقدمت للشيخ وصحبه الحلوى والعصير، والجمع في أنس وسرور. إذن لم يكن هناك مجلس تعزية، بل كانت حفلة عرس.

وخرج الشيخ بعد أن هنأ أسرتي العريس والعروس. وسأل بعد ذلك عن دار صاحبه المتوفى فأرشد إليها وقصدها ليقرأ الفاتحة على روحه.

* * *

حدثني محمد رضا الشبيبي أنه سافر ذات مرة إلى الشام ونزل في فندق أميّة. وفد رجال السياسة والأدب للسلام عليه، وجاءه معلّم خدم في المدارس العراقية يوم كان وزيراً للمعارف، فدعاه إلى تناول الغداء في داره. واعتذر الشبيبي بكثرة مشاغله، لكن المعلم لم يقبل له عذراً.

وجاء المعلم إلى الفندق في اليوم الثاني قبل الظهر واصطحب الشيخ في عربة اكتراها وقال للحوذيّ: مرّ في طريقك بسوق الحميدية. واستأذن ونزل إلى بعض الدكاكين واشترى خبزاً و«كباباً» وفاكهة وشيئاً من الحلوى وضعها في العربة وأمر الحوذي بالمضيّ إلى داره.

ولما بلغاها وضع المعلم الطعام الذي ابتاعه على المائدة، واتى بقدح ماء، وقال للشيخ: تفضل باسم الله، واعذرني عن التقصير في شأنك فإنّ زوجتي لا تطبخ. وفرغا من تناول الطعام فأركب الشيخ عربة وأعاده إلى الفندق معززاً مكرّماً.

* * *

دعي الشيخ الشبيبي إلى زيارة مدينة فاس عاصمة المغرب القديمة مع نخبة من أدباء العرب وأعضاء مجمع اللغة العربية المصري، والمدينة قائمة في وادٍ ينزل إليه بطريق وعر متعرّج من الهضبة، وهو طريق يصعب على السيارات السير فيه. وقد اضطرّ الشيخ ورفاقه إلى النزول على أقدامهم ولقوا في ذلك مشقّة عظيمة. وبعد زيارة معالم المدينة وقضاء بضعة أيام فيها وحان موعد العودة قال الشبيبي للدكتور عبد الهادي

التازي المرافق للوفد أنـه يصعب عليه وعلى رفيق لـه من شيوخ المصريين الصعـود من الوادي ورجـاه أن يجد لهما وسيلة للركـوب. وكلم التازي هاتفيـاً أحد المسؤولين بـاللغة الفـرنسية وقـال لـه: لديّ شيخـان ميتّان مـن التعب فجد لهما وسيلـة نقل. ولم يسمع المسـؤول العبـارة «من التعب»، فظن ان الـرجلين قـد ماتـا فعـلاً فأسرع وارسل سيـارة اسعـاف تحمل تابـوتين. رأى التازي السيـارة القادمـة فبادر إلى إعـادتها قبل أن يراهـا الشيخان، ثم نبّـه رفيقه أن الـرجلين حيّان وطلب ارسـال سيارة «جيب» لتقـوم بمهمة النقل.

دعي الشيخ محمد رضـا الشبيبي إلى زيارة الكويت ضيفاً على أميرهـا، وقد استقبل فيها استقبالاً حسناً ووضعت تحت تصّرفه سيارة وسائقها. أخذه السائق لزيارة العمران الجديد والأسواق المليئة بالبضائع الشرقية والغربية وكل النعم التي نالها البلد الصغير من ثروته النفطيّة المفاجئة.

قال الشبيبي للسـائق ذات يوم: أريد أن أرى الكويـت القديمة. فأجابـه: أنا على استعداد لأخذك إليها، لكن السيارة لا تدخل السوق العتيق. قال الشيخ: أنا أستطيع المشي على قدميّ.

وأخذه السائق إلى سوق الكويت القديم، فشـاهد الدكاكين المتواضعة. ورأى امرأة جـالسة على الأرض تبيع بعـض الاعشاب الهزيلـة وتـرشُها بـالماء بين الحين والحين من سطل بين يديها. قال السائق: هذه الكويت القديمة. أما صناعة السفن الشراعية فقد انقرضت أو كادت.



أشاد عبـد الرزاق الشيخلي، في رثاء له لمحمـد رضا الشبيبي ألقاه في حفلـة تأبينه، بمزايـاه الكثيرة وأدبه الجمّ، وذكـر مواهبـه وصبره وجلده في التصميم والعمـل ونضجه الفكـريّ المنبعث من إدراك عميق وتمييـز بين الحقـائق والأوهام والانطـلاق والجمـود، ومجابهته لـدنيا الحقـائق مباشرة بـاحثاً عن الجوهر، غير آبـه بالظـواهر المتغيّرة والمظـاهر الخارجية، والتزامه جانب البساطة وهي عماد الحياة ومحورها.

وقال ان التحدّث عن الفقيـد الشبيبي ليس يسيراً، إذ شمل جهاده كل الميادين من علمية وأدبيـة واجتماعية وسياسيـة، بنظمه ونثره، على مـدار الساعـة ولنصف قرن من الزمن. وقـال إن الحياة التي عـاشها والآفاق البعيـدة التي امتّد إليهـا بصره ونفذت إلى أعماق بصيرته تكـاد تكون وثيقـة تاريخيـة وسفراً ضخماً حـافلاً بمآثـره ومحامده لعهـدين متعاقبين: العهـد العثماني في إبّان احتضاره والعهـد العراقي الذي تـلاه. وقال إن سيرة الشيخ منبثقة من إيمانه العميق بكرامة الإنسان وحريته ومن مفهومه للسياسة بأنها ترمي إلى الإصلاح الجذري في الإنسان ذاته لتضمن له أخوّته مع الغير وأمنه وسعادته.

ورثى الشبيبي الشاعر المصري عزيز أباظة (باشا) بقصيدة طويلة قال في مطلعها:

قـم فأدِّ العـــزاء لـــلإســـلام ... في زعيـم وشــاعـــروإمـــام

الشبيبـي، أيـن ثـــاني الشبيبـي ... إذاطمّـت الخطـــوب الـــدّوامي؟

علي الشرقيّ

عليّ بن الشيخ جعفر بن محمد حسن بن أحمد بن موسى بن راشد الشرقي أو الشروقي، وقد قال الدكتور محمد مهدي البصير في الشيخ جعفر (١٨٤٣ ـ ١٨٩٢) أنه كان من كبار فقهاء العراق وشعرائه في القرن التاسع عشر.

وقال: «وقد يسّر المترجم، وهو في قبره، أنّي أعرّفه بابنه (أي الشيخ علي الشرقي)، ولكن ثقوا أنه كان أنبه شأناً وأعلى قدراً وأسير ذكراً من أن يعرّف». وتنتمي أسرة الشرقي إلى قبيلة بني خاقان العربية، المقيمة على ضفاف الغرّاف في قضاء الشطرة، وكان أول من استوطن النجف منها جدّها الشيخ موسى.

ولد علي الشرقي بالنجف سنة ١٨٩٠، وتوفي والده وهو طفل صغير، فنشأ في كنف خاله الشيخ عبد الحسين الجواهري. ودرس علوم العربية والدين على علماء الغريّ فبرّز فيها تبريزاً، وقال الشعر صغيراً وجوّده شاباً. وكان من الشباب الواعي المتطلّع إلى النهضة الأدبية والفكرية في أواخر العقد الاول من المائة العشرين.

وصف الشرقي طفولته أروع وصف في كتابه «الأحلام» فقال: «ويموت أبو الوليد، ويترعرع اليتيم يعوّضه حنان الأم عن حدب الأب.

وكانت لأمّه جارة من آل الفحّام، ذلك البيت الجليل المنجّم بالعلماء والأدباء، تولّت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمة الحبيبة أخوان هما السيد حسن والسيد محمود، وكان الكثير من ناشئة النجف يتأدّبون عليهما. وكان مجلسهما للتعليم في عمارة الميتم الذي أنشأه الدرويش إبراهيم خان في أواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسماً داخلياً وبذل عليه أموالاً طائلة، وموقعه في محلة العمارة تحت الطاق المعروف بطاق الدرويش. لقد أودعت المعلمة الوليد عند أخويها، ولما أتقن الكتابة تقدم للدراسة العلمية. وكان يلبس البزّة العربية الشائعة كوفية وعقالاً، ولكن احتراماً للعلم وضعوا على رأسه العمامة. وكان من عادته أن يلف العمامة للشيخ الجديد شيخ قديم محترم. وعندما كوّرت على رأس الشيخ الجديد، دفعها الشيخ القديم ورصّها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس، ولكن بكلّ أسف بقيت قلقة حتى الآن».

ثم وصف «الجامعة النجفيّة» التي نشأ في أحضانها ودرس في حلقاتها وتأدّب بآدابها وتخلّق بأخلاقها فقال:

«فاتيكان الشيعة وأزهر العراق قبل أن يوجد الأزهر. ولا تمتاز هذه الجامعة بأسلوب فكريّ خاصّ، إنما هو اسلوب الفكر القديم طبعته الكوفة بطابعها: طابعه الآداب العربية والعلوم الإسلامية، وكانت على الأخص مدرسة علوية أسّسها منبر عليّ عليه السلام ومن تتلمذ عليه من أبنائه وأصحابه. . »

ويقول بعد ذلك: «أما طريقة التدريس في النجف فقديمة تتردّد بين الطريقتين

اليونانيّتين : طريقة التحليل وطريقة التفسير. ومراحل التدريس في النجف ثلاث : المرحلة الأولى في المقدّمات يدرس فيها النحو وعلم الصرف وعلم المنطق وعلم البيان والبديع. المرحلة الثانية : السطوح ، وهي دراسة الفقه والأصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ. وفي هذه المرحلة يدرس الحساب والجدل والفلسفة النظرية. ويدرسون أشكال إقليدس للهندسة ، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروز أبادي والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي ، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال أبي علي ، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل ، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي» .

ثم يتطرق إلى ذكر المرحلة الثالثة ، وهي الدراسة الخارجية ، أو كما يسمونها «الخارج» فيقول : «وهي محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب ، بل هي أشبه بمذكرات على موضوع مركّز وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث أن يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. . » .

* * *

لم يكد الشرقي يبلغ مبلغ الشباب حتى مضى إلى كرمنشاه لجباية حقوق للشيخ كاظم الخراساني ، ثم عاد مسرعاً إلى النجف بعد تفشي وباء الهيضة في ربوع إيران .

وأكبّ الشرقي الشاب على المطالعة والمناقشة والمباحثة واستشفاف معالم النهضة الأدبية في مصر وسورية ولبنان . واتفق مع نفر من أقرانه على جمع الكتب والدواوين الشعرية وتبويبها وشرحها ، فتولوا طبع ديوان إبراهيم الطباطبائي وغيره .

ونشبت الحرب العظمى في أواخر سنة ١٩١٤ ، فلجأ إلى الشطرة ، وكان ذلك مبدأ اتصاله بالغرّاف والمنتفق ، مسقط رأس آبائه من قبل ، وتعرّفه بزعمائها من آل السعدون وسواهم . ثم لحق بالمجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي في الناصرية ، وكان له يد في محاربة الانكليز . ونشر الاحتلال البريطاني ظله على بغداد وجنوبيّ الفراتين ، فجاء إلى النجف وقدم منها إلى بغداد ، ثم عاد إلى المنتفق مساهماً في الحركة الثورية .

رحل إلى الحجار سنة ١٩٢١ عن طريق البصرة والبحر الأحمر وقابل الملك حسيناً في جدّة ومكة وألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

أعلاك ربّي ، ما أعزّ وأشرفا ، علماً على الملك الأغرّ مرفرفا

وقفل عائداً بعد نحو من سبعة أشهر . وقد عين عضواً بمجلس التمييز الشرعي الجعفري في بغداد(٧ تموز ١٩٢٨) ونقل قاضياً في البصرة (آب ١٩٣٣) وأعيد عضواً بمجلس التمييز الشرعي بعد أمد وجيز (شباط ١٩٣٤) ، ولم يلبث أن أصبح رئيساً له (٢٥ كانون الاول ١٩٣٤) . وقضى في هذا المنصب نحواً من ١٣ عاماً ، حتى عين عضواً بمجلس الأعيان في تموز ١٩٤٧ واختير نائباً أول لرئيس مجلس الاعيان (٥ آذار ١٩٤٩) وجدّد انتخابه في أول كانون الاول ١٩٤٩ حتى عين وزيراً بلا وزارة (١٠ كانون

الاول ١٩٤٩ ـ ٥ شباط ١٩٥٠).

وأعيد تعيينه وزيراً بلا وزارة في ٧ أيار ١٩٥٣ إلى ١٧ أيلول ١٩٥٣، ثم في ٣ آب ١٩٥٤ واحتفظ بمنصبه في الوزارات المتعاقبة المؤلفة في ١٧ كانون الاول ١٩٥٥ و ٢٠ حزيران ١٩٥٧و١٥ كانون الاول ١٩٥٧ إلى ٣ آذار ١٩٥٨، ثم من ١٩ ايار ١٩٥٨ إلى ١٤ تموز ١٩٥٨ وقد استمّر عضواً بمجلس الأعيان إلى ٦ تموز ١٩٥٥، وجدّد تسميته عيناً في شهر تشرين الثاني من نفس السنة إلى ثورة تموز ١٩٥٨ واعتقل عند قيام الثورة، ثم أفرج عنه بعد مدة قصيرة.

وضع مؤلفات منها: عواطف وعواصف (ويحوي جانباً من شعره، طبع ١٩٥٣)، ذكرى السعدون (١٩٢٩) الأحلام (١٩٦٣) العرب والعراق (١٩٦٣). وقد نشر مقالات متسلسلة في المجلات والجرائد، منها: الغراف والبطائح (في مجلة لغة العرب) والألواح التاريخية (في مجلة الاعتدال النجفية) والأحلام والأندية العراقية (في جريدة العراق) ونكت القلم الخ.

توفي ببغداد في ١١ آب ١٩٦٤ ووري التراب في مقبرة أسرته بالنجف.

علي الشرقي الشاعر:

كان علي الشرقي رجل قضاء ورجل سياسة، لكنه لم يكن طوال حياته الا شاعراً بالفطرة. تطبّع بالمظاهر الدينية والدنيوية، فتغلّب عليه الشعر في أحرج مواقفه وأشدها قسوة وغلظة وانقاد لزمام العاطفة في مقام الجدّ والصرامة.

ولقد نشر طائفة من شعره في ديوانه الموسوم بـ «عواطف وعواصف» فأهدى إلي نسخة وشّحها بالكلمة الآتية:

«إذا جاز أن تحمل الفاكهة إلى بستانها فإني أحمل اليكم هذا الأثر، مع إخلاص الشاعر».

وكتبت إليه برسالة جاء فيها:

«أما الشعر فسحر وعطر. وهو شعر نابض بالحياة، صادق اللهجة، واضح السّمات، ينطق بلسان البلد والجيل، ويحمل طابع العصر ورسالته. وقد مرّ زمان كان في مقياسه أعذب الشعر أكذبه، أما اليوم فخير الشعر ما عبّر عن آلام الشعب وآماله ومشاعر الأمّة في طموحها وتحفزها.

وخير الشعر ما أفصح عن حبّ المغرم وبهجة الخليّ وحسرة الشجيّ وأمل الشباب وذكريات الشيخوخة وجميع ما يهز أوتار القلب البشري من نوازع ولواعج.

«ولقد وفّقتم لترديد نواح البلبل السجين وصداح البلبل الطليق، ولوعة الفلاح في كوخه، وترجمتم عن نزعات الشعب المتطلّع إلى الحياة والحرية، ودعوتم إلى الألفة والإخاء، وأشدتم بالنهضة والإصلاح، فجاء ديوانكم سجلاً حافلاً للحياة العراقية في النصف الأول من المائة العشرين. . ».

أجل، إن في شعر الشرقي كلّ ذلك وأكثر من كل ذلك. وشعر الشرقي قبل كل شيء شعر الشعب، فهو يفصح عن أماني الفقراء والكادحين ويعبّر عن مشاعرهم ونزعاتهم، وهو يأنس إلى الأرياف وفلاّحيها ويحنّ إلى مرابعها وأكواخها، ولا سيّما إلى نواحي الغرّاف التي قضى فيها شطراً من صدر شبابه، وقال في ذكرها:

زهو القصور ونزهة الأرياف ... غرف مطّلات على الغرّاف
تلقى الحضارة والبداوة عندها ... بإزاء فرع أو بجنب طراف
أنفت على الأحقاف، فهي مدلّة ... لكنها ببساطة الأحقاف
الفارهات بساطةً وجلالةً ... هذي القصور وغيرهنّ أثافي
نهضت على حمراء دجلة زانها ... صافي الأديم على الأديم الصافي
بمحلة الأغصان تحسب أنها ... من حسنها بمحلّة الأعطاف
ملء المجالس عفّة وطهارة ... ومحبّة وتكرّم وتصافي
معمورة الأطراف، كم من ليلة ... بجوارها معمورة الأطراف
النهر مضفور السّلاسل فلّه ... جري النسيم وكفّ منه الضّافي.
قمر السّما، لك فوق دجلة منظر ... متنّوع الأطياف والألطاف
وكأنّ دجلة شعلة وهّاجة ... سالت أشعّتها على الأجراف

ولا يأنف الشرقي أن يضمّن شعره كلمات أبناء الشعب وأمثالهم وحكاياتهم. ولعلّ هذا الشعر لا يتّسم بجزالة اللفظ ومتانة التركيب لكنه يفيض بالأصالة والإخلاص وصدق اللهجة وطيبة النفس وحبّ البشرية والناس، تقطر منه أنداء اللطف والعطف والحنان كالعبرات الباردة التي تسكبها المآقي الحزينة.

لقد تمنىّ لو تمطر السماء مروءة وحناناً، وروّعته دمعة المظلوم، فقال:

مدّ زعيم لطبيب يداً ... كانت على رغمي ملثومة
قال له: ليس بها من أذى ... فصاح: لا. كفيَّ محمومة
ومرّ من حولها شاعر ... ردّدت الدنيا ترانيمه
فقال: ظنّي بمكان الأذى ... قد سقطت دمعة مظلومة!

وعلي الشرقي شاعر الأسى والألم: فقد أباه طفلاً، وذاق مرارة اليتم والحاجة حتى إذا ما ابتسم له بعد لأي الزمان ومنحه السعادة والأمن وأتاح له الحبّ والزواج، فاجأه بموت عروسه في ليلة الزّفاف. فإذا بالشموع التي أعدّت لموكب العرس قد أسرجت في موكب الموت. وإذا بالشاعر قد أخرسه هول المصاب حيناً ثم أنطقه شعراً مؤسياً حزيناً:

شمعة العرس، ما أجدتِ التأسّي أنت مشبوبة ويُطفأ عرسي
أنت مثلي مشغولة القلب، لكن من سناك المشؤوم ظلمة نفسي
يا رعى الله للزفاف شموعاً يتهافتن حول نعش ورمس
عاكست حظّها الليالي فذابت خجلاً ترسل الدموع بهمس
هكذا ذاب باحتراقِ فؤادي، هكذا سورة الدموع برأسي
جلوة أم مناحة لنجوم يتناثرن بين سعد ونحس
كان حدسي تذكو الأماني شموعاً واللّيالي خيبّن ظنّي وحدسي

انّ العروس الشابّة التي قضت نحبها ليلة الزفاف لتذكرنا بقصيدة الشاعر الفرنسي أندره شنييه (١٧٦٢ ـ ١٧٩٤)، تلك القصيدة التي قالها في رثاء «ميرتو» التّارنتيّة الفتاة الحسناء التي ركبت السفينة لتلحق بخطيبها حيث تنتظرها السعادة والأغاني والزواج. وقفت وحيدة تحدّق في الأمواج المتلاطمة، فهبّت رِيح هوجاء نفخت الشراع وأطاحت بالفتاة في حضن المياه المزبدة. لقد تلقّت الأعماق جسدها الجميل، فخرجت إليها ربّة البحر دامعة العين من كهفها السحيق، وحفظت جسمها من أنياب الوحوش الضارية، وأمرت قيان الماء فأخذنها إلى الساحل واستدعين غيد المروج والمنابع والجبال، فأقمن لها مناحة لم تشهد الأرض مثلها. وقلن لها نادبات: «أسفاً عليك، أيتها العروس، لم تبلغي دار الحبيب ولم ترتدي ثياب العرس، وحلى الذهب لم تحط بساعدك البضّ، ولم يزيّن إكليل الزفاف شعرك المنسدل على كتفيك».

ولا عجب أن يطغى الألم على نفس الشاعر الشرقي فيخاطب البلبل الأسير قائلاً:

أيّها البلبل المعلّق في السجّن سلام، وهكذا ليَ روح
إن تكن ذكرياتك الورد والأطيار تشدو فذكرياتي جروح
كلَّ يوم يلوح فجر لعينيك فهلاّ يوماً لعيني يلوح؟.

إنّ هذا البلبل السجين الذي خاطبه في رباعيّاته لم يكن سوى طيف الشاعر نفسه.

لقد كان هذا الشاعر أسير الحياة الاجتماعية يبغي الانعتاق والانطلاق، فهل بدع أن يلتقي وبلبله الحبيب في قفص السجن، كما يقول:

التقى الشاعران في قفص السّجن فلم يعبآ بحبس وضيق
يرسلان الألحان للملأ الخابط تيهاً في عالم مصعوق
فكأنّ الأسير غير أسير وكأن الطليق غير طليق

لقد مزج الشرقي في رباعياته التصريح بالـرمز وقرن السياسة بالاجتماع والمادة بالمعنى فلا بـدّ للقارىء من إمعان الفكر في خفايا السطور ليستشفّ معاني بعيدة في أغوار الكلمات الظاهرة. وان شاعرنا ليكثر من الصور والاستعارات والتشابيه والكنايات، أليس هو القائل:

أنــــا أصـــــدح بــــاللفظ   لمن في صـــــــــــــدره المعنى

والقائل: ثوب الصداقة يبلى سريعاً، وبيت الحكم الذي أسّسوه له ألف باب، واليوم المضرّج بحر هائج والغد المؤمّل في ساحل الأمان، والمرآة لا تفيد في كفّ الأعمى، وماذا يلقط الطائر من دكّان الحدّاد؟، وأية خميرة ترجى من الفطير؟

وهو يقول:

هــــذي الصـــدور مـــواقـــد   خمدت فبثّت بـــالــــدخـــان

ويقول:

إنّــــا، ولا غَـــــزْل لنــــا،   نحســن فتـل المغـــــــــــزل

ويقول:

مـن وراء المرآة صــــوت ينــــاغي   ببّغـــــاءً تـــوحي عن المـــــرآة

ويقول:

جســـــدي قـــارب وقلبي شراع   وحيــــــاتي حبل وعقلي نـــــوتي

ويقول:

بعـض القلـــــوب طيـــــور   لم تستطـــــــــــــع أن تطيرا

ويقول:

بلـــــدي رؤوس كلّـــــه: أرأيـت مـــــزرعـــــة البصـل؟

ويقول:

شمعتي بـــالـــرغم من مقـــراضهـــا،   كـلّ آن ولها رأس جـــــديـــــد.
شمعـــــة طـــــاف بها الجمّ الغفير   تتـــلالا بـــابتهـــاج وارتيـــاح
تتهـــادى مـن ضريـــــر لضريـــــر   قضـــوا العمـــر عثـــاراً ونطـــاح.

* * *

أقام الشرقي شطراً من حياته في الريف ورأى نصب الفلاح وعناءه ورثى لبؤسه وشقائه فقال:

أتـــراني بين القـــرى والضـــواحي   طفت ظهـــراً وفي يـــدي مصبـــاحي
إن تفتّش عـن ارتيـــاح بـــلادٍ   فتفقــــد شـــؤونها في الضـــواحي

مـــــا لهذا الفّـــــلاح في الأرض روح ، أهـــــو مـن معشر بــــــلا أرواح؟
هـــو في جنّـــة ينـــال عـــذابـــاً وهـــو تحت الأشجـــار أجـــرد ضـــاحِ
وقـــرى النمل، لهف نفسي، أثـــرى من قـــراه إلاّ مـن الأتـــــراح .
ربّ قصر من فـوق دجلـة كـالطّـا(م) ووس للـــزهـــو نـــاشر بجنـــاح
لـــو كشفنـــا أطبـــاقـــه عن أســـاس لـــوجـــدنـــاه منجل الفـــلاح!

ولقد ضاق الشاعر بأمر نفسه فقال :

لهْفي لخمسين مـن سنّي قـــد انـــدرست في الكُتْـب بحثـــاً كـأني دودة الكتـب

وضاق ذرعاً بالعقل والفكر واليقين فقال :

ليتني كنـت في الـــريـــاض شقيقـــاً لـــــورود بــــدون عقـل ولـبّ

وقال :

انـني قـــد غـــدوت أنعم في الشـكّ لأنّي منغّـص بــــــــــــــاليقين

وقال :

وبلـــــــوى البشر المكّـــــــار أن يمعـن في الفكــــــــــــــر

وضاق ذرعاً بالتاريخ ورجاله فقال :

في رمـــال التـــاريخ آثـــار أقـــدام رفـــــاق تخطّـت التـــــــاريخا
نفخـت في الجراب دهـــــراً وولّـت فـــورثنـــا جـــرابها المنفـــوخـــا
وإذا بي مـــا بين أجـــربـــة تمشي على الأرض ســـادةً وشيـــوخـــا

ولقد حسد الطائر السّجين فقال :

ولا يضيرنـك أن غـــــدوت أسيراً، كـم طليق يكـــابـــد التنكيـــدا
قفـص من جـــريـــدة النخـل خير من ريـــاض عن طيرهـــا لن تـــذودا

ونفس عليه أنغامه الفطرية فقال :

بلّـــدتنـــا صنـــاعـــة اللحن في القـــول فغّـــرد لنـــا بلحـن السّليقـــه

وقال أيضاً :

إن تكن قـــد سجنـت، يـــا طير، جسماً فأنـــا قـــد سجنـت روحـــاً وجسما

وقال :

إن يكـن قلبـك المولّـع بلـــــــواك فـإنّي بلـــــــواي قلـب وراس

وقال :

وهـــــــــــذا قلبـي المغلـق مـن يفتـح أبـــــــوابـــــــه؟

وقال من فرط الوجد والألم :

عسى أن تـــرقص الـــدنيـــا ، ولـــو رقصـــة مـــذبـــوح!

وأساء الظن في المجتمع فقال :

لست أخشى عليك من ســـارق قـط ولكـن خـــوفي مـن الحرّاس

والشرقي بعد ذلك عدو التعصّب والرياء ، فهو يقول :

ذممـت التعصّـب مـن قبـل ذا وهـــا أنـــا في ذمّـــه لا هـج
دعـــونـــا نـــوسّع آفـــاقنـــا ليقبلنـــــا المزج والمازج
أقـــول ، وقـــد سألتني الـــرفـــاق : أأنـت على وضعنـــا خـــارج؟
أبى الثمـــر الفجّ عـن جـــذعـــه فصـــالاً وينفصل النـــاضـج

ويقول :

سبعـــون معصيـــة قـــد أتيتهـــا في الخفـــاء
كـــانـت أبـــرّ وأزكى مـن طـــاعـــة في ريـــاء

ولقد هام علي الشرقي بوطنه وبلاده ورثى لحالها وطلب رقيّها ورفعتها ومجدها ، وردّد في شعره ذكر أقطار العروبة من مصر والشام والحجاز ونجد إلى طر ابلس وفلسطين .

وأقضّ مضجعه خمول العراق ، فقال :

نطقت بحـاجتهـا الشعـوب وأفصحت وأرى عـــراقـي واجماً لا ينطـق
وكأنّ هـــذا الشرق سفـــر غـــرائب شرحـــوا عليـــه الـــدارجـــون وعلّقـــوا
ختمت صحـــائفـه وجئنـا بعـدهـا حتّـى كأنّـــا فيـــه فصل ملحـق

وفي موشّحه «صفير العسس» عرض لأحداث الدهر في بلاد الرافدين من سقوط عبد الحميد ودك عرشه وغليان الثورة القومية إلى تشتت الآراء وتخاذل الرجال. ولقد طالما راودته الأحلام ، فرأى الفراتين وقد ازدهرت على ضفافهما نينوى وبابل وأور، ومرت مواكب آل ساسان وأكاسرة المدائن ، ورأى شبح الموبذان خاشعاً بين يدي سابور.

ثم ازدحمت الجموع في يوم ذي قار والقادسية ، وارتفعت رايات الرشيد والمأمون ، وهجمت المغول ، وجاءت دولة آل عثمان ، وإذا العين تحلم بدولة عربية ، وإذا العراق قد بنى بيتاً له ألف باب ، واحتفل بدولة الألقاب ، فنعم الغدوّ ونعم المآب .

تألم الشاعر لحال بلاده فقال :

لم يبـقَ وجـــه بشـــوش في الكـــوخ أوفي الخصـــاص

وقال :

في جـــانِبَيْ قطـــري زيـت يفـــور　　فـأين أيـن الأمّـــة الشـــاعلـــة؟

وقال :

ليـس تجديك سكتـــــة الأفـــواه　　حين نمسي بثـــورة في الصـــدور

والشرقي شاعر يجيد الوصف ولا سيّما وصف الحالات النفسية والنوازع الخفية، فهو يقول :

شـــاعـــر خـــاشـع يحسّ بما في　　النفس مـن وحشـــة وفـــرط التيـــاع

رجّـف الصـــوت بـــالحنين وأصغـى　　لـــــــرفيـف الأرواح في الأسماع

ذلك علي الشرقي الرجل والشاعر!

إيه، يا أبا إحسان، أيها الإنسان الفاضـل. إنّي لأذكر ساعات وأياماً وسنين مضيئة قضيتها متمتعـاً بأدبك الرفيع ولطفك الجّم ومـودتّك الجميلة المتواضعـة. لقد كنت في عهـدك الأخير تشعر بـدنّو الأجل، سـافـرت للاستشفـاء في لندن، ثم عـدت وكأنّك متجّرد عن الحيا ة الدنيا. فأسرعت بطبع كتابين لـك وهيّأت كتاباً ثالثاً لم يمهلك الزمن لنشره. وكنت تقول : ليـس لي شيء من المتاع، فداري وسيّـارتي وكلّ ما ملكت يميني إنما هي لإحسان وللعـائلة. ولا أنسى أنني زرتك قبل مرضك القـاتل الأخير، وكان لديك جمع من الـزوار، فلما استأذنت بالخروج ومضيت في توديعي متفضّـلاً إلى الباب، قلتُ : أريد أن أستشيرك في أمور، يا أبا احسان، فـاسمح لي أن أزورك في فرصة قريبة. وقلت لي : بل عـد الآن، وأنا كفيل بصرف الـزوّار، فنختلي ونتكلم. ولكنني قلت : لا داعي للعجلة، وانصرفت ولم أعلم أن القدر يقف بالمرصـاد، وأنّ زيارتي التالية ستكون للسؤال عن صحتّك وأنت راقـد في الفراش تعاني أوصاب الداء الفتّـاك. ثمّ دقّ جرس التلفون بعد أيام قليلة، وكان نعيك الذي صكّ السّمع وأضنى النفس وأدمع العين.

***

كـان الشيخ علي الشرقي متـواضعاً، أنيس المحضر، لا يـأنف، وقد أصبح شـاعـراً عربيـاً ووزيراً عـراقياً مـرموقاً، أن يتحـدث عّما لقيه في صبـاه وصدر شبابـه من ضيق وشظف عيش، حتى شقّ طريقه في الحياة وبلغ منزلته الرفيعة.

وقد حدثني يوماً أنه كان، وهو شابّ، يعاني عسراً شديداً حتى ضاقت به السبل ولم يعرف باباً للأمل. وفي تلك اللحظات العسيرة طرق بابه وجاء أحد أبناء شيوخ العشائر يسأل عن الشيخ علي الشرقي.

ولما عرّفـه بنفسه قال القـادم : ان الفرس عربيـة أصيلة ولكنها لا تسـاوي أكثر من ستين ليرة ذهبـاً، فإذا شئـت دفعت لك ثـلاثين ليرة عن نصـف ثمنهـا، أو رغبت في أخذها فادفع لنا ثلاثين ليرة وخذها، بارك الله لك فيها!

ولم يدر علي الشرقي قصة الفرس ولم يسأل عن أمرها، ولا ساوم في ثمنها، بل قال :

هات ثلاثين ليرة واحتفظ بالفرس.

وقبض المبلغ وحمد الله الذي فرّج كربته من حيث لا يعلم.

ومضى اسبوع أو اسبوعان، وجاء صديق علي الشرقي إلى النجف وقال له: هل قبضت نصف ثمن الفرس؟

قال: قبضت ثلاثين ليرة، وحقك محفوظ فيها. ولكن حدثني ما القصة، وما شأنك في الأمر؟

قال: انني نازل في مضارب الشيخ. رئيس عشيرة. وقد أدركته الوفاة، فاستدعاني وقال لي: أعلم ان هذه الساعة آخر عهدي بالحياة، ولي فرس أصيلة أريد أن أصرف نصف ثمنها في وجوه البّر، فأي جهة من جهات الخير أجدر بها؟ فقلت: أوصِ بنصف ثمنها إلى مقام علي الشرقي (وهو مزار يقابل قرية علي الغربي على الجانب الآخر من نهر دجلة). وأوصى الشيخ، ثم قضى نحبه.

وأتم الصديق حديثه قائلاً: وجاءني أولاد الشيخ الراحل يسألون انفاذ وصيّة والدهم، فقالوا انهم قدّروا ثمن الفرس بستين ليرة ذهب، وسألوا عن مقام علي الشرقي، فقلت: اسألوا عنه في النجف الأشرف. وأرسلوا أحدهم إلى النجف، فكان ما رأيت وسمعت!

قال علي الشرقي: بل كان ذلك الفرج الذي أرسله الله.

ولقد تحدّث علي الشرقي في «الأحلام» عن فقر النجف المذقع وأحلامها العريضة، تلك البلدة التي كما قال:

فيها مفاتيح لأبواب ... الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي ... بالسّالكين إلى حقائق
ملأى بكل طريفة ... من كلّ معجزة وخارق

حار ورفاقه من الشباب في التماس الرزق، فألفوا «شركة مقاومة الفقر» وشرعوا بطبع الكتب والدواوين الشعرية. ثم ضربوا في القرى والدساكر ومنازل الريفيين والعشائر، وباتوا في الخيام والعراء وحجر الطين التي تجري فيها الفئران وتصب السقوف ميزاب أمطارها، وجابوا ساحات الحرب ودهاليزها الخلفية وميادين الثورة والجهاد. وقد كتب الشرقي صفحات صادقة من تجارب الشباب وتجوّلاته وتطلّعاته، صفحات تمتاز بنثرها القلق القافز المتعثّر وتكاد تشبه أحاديث جان جاك روسّو في اعترافاته. وقد قال:

فصح الشعور به، ولم أكُ شاكياً ... إلاّ لكوني شاعراً وفصيحا
في النفس أشياء، فهل من موضع ... حرّ الفضاء لأشتكي وأبوحا؟

امتحن علي الشرقي الحياة وعرك الدهر فخرج بحكمة عملية لخّصها بقوله :

«وانّي أكاد أن أكون مخضرماً : لقد توسطت جيلين وشهدت عهدين لا يلتقي أحدهما مع الآخر، ولكني التقيت مع هـذا وذاك وأدركت وداع أحدهما واستقبلت الآخـر . لقد تتلمـذت على منبر ذاك وتـوسطت حلقـة هـذا ، وأغـرب مـا أدهشني وحـدة الجوهـر واختـلاف الأسلوب . الضجـة التي سمعها المعّـري في الـلاذقّية ، وان الاصـوات التي كانت مرتفعة في أروقـة البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقاهرة وغرنـاطة واشبيلية ، وما كـان يتصاعـد من أبواق دراويش المتصـوّفة ومن قعقعـة السيوف الخشبيـة التي يتكىء عليها خطباء الجمعـة ، كلها تطلب البلسم للجرح وتريد العلاج لهذه الـدنيا المريضة ، ولكن كلّ ما جاءت به مسكّن لا العلاج الشافي . وكـذلك دعاوة اليوم وما تقوم به هذه الأكـوام من المؤلفـات والمحـاضرات والمجلات والجرائد ومكـاتب السيـاسيين ومنـابـر البرلمانات وصفـوف الجامعات وأنباء المراسلين ، وكلّ مـا سجّلته الأقلام ورتبتـه حروف المطـابع ، تلك الأقلام وتلك المطـابع التي تكتب وتطبع بحبر رماد الحقّ . فقـد قيل إنّ الباطل أحرق الحقّ ، وجاء البشر أو شياطين البشر فلم يجدوا إلاّ رماد الحقّ ، وسرعان ما جعلوه مادة حبر لما يكتبون وما يطبعون . والدنيـا في يومها وأمسها برغم الانقلاب الأول والثـاني أساليب تتبـدل وظواهـر تتطّور، ولكـن كلّ ما جـاءت به عـلاج مسكّن وليس بالشافي .

«إنك إذا تقصّيت وفحصت بعمق لم تجد في الرؤوس شيئاً . وهـذا الإنسان في قديمه وحديثه لم تنفعه تفّاحة آدم ولا صمّـونة مولوتوف(*) ، بل هذي وتلك طـردته من الجنّة وأبعدته عن النعيم . . »

الشيخ علي الشرقي :

كان عاطفياً سريع الإنفعـال في حياته الشخصية والأدبية ، وقد أثـر فيه يتمه ونشأته الصعبة في البيئـة النجفية الجامدة تأثيراً عميقاً . ولـذلك نرى شعره يختلف اختلافـاً بيّناً عن شعر معاصريه بكثرة مجازاته و إيماءاته وصوره الغريبة وحدبه على الفقراء والفلاحين والكادحين .

لم يكد يبلغ مبلغ الشباب حتى ثـار على بيئته الجامدة ووجد نفسـه سجيناً يصبو إلى الحرية والانطـلاق ويرنو إلى آفـاق بعيدة خارج مجتمعـه . وهو يحمل على رجـال الدين المتـزمتين ويداعب الأفكـار الحرّة الجديـدة التي انبعثت من النهضـة الفكريـة في مصر ولبنان على قدر ما تسمح به ثقافته الدينية الأصيلـة وعدم معرفته باللغات الغربية . وقد جاء نثـره وشعره متماوجين بين القديم والحديـث لا يستقر لهما قرار شأن نفسيتـه القلقة المضطربة .

(*) صمونة مولوتوف (او قنينة مولوتوف ، على الأصحّ) اسم أطلق خلال الحرب العالمية الثانية على قنابل بدائية استعملها الروس في الدفاع عن بلادهم، ومولوتوف وزير الخارجية السوفيتية عهدئذٍ .

ولعل هناك بوناً شاسعاً بين الشرقي الشاعر والشرقي القاضي الشرعي العالم الناجح والشرقي الوزير الذي مالأ الوضع الذي ينتقده وسايره لينعم بمنصبه. لكنه كان دائماً مخلصاً وفياً لأصحابه معتدل السيرة غير مندفع في خصومته ونقده. عرف في القضاء فقيهاً ملماً بالأحكام الشرعية متمسكاً بالتسامح والتزام مفاهيم العدالة في تطبيقاته وتخريجاته. أما في الوزارة فكان شفافاً كالماء الذي يتلوّن بلون الإناء، فلما جاءت ثورة ١٤تموز ١٩٥٨ وقضت على العهد الملكي الذي زامله في حياته السياسية مضى في «أحلامه» يحمل على سياسة الامير عبد الاله ونوري السعيد. ومن الحق أن يقال إن شعره قبل الثورة كان زاخراً بالشكوى والتبّرم من الاوضاع السائدة، فكان ثمة ستار فاصل بين حياته العملية والفكرية لم يحاول رفعه. لم يكن الشيخ علي الشرقي من الرجال المكافحين في سبيل المبادىء والآراء، الراضين بالتضحية وتحمّل المشاق، بل كان بطبعه سهلاً ينقاد للواقع ويماشي ويجامل إلى أبعد الحدود.

وقد قال في احدى رباعياته:

يا رامي الشجر العالي بأكرته، هلاّ تعلّمت أخلاقاً من الشّجر
ترميه بالحجر القاسي بلا خجل وإنه دائماً يرميك بالثمر

لقد هادن المغالين المندفعين والمعتدلين المسايرين وقنع برفاهة العيش وهناءة الأسرة والقبيل واكتفى بالنقد البريء والقول الهادىء، فقال:

هذي الرؤوس ولكن كلها وجع، وذي العيون ولكن كلها رمد
وكم صدور بهذا القطر فارغة جوفاء ليس بها قلب ولا كبد
صدور أندية في جهلها انتفخت حتى تشابه فيها الهِرّ والأسد

وصحّ فيه قوله:

يا بلاداً تجهّمت بظلام ألمصابيح فيك ملأى بزيت
إنني هامس بأذنيك قد كنت ولكن لا أريد أرفع صوتي

وكان المسالم الذي قال:

ما لدار السلام أضحت برغمي تشتهي أن تكون دار الخصام؟
تنطح الصخر في قرون الطين وتغزو الأمجاد بالأقزام

***

اطلع احد شعراء النجف المتزمتين على منظومة إيليا أبي ماضي «لست أدري» فعارضها بمنظومة مثلها حسب أنها نقضت كل شكوك الشاعر المهجري وجعل عنوانها «أنا أدري». فانبرى له علي الشرقي بمعارضة جديدة مختصرة ختمها بقوله:

أنت مجنون ولكن لست تدري، أنا أدري.

علي الشـــرقي :

حـدثني علي الشرقي أنـه جـاء من النجف إلى بغـداد بعـد أمـد قصير من احتـلال الانكليز لها سنـة ١٩١٧ ونزل في بعض خانات الكـاظمية . وتحلّق روّاد الخان عصراً في الساحة وأخـذوا يتحدّثون عن الأتراك ومـا جنوه على العراق فسلقوهم بـألسنة حداد، وقال بعضهم إن الأتـراك كانوا كفّاراً والإسلام بـريء منهم . . فاعترض علي الشرقي، وكان جالساً معهم تمضيةً للوقـت، وقال إن الأتراك مسلمون ولا ريب، وليسوا كفّاراً، والأولى انتقادهم بأنهم علّـة تأخر البلاد التي حكمـوها نحواً من أربعة قـرون في دياجير الجهل والفقر.

وفي صباح الغد مضى الشرقي إلى بغداد ودخل السوق وجلس في دكّان السيد محمد رحمة الله، وكان جعفـر الشبيبي عـاملاً لديـه . وفيها هم يتحدثـون إذ جاء بعـض أفراد الشرطــة وتفحّص وجـه علي الشرقـي وقـال لــه : أنت علي الشرقي القــادم أمس من النجف؟

قال : نعم

فأشار إليـه الشرطي أن يرافقه إلى «خـان دلّة» وهو آنـذاك مقّر الشرطة الانكليـزية . ومضى بصحبته فأدخل على قوميسير (مفوض شرطة) انكليزي يتكلم العربية بطلاقة، وقال له : أنت علي الشرقي (ومضى يسرد حياته وأعماله) . ثم سأله : ماذا قلت أمس في خان الكاظمية وأنت جالس تتسامر مع الجماعة؟

فأخبره الشرقي بما دار الحديث حـولـه ومـا قالـه هـو نفســه، فقال المفـوض : هــذا صحيح، وكلامك لا غضـاضة فيه . لكن العـوامّ لا تفهمه وتؤوّلـه شتى التأويلات في هذه الظروف التي تخيّم عليها سحابة الحرب، فالأولى أن تحذر الكلام وتلوذ بالصمت .

وأذن لـه بالـذهاب بعـد هـذا التحذيـر، فخرج وهـو يعجب لـدقّة الاستخبـارات البريطانية .

عبد الحسين الأزري

عبد الحسين الأزري من شعراء الطبقـة الثانية التي برزت بعـد رائدَيْ النهضة الأدبية الزهاوي والرصافي . لكنه بقي محافظاً إلى حدّ ما ولم يساير التجديد إلى آخر أشواطه شأن محمد رضا الشبيبي وأخيه محمد باقر وعلي الشرقي وأقرانهم .

نسبـه علي الشرقي إلى الأسرة الأزريّة المتفـرعة من محمـد بن مراد التميمي البغـدادي المتوفى سنة ١٧٤٩، وهو أول من لقّب بالأزري لتعـاطيه بيع الأُزر المنسوجة من القطن والصوف، وقـد نبغ من هذه الأسرة الشـاعران محمـد كاظم (١٧٣٠ ــ ١٧٩٦) ومحمد رضا المتوفّى سنة ١٨٢٤

لكنّ جعفر الخليلي يذكر مستنداً إلى أصحّ المصادر أن الحاج عبد الحسين بن يوسف ابن محمد المعروف بالأزري ابن محمود بن ابراهيم الحضيري التميمي لا صلة له بآل الأزري المتقدم ذكرهم سوى أنّ أحد جدوده من الحضيريين تزوج بابنة الشيخ محمد رضا أخي الشاعر الشيخ كاظم فطغت شهرة الأزرية على هذا لبيت.

ولد عبد الحسين الأزري في بغداد في شهر شباط ١٨٨١، ودرس في مدارسها الإبتدائية. ثم تتلمذ على الشيخ شكر الله قاضي الجعفرية فأخذ عنه العلوم العربية والدينية. وأكبّ على مطالعة الشعر والأدب، ونظم القريض وهو يافع. عمل في التجارة حيناً، وهي مهنة أسرته، وكان موظفاً في شركة ترام الكاظمية.

وافتتحت المدرسة الجعفرية في بغداد سنة ١٩٠٨ فألقى في حفل الافتتاح قصيدة قال فيها:

زيـــدي بنيك محاسنـــاً وجمالا ودعي الحوادث تقنع العـــذّالا
وامشي بهم مشي الهلال معـــانياً حلك الـــدّجى حتى يتمّ كمالا

وأعلن الدستور العثماني في تلك السنة فكفل حرية الكلام والصحافة. وأصدر الأزري جريدة «الروضة» (٢٢ حزيران ١٩٠٩)، لكنها أغلقت قبل مرور سنة على صدورها فشفعها بجريدة «مصباح الشرق» (أول آب ١٩١٠). وصدرت هذه الصحيفة أشهراً ثم أصابتها يد التعطيل.

وأصدر بعد ذلك جريدته الثالثة «المصباح» (٧ آذار ١٩١١) فـ«المصباح الأغرّ» (١٤ تشرين الثاني ١٩١١) وظلّت تصدر ثلاث سنوات. وتولّى الأزري في الوقت نفسه ادارة مجلة «العلم» التي أصدرها هبة الدين الحسيني الشهرستاني.

ولما نشبت الحرب العظمى وخاضت الدولة التركية غمارها، نفي إلى قيصرية الأناضول مع لفيف من أحرار العراق ورجال الفكر والإصلاح، فمكث في منفاه نحواً من سنة وعشرة أشهر. وسمح له بالعودة إلى بغداد مع صحبه سنة ١٩١٦ وقال يذكر وادي أرجيوس من قمم جبال طوروس القريبة من قيصري:

وادي أَرَجْيُوس، حسبي ما أقاسيه، شيّبت رأسي كما شابت نواصيه
كفاك سجن غريب بين مجتمعٍ يعـدّه كأسير من أعاديه
ضيّعت، ويلك، شطراً من شبيبته قد ظنّه برغيد العيش يقضيه
يشكو إلى الليل من صبح يعيد له (م) البلوى وللصبح من ليل يداجيه

ويحنّ إلى بغداد فيقول:

إذا ذكرتك، يا بغداد، أرقّني ذكرى حبيب بروحي كنت أفديه
تركته ساعة التوديع في وَلَهٍ لم يدر كيف عن الأنظار يخفيه

وبين جنبيـه نفس لا تطـاوعـه على النـوى وفـؤاد لا يـواتيـه .

وهي من رقيق الشعر تذكّرنا بهائية ابن زريق البغـدادي(لا تعذليه فإنّ العذل يولعه) ونونية محمود سامي البارودي :

محا البين مـا أبقت عيـون المهـا منّي فشبت ولم أقـضِ اللبّـانـة مـن سنّي

أصدر الأزري بعـد الحرب مجلة «الإ صلاح» (٢ آب ١٩٢٤) فلم ينشر منهـا سوى عددين .

وانتخب نائباً عن الديوانية في مجلس النواب (كانون الاول ١٩٣٤) فلم تدم نيابته الاّ أشهراً إذ حلّ المجلس في نيسان ١٩٣٥ وقد قال في المجلس النيابي :

يـا رواق المجلس الحافـل بـالـوفـد الضيـوف ،
يـا جنـاح المطعـم الغـاض بـرواد الـرغيـف ،
أيها الحافـظ لـلآثـار ربّـات الـرفـوف .
حـرت في الأمـر ، فهـل عنـدك مـن رأي حصيـف؟؟
كيـف مـالـت كفّـة الميـزان بـالـوزن الخفيـف؟

وعدّ المجلس صالة تمثيل هزلي تحرّكه الإشارات من وراء الستار ويعيش جوقه اللاهي على كدّ الألوف من المواطنين . وقـد قال الشاعر العراقي في القرن التـاسع عشر ـ ولعلّه عبد الباقي العمري ـ :

صـور وأشبـاح تـروح وتغتـدي خلف الستـارة والمحـرّك بـاقي

وكـان لـلأزري بعض الإلمام بـاللغـات التركية والفـارسيـة والفـرنسيـة . ومن أولاده الوزيـران المهندس عبد الأمير والاقتصـادي عبد الكريم . أدركـه الحمام في بغداد في ١٧ كانون الاول ١٩٥٤

مـؤلفـاتـه :

له شعر نشر في معظم المجلات والصحف العربية ، ثم جمع في ديوان طبع في بيروت سنة ١٩٧٩ بمقدّمة للشيخ علي الشرقي . ووضع تاريخاً للعـراق قديماً وحديثاً وروايات منها : قصر التاج ، بـوران ، بطل الحلة ، وكلها لم تطبع ، ومجموعة مقـالات في السياسة والاجتماع والأخلاق .

شعره :

عبـد الحسين الأزري شـاعـر محافظ في معـانيـه ومبـانيـه ، جـزل الألفـاظ ، مشرق الديباجـة . ذكر علي الشرقي مزايا شعـره فقال : «هو إقليمي في فنّه ، انسـاني في نزعته ، قومي في أهدافـه . وبما أنه ترعرع في أحضـان الثورات والانتفاضات فقـد كان يكثر في شعره النقد الـلاذع وتصطبغ قصائده أحياناً باللون القـاتم . يحب من الشعر الخيال

الجميل ويبدع في الأسلوب القصصي».

وقال جعفر الخليلي إنّ الأزري، إلى جانب شاعريته الفياضة، محدّث بارع وظريف لبق. كان على جانب كبير من الوقوف على التاريخ العربي، وقلّما روى شيئاً دون أن يستشهد بأقوال شعراء الجاهلية والإسلام والوقائع التاريخية. وكان لغوياً واسع المعرفة، خفيف الروح، يعشق الجمال في كلّ شيء ولاسيما في المرأة. (اهـ)

امتاز شعر الأزري بالجزالة والرواء. وهو شاعر وجدانيّ قبل كلّ شيء. أليس هو القائل:

خطأ كان، فاذهبي بسلام — واغفري ما اقترفتُ من آثامي
وتناسي بحرمة العهد ما كنت — تقاسين في سبيل غرامي
من عتاب مرّ وآلام شكوى — فيهما قد تصرّمت أيامي
غرني طيفك الملمّ بجفني — حينما كنتُ غارقاً في منامي
وتخيّلت أنني فزت بالقرب — وأدركت منك بعض مرامي
لست أدري، وليتني كنت أدري، — أنا في سورة من الأحلام.

والقائل:

صدق الهوى، ما كلّ ودّ صادق، — فلكم تذرّع بالوداد مماذق
ومكابرٍ بالعشق لو كاشفته — لعرفت منه سرّ ما هو عاشق.
أحمامة الوادي، سبقتك بالغِنَا، — لولا فمي بالماء دونك شارق
ولربما سكت الحزين، وفي الحشا — نفس معذّبة وقلب خافق

وقال يخاطب شجر البان:

هل مسّك الوجد مثلي، أيها البانُ — فآذنت بذبولٍ منك أغصان؟

سأل الشاعر شجر البان: هل روت له الحمامة حديث الهوى مشوباً بالأشجان والأحزان، وهل اتخذت الظباء ملجأ في ظله الوارف الفينان، ثم أمست مغانيه قفرة موحشة كنفس الشاعر الولهان؟

وفي قصيدته «اليتيم» التي أنشدها سنة ١٩٢٥ في حفلة المعهد العلمي لرعاية الجمعية الخيرية للأيتام يقول:

هدأ الدجى لولا أنين عليل — وممدّد بسقامه مشغول
ونشيج والهى خشية من أنها — تبقى وصِبْيَتُها بغير كفيل

طال السّقام على الشقّي المريض، وبجانبه صبية صغار وحليلة تتكلّف الصبر الجميل، ومن الصبر ما يثقل ويرهق إرهاقاً. وقفت عند سريره تكفكف دمعها وتنظر

إلى أولادها وقد باتوا على الطوى. حتى إذا ما قضى ربّ الأسرة بقيت المرأة المفجوعة تعاني البؤس، حتى سئمت الذلّ ووردت حياض الموت تاركة أيتامها ظعائن في قفر راحت مشتّتة بغير دليل.

وقصيدة الأزري مؤثرة حزينة تبتدىء وتنتهي بالفاجعة على عادة شعراء زمانه وفي مقدمتهم الرصافي ناظم «أمّ اليتيم» و «اليتيم في العيد».

وفي شعر شاعرنا، أنّات وحسرات، فهو نفسه قد ابتلي بالمصائب فقال:

عشتُ دهراً فلم أجد غير ما بتُّ (م) أقاسيه من نوائب دهري
غصص لو حسبتها لتلاشت دون إحصائها دقائق عمري

فلا عجب أن أصبح سيّء الظن بالدهر وبالناس.

ألم يقل:

أضحكتنا، وربّ ضحك بكاء، فترة من زماننا رعناء

وقال أيضاً:

نحن في كلّ غُدوة ورواح هدف الموت والقضاء المتاح

وقال:

لم يبق في الناس موثوق بعفّته إلاّ الذي عصمته رحمة الباري

وقال:

تمشي بنا القهقرى مَشْيَ الكسيح بها دنيا تقدم أذناباً على الراس

وقال:

قد ذهب الصدق وظلّ اسمه، يا ليته ولّى مع الصّدق

وقال يرثي لحال الأديب:

جهلوه في قيد الحياة، وبعدها لمّا مضى أسفوا على فقدانه
فكأنّهم فيضان دجلة حينها يأتي إلى الوادي بغير أوانه

وقال يذكر صديقاً خانه:

ولي صاحب قد كنت أوثر حبّه فلما أساء انسل من قلبي الحبُّ
لقد خانني فيماعليه ائتمنته وربّ أذى مستقبح بعده العتب

وقال، ولعلها الغاية في الشكوى من العقوق والكنود:

حسبي عتاباً على من قد خلصتُ له وقد جفاني أنّي لا أعاتبه
ممّن تحذّر من صُلبي نفضت يدي، فكيف أرجو الوفا ممن أصاحبه؟

والأزري شاعر وطني تألّم لحال بلاده وسائر أقطار العرب والشرق وطلب لها الحرية

والعلم والنهوض. فها هو ذا يخاطب وطن الرشيد قائلاً:

وطني، لأجلك قد عدمت قراري ... وسئمت فيك حياة هذي الدار
أحيي الليالي والعيون هواجع ... وهواجسي في جنحها سمّاري

حتّى يقول:

ناديت أوطاني، وما أعني بها ... ناديت غير دوارس الآثار
الناثرات فضائلي ومفاخري ... والشاهدات بعزّتي ونجاري
والناظرات إليّ نظرة آمل ... إحياء مجد دارس وفخار
والباعثات بنفسي الشّمم الذي ... يأبى الحياة بذلّة وصَغَار.

ويقول في قصيدته «المجد مكتسب»:

دم ذاكراً فيك، يا شعبان، من وثبوا ... فسوف يحفل في تمجيدك العرب
واحفظ لهم عهد صدق عند نهضتهم ... بنوده الشرف الموروث والحسب
واسعد بقوم على ورد الرّدى عقدوا ... راياتهم أو ينالوا كلّ ما طلبوا.

ويقول في قصيدته «مظاهر ودّ كلّهن مصائد»:

ألا أيها الوادي الكئيب الذي له ... على بؤسه مجد طريف وتالد
لقد كنتُ أرجو أن تحلّ من الإبا ... محلاًّ به تلقى إليك المقالد
ظمئنا وللأغيار فيك موارد ... إذا علّ منهم صادر حلّ وارد

ويقول في قصيدة أخرى:

ليس يجدي من الضعيف الكلام، ... يسمع النّاس ما يقول الحسام
إنّما الحقّ سلوة العاجز الأعزل (م) ... فيها لو جارت الأحكام
يتسلّى به كما يتسلّى ... بحديث الصّبابة المستهام

ولا يفوته ـ على عادة شعراء عصره ـ أن يطلب العلم لأمته، فيقول:

نال فيك الغرب، يا علمُ، المراما ... فغدا لم يَرْعَ للشرق ذماما
أشرقت شمسك في الغرب ولم ... نرَ من آثارها إلاّ ظلاما.

حتى يقول:

يا بني الشرق، خذوا العلم ولا ... تجعلوا منه إلى الظلم دعاما
واتقوا عادية الدهر به، ... فهو العروة لا تخشى انفصاما

ثم يلتفت إلى وطنه فيخاطبه قائلاً:

أيّها القطـــر الـــذي في مجده ضـــارع النجم علـــوّاً ومقـــامـــا
كلما رمـتُ أنـــاجيـك بما في فـؤادي قطع الـدمـع الكــلامــا
لـك في عهـــد حمورابي على ســائر الأقطــار فضـل لا يُســامَى
وعلى آثـــاره قـــد شهـــدوا أنّك المبـــدع في الأرض النّظــامــا
بـــدأ العلم بمغنـــاك فهـل فيــه تحظى اليــوم بــدءاً وختــامــا؟

خلا شعر الأزري من المديح باستثناء الأماديح النبوية والمراثي الحسينية. لكنه رثى رجال عصره، وفي طليعتهم الملوك الهاشميون حسين وفيصل وغازي، والسياسيون محمد جعفر أبو التمّن ورستم حيدر وسعد زغلول، والأدباء الزهاوي وشوقي والرافعي والمنفلوطي، والزعماء الروحيون محمد تقي الشيرازي ومهدي الخالصي، الخ. ولعلّه الشاعر العربي الوحيد الذي رثى شاعر الهند طاغور، وإن يكن الأدباء كتبوا عنه وترجموا له كثيراً ومنهم مصطفى صادق الرافعي. قال الأزري في طاغور:

أيّها الــراحـل الــذي كــان يشــدو وهـــو رهـن القيـــود والأغـــلال
مثلما تصـــدح الطيـــور صبـــاحـــاً مـن وراء الأقفـــاص والأقفـــال

والحقيقة ان طاغور لم يعرف القيود والأقفاص، بل شدا وترنّم حراً طليقاً، فلقي التكريم في مواطنه وفي بريطانية والمحافل الدولية التي منحته جائزة نوبل للآداب. واقتصر نضاله في سبيل الهند على اعادة الأوسمة التي منحته إياها الحكومة الانكليزية بعد الحرب العظمى الاولى.

وقال الأزري:

لم تصـــل للكمال نفـــس، ولكـــن كـــدت فيهـــا تجتـــاز بـــاب الكمال
أدب لـــذت من شجـــونك فيـــه عـــدت فيـــه بمعجـــزات الخيـــال
خطـــرات شفـــافـــة ككـــؤوس مـن رحيـق معتـق سلســـال
أو نسيـم بين الـــريـــاض بليـل أو كماءٍ عـــذب المذاق زُلال.

وهو يستطرد في رثاء الزهاوي إلى حكمة الحياة والموت، فيقول:

ضرب الغمـوض على الحياة حجـابـه، فـــارفـق بنفسـك، أيها المتعمـقُ
قصرت خطـاك عن الـوصـول ولم تـزل تـدنـــو فتبعـــد أو تعـــوم فتغـــرق
مشت العصـــور على غـــرار واحـــد: نفـس بها تحيـــا وأخـــرى تـــزهـق
والأرض تثمـــر والمنيـــة تجتني، والليـل يجمـع والنهـــار يفـــرق
والـدهـر كـالبحـر الخضمّ يفيض في رحم الـــذين مضـوا ويجرف من بقُـوا
الـــخ

ويرثي ولداً احتسب به صبياً فيقول ملتاعاً:

بين نشر الـــدجى وطيّ النهـــار   سبق الشمس للمغيب هــزاري . . .
أيّها الحاملـــون للقبر دُرجـــاً   من عطـــور أو بـــاقـــةٍ مـن بهار،
كفّنـــوه بـــالـــورد فهـــو أخـــوه،   واجعلـــوا القبر سلّـــة من نضـــار
لا تهيلـــوا على الأقـــاحي تـــرابـــاً،   فحـــرام تَعَفُّـــر الأزهـــار

ويرثي قريبة له عزيزة عليه فيقول:

كـأنـــك في قبريـــن: قبر بـــأضلعـي   يصـــونـك ممـــا بتّ تلقَيْن في اللحـــد
أجـــدد فيك العهـــد كلّ عشيـــة   وإن فصمت أيدي المنون عُرى العهد.
وقبرٍ بـــه وَسَّـــدتُ خـــدك تُـــربـــه،   وبـــالـــرغم مني بتِّ عـــافـــرة الخدّ
وقفت عليـــه خـــاشع القلب مطـــرقـــاً   كأني تمثـــال من الحجـــر الصَّلْـــد

وهو يـرثي سعد زغلول فيطلقهـا صرخة وطنية مـدوية، ويرثي أحمد شـوقي فيمجّد الأدب ويكبر الشاعر والأديب، ويرثي يوسف رجيب فيأسى لهوان الأديب الحرّ ويحزن لبؤسه وشقائه.

والمواضيع الأخـرى التي يطـرقهـا الأزري يماثل معظمهـا تلك التي شغلـت بـال معاصريه من الشعراء.

فهو يرثي لحال وطنه ـ ذلك الوطن الذي قال فيه:

وطن يـــرانـــا الخير من غـــربـــائه   وتعـــدّنـــا النكبـــات مـن أبنـــائه
وتكـــاد تنكـــرنـــا الحيـــاة، كـأنّنـــا   لسنـــا بهذا القطـــر مـن أحيـــائه

لقد عدم قراره لأجل هذا الوطن وسئم الحياة فيه، فأرقت لياليه. طلب لقومه العلم والنهضة والسّؤدد، وحيّى ذكـرى الثورة العربية وثـورة العشرين، وقال إن الحقّ لا ينال بغير النضال، واستنكر الشقاق وتفرق الكلمة، وقال:

تعهـــدوا، يـــا شبـــاب اليـــوم مـــوطنكم   مـن أن تضيعـــه الأحـــزاب والشّيعُ
كـــان الـــوفـــاق لكـم أيـــام نهضتكم   ركنـــاً، ولكن أراه اليـــوم ينصـــدع.

والأزري بعـد ذلك رجل محافظ وقف من قضية تحريـر المرأة موقف الـوجل والحذر، وردّ على دعاة السفور قائلاً:

أمنـــازل الخَفِـــرات في الـــزوراء،   لا زعـــزعتـك عـــواصـف الأهـــواء

قـال لبنات قـومـه إنّ الحجـاب لم يكن إساراً، وحـذرهنّ من أن يخدعهنّ الشعـراء بخيـالهم، وندّد بـالمسارح والملاهي قـارناً التهـذيب بالفضيلـة والحياء. وطلب تشييـد

المدارس للفتيات ورفع مستوى أخلاقهنّ ليكنّ نساءً فاضلات، صالحات لتربية الأجيال الطالعة.

ومن طريف شعره قصيدته «الغادة العذراء في أحلامها». وللشاعر الفرنسي ألفرد دي موسّيه مسرحية منظومة لطيفة عنوانها «فيم تحلم الفتيات» أو «أحلام الفتيات» يصوّر فيها أختين تتناجيان في الحبّ والزواج والتبرج والجمال. تحلم احداهما بالعريس الذي دعاه أبوها لزيارة الأسرة في الغداة وتسمع، وهي على فراشها سكرى بحسنها وصباها، صوت شابّ يغني لها خارج النافذة ويقول: أيتها الفتاة، ماذا تفعلين بحياتك؟ السّاعات تهرب، والورود تذبل، والشتاء يعقب الخريف. قلبك يخفق وعيناك تتوهّجان. أنت تذهبين إلى البحر بلا نجم هاد وإلى المعركة بلا نشيد. وما قيمة الحياة بلا حبّ؟ إنها الحياة رقاد والحبّ أحلامه.

وتقول الفتاة: إنني أشعر بهزار يترنّم في أعماق قلبي. ويأتي الحبيب ليختار احدى الفتاتين فيتردّد ويحار، ويقول: لا تسخروا منّي، أنا لا أعرف طرق الحبّ. انا لا أعرف سوى النظر وإنزال عبرة ساكنة وترديد آهة خجلة. النار تضطرم في صدري ولساني عاجز عن البوح بهيامي. وتنتهي الأحلام بالزواج السعيد.

إنّ أحلام فتيات الشاعر الفرنسي تضجّ بالبطولة والحبّ والمجازفة والغناء. أمّا غادة الشاعر العراقي فتريد سعادة هادئة لا تعصف بها الرياح. قال الشاعر:

عصفت بها ريح الهوى فتدلّهت، ... من ذا يردّ الريح عن أدراجها؟
وتطلعت في الأفق من أستارها ... كتطلّع الأقمار من أبراجها
عذراء فاتنة وكم من فتنة ... كان الهوى سبباً إلى إرهاجها؟
قد جاوزت اعصارها وتهيّأت ... للقطف كالثمرات في إنضاجها
وبدت ترائبها كماء بحيرة ... وكأنّها النهدان من أمواجها
نظرت رشاقة قدّها فتنهدت ... وكأنّها خشيت فوات زواجها
خلع الإهاب عليه أجمل حلّة ... يسمو برقته على ديباجها
ويشفّ عن هيف القوام رداؤها ... كالرّاح تظهر من وراء زجاجها
تختال ضامرة الحشا، لكنها ... تتثاقل الخطوات من رجراجها
جاءت لتعرضه على مرآتها ... من بعد ما عبث الهوى بمزاجها
وتلفّتت لترى انعكاس خيالها ... في ميسها ودلالها وغُناجها
وتكفّ ما قد سال فوق جبينها ... من شعرها لتزيد نور سراجها

وأيقنت الفتاة أنها تسنمت عرش الجمال، فتساءلت عن الذي سيكون حارس تاجها. غير أننا نرى الشاعر ينتقل إلى موضوع أحبّ إلى نفسه وأقرب إلى فكره، فيفصح عن خوفه من أن يعود عصر حوّاء فتستّر الغيد بأوارق الشّجر.

وللأزري غزل لطيف، منه:

بـــدا لي محيّــاهـــا على حين غفلـــة ... فخـــرّ على أقـــدامهـــا صَعِقـــاً قلبي
فقـــالت: أفق من سكـــرة أنـــا كأسهـــا، ... وهـــا أنني أستغفـــــر الله من ذنبـي
وهّمت بإســـدال القنـــاع تعطّفـــاً ... على كبـــد شبت بـــه جـــذوة الحب
فقلتُ: أصـاب السّهم مـرماه فـارفقي، ... وهيهـات بـرء الجرح من نصلـه الـرُهب
رأيت الهوى استـــوفى بـأول نظـــرة ... نهايـة مـا استـوفـاه من عـاشق صب
قفـي أتـــزود من محيـــاك لحظـــة ... قفـي قبلما أقضي على حكمـــه نحبـي

وقال:

بيني وبينـك ألّـف القـــــدرُ ... فـــاللحـن أنت وحبّـك الـــوتـــر

لقد أحسن الأزري رواية قصص الحبّ الخيالية في شعره العذب المنسجم، فقال:

زارني طيفـك فـــاستقبلتـــه ... وأنـــا في مضجعـي لثماً وضما
مثلما عـــوّدتني في يقظتـي ... أن تـــزوري دون أن أسبـق علما
فتنسّمتـك لطفـــاً كـــالصبـــا ... وتنشقتـك كـــالـــزهـــرة شما
وتحدثـت بصـــــوت مثلما ... كـــان عهـــدي في اليقظـــة نغما
هـل تحوّلت خيـــالاً في الكـــرى ... وتقمصـت مـن الأحـــلام جسما؟
وعجيـب أنـت والطيـف معـــاً ... كيـف لم تختلفـــا لـــونـــاً وطعما
خفـق القلـب لمرآك بـــــه، ... ليت شعـري كيـف عـدّوا الطيف وهما؟
لم لا؟ أحسب حلمـي يقظـــة ... عنـــدمـــا ألقـــاك واليقظـــة حلما
حلّليــــــه كيفما شئـت فما ... زال رؤيـــاي لـك اللغـــز المعمى

انّ شاعرنـا قد طوّف في المدائن والمعاهد، وتجشّم المتاعب والمشـاقّ، عاشر الشيوخ في آلامهم والشباب في آمـالهم، وعلّل النفس وهدهـدها بـالأماني والأحـلام، فرجع إلى عزلته خائباً حائراً. والتجأ إلى «واحـة الإيمان» ينشد الراحة والسّكينة في ظلال الأدب، منشداً لنفسه:

حسبي يـــراعي ســـاقيـــاً ... ومـــــداد محبرتي شرابي
وأنــــا الــــذي لم يبـق لي ... الاّ منـــادمـــة الكتـــاب

محمد حبيب العبيدي

مفتي الموصل وشاعرها ولد فيها سنة ١٨٧٩ وتوفي بها في ١٩ تشرين الاول ١٩٦٣ وقد نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية».

وأضيف هنا أنه كان مع الجيش التركي في ساحة فلسطين حين احتلها الانكليز سنة ١٩١٨، فقبضوا عليه واعتقلوه في معتقل الأسرى بالاسكندرية. وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب.

من شعره الوطني:

أضرموا النار، يا سراة العراق، واغسلوا العار بالدم المهراق
إنّ ضيماً حملتموه عظيم كاحتمال الأطواق في الأعناق
كلّ آنٍ تُسقون كأس هوان فاقطعوا بالسيوف كفّ السّاقي
يا رجال العراق، لستم أسارى لتزينوا الأعناق بالأطواق.

قال فيه إبراهيم صالح شكر انه تعشق البطولة والعظمة من الصغر، فوضع العمامة على رأسه وتخيل نفسه نذير القضاء على جمود المسلمين وبشير الإصلاح المنشود في الشرق. فلما وصل سنّ الشباب رأى نفسه أهلاً لأن يقوم بالدعوة لإصلاح حال الشرق والمسلمين، فأخذ يخطب ويكتب في هذا الباب. ورحل إلى سورية والاستانة مراراً، ثم قام برحلة يطوف فيها العالم الإسلامي داعياً إلى الإصلاح. ونشرت له جريدة الرأي العام البيروتية قصائد ومقالات طنّانة حماسية واجتماعية. ولما نشبت الحرب العظمى أصبح خطيباً للفيلق التركي الرابع بقيادة جمال باشا السفاح. وألف كتاباً عن «جناية الانكليز» وآخر بعنوان «حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام».

وجاء إلى الموصل بعد الحرب فخلع عن نفسه ثوبه التركي الطوراني. وعاودته فكرة الزعامة، كما قال إبراهيم صالح شكر، فجمع له زمرة من الشبيبة الموصلية وأخذ يدعو إلى العرب ونهضتهم ويتغنى بأمجاد قحطان وعدنان ويمتدح ملوك العرب ومجاهديهم.

الشيخ كاظم الدجيلي

سلام على شطّ الدّجيل، فحسبه عُليً أنه مَغْنَى الدّجيلي كاظمِ
أديب سياسي أريب وشاعر وبالفضل معروف كثير المكارمِ
إذا قال شعراً ردّد الدّهر شذوه وفي نثره سحر كسَجْع الحمائمِ

وصاغت أيادي الشيب تاجاً لرأسه لجيناً، وقلب الشيخ غضّ البراعم
يفيض بأوصاف الحسان قصيده ويا قلّما قد خاض غَمْر الملاحم!
شبيه بأفلاطون في الطّهر حبّه على أن شعر الحبّ جمّ المزاعم
على أن شعر الحبّ عذب نشيده فلا تستمع فيه للوم اللوائم

قرأ علينا الاستاذ الشيخ كاظم الدجيلي في السنوات الأخيرة طرفاً رائعاً من شعره غير المنشور أمتع أسماعنا وسحر ألبابنا، فكان أن خاطبته بتلك الأبيات مازجاً التقدير والتعظيم الذي أكنّه للصديق الشاعر بالدعابة والملاطفة.

ولد كاظم الدجيلي في قرية دجيل المعروفة بسميكة شمالي بغداد في ١٠ آذار ١٨٨٤، وهو ابن حسين بن عيدان بن درويش بن نهار الخزرجي. وجاء به والده إلى بغداد وعمره ستة أشهر فاستوطن جانب الكرخ. ودرس في الكتاتيب فحفظ القرآن وألمّ باللغة العربية وطرف من العلوم، ثم لازم فريقاً من أفاضل العلماء والأدباء كشكري الألوسي والسيد حسن الصدر والأب أنستاس ماري الكرملي وجميل صدقي الزهاوي فأفاد منهم فوائد جليلة.

وقد حدثني أنه كان يغشى مجالس رجالات بغداد كالسيد عبد الرحمن النقيب وعبد المجيد الشاوي وغيرهما، فكان النقيب يستقبله كلما وافى ديوانه مردّداً البيتين التاليين:

أسال بالصّبح سيل أم زيد في الليل ليل؟
يا إخوتي بدجيل وأين منّي دجيل

والبيتان للشاعر عليّ بن الجهم قالها حينما مضى إلى الشام، فلما قرب حلب، خرج عليه اللصوص وجرّحوه وأخذوا ما معه وتركوه على الطريق، فاستنجد بإخوته في دجيل، وأين منه دجيل؟ (وكان مقامه بمحلة دجيل في بغداد).

وأتيح له بعد ذلك أن انتمى إلى مدرسة الحقوق في بغداد فنال شهادتها في سنة ١٩٢٣

وقد عمل مع أبيه في تجارة الحبوب ردحاً من الزمن في صدر شبابه، ثم أقبل على المطالعة ونظم الشعر. وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية سنة ١٩٠٨ فحيّاه بقصيدة ألقاها في الاحتفال الذي أقيم في السراي تخليداً لهذا اليوم، ومطلعها:

بشرى الأنام وبشرى أهل بغداد فالدهر وافى بإقبال وإسعاد

وصدرت الصحف بعد أن كانت الأفواه مكمومة في العهد الحميدي الدابر، فحرّر الدجيلي في جريدة «بغداد» التي أصدرها مراد سليمان و«الإرشاد» لحسين فريد وجريدة «الحقيقة» لصاحبها عبد المجيد طلعت من رجال حزب الاتحاد والترقي. وأصبح في سنة ١٩١١ مديراً لمجلة «لغة العرب» التي أصدرها الأب أنستاس الكرملي حتى

أغلقت عند نشوب الحرب في أواخر سنة ١٩١٤ وحكم عليه بالسجن في نفس هذه السنة لمقالة نشرها في مجلة «المستقبل» المصرية لصاحبها سلامه موسى، ولم يلبث أن أطلق سراحه، وقد نظم في السجن قصائد منها قصيدته «بوليس بغداد» التي يصف فيها مآسي السجن وأهواله ختمها بقوله:

ولا يحسبنّ المرء تلك خرافة — فناظمها سّماعها وخبيرها

ولم تك مأساة لعمري غريبة — ففي جانبي بغداد جمّ نظيرها

وقام الدجيلي في السنوات السابقة للحرب العظمى برحلات إلى إيران وكردستان وأطراف العراق وعربستان وجاب القرى ومنازل الأعراب ودرس أخلاقهم وعاداتهم وأحوالهم الاجتماعية وكتب عنهم ما لم يتهيأ لغيره من الرحالين والرواة.

وقد رحل إلى البصرة على اثر احتلال الإنكليز فوظف بدائرة الشرطة (٢٨ كانون الاول ١٩١٤). ثم رفع إلى وظيفة معاون مفتش شرطة (كانون الاول ١٩١٦) فمفتش شرطة (تموز ١٩١٧)، لكنه استقال في ايلول من تلك السنة، وقد عاد إلى الشرطة بصفة معاون مفتش في (كانون الثاني ١٩١٨) ولم يلبث أن استقال بعد شهرين. ثم اعتقل في النجف في كانون الاول من تلك السنة وسجن في بغداد نحواً من ٤٠ يوماً.

وانتمى إلى مدرسة الحقوق عند إعادة افتتاحها، وعيّن في الوقت نفسه سكرتيراً خاصاً لرئيس محكمة الاستئناف في بغداد ومحرراً لمجلة «العدلية» (حزيران ١٩٢١) فمحرراً للوقائع العراقية، وهي جريدة الحكومة الرسمية، عند صدورها في (كانون الاول ١٩٢٢).

وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق (١٩٢٣)

وعيّن في أواخر سنة ١٩٢٣ مدرساً للّغة العربية في معهد الدراسات الشرقية في لندن فبقي فيها إلى سنة ١٩٢٩ وقام في الوقت نفسه بتدريس اللغة العربية للأمير غازي ولي عهد العراق في أثناء دراسته في العاصمة البريطانية (١٩٢٦ ــ ٢٨)، وقام أيضاً بوكالة سكرتيرية المثلية السياسية العراقية في لندن (٤ أيلول ١٩٢٧ ـ ١٢ آذار ١٩٢٨).

وعاد الدجيلي بعد ذلك إلى بغداد (ت١ ١٩٢٩)، فلم يلبث أن عين في السلك الخارجي وسمّي نائب قنصل في مصر (٥ كانون الاول ١٩٣٠). ونقل في السنة التالية مراقباً للبعثات العلمية في لندن (تشرين الاول ١٩٣١) فنائب قنصل في المحمّرة (أيار ١٩٣٤) فبيروت (١٩٣٥) فقنصلاً في حيفا (١٩٣٥) فالقدس (١٩٣٧) فبومبي (آب ١٩٣٨)، ونقل قنصلاً في كراجي (كانون الأول ١٩٣٩) فتبريز (حزيران ١٩٤٣). ولما أنشئت المفوضية العراقية في موسكو عيّن مشاوراً (١٨ تشرين الأول ١٩٤٥) وأصبح بعد ذلك قائماً بأعمالها حتى أحيل على التقاعد (آب ١٩٤٨).

وقضى الأعوام الأخيرة من حياته متنقلاً بين العراق وأوروبا، حتى أدركه الحمام في فيينا عاصمة النمسة في ٢٣ آذار ١٩٧٠، وجلب جثمانه إلى بغداد ودفن في النجف.

وقد وضع كاظم الدجيلي رسالة في «أحداث ثورة العشرين» حققها حكمت رحماني ونشرها سنة ١٩٧٣

مؤلفاته:

لكاظم الدجيلي شعر كثير متفرّق في الصحف والمجلات العراقية والمصرية والسورية واللبنانية. وقد وضع مؤلفات عديدة نشرت معظم بحوثها في مجلة «لغة العرب» والهلال والمقتطف وسواها من المجلات والجرائد، لكنها لم تطبع كتباً. منها: رحلة الفرات، تاريخ النجف، تاريخ الكوفة، تاريخ كربلاء، المشاهد المقدسة في العراق، سامراء قديماً وحديثاً، تاريخ الكاظمية، وتاريخ البصرة، الآثار العراقية، أشعار الأعراب، أعراب العراق، الأغاني العراقية، صابئة العراق، اليزيدّية، الأسر البغدادية، الفرق الثلاث (وهي الفرق الامامية الأصولية والأخبارية والشيخية أو الكشفية)، الأمثال العراقية، المصطلحات العراقية، السفن العراقية، الشعر القصصي الحماسي، الخ.

وكتب بالانكليزية بحثاً عن الشيعة نشر في كتاب «أديان الانبراطورية» وقال انه وضع روايتين باللغة الانكليزية أيضاً باسم «رواية عربية» و «باشا بغداد».

وللدجيلي بصر بالمخطوطات والآثار. ولم يمنعه عمله في السلك الخارجي وتنقله بين العواصم والبلدان المختلفة من الاهتمام بالأدب، فكثيراً ما كان يكتب إليّ وهو في الخارج رسائل تتناول تعليقات وشؤوناً أدبية.

شعره وأدبه:

كاظم الدجيلي أديب حرّ الفكر، صريح القول، واسع الأفق، زادته اقامته في الأقطار الاوروبية وغيرها واتصاله بأرباب الفكر العالميين ثقافة واطلاعاً. وقد أودع أشعاره ومقالاته آراء بعيدة الغور اقتبسها من تأملاته ومطالعاته الكثيرة. يدور شعره في الغالب على المواضيع الاجتماعية و الفكرية، وله غزل ووصف رائع. ولكم يثور على التقاليد البالية وينعى على المجتمع الرياء والتعصب والجهل. ورثاؤه قليل، منه مرثاته لأخيه المحامي جواد الدجيلي وهي تقطر لوعة وأسى. وقد أرسل من موسكو بمرثية لشيخه وصديقه أنستاس الكرملي، يقول في مطلعها:

ويح المنون! فما لها من رادع ... وقفت لكل الخلق بالمرصاد

ان الحياة على تعاظم شرها ... محبوبة حتى لدى الزهاد

الدجيلي والنقد الذاتي:

حـديثك عن غير القـويّ حـرام		وسعيك في نصر الضعيف أثـام
تحدث بمجـد الأقـويـاء فإنهم		قعـود بأحكـام الـورى وقيـام
يـؤلّـه مـذ صـار ابن آدم قـوة		ومـا الكـون الاقـوة ونظـام.

لم ينظم هذه الأبيـات بعض أعوان هتلـر أو تلاميـذ نيتشه، بل قـالها شاعـر عراقي وديع هو كـاظم الدجيلي الـذي روّعته أهـوال الحرب العظمى فحدثـه على الجهر بما لا يعتقده ويرتضيه. ولذا أقدم على نقد نفسـه في مقال طريف نشرته له صحيفة «الحقائق المصّـورة» البغداديـة في عددهـا المؤرخ في ٢٢ شباط ١٩٢٥ قـال الدجيلي: «في ليلـة مطيرة تراكمت فيهـا الأحزان على قلبي وحـاولت أن أسرّي الهم عني بالمطـالعة، التفتّ نحو عالمي الصغير ـ أي مكتبتي ـ وأخـذت أضرب أخماساً لأسداس. فقلت: هل أقرأ «علم الحـب» لأوفيد وانـا سوداوي، أم أقرأ «أصل الأنـواع» لداروين وأنـا أعتقد حتى الآن بأن الإنسـان وحش مفترس؟ هل أقرأ «الفـردوس المفقـود» وأنا في جهنم، أم أقـرأ رواية «البؤساء» وعلاقتي معهم تقضي عليّ أن لا أنبش قبورهم؟

«هل أقرأ «بحيرة» لامارتين أم «جـان الصغير» لهوغو، وفي النفس صوت يمنعني عن المطالعة في هـذه الليلة إلا في لغتي العربية. وبينما كانت هـذه التأملات تجول في فكري المتضعضع الإحسـاس، رأيت شبحاً ينظـرني بألف عين، فقلت في نفسي: لا شك أن هذا شاعر حيرتي وتردّدي، ولذا تراه يصـوّب نظره إليّ لأنشد أحلامه ولأرثي أمانيه. ثم اختفى بين صحـائف «الأدب العصريّ في العـراق العـربي». أما أنـا فللحـال أخـذت الكتـاب وبدأت أقلب صفحـاته حتى عثـرت على الشيخ الذي اختفى عني، فإذا بـه كاظم الدجيلي».

ويمضي الشيخ كاظم في مقاله فيقول:

«دخلت أول مـدينة في عـالمه واسمهـا «الحياة الاجتماعيـة» وفي البيت الاول من أول شارع وجدت فيه:

حـديثك عن غير القـويّ حـرام		وسعيك في نصر الضعيف أثـام

«أما تخاف الله أيها الشاعر؟ أتروم أن نتحدث دائماً عن الأقوياء، ومن سعى في نصرة الضعيف والأخذ بيده يعدّ اقتراف ذنب يحاسبه الله عليه؟»

ثم يـمضي الشاعـر في نقد أبيـات قصيدتـه حتى يقول: «رباه! أتـروم أن تنتقم مني لهبوطي العالم الذي لم أجد فيه سلوتي بل ترك لي حسرة وزفرة تتصاعد وتنخفض..» اهـ

إن قصيـدة الدجيلي هـذه تزخـر بالأفكـار وتعبّر عن حيرة الشـاعر في رتـابة الحيـاة وتناقضها. فهو يقول:

إذا كنت بين العــــالمين أخـــا قــوىً　　　رعتك عيـــون النـــاس حين تنـــام
حمى الغـــاب بأس الليث مـن كل طــارق　　　ولم ينـجُ مـن فتـك البـــــــزاة حمام
يقـــولـــون: إن الحق مـن فـــوق قـــوّة　　　ومـــا الحق الامـــــدفـع وحُســـام
ولـــو درســـوا علـم الطبيعـــة لانثنـــوا　　　وفيهم غـــرام بـــالقـــوى وهيـــام

ثم يلتفت إلى الخلق فيراه جائراً باسم عادل، ينوح على الميت ويأكل لحمه، ويهدي الصديق الزاد ممزوجاً بالسمّ الزعاف. وماذا يرى الشاعر في الناس؟ انهم أشياع مذاهب يزعم كل منهم صلاح مـذهبه وسداده، فهذا قد أفنى الحيـاة في العبادة، لكن معبوده الأوثان وهي رجام، يقـدم لها النذور ويروم الرزق والمغفرة والعافيـة. وذلك خرافي يروح ويغتدي وأفعـاله الشّر والمعـاصي، حتى إذا مـا قضى نحبه قـدّسه بعـد مماتـه الطغام وشـادوا عليـه قبّـة وجـاؤوه من شرق البـلاد وغربها يطـوفـون بقبره ويلتمسـون بـركتـه وشفاعته:

وقـــالـــوا، وهم يبكـــون شـــوقـــاً ورهبـــة　　　وصـــار لهم حـــول الضريح زحـــام:
بـك الله يحيينـــا غـــــداً ويميتنــــا　　　وأنـت شفـــاء للـــورى وسقـــام.

ويمضي الشاعر في جولته الاجتماعية، فيقف عند جحود ينكر الله جهرة وينعى على القـوم أساطيرهم وخـرافاتهم، وعـالم يحار في سرّ الطبيعـة الغامض ويحاول حلّ ألغـاز الكون فيموت وفي نفسه حسرة منها وفي حشاه ضرام.

وما الأديان؟

حكـــايـــة أديـــان الأنـــام عجيبـــة　　　تجمّـع فيهـــا فـــرقـــة ووئام
تـــريـــد الهدى والخير للنـــاس كلهم　　　وكم ثـــار منهـــا فتنـــة وخصـــام
وغـــايتهـــا القصـــوى عبـــادة واحـــد　　　حقيقتـــه مـــا إن تـــرى وتـــرام
عظيم لـــديـــه يصغـــر الخلـق كلّـــه　　　وتستصغـــر الأجـــرام وهـي عظـــام
لـــه أثـــر في كل شيء وآيـــة　　　وبين قـــواه والـــوجـــود لـــزام
دعـــوه بـأسماء قـــد اختلفـــوا بها　　　وعـــدّوه نـــوراً لا يكـــاد يُشـــام
وقـالـــوا وهم في حـالـة اليأس والـرّجـا:　　　متـى تتـــلاشـى ظلمـــة وغمام؟
متى تجمـع الأديـــان في الأرض وحـــدة　　　لها سنّـــة مشروعـــة ونظـــام
ويسلـك كلّ العـــالمين سبيلهـــا　　　وغـــايتهم منهـــا هـــدى وســـلام.

وينفذ الشاعر في قصيدة أخرى إلى أعماق النفس البشرية فيخاطبها قائلاً:

يـــا لـك مـن آمـــرة نـــاهيـــة　　　أحكـــامهـــا نـــافـــذة مـــاضيـــة

لم يقـــو مخلـــوق على ردّهـــا
لـــو كـــان ربّ السلطـــة القـــاضيـــة

جـــامعـــة الأضـــداد شيطـــانـــة
إلاهـــة رشيـــدة غـــاويـــة

قـــاسيـــة رقيقـــة الحاشيـــة
ســـافلـــة عـــاليـــة راقيـــة

خبيثـــة شريـــرة بـــاغيـــة
طيبـــة طـــاهـــرة زاكيـــة

عـــاجـــزة قـــادرة إن ونـت
أو عـــزمت، خـــالـــدة فـــانيـــه

تقلبت كـــالـــريح أوضـــاعهـــا
هـــادئة عـــاصفـــة عـــاتيـــة

الحبّ والبغـض لها شيمـــة
فـــدأبها غـــاضبـــة راضيـــة.

أعنـــي بها النفـــس التـــي حيّرت
أفكـــار أربـــاب النهـى الســاميـــة

وهو يرى الشر أصيلاً في النفس فيقول:

تجنّب الشّر لا خـــوفـــاً ولا طمعـــا
والشّر في النفس قبل الخير قـــد طُبعـــا

ويقول:

إلى الناس نشكو الناس من سوء فعلهم
فقـــد كثـــرت آثـــامهـــا وشرورهـــا

أرى الشّر قـــد عم البريّـــة كلهـــا،
أكلّ الـورى، يـا قـوم، مـات شعـورهـا؟

فـــلا الـــدين منّـــاع ولا العقل رادع
ولا العلم جـــالٍ ظلمـــة أو منيرهـــا

أرى النـــاس في هيجـــاء من أمـــر عيشهم
تنـــازع فيهـــا عبـــدهـــا وأميرهـــا

فكـــانـــوا ودنيـــاهم سبـــاعـــاً وجيفـــة
تعـــاوت عليهـــا أســـدهـــا ونمـــورهـــا

تقـــدم في الـــدنيـــا فســـاد أخـــو الغنى
وأُبْعِـــدَ كل البعـــد عنهـــا فقيرهـــا

إذا قـــال ربّ المال قـــولاً تطـــاولت
إلى وعيـــه من كل قـــوم نحـــورهـــا

لـــه حـــرمـــة في النـــاس وهـي عظيمـــة
وقـــدر جليـل لم يجزه قـــديـــرهـــا

لـــه الـــرأي متبـــوع، لـــه الحكم نـــافـــذ
لـــه شهـــرة كـــالشمس ســـار مسيرهـــا

وقد غشي التشاؤم بصر الشاعر فقال:

وســـائل يسأل عـن مبـــدئي
فقلـت: إني رجـل أســـوئي

خبرت دنيـــاي وأبنـــاءهـــا
مـــذ نشأتي خبرة مستقـــرىء

فلم أشـــاهـــد غيرمـــا حـــالـــة
أرتنـي الســـوء بكـل امـــرء

وساء ظنه بالناس فقال:

الجميـــل يصنعـــــه
مـن لـــــه بـــــه أرب

والالـــــه يعبـــــده
مـن يخيفـــــه اللهـب!

وخاب فأله في بلده وصحابه فقال:

إني أرى العيش في أرض سوى وطني إذا رحلت اليها اليوم أصفى لي
والعيش في بلد قلّ الرفاق به خير من العيش بين الصحب والآل

وقال متألماً:

أنا من عاش في العراق غريباً أنا حرّ مقيّد بقيود
أنا من قال في الحقيقة قولاً فانتحاه مكابر بالردّود

لكنه يتألم لحال بلاده وحال الشرق المتأخر فيرجو لبلاده وللشرق الرقيّ والمعرفة والنهوض، فيقول:

يا نديمي، وأين منّي نديمي، غنّني واسقني ابنة العنقود
فلقد هاجني تهدّم مجد كان في الشرق ذا بناء مشيد
هدّ أركانه الزمان وأبقى رسمه ندبة بوجه الصعيد.
أيها الشرق، هل ليومك عَود؟ أيها الشرق، مَنِّنَا بالوعود
يا مقرّ الاْلـه، يا معبد الكون، عجيب تدهور المعبود!
نهض الغرب للرقي ففاز القوم فيه هناك بالمقصود
سبقونا إلى العلاء بعلم تخذوا منه سلّماً للصعود
ووقفنا جهلاً ونحن كسالى ننظر القوم من مكان بعيد
نتمنّى الرقي حيث قعدنا كيف يرقى إلى العلى ذو قعود؟
وادّعينا بأننا علماء تلك دعوى محتاجة للشهود.

وينظر إلى حال وطنه المريض فيقول:

ولي وطن يعذّبه أناس بدعوى أن قصدَهُمُ شفاؤه
ولو تركوه يختار المداوي لأُصْلِحَ حاله ولزال داؤه

ويفكر في حال وطنه الفقير فيقول:

يا سواد العراق، بيّضك الجدب فصرت البياض وسط السواد
يا سواد العراق، فيك كنوز يعلم الله ما لها من نفاد
يا سواد العراق، أمحلك القوم وقد كنت روضة المرتاد
يا سواد العراق، شلّت يمين ذات إثم دلت عليك الأعادي

ومن طريف شعره في المرأة:

يا زوجة المرء ويا أمّه حارت بك الأبصار والباصرة
ما أنت إلا امرأة فذّة قد نعتتها الأمم الحاضرة

إلاهــــة معبـــــودة تـــــارة وتـــارة شيطـــانــــة ســـاحــره
تغضب في حـــال الـــرضـــا مثلما تـــرضى وفيهـــا غضب الـــواتـــرة
لا وصلهـــــا دام ولا قطعهـــــا كـــدولـــة عـــادلـــة جـــائره!

وقال في دلال الحبّ وذلّه :

أرأيـت كيـف تمنّعُ المعشـــــوق ودلال شـــائقـــة وذل مَشُـــوقِ؟
يـــا للـــرجـــال المُسْعَـــدين لعـــاشقٍ بسهـــام لحظي غـــادة مـــرشـــوق
من ذا يســـاعـــده على فتّـــانـــة أسرت نُهاه فعـــــاد غير طليـق؟
حـــوراء ألبسهـــا الجمال بهاءه والشمـس بهجتهـــا أوان شروق
صبّت بهيكلهـــا الطبيعـــة حسنهـــا فبـــدت مثـــال الحسن للمخلـــوق
وروت محاسنهـــا حـــديث جمالها متسلســـلاً عن يـــوسف الصّـــديق

ولما يفـرغ من وصف المحبوبـة ومقلتهـا وقوامهـا وطيب رائحتهـا وثغرهـا وصدرهـا وبشرتها ، يشيد بحلو حديثها ومنادمتها في الشراب ، ثم يقول :

أصبـــو فيتركنـي الغـــرام مكـــاشفـــاً بكُمُ عـــدوّي إن فقـــدتُ صـــديقي
لله مـــا يلقى فـــؤادي من جـــوى وصبـــابـــة وتقـــرح وخفـــوق
يـــا سعـد ، كن لي في الصبـابـة مسعـداً فهـــوى المحّب أراه غير حقيـق
شأن الـــزمـــان وتلـك سيرة أهلـــه قـــال الصـديـق فكـان غير صـــدوق

الدجيلي والآنسة ميّ :

كانت الآنسـة ميّ زيادة الأديبة النـابغة قـد اتصلت بالأب انستاس مـاري الكرملي وراسلته في سنـة ١٩٢٠ وساجلته في شـؤون الأدب ، فاهتم بحسبهـا ونسبها وكتب إلى زميل لـه من رهبان النـاصرة ـ حيث رأت أديبتنا نـور الشمس ـ يسـأله مراجعـة سجلّ الكنسية وتحقيق مـولدهـا وأسرتها . فأجابه الـراهب انها ولدت في النـاصرة وعمّدت في كنيستها في ١١ نيسان ١٨٨٦ ، وسمّيت «بربارة» ، وأمّها من الناصرة ، أما أبوها الياس زيـادة فمن قضاء كسروان في لبنـان ، وكان عنـد ميلاد ابنتـه معلماً في مدرسـة «الأرض المقدسة» (تيراسنتا) الفرنسية في الناصرة .

وقد كتبت الآنسة مّي في مجلـة «المقتطف» سنة ١٩١٩ عن الشعر القصصي الحماسيّ وعدم معرفة العرب ايّاه ، فردّ عليها كاظم الدجيلي ، ثم ترضاها بقصيدة قال فيها :

قلبـي بكلّ هـــواي لاسمـك ذاكـــر هل أنـت شـــاعـــرة؟ فإنّي شـــاعـــر!
يـــرتـــاح للـــذكـــرى ويطـــرب كلّما وافـــاه طيـف من خيـــالـك زائر
يـــا من تحدّثـت الـــرجـــال بفضلهـــا وبها النســـاء النّـابغـــات تفـــاخـــر

لك في سـويـداء الفـؤاد وفكـرتي | وبمقلتي وفمي محلّ عـامـر
إني امـرؤ بـالنّـابغـات متيّم | وإلى النـوابغ شـوقـه متكـاثـر
الحبّ أضنـاه وبـرّح قلبـه | وأمضّ آلامـاً محبّ صـابـر
لم يبق منـه الشـوق الا صـورة | يأسى لها لما يـراهـا النـاظـر.
في كل قلـب، يـا أميمـة، نبعـة | للحبّ زاهـرة وغصن نـاضر
والحبّ منتجع الحيـاة وكـلّ مـا | أحيـا النفـوس فـذاك حبّ طـاهـر
والحبّ سلطـان تملّك أهلـه | خضعت سـلاطين لها وجبـابـر
والحبّ فلسفـة تعـذّر وصفهـا | وعن الحقيقـة كلّ فهم قـاصر
والحبّ معنى الله أو هـو ذاتـه | طمحت إليـه خـواطـر ونـواظـر
إني لأحـوي في الفـؤاد محبّـة | لم تحوهـا للعـاشقين ضمائر
ليتيمـة الشرق المضيع حقّـه | دول لـه تقضي وفيـه تنـاظـر
في عـدلها جـور وإن حكمت لـه | ومن الغـريب يقـال: عـدل جـائر!

ولم يكن الدجيلي أوّل من تغـزّل بميّ غزلاً أدبيـاً بريئاً طـاهراً، فقد تغـزل بها الادباء والشعـراء، وهي الفتاة العبقـريـة الفريـدة، غـزلاً كثيراً لا يخرج عن التجاوب الفكـري والتعاطف الـروحي والتعارف الأدبي الـذي جعل المرأة المثقفة الحساسـة حلماً في العيون ومغناطيساً جـذاباً للأفئدة والقلوب وخيالاً مـاثلاً ولكنه، في الوقت عينه، عـزيزاً بعيد المنال. وهل كان وليّ الدين يكن يقصدها حين قال:

تمسين نـاسيـة وأمسي ذاكـرا | عجبـاً، أشـاعـرة تهاجـر شـاعـرا؟
فهل الملائك كـالحسـان هـواجـر | ان الملائك لا تكـون هـواجـرا
إن كنـت لا أسعـى لـدارك زائراً | فلكـم سعى فكـري لـدارك زائرا

ولنعد إلى شـاعرنـا الدجيلي فقـد شكته الآنسـة ميّ إلى الأب الكرملي، فكتـب إليها رسالة مطوّلـة، وكان ذلك في سنة ١٩٢٢، فكان أن أرسلت إليه بأحـد كتبها وخاطبته في كلمة الاهداء: «إلى أعدل الظالمين من الشعراء».

وعيّن الشيخ كاظم مدرسـاً للّغة العربية في جامعـة لندن فمرّ في طريقه بـالقاهرة في أوّل سنة ١٩٢٤ ومكث فيهـا أياماً التقى في أثنائهـا بالدكتور يعقـوب صروف صاحب المقتطف، لكنه سافر إلى لندن دون أن يتاح لـه التعرّف بالآنسة. وعاد إلى اثارة النقاش في موضوع الشعر القصصي الحماسي عند العرب فكتبت ميّ تقول:

«لقـد عـاد الشيخ كـاظم الـدجيلي في فبراير ١٩٢٤ إلى مـوضـوع الشعـر القصصي الحماسي. نـاقشني وصمت خمسـة أعـوام درس خلالها الحقـوق ونفحني بقصيـدة

نشرها في «الهلال» ودعاني فيها ببعض الأسماء الحلوة التي يبتكرها الشعراء يوم يوطدون النفس على معالجة العناد عند امرىء بوجه من الوجوه وعلى أن يسترضوه بالأوزان والاسجاع ليخاصموه بالنثر المرسل. . ».

وختمت ردّها تقول: «قيل لي يا سيدي الاستاذ، إنك رحلت إلى انجلترا لتدرّس اللغة العربية في جامعة لندن. وسواء كنت الآن في انجلترا أم في العراق فهات يدك أصافحها! . . »

ومرّت الاعوام، وحلّت سنة ١٩٣٠، فإذا بالدجيلي ينقل إلى القنصلية العراقية في القاهرة، فيؤمّها ويغشى محافلها الأدبية والاجتماعية. وهيىء له لقاء ميّ لأول مرّة في بعض الحفلات، وكان الذي قدمه إليها الدكتور أمين معلوف، فقد أخذ بيده واتجه صوب سيدة مشرقة الطلعة من غير جمال أخاذ وقال: هل تعرفين هذا الرجل؟

قالت: لم يسعفني الحظّ بلقائه من قبل. فضحك الدكتور معلوف وقال: كيف ذلك؟ إنه صديقك وخصمك كاظم الدجيلي! فصافحته ببشاشة وقالت: إذن أنت ذلك البغدادي الذي ناظرني وقارعني وترضاني منذ سنين!

ولبث الدجيلي في القاهرة سنة واحدة كان يزور الآنسة في أثنائها مساء الخميس من كل أسبوع بحضور والدتها. وكان الكلام يدور حول الأدب والعلم والتاريخ والاجتماع. وفي سنة ١٩٣١ أعيد نقله إلى لندن مراقباً للبعثة العلمية في المفوّضية العراقية. ومضت سنتان أو ثلاث، وفوجىء شاعرنا ذات يوم بزيارة ميّ على غير موعد، وكانت قد جاءت إلى العاصمة البريطانية في رحلة قصيرة. وقد سرّ بلقائها أيّما سرور واحتفى بها في خلال الأيام القليلة التي أمضتها قبل عودتها إلى مصر، واحتفل بها أيضاً عطا أمين القائم بأعمال المفوضية آنذاك وثابت عبد النّور. وقد وجدها الشيخ كاظم في اضطراب نفسي شديد: فقد توفّيت والدتها التي كانت تلازمها وتتعهدها برعايتها وبقيت وحيدة لا أخ لها ولا أخت ولا صديق يؤاسيها ويعطف عليها.

عادت ميّ إلى القاهرة فكتبت إلى الشيخ رسالة شكر ختمتها بقولها: «أسأل الله أن يوحي إلى شاعرنا ألف قصيدة وقصيدة!» ولم يكن بوسع الدجيلي إلاّ أن يجيبها بقصيدة قال منها:

سلام على ميّ، سلام على مصر ... سلام على صحبي بها أبد الدّهر
وإني، وتهيامي بميّة، عاجز ... عن النظم حتى في محاسنها الغرّ
تطالبني بالشعر ميّ وتبتغي ... لشاعرها وحياً من الله بالشعر
ولم تدرِ أني في حياة بعيدة ... عن الشعر إذ أنّي تقدّمت في عمري
ومارست أعمال السياسة سالكاً ... مسالكها القصوى إلى حيث لا أدري

وكان بعد ذلك من أمر ميّ ما كان، فغلب عليها الداء وحجرت في المستشفى لتعود

بعدها فلا تلبث حتى تقضي نحبها. وكان ذلك اخر العهد بالمناظرات الأدبية بين الشاعر العراقي والأديبة المصرية التي شغلت المحافل والناس سنين طويلة.

محمود الملاح

في دار منعزلة بمحلة السعدون في بغداد يعيش شاعر منزو يعدّ من كبار شعراء المدرسة القديمة في العراق. ذلكم الشاعر «محمود الملاح» الذي يلازم داره وحيداً منذ عشرات السنين لا يكاد يبرحها ولا يزوره إلاّ نفر يسير من أقرانه وأصدقائه.

ولد محمود الملاح في الموصل سنة ١٨٩١، وهو محمود بن عبد الله بن يونس الملاّح، ونسبته إلى سوق الملاحين في مسقط رأسه، وهو سوق قديم يباع فيه الملح وسائر الحاجات. وقد نشأ في ربوع الموصل ودرس العلوم الدينية والأدبية على علمائها وفي مقدمتهم عبد الله النعمة وعثمان الديوه جي قاضي الموصل. ونال الاجازة العلمية في سنة ١٩١٢ فوظف مداوماً في قلم تحرير الولاية. ولم تلبث الحرب العظمى أن اضطرم أوارها فجنّد لكنه استمر على مزاولة وظيفته في الولاية إلى عقد الهدنة وانسحاب الاتراك وتسليم المدينة إلى القوات الانكليزية.

كانت الموصل في ذلك العهد بلدة منعزلة راكدة الثقافة لا تكاد تستشفّ بصيصاً من أنوار المدنية الحديثة. وكانت الثقافة التركية تعمّ المحافل الرسمية وتستهوي الطبقة الراقية، أما الثقافة العربية فكانت ضيقة الأفق محصورة في نطاق المحافل الدينية. وقد استطاع فتانا مع ذلك أن يحصل على طائفة من الكتب الصادرة في القطرين المصري والسوري وأن يتتبع سيرة دعاة الاصلاح أمثال جمال الدين الافغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي ومحمد رشيد رضا ويغذي روحه النهمة بآرائهم وتصانيفهم. وأعلن الدستور في السلطنة العثمانية على أثر انقلاب سنة ١٩٠٨ وانتشرت المبادىء الاصلاحية واللامركزية في ربوع الشام وانتقلت منها إلى العراق. فكان أديبنا الشاب في طليعة الشباب الموصلي الناهض الذي آمن بهذه المبادىء وأشرب حبّ الثقافة العربية الجديدة على بعد الشقة وعسر الاتصال. وقد قام بتدريس التاريخ والجغرافية بصورة فخرية في مدرسة محمد رؤوف الغلامي، واشترك مع فريق من الشعراء منهم داود سليمان الملاح، وفاضل الصيدلي في نظم أناشيد عربية للأطفال تولّى الغلامي طبعها في كتيّب.

وفي سنة ١٩١٩ شدّ الرحال إلى سورية واستقرّ في حلب أمداً على عهد حكومتها العربية. ووظف في مجلس إدارة الولاية ومدير التحرير آنذاك ابراهيم هنانو الذي عرف بمواقفه الوطنية السامية، وقد رثاه الملاح عند وفاته في سنة ١٩٣٥ بقصيدة مطلعها:

جللوا الأرض بالسواد حدادا　　　إن فقد الزعيم هزّ البلادا

ولما شدد الفرنسيون سيطرتهم على البلاد السورية وقضوا على حكومتها العربية ضاق محمود الملاح ذرعاً بوظيفته فعاد إلى الموصل سنة ١٩٢٢ ولم يلبث أن قدم بغداد سنة ١٩٢٤ وألقى بهاعصا الترحال. قام في أول الأمر بإعطاء دروس خاصة في اللغة العربية ثم عين رئيساً لكتاب مجلس النواب عند إنشائه في سنة ١٩٢٥ لكنه قضى في هذه الوظيفة أياماً معدودة. وعين بعد ذلك مدرساً في بعض المدارس الأهلية فمدرساً في المدرسة الثانوية الرسمية (١٩٢٥ ــ ٢٨). وعين بعد سنتين معلماً للّغة العربية في المدرسة العسكرية (١٩٣١ ـ ٣٣)، وأصدر جريدة أدبية باسم «التجدّد» (٢٤ تموز ١٩٣٠)، فلم يكتب لها التعمير طويلاً. وانتخب نائباً عن الموصل في كانون الأول ١٩٣٧، فلم يطل عهد نيابته سوى أمد قصير، إلى حلّ المجلس في شباط ١٩٣٩ وقد توفي محمود الملاح في بغداد في ١٩ آذار ١٩٦٩، ودفن في الموصل.

عالج محمود الملاح قرض الشعر صبياً. وما إن وفد على بغداد حتى اتصل بمحافلها الأدبية والثقافية ونشر قصائده ومقالاته في مجلاتها وجرائدها ومن بواكير شعره الذي نظمه في مدينة السلام قصيدته «تمثال مود». فقد شاهد تمثال القائد الانكليزي ولم يكن له سابق عهد بالتماثيل والأنصاب فخاطبه قائلاً:

أتــروم في جــوّ السماء مطــارا — أم أنـت ملتمـس لها أخبــارا؟
لم نلـق حيــا طــائراً بجــواده — لكنّ ميتــاً فــوق مهــر طــارا
فكأنما ضــاقت بــه فسح الفــلا — فـأراد في فسـح الهواء مغـــارا

ويقول منها:

يــا أيها الشعب الجهــول تعلّمـن — مـن ميّت درس الحيــاة جهــارا
طأطـأت رأسك للحــوافـر بعــدمـا — طــاولـت فــوق متــونها الأقمارا
مــا زلت عن وقـع الخطـا متغــافــلا — وكفـى بلــوغك وقعهــا إنــذارا
وأراك في ذيـل الشقــا متلفعــاً — فمتـى أراك تســابـق الأبــرارا؟
فيم ادعــاؤك لــلأصــول، ولا أرى — نفعــا بـوصـف الفــاكـه الأشجــارا
يــا خــابـراً من أمتي أعــراقهــا — أتــرى الــدم الجاري بهنّ معــارا؟

ومنها:

الغـــرب يبنـي في السماء منـــازلا — والشرق يحفــر في الثــرى آبــارا
والغــرب في درج العــلا متصــاعــد — والشرق تحت طبــاقهــا يتــوارى
جهلـــوا الطــريق ولا دليـل مبصر — فهم ببيــداء الحيــاة حيــارى.

نشر هذه القصيدة في جريدة «العراق» بتوقيع مستعار فاستحسنها الشاعر محمد

الهاشمي ونقلها في مجلتـه «اليقين» وقدّم لها بتـوطئة كلهـا مدح وإطـراء. ولم تمضِ أيام حتى لقيـه محمود الملاح وأخبره ان القصيـدة لـه، فقال الهاشمـي: «لقد أثنيت عليهـا لأنني ظنتها للسيد محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل».

لازم محمود الملاح في أثناء إقـامته ببغداد أدباءها وفضلاءهـا وغشي مجالس الزهاوي والرصافي والكرملي وعبد العزيز الثعالبي وفهمي المدرس وطه الراوي وعبد اللطيف ثنيان وياسين الهاشمي ومولود مخلص وعباس العزاوي وأضرابهم وشارك في المناسبات الوطنية والأدبية بشعـره ونثره. ولـه مباحث في اللغة وقـواعدهـا والتاريخ العـربي والاسلامي. واجتمع لـه ديوان ضخم تفـرقت قصائده في الصحف والمجـلات. ونشر رسائل منهـا «الوحـدة الاسلامية بين الأخذ والـردّ (١٩٥١) عبد الباقي العمري (١٩٥٣)، تـاريخنا القـومـي بين السلب والايجاب (١٩٥٦)، دقـائق وحقـائق في مقـدمـة ابـن خلـدون (١٩٥٥) نظـره ثانيـة في مقدمـة ابن خلـدون (١٩٥٦) تحذير المسلمين من المتـلاعبين بـالـدين، تعليقـات وحـواشي على كتاب ابـن سينا (١٩٥٣) حقيقـة إخـوان الصفـا (١٩٥٤) تشريح شرح نهج البـــلاغـــة (١٩٥٤) النحلة الاحمديـة، البابية والبهـائية (١٩٥٥)، المجيـز على الـــوجيـز (١٩٥٦)، الآراء الصريحة لبنـــاء قـوميـــة صحيحـة (١٩٥٦)، الزرية في القصيدة الأزرية (١٩٥٢) حجّة الخالصي (١٩٥٢).

وللملاح مطـارحات شعريـة ومداعبات إخـوانية كثيرة مع أصدقـائه وفي مقدمتهم عبـاس العزاوي ومحيي الـدين أبـو الخطاب المحـامي، وقد سجـل طرفـاً منها المرحـوم ابراهيم الواعظ في كتابه الجامع «الروض الأزهر».

* * *

تعرف محمـود الملاح على أثر قـدومه إلى بغداد بـالأب أنستاس مـاري الكرملي ونشر المقالات في مجلة «لغـة العرب» ثم نشب خلاف بينهما في أثناء الاحتفـال بيوبيل الكرملي فلم يلتقيا بعد ذلك.

ومن طريف ما يـرويه الملاح أن الكرملي تحدث أمامـه ذات يوم عن المآكل والمشارب الطيبـة التي تقدم لـرهبان الـدير وخصّ بـالذكـر النبيذ المعتق الـذي يقدم على مـائدة الطعام، فتاقت نفس الشاعر إلى مشـاهدة هذا النبيذ وسأل الأب أن يخصه بشيء منه. قال الأب «إن النبيـذ ملك الديـر ولا سبيل إلى إخراج شيء منـه». وألح الاستاذ الملاح وألحّ في الطلب وقال: «إذا قدم لكم النبيذ على الخوان فصبّ قليلاً منه في قنينة وأحكم سدّهـا وضعها في جيب ثـوبك الفضفاض». فلم يسع الـراهب إلا أن يمتثل واحتفظ بالقنينة حتى إذا ما جاءه صديقه الشاعر بعـد أيام قدمها إليه قائلاً: «هاك النبيذ المعتق الذي طلبته».

أخذ الملاح القنينة وأطال النظر إلى السائل الأحمر القاني الذي تحويه وقال: «إذن هذا

هو النبيذ الـذي يسيل له اللعاب ويطرى به الاهاب ويخضلّ الشبـاب» ومضى بالقنينة إلى داره ووضعها على الـرف في بعض الغرف وقـال: «لعلّي أتذوّق هذا الشراب يـوماً». لكنه لم يفعل بل كان كلما دخل الغـرفة نظر إلى القنينة وكـرّر ذلك القول. وفي ذات يوم وجد القنينة قد سقطت على الأرض وكسرت وسال شرابها الثمين. لقد مرّ فأر على الرف فعثر بها، وكذلك كانت نهاية النبيذ المعتق الذي لم يذقه الشاعر.

إنّ الملاح على ألمعيتـه وحدّة ذكـائه كثيراً ما تجوز عليـه الهنات: فمن ذلك أنـه حين استحـدثت مسكـوكـة المائة فلس لأول مرة ظنهـا ريـالاً، فمضى إلى الحلاق وكـان من عادتـه أن ينفحه بمائتي فلـس، فلما فرغ من الحلاقـة سلمه القطعـة الجديدة ذات المائة فلس، فلم ينبس الرجل ببنت شفة بل شكره بانحناءة إلى الأرض وتبجيل لم يعهده من قبل.

وخطـر له بعـد ذلك أن يتحقق عن قيمـة هـذه القطعة النقـديـة فسأل صبياً عنهـا فأجابه: «إنها مائة فليس، ألا تقرأ الكتابة على وجهها؟» وعجب الملاح من نفسه كيف فاته مثل هذه البداهة.

وحدث مرة أخـرى أنه اكترى سيارة وأراد أن يدفع ١٥٠ فلسـاً إلى السائق. ولم يكن في جيبه إلا ورقة نقدية ذات ربع دينار وقطعة ذات مائة فلس، فدفع إلى السائق القطعة من فئة مائة فلس وسأله أن يستوفي أجرته ويعيد الباقي.

ومن النوادر التي اتفقت للاستاذ الملاح أنـه كان يسكن داراً تطلّ على حديقة الأمة. فلما قرر هـدم هذه الدور والحاق أرضها بـالحديقة، جاءه مأمور التبليغ وطـرق الباب. وكان الوقت عصراً والحر شديداً، فخرج إليه الشاعر في مباذله.

قال المأمور: «أين صاحب الدار؟»

ـ تفضل، أيها السيد، ما تريد؟

ـ لقـد تقرر هـدم البيوت المطلـة على الحديقة فـوراً، فيجب إخـلاء الـدار في أيـام معدودة.

وما أن بوغت الشاعر المنزوي بهذا الكلام حتى صقع وعظم عليه الأمر، فصاح:

«سبحان الله، كيف أفرغ داري خلال أيام وأين أذهب. . »

لكن المأمور قال بغير اكتراث: لا بـدّ من ذلك، وأرجو أن تتبلغ بالأمـر. ولم يدع له مجالاً للتفكير أو الجواب بل سحب يـده وغمس إبهامه في الحبر وطبع بـه ورقة التبليغ، ثم أخذها وودع وخرج.

قال الشاعـر: «لم يسألني هل أحسن الكتابة، وكان من هول المفـاجأة وشدة وقعها عليّ أني لم يخطر ببالي أن أقول له إني أعرف التوقيع باسمي».

وقد ذكرتني هذه الحادثة الطريفة بنادرة تنسب إلى اللغوي الاميركي نوح ويبستر صاحب القاموس الشهير الذي أفنى عمره في وضعه. كان يعمل طوال النهار مجهداً فكره وجسمه لإنجاز معجمه، فلما أمسى المساء خرج للترويح عن نفسه وقصد بعض المطاعم لتناول العشاء. ولم تلبث الخادمة أن جاءته بقائمة الطعام، فأخذها ببطء وألقى عليها نظرة كليلة مرهقة ثم أعادها إلى الفتاة وقال: «ألا تختارين لي برأيك شيئاً نفيساً آكله؟».

واختارت له الخادمة ما شاءت من الطعام، فلما فرغ من تناوله وأتت لترفع الصحون، قالت: «هل أعجبك طعامنا؟».

قال: «أجل، أجل، لقد أحسنت الاختيار فشكراً».

فقالت: «لا تنس أن ترسل إلينا أصحابك ممن لا يحسنون القراءة، فأنا كفيلة بخدمتهم وإرضائهم».

يجمع محمود الملاح في شعره كل خصائص مدرسة النهضة الشعرية الأولى التي حمل لواءها محمود سامي البارودي في مصر وترسّم خطاه شوقي وحافظ والزهاوي والرصافي وأضرابهم. والسمات العامة لهذه المدرسة الاعجاب بالديباجة العباسية والالتزام بالاساليب الفصحى والعمود الشعري الدقيق. ذلك من حيث الاسلوب، أما من حيث المعاني والاغراض فالغالب على شعراء هذه المدرسة النظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية والدعوة إلى النهضة والاصلاح والتقدم والتضامن العربي والشرقي والحملة على الاستعمار والاستغلال وتكريم مشاهير الامة ومصلحيها ورثائهم وإحياء أمجاد العرب والاسلام ووصف الطبيعة والمخترعات الحديثة ومباراة القصائد القديمة وطرق المواضيع الاخرى من حكم وقصص وأمثال وغزل ونسيب والاعراب عن المشاعر والعواطف، كل ذلك مع الاهتمام بوحدة القصيدة والتوسع في الأغراض والمطالب وتحري المعاني المنفردة والحكم المأثورة واستلهام آداب الأمم الغربية والشرقية إن رأساً وإن عن طريق الترجمة والاقتباس.

وقد عني الملاح بتلك الأساليب والمواضيع. وتفتحت قريحته بعد قدومه إلى بغداد واتصاله بمحافلها الأدبية والوطنية، فنظم أكثر ما نظم في الوطنيات والسياسيات والاجتماعيات والمراثي وشارك في الندوات والحفلات وأنشد في الموالد النبوية ومواسم المعهد العلمي. وكان صوته ينطلق في كل مناسبة سانحة ينعى على الأمة العربية تشتت كلمتها وتمزّق شملها.

لكن تفرّقنا أودى بعزّتنا ... ففاتنا في الأنام العزّ والخطر

وهو يدافع عن عروبة فلسطين ويرثي شهداء عالية وينافح عن سيادة العراق وكرامته واستقلال البلاد العربية في المشرق والمغرب ويدعو إلى النهضة والاصلاح

والتمسك بلباب الدين ونبذ القشور والخرافات. وهو يتفجع للانسانية المعذبة المهانة في الحرب العالمية الثانية ويقارع الاستعمار والانتداب ويندّد بالادواء الاجتماعية ويهاجم النواب الذين يستهينون بحقوق الشعب وكرامة الأمة. وهو يرى أن كل ما يهزّ الشاعر يصلح أن يكون موضوعاً للشعر فيستهجن التقليد والمحاكاة والتصنّع ويحبذ إرسال الشعر على طبيعته. ونظراً إلى دراسته اللغويةوإدمانه مطالعة الشعر القديم وحفظه، نراه يهتمّ كل الاهتمام بصقل منظوماته وتجديدها ولا يتورّع عن استعمال الكلمات الفصيحة المهجورة. وهو ينقاد أحياناً لقوافيه، فإذا طاوعته القافية ـ وكثيراً ما تطاوعه ـ توسع في المعنى وكرّر القول حرصاً على استيفاء القوافي المؤاتية، ولذلك جاء معظم منظومه من القصائد المطولات يتبسط فيها تبسطاً ويشعب آفاق الكلام.

إن شعر محمود الملاح يصور عهداً تاريخياً حافلاً من عهود العراق والأمة العربية، وقد ظل يلقي هذا الشعر وينشره قرابة ثلث قرن. وحفلت به صفحات الجرائد والمجلات المعروفة كالعراق والاستقلال والبلاد والاخاء الوطني والزمان واليقين ولغة العرب والحاصد والهداية الاسلامية. واتخذ الرثاء ذريعة لاطراء الشيم واستنهاض الهمم، فممن رثاهم سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وشعلان ابو الجون وعمر المختار وابراهيم هنانو وجمال الدين الافغاني والمنفلوطي واحمد تيمور وحافظ ابراهيم واحمد شوقي واحمد زكي وعبد المحسن الكاظمي وعبد المسيح وزير وعبود الكرخي ومحمد أمين العمري ومولود مخلص وعبد الوهاب عزام وغيرهم من رجال الوطنية والسياسة والقلم. انتصر الملاح لفلسطين فقال (سنة ١٩٣٦):

فلسطين، بيّضت وجه العرب ... وقمتِ بحقّ جهاد وجب
لقد هان عندكِ بذل النفوس ... كما هان عندك بذل النّشب
غلاء النفوس بإرخاصها ... وإحياؤها بارتياد العطب
صعيدك من عُصُر خاليات ... يروّى بكلّ دم منكسب
ولا يرجع المجد مثل الدماء ... إلى أمّة مجدها قد سلب.
فلسطين، رجّحت سلّ الحسام ... على شغف بيان الخطب
ولا نفع في خطب صارخات ... إذا لم تؤيد بحد القضب
ولَلسيفُ أخطب من قائم ... على منبر نادباً ينتحب.

وقد دافع عن جميل صدقي الزهاوي أول قدومه إلى بغداد وقبل أن يتعرف بشخصه فقال على لسانه:

سائلي عن أحبّتي وخليلي ... صاح، هلاّ سألت عن مستحيل؟
كنت من غير مازن فاستبيحت ... ابلي بعد شيبتي ونحولي.
إن سئمتم إقامتي سوف لا يسأم ... ذكري مدى الزمان الطويل

فلما مات الزهاوي رثاه بقصيدة فريدة صوّر فيها الشاعر الذي غمط حقه في حياته

ينظر إلى موكب تشييعه الحافل فيعجب ويستغرب:

أطلّ الــــزهـــاويّ مـن نعشــــه فشـــاهـــد من حـــولـــه محشرا
رأى منظـــــرا لم يكن في الحيـــاة يـــؤمل مـن جنســـه منظـــــرا
كـأنّ المنـــــاكب مـن تحتـــــه غـــــوارب بحـــــــر إذا زمجرا
وللقـــوم همس فهــــذا يقـــول لقـــد جلّ مـــا قطـــرنـــا أخسرا
وذاك يقـــول: «هـــوى كـــوكـب مـن الأفق مـن بعـــد لـن يظهـــرا
فيـــا أسفـــاً يـــذهب الفيلســوف ويترك مـــربعنـــا مقفـــرا».
جـرت خلفـــه زاخـــرات الجمـــوع فـأنشأ يسـأل «مـــاذا جـــرى»؟
فقـــالــوا: «حييت وقـــد كنت ميتـــاً فصرت لتقـــديسنـــا مظهـــرا
ورجلك عـــرجـــاء كـــانت فصـــارت بمـــوتك تعـــرج نحـــو الـــذّرى.

وقال على لسان الشاعر الحكيم:

فماذا يـــــريـــــد الألى أنكـــــروا عليّ سلـــوكي وقـــالـــوا: «افترى»
عجبت لمن جـــاء يبغـي الصـــلاة عليّ وبـــالأمـس لي كفّـــرا

ومن الذكريات التي يرويها الملاح أن الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي سعى مرة بالصلح بين الشاعرين المتنافسين الزهاوي والرصافي ودعاهما إلى داره لتناول الطعام، وكـان الملاح حاضراً. ولما علم الضيوف أن الثعالبي قـد طهى الطعام بنفسه وأحسن طهيه، قالوا له: «لو لم تكن لك إلا هذه الملكة لاستغنيت بها..».

إن شعر الرثاء قد كان في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وسورية ولبنان والعراق وسائر الاقطار العربية المنبر المدوّي لروح الوطنية والنهضة السياسية والاجتماعية واللسان المعبّر عن المطامح والأماني السامية. من منّا لم يقرأ آيات الوطنية والنهضة في مراثي اسماعيل صبري وأحمد شوقي وحافظ ابراهيم والزهاوي والرصافي وخليل مطران وعبد المحسن الكاظمي وأحمد محرم وأحمد نسيم وأحمد الكاشف ومحمد عبد المطلب وعلي الجارم وبشارة الخوري ومهدي الجواهري وعباس محمود العقاد وبدوي الجبل وغيرهم من شعراء العربية الملهمين؟ من منّا لم يهتزّ للمراثي التي قيلت في أعلام الوطنية والجهاد من مصطفى كامل ومحمد عبده ومحمد فريد وشهداء العروبة في سورية ولبنان إلى سعد زغلول وعبد المحسن السعدون وابراهيم هنانو ومحمود شكري الآلوسي ومحمد جعفر آل أبي التمن وغيرهم من الزعماء والافذاذ الخالدين؟ ولقد أدلى شاعرنا محمود الملاح بدلوه بين الدلاء فاتخذ الرثاء أداة للتعبير عن طموح الأمة ونهضة الشعب.

قال يرثي السعدون :

فوادح خطب سيلها متتابع ... وأحداث دهر كلهن فواجع .
سليل العلا هلاّ التمست ذريعة ... سوى الموت إذ سدّت عليك الذرائع
وأنّى لجفن منك غضّ على القذا ... غداة هوت فوق الرؤوس المقامع
وقال لشريان يجول به الإبا ... لي الذمّ إن وقّاك منّي مانع
أيجري دم الأمجاد فيك وأمتي ... لقد قصمت منها الظهور الفظائع
رأيت اعوجاجاً ظاهراً وتلوّناً ... فلا عضد لي يوم الكفاح يشايع
فقدت مطيعاً بينهم لنصائحي ... ولم يبق لي إلا المسدّس طائع
زرعت لآمال العراق نواتها ... إذا أحسنوا استغلال ما أنا زارع

وقال يرثي عمر المختار بطل برقة الشهيد :

أراها لا تقرّ على قرار ... زوابع ما فتئن على مثار
تنازلنا الحوادث في جيوش ... تسير على التتابع كالقطار.
رويد، رويد، دكتاتور روما ... فكم كرّ يؤول إلى فرار
وربّ هزيمة شنعاء تبدو ... لعين الغرّ في زي انتصار
دماء الأبرياء إذا تجارت ... بأسّ الملك آل إلى انهيار
حقرتم غاريبلدي إذ رميتم ... غريبلدي العروبة باحتقار
هما بطلان مختلفان أصلا ... ومتفقان في كرم النجار
وألقيتم على الأقوام درسا ... يعاف سماعه وحش الصحاري
فلا يفخر بقتل العزل باغ ... فما في قتل أعزل من فخار

وقال في جمال الدين الافغاني عند نقل رفاته عن طريق بغداد في سنة ١٩٤٤

جمال الدين كان فريد عصر ... به اعترف المصادق والمعادي
أتوا برفاته من ألف ميل ... تلقاه بلاد عن بلاد
وحاز الفخر موطننا بحفل ... أقيم لمصلح للشرق هادى .

وقد قدّر الملاح شعر عبود الكرخي وأثره في العوام فقال يرثيه :

من بعد عبود الكرخي لا تثقن ... بالشعر غلب ألباب الجماهير
بمنطق لو غدا حسّان يطلبه ... ما كان مطلوبه يوما بميسور
خير من اللغة الفصحى يشوّهها ... تخليط أجوف ذي جهل وتقصير.
سن الخطيئة للأخلاف سنّته ... لما رأى الفضل شيئاً غير مشكور
ليس العراق بريئاً من مهازل في ... شعر لأحمد في النوبي كافور

أمـا هجاؤك عنـدي فهـو أصـدق من ... مـدح تكلفتـه لم يخل مـن زور
حبّ الصراحـة في الآراء أنطقنـي ... وللصراحـة ذنـب غير مغفـور

إن ديوان محمـود الملاح الذي نـرجو أن يتـاح له النشر روضـة غناء فيهـا من الازهار والاثمار أفانين. فمن قصيدة له يخاطب طاغور:

طـاغـور عـدت إلى مـواطنـك التي ... منهـا خـرجت وكنت عنهـا غـافـلا
أفأنـت لـلاقـرار جئت بحقهـا ... حتى إذا أقـررت عـدت مـواصـلا؟
عـاودت أصلك والأصـول حقيقـة ... مـا زلـت مفتـونـاً بها متسـائلا

ومنها:

طـاغـور، وهم النـاس غـال عقـولهم ... وهـو المصيب من العقـول مقـاتـلا
لا يستطيعـون الحيـاة بـدونـه ... كـالماء يجري الفلـك فيـه حـافـلا
فلـذاك كـان الـوهـم اكثـر نـاصرا ... ولـذاك كـان العقـل أكثـر خـاذلا

وله من «خواطر مرتجلة»:

إن الحيـاة اغتراب ... وفي المـمات المـآب
فـإنما الـوطـن الأصلي ... الثـرى والتـراب
وقـد يسمى حيـاة ... عـن التـراب الغيـاب
كما يسمـى وفـاة ... إلى التراب الإيـاب
إن الحيـاة لعمـري ... كما ينـار الثقـاب
نـار بـأيـدي الـريـاح ... الخمـود والالتهـاب.
كـأنما الأرض كـأس ... ونحـن فيهـا حبـاب
وكـل مـا حـوت الكـأس ... للهـلاك شراب

وقال من «خواطر شتى»:

يـأتي على أجسـامنـا أبـد ... مثـل الـذي قـد مـرّ مـن أزل
سيّـان سـابقنـا ولاحقنـا ... مـا ثمّ مـن أخـر ولا أول
غـرقى ببحـر لا قـرار لـه ... إلا الـذي يـأتي مـن الأجـل
ذرّاتنـا في الكـون سـابحـة ... في وهـدة طـوراً وفي جبـل
بينـي وبين المشتري صلـة ... مـا ليـس بين النفـس والأمـل

ومن طريف شعره قصيدة عنوانها «لو قدّر للسود أن يسودوا البيض...» يقول منها:

اقتلـوا البيـض ولا تبقـوا رمـق ... إن لـون البيـض من لـون البهـق
اقتلـوا النـاصل منـه صبغـة ... فهـو للشيطـان صنـو إذ أبـق
صبغـة الله، ولا أحسـن مـن ... صبغـة الله تعـالى مـن خلـق

أيها الســود انبــذوا البيض ولا ... تأكلــوا معهم طعــامــاً في طبق
لم يكــونــوا مـن أبينــا آدم ... إن مــا قــالــوه شيء مختلق.
ليس في البيض عقــول رجحت ... كـل مــا في البيض طيش ونــزق

ولقد نقل معروف الرصافي عن قصيدة تركية للشاعر توفيق فكرت فقال:

كلــوا يــا أيها الســادة ... كما تنكــره العــــادة
كلــوا مـن مطبخ الــدستــور ... أكـل الســاســة القــادة
كلــوا بــالسبعــة الأمعــاء ... حتـى تنقــذوا زاده
كلــوا لا تخشــوا النــاس ... فـإن النــاس منقــاده.

أما شاعرنا الملاح فقال في «مطبخ الوحدة»:

كلــوا مـن مطبخ الــوحــده ... ففيــه طــابت الثــرده
كلــوا مـن فــاخــر الألــوان ... حتـى تطفـح المعــده
كلــوا مــا فيــه من حلــوى ... كلــوا مــا فيــه من زبــده
كلــوا المطعــوم والمشروب ... والمشمــوم كــالــورده
وإن العــود محمــود ... لمن يــرغب في العــوده
ضعــوا في الفـم والجيـب ... وفي الصرّة والعقــده
ولا تصغــوا إلى عــذل ... فـإن المأكـل العمــده

ورأى الملاح طغيان الماء في بغداد فقال:

بغــداد مشرفــة على الغــرق ... والقــوم مختلفــون في الطبـق
لا يخدعــوك إذا هـم اختلفــوا ... فــالقــوم كلهم على نسـق.
لهفي على بلــد ذووه شقــوا ... فيــه غــداة بخــاذليــه شقي
لم يسق مـن مــاء الحيــاة وان ... هــو من دمــاء الثــائرين سقي
أمــا القصــور فليس ضــائرهــا ... تيــار نهر مشرف العنـق
سكنت إلى الأيــام واثقــة ... بــوعــودهـن غــداة قلن: ثقي
بين الــريــاض تلــوح زاهيــة ... مثـل الكــواكـب لحن في غسـق
قلبـي يــرفّ إذ أشــاهــدهــا ... مخضــوبــة الشرفــات بــالشفق

وأشفق من النفط فقال في «المارد الأسود»:

ضللت حتى صرت لا أهتدي ... وطال تسهيدي عن السّهد
ولم يطل سهدي إلا على ... قوم على ضيم به رقّد
فبدّدت أحلامي الغرّ في ... شعب إلى أحلامه مخلد
واعترضتني في الورى جنّة ... بعد النّهى من مارد أسود
فياله أسود أزرى بنا ... وصيّر الأحرار كالأعبد
قد كان موطوءاً بأقدامنا ... حتى اعتلى مرتبة السيّد
تالله ما كافور في مصره ... حاز الذي للنفط من سؤدد
إن جار كافور فعذر له ... غربته في الأصل والمحتد
وعبدنا جار على أهله ... لما خلوا من ناصح مرشد..
لم تنكب الأوطان في مرفق ... نكبتها في المرفق الأوحد

وقال في قسوة الناس وحقارتهم:

لعن الله قسوة الإنس، إنّ ... الانس من جنّها أحقّ بلعنِ
مقتوا الشيطان الرجيم ولو قيس ... بأعمالهم لباء بغبن
إن يكن خارجاً على الله إبليس ... فهم خارجون، لكن بفنّ
حارب الله من وراء مجنّ ... وهم حاربوه دون مِجَنّ
يفترون المراء وجهاً لوجه ... ويقولون حكمة غير ظنّ
كان صلباً في ظنّه حين ضحّى، ... مثبتاً رأيه، بجنّة عَدْن
وهمُ إن رأوا يضحّون بالرأي ... إذا أتحفوا بلعقة دهن

وقال مداعباً في كلب سيّدة:

يا كلب سيّدة، حسبتك سيّدا ... لما قعدت من المليحة مقعدا
لو لم يكن إلّا يد من غادة ... تحنو عليك بلطفها لكفت يدا
نلت المنى من غير قصد للمنى ... كم غافل في القصد نال المقصدا
السرّ كل السرّ في الذنب الذي ... أيقنت تحريكاً له أنّى بدا
لا تكترث ما دمت تحمل سرّه ... إن كنت أبيض منظراً أو أسودا
ذنب ثمين لست منه مبدّلاً ... ذنباً لطاووس يضاهي عسجدا
هل أنت منه مبدّل، وهو الذي ... جعل النعيم عليك وقفاً مرصدا؟
لو أنّ زنديقاً بعيشك راتع ... ما كان خالقه الكريم ليجحدا

وقال في سنة ١٩٢٩ يدافع عن حقوق البلاد :

حتّـام تهضم للبـلاد حقـوق ... وبهينهـا من ولـدهن عقـوق
عجبـاً لشعب واجم لعـواصف ... والصخـر إن مـرّت بـه منطيق
الشعب مهضـوم الحقـوق وسـاكن ... في الـرمس كلّ في البـلاء شقيق
هـذا يضيق بـه الطـريق إذا مشى ... ذلاً وذاك بـه اللحـود تضيق

ومنها :

لـو أن طغيـانـا تحمّلـه الثرى ... صبرت على حكم الطغـاة «فـروق»
تـرف وإسراف بمثلها هـوت ... من قبل ذا الـرومـان والاغـريق
مـا جمّعـوه من دمـوع بـوائس ... في كل مـوبقـة لـه تفـريق
بين الجوانح شعلـة مشبـوبـة ... إنّي لأخشى أن يشبّ حـريق

وقد لازمت الملاح ثلاثين عاماً أو يزيد، ونعمت بصداقته ومودّته، وأفدت من أدبه وفضله. وكان لي معه مطارحات شعرية ومراسلات أدبية ومساجلات اخوانية كثيرة لا تزال ذكراها تثير القريحة وترهف الفكر وتنعش الروح.

كان للملاح هرّ يعنى به ويطعمه حتى هرب ذات يوم بلا وداع. وأعرب الشاعر عن أسفه لفراقه، فأرسلت إليه بالأبيات الآتية :

قـد كـان يـؤنسنـا هـرّ ونـؤنسه ... في وحشـة الـدار بين الصبح والغَسَقِ
يأتي فنطعمـه من زادنـا، فنـرى ... فنّـاً عجيبـاً من الألعـاب والملَق
لكن مضى لم يـودّعنـا بـلا سبب ... مخلّفـاً حسرة بـانت على الحدق
لقـد محضنـاه وداً يـوم مقـدمـه، ... فيـا لـه آبقـاً مستهجَنَ الخُلُق
إنّ الطبيعـة نـادت فـاستجـاب لها، ... وراح يسرح حـراً في ذُرَى الطـرق

وتذاكرنا يوماً في الكتب القديمة وما ضاع منها فنسي الحاج خليفة كاتب جلبي وكتابه الفذّ «كشف الظنون»، فقلت له :

عجبـاً لمثلـك عـالماً ... جـمّ المعـارف والفنـون
تنسى أريبـاً فـاضـلا ... وكتـابـه كشف الظنـون
للترك يُنْمَـى أصلـه ... والعـرب فـازت بـالثمينِ
قـد شـاد صرحـاً سـامقـاً ... للعلـم والأدب الـرصين
لـو أنّ «عبّـاسـاً» درى ... لاستـاء من ظلم وهُـونِ
واحتـجّ غضبـانـاً على ... إنكـار ذي الفضل المبين

والاشارة إلى صديقنا المؤرخ عباس العزاوي. وقد أجابني الملاح بأبيات يعرّض فيها بالعزاوي، منها:

أسبـــاب ذلـك أن عبّــــاســــاً غــــزانــــا بــــالمجــــون

فتشتّت أفكـــــارنــــا حتى حكت مسحــــوق طين.

لا تغترر بتظــــاهــــر إذ عنـــدنـــا كلّ اليقين

حين حلّ محمود الملاح في بغداد أشير عليه بالانتماء إلى مدرسة الحقوق كما فعل الكثيرون من صحبه وأبناء بلده، فقال إنه لا يحمل الشهادة الثانوية الرسمية. لكن سمح له ولأمثاله من أصحاب الدراسة الخاصة أن ينتموا إلى الصف الأول على أن يؤدوا بعد ذلك امتحاناً في المواضيع العامة موازياً لامتحان الدراسة الاعدادية.

داوم الملاح في مدرسة الحقوق أشهراً، ثم عين موعد الامتحان العام، ووجهت إلى الطلاب الذين لا يحملون الشهادة الثانوية أسئلة في الرياضيات والطبيعيات واللغة ومواضيع أخرى، وكان منها أسئلة في العروض. وقد سرّ الشاعر الملاح بهذا السؤال بوجه خاص لبعد عهده بالمواضيع العلمية والحسابية، وهنأ نفسه سلفاً مؤملاً أن يحمل إلى النجاح على موجة سعيدة من بحور الخليل. لكن كل الطلاب الذين شاركوه في الامتحان أو جلهم لم يجيبوا على أسئلة العروض، فتقرر آخر الأمر اهمالها وإسقاط درجاتها من متوسط النجاح العام. فخاب أمل شاعرنا، وكان ذلك آخر عهده بدراسة الحقوق.

نثر محمود الملاح:

كان الجمود فاشياً في عهد نشأة محمود الملاّح، وكان الكتّاب يلتزمون بالسجع غير مكترثين بأسلوب الترسّل الواضح المؤدّي للمعنى. ووجد الملاح نفسه صعوبة في التخلّص من ذلك الأسلوب العقيم، فقال في ذلك في كتابه «نظرة ثانية في مقدمة ابن خلدون»:

«ومن الغريب أن الأدباء درجوا علي السجع حتى عصرنا الذي أدركناه ولم يحدّث أحد نفسه باطّراح هذه البدعة. ولعل لابن خلدون الفضل في اطّراح كتّاب العصر الحاضر لها.

وكنت أنا من أواخر من نهج نهجه بعد قراءتي وصيّته في المقدّمة وأنا في عهد التحصيل. وعانيت في الانتقال من طبيعة إلى طبيعة صعوبة حتى أنّي جشّمت نفسي حفظ النثر المرسل للتخلص من السجع! وأتذكر أني حفظت قسماً من كليلة ودمنة. وكنت أعكف على المقدّمة لذلك، وكانت الكتب البليغة النثر عسرة التحصيل.

«وطبيعة السجع التي كانت فيَّ لم تأتني من قبل حفظ كلام مسجّع، كلا، فإني لم أحفظ كلاماً مسجّعاً قطّ. ولكني أسمع كلاماً مسجّعاً وأطالع في كتب مسجعة كمقامات الحريري ومقامات البديع ونهج البلاغة، فينطبع في ذهني السجع، ولا يزال فيّ أثر منه!»

وكان محمود الملاح معجباً بابن خلدون، وقد قال:

«إنّ مقدمة ابن خلدون فتح في الفكر الاسلامي يشبه الفتح الأمويّ في التاريخ الاسلامي، وكلاهما آية من آيات الاسلام». وكان ابن خلدون يلي الكتابة والسفارة والأعمال لأمراء المغرب والأندلس في دويلاتهم المتصارعة فيما بينها، ثم اعتزل أربعةأعوام في قلعة ابن سلامة متخلّياً عن الشواغل ألف في أثنائها مقدمته الشهيرة.

قال الملّاح: «ولولا مطاردة ابن خلدون لحرمنا أثمن ما أنتجه المخّ العربي. فإذا ذكرت ضروب الاضطهاد، فحيّهلا بالضرب الذي عاناه ابن خلدون!».

ومن نثره الرائق مقالته «القطوب بعد الابتسام» التي نشرها في صحيفة البلاد (١٤ كانون الثاني ١٩٣٠)، قال فيها:

ما من ابتسامة إلاّ في عقبها قطوب.

كذلك كانت ابتسامة المغيب، إذ هي أشبه بصحوة المحتضر. هنالك قطعت صلاتي بكل ما كان يطيف بي من شواغل «القهوة» (المقهى) وضوضائها وتكلّفت شبه غفوة نفرّغت فيها لمشاهدة طيوف الماضي معروضة على رقوق الخيال، وهي محفوفة بالحلك شأن السّينما.

فثارت حينئذٍ ذكريات «العروبة» ومجدها الرافل ببرده على ضفاف الرافدين، حيث الراية السوداء سواد مقلة الأيام وسويداء فؤاد الدهر، فعنّ لبالي بيت من قصيدة نظمتها في عهد التّرك، ثم غالها غول التجسّس، وهي:

ما زالت الأيام تبكي دولة كانت سواد عيونها سوّادها

أما أنه لو نطقت هذه الأمواج، أو لو ترجمنا لغة خريرها التي تشبه غمغمة السياسة أو لغة الدواوين، لغمرتنا بالقصص ولحدّثتنا بواقعة الجسر وواقعة القادسية من أيامنا البيض وأخبار هولاكو وأحاديث تيمور من أيامنا السود.

نعم، لو ألحفنا على هذا الماء واستجوبناه استجواب متّهم لاعترف لنا بالجرم الذي اقترفه أو كان عوناً على اقترافه يوم ألقيت في قعره كتب المستنصرية وأسفار النظامية، فانطوى عليها انطواء القمطر. ويوم تحرّى أخوال المأمون. أخاه ابن زبيدة بالحرّاقات التي أنفذها طاهر بن الحسين كما يتحرّى السمك هؤلاء الذين أراهم الآن يمخرون دجلة بزوارقهم.

ثم شخصت ببصري إلى الأفق الغربيّ لأعاتب الغرب على جفائه لأخيه الشرق جفاء المأمون للأمين، وإن كنت لا أملك من وسائل عتابه إلا أضعفها، وهي هذه القصبة التي هو منّ بها عليّ! لكن قطع على نظري الطريق منظر حدائق النخيل المسطورة على هامش الشاطىء الغربي، إذ كان لون لمهما أشبه ببقايا الخضاب في لمم الكواعب. فهاج ذلك المنظر ذكرى الصقالبة يوم كانوا خولاً للعرب يتخلّلون بنواصيهم الشقراء حدائق الخلفاء.

ثم رجعت إلى نفسي وقلت: هل أذاقنا الموت الأحمر إلا الافتتان بذيّاك الشعر الأشقر الذي خلب الألباب فأضعف إرادتها؟ وهل ثلّ عروش الملوك إلاّ الاندفاع وراء الشهوات واتخاذ الأباعد ركائب لاقتناص شواردها حتى يصبحوا شبحاً في حلق أهل البلاد الذين بنيت العروش على سواعدهم؟ كذلك نفض العبّاسيون أيديهم من العرب، فنفضت العرب أيديها منهم، فكان نفضها نقضاً، وما بين النفض والنقض إلاّ نقطة!

ها هي ذي ملكة النهار تزفّ لترسب في قعر الظلمات كما كانت الفتاة المصرية تزفّ لترسب في قعر النيل. وصورة زفافها أن يحاك لها إكليل من الغمام مبرقش بالحمرة والصّفرة والزرقة، ثم يقام على جمّة تسرحها الرياح فلا تتركها ثابتة على قرار، كأنها تحاول أن تستوعب عامة «الموضات» وتجرّب جميع الأوضاع، فهي حائرة في الاعتماد على واحد منها. وللغواني أحلام وأماني لا يضبط منتشرها ولا يضطلع بتحديدها إلا بياض الكفن أو بياض الهرم.

وهناك ثارت رفاف من أطيار النهار متراجعة إلى أوكارها فأحدثت في الفضاء شبه الخيلان، وقامت على أثرها رفاف من أطيار الليل التي لا تطيق النظر إلى بهجة الكون إلاّ في بهمة الحندس. أطيار ليلها النهار ونهارها الليل، وشروقها الغروب وغروبها الشروق، وأصيلها الفجر وفجرها الأصيل، بحيث لو كانت بشراً لاحتاجت إلى الشمس التي تخيّلها المتنبّي في مدح «الأسود» ولما استغنت عن مصابيح من الظلمة. وغاصت الغزالة ولم يبق منها إلا غدائر طافية تلكأت عن الرسوب وارتكم الدم في وجنتها حين شدّ عليها الخناق، فانبسط جانب من لونه على حاشية الأفق. وعلى أثر خمود تلك الشعلة الكبرى من العالم الأكبر، خمدت شعلة الفكر من العالم الأصغر وعرا نشوتي فتور اضطرني إلى التقهقر بفلول آمالي.

محمود الملاح:

سألت محمود الملاح يوماً لمَ لا يجمع شعره ويسعى إلى طبعه؟

فقال: إنني بيّضت شعري منذ أعوام طويلة، لكنني أخاف معاودة النظر فيه. فكلما وقع بيدي شيء من شعري السالف صرت على غير إرادة مني أضيف إليه

وأصحّح فيه وأسقط منه حتى عييت وقررت أن أتركه وشأنه .

وجاءني بمجموعة شعره فنقلت منه ما شئت في جلسات متعدّدة .

استملاك دار الملاح :

لاستملاك دار الملاح قصة طريفة لا بأس من روايتها بعد أن استأثرت رحمة الله ببطليها . فقد قررت أمانة العاصمة منح الملاح بدل استملاك قدره ثلاثة آلاف دينار، فاستقلّه وجاء في المساء إلى المحامي عباس العزاوي في المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه على شاطىء دجلة وشكا له قلّة التعويض .

قال العزاوي : الأمر هيّن ، ويمكنك الاعتراض لدى المحكمة .

ـ ولكنني لا أعرف ما يجب أن أعمله .

ـ تعال غداً إلى دار المحاكم واعمل وكالة باسمي ، وأنا أقوم بما يلزم .

ـ وكم تتقاضى أجرة أتعابك؟

ـ نحن أصدقاء العمر، ولن أتقاضى منك فلساً واحداً في سبيل رفع الغبن الذي وقع عليك .

ـ وماذا تفعل إذا وكلتك رسمياً؟

ـ هناك إجراءات معلومة : فإنني أعترض على البدل ، فيعيّن الحاكم خبراء يمثلونك ويمثلون أمانة العاصمة ويقوم واياهم بالكشف على الدار، ثم يقرّر البدل المناسب .

وكذلك كان . وجاء الملاح بعد أيام يسأل العزاوي عن سير القضية فطمأنه وأعلمه أنها سائرة على وجهها الصحيح .

قال الملاح :

ـ إذا رفع البدل إلى خمسة آلاف دينار فإنني أعطيك أجراً كبيراً .

ـ قلت لك إنني أفعل ما أفعله لأجل صداقتنا ولا أرغب في تقاضي أيّ أجر.

وجاء الملاح في اليوم التالي وقال :

ـ إذا رفع البدل إلى ثمانية آلاف فإنني أمنحك الأجر الذي تطلبه .

ـ ولكنني قلت لك مراراً إنني لا أطمع في الأجر!

وظلّ الملاح يزيد كلّ يوم في بدل الاستملاك الذي يرجو الحكم له به ويعد صديقه العزاوي بأجر عظيم ، حتى كانت عشيّة البتّ في القضية . فجاء إلى المقهى وقال :

ـ إذا رفعت المحكمة البدل إلى خمسة عشر ألف دينار فإنني آتي بالمبلغ جميعه إليك لتتقاضى منه ما تشاء!

قال العزاوي : لا أدري ما ستقرّر المحكمة ولكنني أكرّر القول إنني لا أطمع في أجر ولا مثوبة .

وذهب الحاكم والخبراء في اليوم الثاني إلى الدار المستملكة وسأل الحاكم ممثل أمانة العاصمة عن البدل فقال : لقد تقرّر تعويض صاحب الدار بمبلغ ثلاثة آلاف دينار، وهو بدل مناسب إذا أخذنا بنظر الاعتبار حالة البناء والموقع .

ثم سأل الحاكم ممثل محمود الملاح عن رأيه ، وكان ذكياً ، فقال :

أنا لا أعرف الأرقام المجملة ولكنني أدري أن المتر المربع الواحد في هذه المنطقة من بغداد لا يباع بأقلّ من مائة دينار بصرف النظر عن البناء .

فصاح ممثل أمانة العاصمة معترضاً : ماذا تقول؟ مائة دينار؟ إنك لا تجد مشترياً بثمانين ديناراً .

فقال ممثل الملاح : إنني أوافق على ثمانين ديناراً .

وتمت الموافقة على ذلك ، ولما حسب التعويض على هذا الأساس بلغ البدل ثلاثة وعشرين ألف دينار قبضها الملاح صكاً على المصرف وهو لا يكاد يصدّق عينيه .

قبض الملاح المبلغ ومضى إلى داره وأرسل إلى العزاوي أبياتاً يقول فيها : لقد وكلتك محامياً عني فماذا فعلت؟ إن الفضل يعود إلى الخبير اللبق الذي عرف من أين تؤكل الكتف .

وغضب العزاوي غضباً شديداً وقال : إنني فعلت ما فعلت واخترت الخبير وسرت في الاجراءات القانونية بدافع الصداقة ولم أطمع في الأجر. ولكن صاحبنا يقبض أضعاف ما حلم به ، ثم يبخل عليّ بالشكر، ويجازيني بشعر يبخس من حقي ويغضّ من شأني. والله لأعلّمنه درساً لن ينساه أبداً واتقاضاه أجراً مضاعفاً .

واشتدّت الجفوة بين الملاح والعزاوي الذي هدّد برفع الأمر إلى القضاء ، فقلت له : لا تفعل ، يا أبا فاضل ، واترك الأمر لي .

قال : لا أرضى بأقلّ من ألف دينار.

ومضيت إلى الملاح وعاتبته وقلت له : لو كنت قد مدحت صديقنا بشعر أشدت فيه بذكره وأطريت فضله لما وقع ما وقع .

قال : لقد كانت دعابة ولم أقصد شيئاً ، وهو لا يرضى بأي أجر.

قلت : أما الآن فهو يريد الأجر ولا يتنازل عنه .

وبعد مكالمة ومساومة فصلت مقدار الأجر بخمسائة دينار قبضتها من الملاح ودفعتها إلى العزاوي ، فعادت مياه الصداقة بينهما إلى مجراها .

حدثني محمود الملاح قال: كنت كاتباً للنفوس في ولاية الموصل في أواخر عهد الاستبداد الحميدي. وكان السلطان يحرص ألا يشاركه أحد في لقبه، فالويل لمن يجرأ أن يكتب اسمه (سلطان) ولو سمّاه به أبواه عند الولادة. وكان هؤلاء ـ وهم كثر في الموصل ـ يكتبون اسمهم (سلتان) بالتاء ويتجنّبون حرف الطاء.

قال الملاح: وكان عملي أن أكتب الأسماء في سجل النفوس الأساسي، وهو سجل يحظر فيه الحك والشطب. ولذلك كنت أملأ المعلومات في حقوله بدقة شديدة وخط واضح خوفاً من حصول خطأ. فإذا حضر رجل اسمه (سلطان) لتسجيل أحواله المدنية، ترك مميز الدائرة أعماله ووقف على رأسي يراقب الأمر بنفسه خوف الزلل وسوء العاقبة، فيشير عليّ بأخذ الأهبة والعناية، ويقول لي: احذر الغلط، يا ولدي. اكتب (سلتان) بالتاء لا بالطاء، أفهمت؟ ويكرّر ذلك مثنى أو ثلاثاً، حتى إذا ما خططت اسم الرجل انحنى على السجل ورأى الرسم صحيحاً فربت على كتفي وقال: آفرين، يا ولدي، أحسنت.

وكانت هذه الرواية تتكرر كلما جاءنا «سلطان» لتسجيل نفسه.

محمود الملاح في حلب:

حدثني محمود الملاح قال: كنت كاتباً في مجلس إدارة ولاية حلب بعد نهاية الحرب العظمى، وكان مدير التحرير ابراهيم هنانو، وكانت حلب تابعة للحكومة الفيصلية في الشام. ولم يمض أمد طويل حتى احتلّ الفرنسيون سورية وأخرجوا الملك فيصلاً منها (١٩٢٠)، فظلّ مجلس الادارة يعمل تحت إمرة الحاكم الفرنسي.

وكان التنافس شديداً في المدينة بين المسلمين والأرمن. وجاءت في هذه الأثناء امرأة أرمنية بعريضة إلى مجلس الادارة تطلب اعتناق الدين الاسلامي، وقد فهمنا أنها أقدمت على هذه الخطوة رغبة منها في التخلص من زوجها الذي كان يسيء معاملتها. وجاء زوجها الأرمني، وكان فظاً غليظاً، فأخذ يتوعد المجلس واعضاءه وموظفيه ويهدّد باستنزال نقمة الفرنسيين عليهم إذا هم ساعدوا امرأته على الدخول في الدين الاسلامي والتخلص من ربقة زوجها.

وكان المجلس يميل إلى قبول اسلام المرأة، لكنه كان يحسب حساباً للحكام الفرنسيين وموقفهم المعروف من الأمر. وفي هذه الأثناء اتصل الرجل بشيخ مسلم من المعمّمين وطلب إليه حلّ مشكلته ودفع له الأجر بسخاء. فقال المعمّم: أتريد أن تحتفظ بزوجتك؟

ـ نعم.

ـ إذن فاطلب أنت أيضاً اعتناق الدين الاسلامي، وعند ذلك تبقى المرأة في عصمتك إذا قبل اسلامها.

ولم تجد المرأة المسكينة بداً من الاحتفاظ بدينها والعودة إلى منزل الزوجية.

الموصل في أواخر القرن التاسع عشر:

كانت الموصل في أواخر القرن التاسع عشر تشكو العزلة والخمول والانحطاط الاقتصادي، وتعاني فقراً مدقعاً يعزّ على الوصف. حدثني محمود الملاح أن الرجل كان يسير في السوق فيرى بصقة على الأرض، وانه ليحدّق فيها ملياً لعلها تكون متليكاً يهمّ بالتقاطه، والمتليك أدنى قطع النقد العثمانية.

وجاء أحد أمراء ايران لزيارة الموصل، فحار الوالي التركي كيف يستقبله بما يليق بمنزلة الدولة. وكان الجند يلبسون الملابس البلدية ذات الأشكال والألوان المتباينة، فقرّر الوالي بعد التفكير واعمال الرأي شراء قماش خشن من نسج الجبل وصبغه بالنيل، فعمل منه بزات رسمية لعشرة أو بضعة عشر جندياً توحيداً لزيّهم، لتحيّة «الشاهزادة» عند قدومه. وظلّ هذا النفر من الجند بملابسه الخشنة المصبوغة مضرب المثل في الموصل عهداً غير قصيرا

وكان الناس لا يعرفون الشاي شراباً. ومن ذكريات الملاح عن طفولته أن جدّه أصيب بالمرض، فجيء له بالشاي دواءً. وقال الجدّ: أعطوا شيئاً من الشاي إلى هذا الطفل ليذوقه، فلما أشربوه منه مجّ طعمه وأخذ بالبكاء.

محمود الملاح:

حدثني محمود الملاح أنهم كانوا ثلاثة يدرسون على الشيخ عبد الله النعمة، هو وضياء يونس وشيت خطاب، وقد اتصلت بينهم المودة فصاروا لا ينقطعون بعضهم عن بعض نهاراً ولا مساءً. ولم يتزوج الملاح، ولم ينجب ضياء يونس ولداً، أما شيت خطاب فتزوج وأنجب ولدين سمّى أولهما باسم محمود الملاح، وهو محمود شيت خطاب صاحب المؤلفات العسكرية واللواء في الجيش العراقي والوزير في العهد الجمهوري. وسمّى ثانيهما باسم ضياء يونس، فكان ضياء شيت خطاب الذي أصبح رئيساً لديوان التدوين القانوني ونائب رئيس محكمة التمييز ورئيسها بعد ذلك.

حدثني محمود الملاح أنه حين أنشئت الحياة النيابية في العراق سنة ١٩٢٥، عيّن صديقه ضياء يونس سكرتيراً لمجلس الأعيان. وتوسط له لدى رئيس الوزراء ياسين الهاشمي فعيّن الملاح رئيساً لكتاب مجلس النواب براتب ٢٥٠ روبية شهرياً.

قال: داومت في الدار التي قرّر اتخاذها مقراً للمجلس النيابي قبل افتتاحه، وكان العمال والنجارون منهمكين في تنظيم قاعة الاجتماع ومقاعدها لاعدادها لحفلة الافتتاح. وكنت أنا وسائر الموظفين المعيّنين واقفين نشرف على العمل ونصدر التعليمات

بشأن إتمامه. فجاء رجل معمّم باللباس الأهلي ووقف يراقب عملنا، ثم صار ينتقد العمل ويصدر الايعازات والتوجيهات، فقلت له: يا أسطى، ما شأنك في الأمر؟ ورجوته أن يخرج، فلم يفه ببنت شفة.

فقال لي أحد الفراشين: خفّف من غلوائك، إنك تكلم الحاج عبد المحسن شلاش وزير المالية السابق. فخجلت ومضيت بعيداً.

ثم افتتح المجلس وانتخب رشيد عالي الكيلاني رئيساً، فلم يقرّ التعيينات السابقة، بل أصدر أوامره بتعيين موظفين جدد. وتلقيت أمراً بتعييني كاتباً براتب ١٥٠ روبية، فغضبت وانقطعت عن الدوام. وقد نصحني أصدقائي بقبول هذه الوظيفة، فلم أفعل. ومرّ أسبوع أو أسبوعان فاعتبرت مستقيلاً وأنهيت خدمتي قبل بدئها.

محمّد حسن أبو المحاسن

الشاعر الوطني ووزير المعارف العراقية الشيخ محمد حسن بن الشيخ حمادي بن مهدي آل محسن الحائري، من قبيلة آل علي. تسكن أسرته في قرية جناجة بجوار الهندية في لواء الحلة وتنحدر من ابراهيم بن مالك الأشتر. وقد ولد في كربلاء سنة ١٨٧٦ وطلب العلم في مسقط رأسه ودرس علوم العربية والدين على يد محمد حسين الشهرستاني وكاظم الهرّ وغيرهما. وامتاز بشعره الجزل الرقيق، وآمن في شبابه بالمبادىء الاسلامية وناصر الخلافة العثمانية حامية الاسلام ونظم في ذلك القصائد الكثيرة. وكان له اطلاع على الشعر الفارسي. ولما اختلّ نظام الحكم التركي في الحلّة خلال الحرب العظمى، خرج من كربلاء بأسرته إلى قرية جناجة وأقام فيها ردحاً من الزمن.

ونشبت الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وتولّى زمام الأمور في مدينة كربلاء الزعيم الشيخ محمد تقي الشيرازي، فعهد إلى مترجمنا برئاسة المجلس الملي والحكومة الوقتية، حتى إذا ما خبا أوار الثورة سجن في الهندية، ثم أطلق سراحه في آخر أيار ١٩٢١

وعيّن وزيراً للمعارف في وزارة جعفر العسكري (٣ كانون الأول ١٩٢٣)، وقد استقال في ٢٧ ايار ١٩٢٤ وانزوى في قريته جناجة حيث وافاه الأجل في ٢٤ حزيران ١٩٢٦ وطبع ديوان شعره سنة ١٩٦٤ بإشراف الشاعر الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي.

شعره:

اشتهر أبو المحاسن بشعره الاسلامي والوطني، فقد سجّل أحداث التاريخ العثماني بعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ منتصراً للدولة العليّة التي كانت تجمع شمل الاسلام وتدافع عن حماه. ومما قاله يخاطب الدين الاسلامي ويشيد ببيض أياديه:

لك الشرف الباقي، وإن رغم العدى أبى الله إلا أن يدوم مخلّدا
تردّيت بالمجد الأثيل، وما لهم إذا اجتذبوا ذاك الرداء سوى الرّدى
وما أنت إلا الشمس في الأرض ما لها غنى عن سواها فهي تطلع سرمدا
وما لنظام الكون غيرك كافل لك الله فاسلم كي نعيش ونسعدا
نشرت لواء العدل في كل بلدة وساويت فيها بالمسود المسوّدا.

وقال في رثاء محمود شوكت باشا بطل الانقلاب العثماني:

بكى الشرق، يا خير الصدور الأعاظم عليك بمنهلّ الدموع السّواجم
نعيت إليه فاستمالت ربوعه مصاباً ومادت أرضه بالمآتم.

ومنها:

ألم يكشف الكرب الذي ضيّق الفضا على أمة باتت بقبضة ظالم؟
فشيّد صرح العدل مذ هدّ سيفه على «يلدز» الشمّاء صرح المظالم

ومن شعره الوطني:

يا أيها الوطن العزيز لك الهنا قد نلت أشرف بغية ومراد
سيعيد تاريخ العلى لك نفسه ويعود مجد رجالك الأمجاد
أبناء يعرب يطلبون تراثهم إنّ البنين أحقّ بالأجداد
لا يقنعون من الفخار بتالد ما لم يضيفوا طارفاً لتلاد

حتى يقول:

فمتى تؤلّف وحدة عربيّة وطنيّة الاصدار والإيراد
ليس العراق بموطني هو وحده فبلاد قومي كلّهن بلادي

وقال يفتخر بقومه:

بقومي أسمو راقياً شرف العلى وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القوم أما عزّهم فمشيّد تليد وأما مجدهم فأثيل
شمائل كالروض الأريض تضوّعت بطيب شذاه شمأل وقبول

وقال في مدح النبيّ الأمين:

وأشرقت أنجم التوحيد محدقة منه ببدر هدىً يجلو دجى الظلم
نبوّة حاولوا إخفاءها فبدت: إن الشموس سناها غير منكتم
كأن شرعته ضوء النهار جلت من الضلالة ليلاً حالك العتم
من صفو أخلاقه سلسال كوثره جرى بصفو ومعين سائغ شبم

وقال في السجن :

أنـا والنجم كـلانـا سـاهـر ... غير أني مفـرد بـالشّجن
لا أبـالي، والمعـالي غـايتي، ... وصل أشجـاني وهجـر الـوسن
في سبيـل المجـد منّـا أنفس ... رخصـت وهـي غـوالي الثمن
ليـس غير الشعب واستقـلالـه ... لِيَ شغـل فهـو أضحى ديـدني
نحـن للعليـاء والعليـا لنـا ... لـو أقـالتنـا صروف الـزمن
عُـرِفَ المعـروف والعـدل بنـا ... ولنـا تـأسيس تلـك السُّنن

ولأبي المحاسن غـزل لطيف على الطريقة القـديمة، كقصيدته «شجـو الغرام» التي يقول فيها :

أجـدّك هل لي مـن هـواك مجير ... فـأيسر شجـوي لـوعـة وزفير
أسـامـر في ليـل التمام نجـومـه ... وكـل شجـيّ للنجـوم سمير
وقـد منعـوا طيف الخيـال، فـلا الكرى ... يلـمّ ولا طيـف الحبيب يـزور.
ولما وقفنـا للـوداع بـذي النّقـى ... نعـرّض بـالشكـوى لهم ونشير
وفي القلب مـن بـرح الصّبـابـة لاعج ... لـه بين أثنـاء الضّلـوع سعير
وقـد أشرقت للنـاظـريـن طـوالعـاً ... بـدور لها فـوق الحدوج سفـور
جـرت لمراعـاة النّظير مـدامعي ... نجـومـاً فـلاحت أنجم وبـدور.

ومن رقيق شعره الوجداني :

لعلّ النّـوى تـدنـو فيجتمـع الشّمل ... فـلا عيش إلا من وصـالك لي يحلـو
فـدىً لك نفسي، كيفما شئـت فـاحتكم ... فمثلـك لا يُسْلَى ومثليَ لا يسلـو
ومـا أنـا إلاّ عـاشـق قـد تقـاسمت ... هـواه المعـالي الغـرّ والحدق النّجل
ومـا اختلفـت سبل الهوى غير أنني ... أواصل نهجـاً فيـه تـأتلف السُّبْـلُ
معـاني جمالٍ غيرمـا افتتنـوا بـه ... فـلا حـور العينين منـه ولا الكحل

وقصيدته «الربيع النّاضر» من أمثلة الوصف البارع الجميل :

بـوركـت يـا زمن الـربيع النّـاضر ... مـا أنت إلا بهجـة للنـاظـر
أقبلت يـا ملك البسيطـة رافـلاً ... بمطـارف الحسن السّنيّ البـاهـر
رجّعـت لـلأرض الموات حيـاتها ... وكسـوتها بُـرد الشبـاب الـزّاهـر
فتضـوّعـت أزهـار كـلّ خميلـة ... تجزيـك بـالنّعماء حمد الشـاكـر
نطق الحمام عن الـريـاض بشكـرهـا ... فـاسمع ثنـاءك مـن غنـاء الطـائر
ضحكت ثغـور الأرض فهـي بـواسم ... مهما بكـت عين السحـاب الماطـر

خطـــر النّسيم الغـضّ يحمل نفحـــةً مسكيّـــة فيهـــا ارتيـــاح الخاطـــر
والشمس صـــاغت بـالشعـــاع سبائكـــاً يجلـــو النّضـــار بها جميـل منـــاظـــر
وجـــــرى لجين الماء فيـــــه فحلّيت أشجـــاره بمعـــاضـــد وأســـاور

ومن شعره الغزليّ :

مـــــا تثنّى الغصـن إلاّ وصفـــــا لـكِ قـــدّاً وقـــوامـــاً أهيفـــا
يطـــــرب الغصن إذا شبّهتــــــه بـكِ حتى ينثني منعطفــــــــــا
وســـــلاف الـــــراح في نشــــوتها تصف الثغـــر وتحلـــو مـــرشفـــا
أرضـــاب الثغـــر أم مشمـــولـــة قـــد جـــرت في لـؤلـــؤ قـــد رصفـــا
فيــــه للظـــامي شفـــاء من جـــوى لـــو رأى الظـــامي سبيـــلاً للشّفَـــا
ومهـــــاة غـــــادرت ألحاظهـــــا مهجـــــة الصـبّ المعنّى هـــــدفـــا
إن مشـت هــــزّت قنـــاة صعـــدة أو رنت سلّـت حســـامـــاً مـــرهفـــا
مـــا ثنـــاهـــا السّكـــر، لكنّ الصّبـــا من نعيـم قـــد سقـــاهـــا قـــرقفـــا
صفـــــة الحسن بها قـــــد أغـــــريت فـــزهت حسنـــاً وفـــاقت شرفـــا

كان لأبي المحاسن مطارحات شعرية مع رجال عصره كرضا الاصفهاني وعبد المهدي الحافظ وهـادي عبـاس آل كـاشف الغطاء وعبـد المطلب الحلي وجـواد الشبيبي وعبـد الحسين الحويـزي وغيرهم . ومن طـرائفه التي رواهـا محمـد علي اليعقـوبي أبيات قـالها يداعب الشيخ علي الأسدي الذي أناف على التسعين :

أمعمّـــــراً عمـــــر النســـــور، إلى متى تبقـى وأنـت الميـت في الأحيـــــــاء؟
حـدّث، فـلا حـرج، حـديث جـذيمـة مـــا كـــان قصّتـــه مع الـــزّبـــاء؟
وعن البســـوس ومـــاضيـــات حـــروبها حـــدّث فإنّـك حـــاضر الهيجـــاء

قال سلمان هـادي آل طعمة : وكـان الشاعـر صلب الرأي، سـامي الخلق، واسع الخيـال، .مرهف الاحساس، . ويمتـاز شعـره بحرارة العـاطفـة وصدق التعبير ورقـة الشعور.

قال وهو سجين في الحلّة :

أنـاجـز جيش الخطب، والخطب فـادح، يكـــافحني طـــوراً وطـــوراً أكـــافح
إذا كلّ عـــزم القـــوم أو طـــاش حلمهم فعـــــزمي مسنــــــون وحلمي راجـح
فيثبت قلبـي والقلـــوب مَـــرُوعـــة ويشرق وجهي والـــوجـــوه كـــوالح
وقـــد نصحـوا لي بـــالخضـوع إلى العـدى ومـــا كـلّ من يهدي لك النصح نـــاصح

فقلت: معاذ الله أن يستذلّني عدوّ، فغيري للدنيّة جانح
وأهون عندي أن أمدّ لهم يداً تصافحهم أن تختلبها الصفائح

من قصيدة له يطالب بالاستقلال في أثناء ثورة سنة ١٩٢٠

وثق العراق بزاهر استقلاله والشعب متّفق على استقلاله
أضحى يؤمّل نيل أشرف غاية، يا ربّ، أوصله مدى آماله
فله إلى التحرير، وهو حبيبه، نظر المشُوق المستهام الواله
قد أطلق العاني وفكّ إساره فإلى مَ يبقى وهو في أغلاله؟
وردت شعوب الارض باستقلالها عذب الرجاء ورُوّيَتْ بزلاله
أفيحرم الشعب العراقيّ المنى، والشيء محمول على أمثاله؟
فازوا بنيل حقوقهم، وحقوقه بضمان أهليه وعزم رجاله
إن يُعْطَ واجب حقه فلحقّه أولا فمفزعة إلى أبطاله.

وقال من قصيدة يرثي الامام محمد تقي الشيرازي:

يا غلّة الأحشاء غاض المورد، يا أزمة الأيام غاب المنجد
لا نجدة للمستغيث ولا روى يشفي غليل حُشاشة تتوقّد
قلّ الغرار فلا فم لخطابة عند الخطوب ولا حسام ولا يد
بكر النعيّ وقال: قد أودى التقى ومضى إمام المسلمين الأوحد
ومنها: إن كان قد أودى التقيّ محمد فلقد أصيب به النبيّ محمّد
يا آية الله المقدّسة التي أمست إليه بها الملائك تصعد
غادرتنا والخطب داج ليله واليوم من صبغ الحوادث أسود
فمن المُدافع والاسنّة شرّعٌ والبيض تبرق والمدافع ترعد؟
الشرق، يا شمس الهداية مظلم، مذ غاب عنه ضياؤك المتوقد
لو لم تعاجلك المنيّة لانجلى عنه سحاب المغرب المتلبّد

أحمد الصافي النجفي

إن سيرة هذا الشاعر إنما هي شعره:

وهـو أحمد بن علي بن صافي من أسرة نجفيـة يتصل نسبهـا بالامـام موسى الكـاظم وكانت تعرف بآل السيـد عبد العزيز الذي نزل النجف، وهـو الجدّ السادس للشاعر. أما جـده لأمه فهو الشيخ محمـد حسين الكاظمي من آل معتوق في صـور. ولد أحمد في النجف سنة ١٨٩٦، وتـوفي والده بوبـاء الهيضة وعمـر صبيّنا ١١ سنة، فكفلـه أخوه الاكبر محمد رضا.

قال أمين الريحاني في كتابه «قلب العراق» إن هذا الشاعر رأى نور الشمس «يوم كان الحسن الخَلْقي والصحـة والنعمة تتنـزه كلها في الكـون الأعلى، فما رمقته بنظـرة ساعـة الولادة ولا دنت بعد ذلك من ملعبه أو من رحله أو من كوخه. انه لطير غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما. .» وقد قال الصافي:

أســـير بجسم مشبــــه جسم ميّـت كأني إذا أمشي بــــه حـــامل نعشي

ولما بلغ الخامسة من عمره أدخل الكتّاب، فتعلّم القرآن والخطّ وشيئاً من الحساب.

وقد قال في ترجمة مخطوطة لنفسه كتبها سنة ١٩٣٦:

«وما كـدت أتجاوز العقد الأول من عمـري حتى نكبت بفقد والـدي بمرض الـوباء الذي اجتـاح العراق يـومئذٍ وتـرك في كل دار مناحـة، ولا سيما في بلدة النجـف. وقد كانت الصدمة شديدة على نفسي، وما زلت حتـى اليوم أتمثل ذكراها الفظيعة وحوادثها المؤلمة، ولا أنفكّ حتى اليوم أشعر بهولها.

فكفلني أخي الاكبر، وكان بالرغم من عطفه عليّ، قاسياً في معاملتي، ضاغطاً على حرّيتي، مقيّداً لي تقييداً يكاد يكون استعباداً أو استعماراً! . .»

وحين بلغ الثالثة عشرة أخذ يدرس قواعد اللغة والمنطق وعلم الكلام والمعاني والبيان والاصول وشيئـاً من الفقه على أساتـذة منهم الشيخ محمد حسن المظفـر والسيد حسين الحمّامي والسيد علي اليزدي، ثم حضر دروساً على السيد أبي الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي.

وكان منـذ الطفولة ضعيف البنيـة، ميالاً إلى الكسل والتأمّل، فلم يحتمل مـواصلة الدرس الذي زاد في مرضه العصبيّ. ثم توفيت والـدته سنة ١٩١٢، فاشتدّ عليه الداء ومنعه الأطباء من الانكباب على الدرس، فانصرف إلى المطالعة ومراجعة الشعر والأدب وتصفح الكتب العصرية والمجلات كالمقتطف والهلال.

وكان أقرب كتاب إلى نفسه ـ كما يقول ـ لزوميّات المعرّي، ومن الذين أثروا في تفكيره في تلك الحقبة محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي.

وفي سنة ١٩١٦ ترك النجف مع رفيقه محمد علي كمال الدين قاصدين البصرة للعمل فيها، فاخترقا خطوط الحرب ووصلا إلى البصرة، لكن لم يجدا فيها شغلاً يمسك رمقهما.

وذهبا إلى المحمّرة (خرّمشهر) في ايران، فخلع الصافي البزّة الدينية وارتدى لباس العمّال وشرع يبحث عن عمل، وانتقل لتلك الغاية إلى عبّادان والكويت. وكتب عن هذا الدور من حياته فقال:

«ثم إني سافرت بعد ذاك إلى عبّادان لاشتغل عاملاً فيها فلم أوفّق. فتوجهت إلى الكويت في سفينة شراعية ورمت الاشتغال فيها بأحد المخازن، فلم يقبلوني مما اضطرّني أن أكون بنّاءً طيلة يوم كامل وقعت في انتهائه ميتاً من شدة التعب، فذهبت قبل أن أستلم الأجرة. ولما رأيت عدم استعدادي لهذه المهنة الشاقة، سافرت إلى بندر بوشهر المرفأ الفارسي، وكانت رحى الحرب إذ ذاك دائرة بين القبائل الفارسية والانكليزية بتحريض القائد الالماني «وسموس» الذي كان قبل الحرب قنصل الحكومة الالمانية في شيراز. فلم أتمكن من الوصول إلى قرب بوشهر إلا بمشقّة تعرّضت أثناءها إلى الغرق في الخليج الفارسي (العربي)، لولا صندوق شاي كان معنا في الزورق، فطفا على سطح الماء وتعلقت به فكان سبب إنقاذي.

«ومن هناك سافرت مشياً على الاقدام مع قافلة تجارية قاصداً شيراز، فوصلت بعد اثني عشر يوماً قطعناها في الجبال والطرق الوعرة إلى بلدة فيروز آباد موطن الفيروز آبادي المشهور صاحب المعجم العربي المعروف بالقاموس المحيط. وهناك أصبت بالتيفوئيد، فانفردت عن القافلة. وقد تعرّف إليّ المجتهد المرحوم الامام السيد عبد الحسين اللاري الذي كان تلميذاً لجدّي المرحوم الشيخ محمد حسين الكاظمي، ولولا عنايته بي لقضى عليّ التيفوئيد. وبعد إبلالي من المرض سافرت إلى بندر عباس، ومنها قفلت راجعاً إلى النجف الأشرف بعد مفارقتها تسعة أشهر، كانت خلالها قد انقطعت أخباري عن أهلي. وقبل وصولي إلى النجف بشهرين كانت بغداد قد سقطت بيد الجيش الانكليزي. . »

بدأ الصافي بنظم الشعر. وقد سمع بأنباء ثورة الحجاز التي رفع لواءها الشريف حسين، فكانت باكورة نظمه قصيدتين في مدح الشريف وتحية الأمة العربية الثائرة. ثم شارك في الثورة الوطنية التي شبّ أوارها سنة ١٩٢٠، فسجن اخوه الاكبر محمد رضا الصافي، وهيّيء لشاعرنا أن فرّ إلى طهران عن طريق الكوت وجبل حلوان.

عكف الصافي على دراسة اللغة الفارسية وعمل مدرساً للأدب العربي في المدارس الثانوية. وترك التدريس بعد سنتين، واشتغل بالترجمة والتحرير في امّهات صحف طهران كجريدة «شفق سرخ» وغيرها. وأكبّ على مطالعة الادب الفارسي، فقرأ المثنوي ديوان جلال الدين الرومي ورباعيّات الخيام ودواوين حافظ والمنوجهري وسعدي والشعر المعاصر. وتعرّف بشعراء ايران أمثال بهار ملك الشعراء وحيدر علي كمالي وجلال الممالك وعارف القزويني والشاعر عشقي الذي ذهب ضحية قصيدة حمل فيها على رضا شاه بهلوي. واختير بعد ذلك عضواً في النادي الأدبي، وقام بترجمة رباعيّات الخيام، ولم ينقطع في تلك الاثناء عن مطالعة الادب العربي قديمه وحديثه.

ثم انخرط في سلك موظفي الحكومة الايرانية مترجماً بوزارة المعارف، فنقل إلى الفارسية كتاب علم النفس لعلي الجارم ومصطفى أمين. وعاد إلى بغداد بعد ثمانية أعوام قضاها في ايران (١٩٢٨)، فاتّصل بمحافلها الأدبية وصادق الزهاوي وسواه من الشعراء. ورشحته الحكومة العراقية قاضياً شرعياً في الناصرية، لكن المرض عاوده بسبب المناخ واشتدّت عليه وطأته.

وأشار عليه الأطباء بالنزوح إلى سورية، فبارح العراق إلى دمشق سنة ١٩٣٠، ولم يستطع ـ كما قال ـ وبالرغم عن وصيّة الطبيب الابتعاد عن الاشغال الفكرية، فأخذت صحته بالتأخر وعانى جملة أمراض منها تضخم الكبد وضعف القلب ومرض الكلية والتهاب الحنجرة وضعف الأعصاب!

لقد هيىء للصافي أن يتغلّب على جميع تلك الأمراض، وقد أناف على السبعين. وعاش متنقلاً بين ربوع سورية ولبنان. ولما احتلّ الانكليز بيروت في خلال الحرب العالمية الثانية اعتقلوه وأودعوه السجن (١٩٤١)، فلبث في غيابته شهراً ونصف شهر، وخرج منه بديوان شعر أسماه «حصاد السجن».

وكانت حياته بعد ذلك تقتصر على كلمة واحدة، هي الشعر الذي واصل قرضه وأخرج دواوينه في تتابع وانسجام.

مؤلفاته:

دواوين شعره: الأمواج (١٩٣٢) أشعّة ملوّنة (١٩٣٨) الأغوار (١٩٤٤) التيّار (١٩٤٦) ألحان اللّهيب (١٩٤٨) هواجس (١٩٤٩) حصاد السجن (١٩٥١) شرر (١٩٥٢) اللفحات (١٩٥٨) الشلال (١٩٦٢) شباب السبعين (١٩٦٧) ثمالة الكأس (١٩٧١).

وله عدا ذلك: رباعيات الخيام (ترجمة شعرية (١٩٣١)، هزل وجدّ (نثر، ١٩٣٧).

شعره :

الصافي شاعر أصيل انصرف إلى الشعر وعاش له وعرف به ، حتى قال :

لي في الشعـــــــر عــــــالم مستقلّ	أنــــافيـــه فـــرد بـــدون خــــلاف
لم أشــــــــــــارك غيري لأنّي ربّ	واحـــــــد لا شريك لي في القـــــوافي

وقال :

سمــوت بشعـري فــوق جيلي ، ولم يــزل	يشـكّ بشعــــــري معشر البلهـــــاء
فإن لم أكـن في أمـــة الشعـــر واحـــداً ،	أكـن أمّـــــة أعلى مـن الشعـــــراء !

وقد آثر الحرية والانطلاق من القيود فقال :

يــــروم زيــــارتي عشّـــــاق شعــــري	فــــــــــــلا يجدون لي في الأرض دارا
تــــراني كـــــالنّسيم أطـــوف حــــراً	فلست ، ولا النّسيم ، نــــرى قــــرارا
فـــــزوروني بـأنفـــــاس الخزامـى	وزوروني بــــــآهــــات العـــذارى
وقـــــد آوي لقلب أخـي غـــــرام	وأصعـــد منــــه أنّـــات حيـــارى

وعاف المجاملة والتقاليد الاجتماعية :

أفــــرّ مـن النّــــوادي زاخـــــرات	بألــــوان المجـــاملـــة الــوضيعـــة
وآوي للحقــــــــول طليـق نفس	فلسـتُ مجامـــــــلاً إلاّ الطبيعـــــة

أرهفت حسّه الأمراض التي ركبت بدنه وأضنت جسمه ، فقال :

لقــد عـدت أمــراضــاً أحــار بعـدّهــا	ومن ذا يطيـق العـــدّ للـــرّمـل والنّمل؟
يقـــولـــون لي : مـــاذا بجسمك مـــؤلم؟	أقلـب ، أرأس؟ قلت : يـــــؤلمنـي كلّي

وداهمته الخُطوب وهدّته المصائب فأوحت إليه أرقّ الشعر وأروعه :

سأشكـــر للـــدهـــر الخؤون خطـــوبــه	وإن كـدت منهـا أفقـد الـرشـد والصبرا
فإن خطــــوب الـــدهـــر أذكت بصيرتي	وإن خطـوب الـدهـر أوحـت ليَ الشعـرا
وكم مـن مصـــــاب حـلّ بي فحسبتـــه	سيفقــــــــدني روحـي ويسكنـنـي القبرا
فما زال يغلي فيّ حتـى تفجّــــــــرت	ينـــابيع شعـــري منـــه وانـــدفقت نهرا
ولكنـــــه نهر من النّـــــار ســــائل	تثـــور بـــه أمـــواجـــه شعـــلاً حمرا .

وهل عجب بعد ذلك أن يكون شاعراً إنسانيـاً يتفجّر قريضه رحمة وحناناً وأن يتّخذ مـواضيع شعره أبنـاء الشعب الكادّيـن الكادحين والفقـراء البائسين من بـائع الحصير والأعمى والمسلول والسّائل القروي إلى راعي الغنـم والبلهاء والشحّاذ . وإنه ليأسى لحال صبّاغ الأحـذية ، والشـاعر وحذاؤه عـدوّان للصّبغ والاناقة ، فـلا يرده خـائباً مع ذلك :

جــــاء يــــومـــــاً إليّ صبّـــــاغ نَعلِ | وبنعلي صبــغ مـن الأيـــــــــــــام
مـــــرّ دهـــــر عليــــه لم يَـــــرَ صبغـــــاً | غير صبغ الغبــــــار والأقـــــــدام
وكستـــــه أشعّـــــة الشمـس لـــــونـــــاً | صــــــار منــــه كقطعـــــة مـن رغــــام
جـاء نحــوي من بعـد مـا طـاف يــومـاً | دون ربـح غير العنـــــا والسقــــــام
جــــاء نحـــوي يــــروم صبغ حـــذائي | وأنـــــا للصبــــــاغ أعـــــدى الأنـــــام
أنـــــا خصم الألـــوان تخفـي عيــوبــاً | إنّ عنــــدي الألـــوان كـــــالأوهــــام
رمـت رداً لـــــــه فلم يــــــرضَ قلبـي | ردّه خــــــــــــــائب المنـى والمرام
قلـت : أحبـــــــــــوه درهماً، غير أني | خفـتُ من أن يُـــــذلّـــــه إكــــرامـي
قلـت : فــــــــاصبغ لي الحذاء بصبغٍ | فيــــه أغــــدو مثـل الـــذّوات العظـــام
فغـــــــدا يصبغ الحذاء بحـــــــذقٍ | مبـــــــديـــــــاً فيـــــه كلّ فـنّ تمام
ثــم بــــــــادرتــــــــه بما ضـمّ جيبـي | مـن نقــــودٍ أعــــددتها لطعــــامـي
فمضـى هـــــــائــــــاً ورحت كـأني | ثمـل بـــــــالسّخــــــاء لا بـــــالمدام

إن هذه المقطـوعة مثال الشعر الفطـريّ الأصيل الذي لا تكلف فيه ولا صنـاعة ولا إغراب، ينساب كالجدول الرائق : يصف حذاء الشاعر الذي كسته الأيام لون التراب، ثم يلتفت إلى الصبّاغ المسكين وقـد أخطأه التوفيق وفاتـه الرزق سحابة يـومه، فيهمّ أن يردّه فلا ترضى عاطفته الانسانية، ويهمّ أن يمنحـه صدقة فيخاف أن يهينه ويذلّه. فلا يكون منه إلا أن يدعوه إلى صبغ حذائه ويمنحه أجرة عمله النقود التي هيأها لطعامه.

وقد عظمت رحمة الشاعر وفاض حنانه حتى شملا الحيوان بعد الانسان، فقال :

لـــو يعلم الحيــوان مـــا عنـدي لـــه | مـــــــن رحمة لأتــــــى إليّ مسلّما
ولأصبحت كـل الــوحـــوش أليفـــة | عنــــــدي وخـــــالتنـي أبـــــاً أو أرحما

وقصيـدته «على طـريق بيروت» مأسـاة تهزّ النفس وتثير في أعماقهـا أسمى المشاعـر وأشدّهـا ألماً ووجداً. فلئن كان الشـاعر الفـرنسيّ ألفرد دي فني يصف لنا في قصيـدته «موت الـذئب» تسامي الـوحش وأداءه للواجب بصمـت وسكون وزهده بعـد ذلك في الحياة، إنّ شاعرنا الصافي ليصف لنا «موت الكلب» ويحيط فاجعته بإطار إنسانيّ حزين من الشعور الدافق والوفاء النبيل والـرحمة التي تنفذ إلى صميم القلب البشري. لقد كان الشاعر مسافراً في سيارة تقطع الفلاة مثل الفيل الذي تشع عيناه في دجى الليل :

فــــلاح على الطــــريق لنـــــا مشــاة | يــــــــؤلـف بينهـم نسـب وحـبّ
أب شيـــــخ وطفـــــل دون سبــــعٍ | وأمّ زان منهــــــا الـــــرأس شَيْبُ
ورابعهـــم، كــأهــل الكهـف، كلـب | يلــــــوح كأنـــــه في الشكـل ذئب
يسير بجنبهــــم يحمـــــي حماهُـــمْ | وفي عينيـــــــــــه نيران تشـــبّ

ويحدّق الكلب في السيارة فيهجم عليها ويوسعها نباحاً، وقد ظنها وحشاً غريباً يريد سوءاً بالقافلة التي يحرسها، فينتقم السائق القاسي منه بأن يسحقه ويقتله ظلماً وعدواناً.

ويمضي الشاعر في وصف المأساة فيقول:

فظلّ الكلب يرفس رفس موتٍ ... عظام حطّمت وانشقّ قلب
تفجّع أهله فبكوا عليه ... بدمع ملؤه ألم وكرب
وجاء الطفل يبغي ضمّ كلب ... له معه هَوىً ماضٍ ولعب
لقد نشآ معاً والكلب جرو ... وليس عليه سنّ الطفل يربو
يداعبه ويؤنسه بقفز ... وذاك الطفل فوق الأرض يحبو
رأى دمه فصبّ عليه دمعاً ... وصاح وصوته نَوْح ونَدْبُ
وظلّ يروم مسح الترب عنه ... وللدم منه فوق الأرض سكب
يحاول حمله حيناً فيعيا ... ويبغي أن يسير به فيكبو
ويلثمه لينعشه بلثمٍ ... كأنّ اللّثم للمجروح طِبّ

حتى يقول:

تركناهم، وفي قلبي شجون، ... ولم يأبه معي للأمر صحب
فثرت على الأنام لقتل كلبٍ ... وصرت كأنني للكلّ حرب
وقلت: بأيّ ذنب أوردوه ... رداه، وهل دفاع الكلب ذنب؟
بكيتُ وللسماء رفعت رأسي ... وقلت: أما لهذا الكلب ربُّ!

وفي قصيدته «ذكرى سمكة» يذكر جلوسه على ضفاف العاصي فيرى الأسماك تنأى وتدنو من الشاطىء وكأنها جائعات، ويلقي إليها بفتات الخبز طعاماً. وإذا بالصياد قد جاء يرمي شصّه، وقد كمن فيه الموت لهذه المخلوقات الضعيفة:

أنا أطعمتها لتحيا وقومي ... أطعموها لتجرع الموت مرّا
ثم لم يكفهم نفاق وغدر ... فرأوا رحمتي جنوناً مضرّا
إن يكُ الرّفق بالضعيف جنوناً ... فأنا أعظم المجانين طرّا

وبلغ من حنان الصافي ورأفته أن شمل النمل فرعى هذا المخلوق الصغير بعطفه وقال:

تضايق كأس الشاي عندي نملة ... لها ولع بالحلو يجذبها قسرا
وأخجل من طردي لها إذ أخالها ... تقول: أما أوحيتُ قبلُ لك الشعرا؟
تقبّلتها لي في الحياة شريكة، ... لها السكّر المحبوب أنثره نثرا
فتحمل منّي للثقوب ذخيرةً، ... وإن لم أكن في العيش متّخذاً ذخرا

وقديماً قيل عن الشاعر الفرنسيّ لافونتين (١٦٢١ ــ ١٦٩٥) أنه أحبّ الحيوانات وعرضها في أمثاله وقصصه التي سحرت أجيالاً متعاقبة من الصغار والكبار. وقد شوهد مراراً مكبّاً يراقب النمل في عمله الدائب ونظامه العجيب حتى نسي نفسه ساعات طويلة وسها عن مواعيد الطعام.

إنّ الصافي النجفيّ شاعر روحيّ عرف الله بوجدانه وسما اليه بايمانه، قال:

راح يقوى على المَدَى إيماني ... فبربّي قد امتلا وجداني
قيل لي: هل عرفته بدليل ... أو بحسّ شهدته أو عيان؟
قلت: كلا، ايمان قلبي أقوى ... من دعاوى الحواسّ والبرهان
واضح لي وضوح روحي وعقلي ... ماثل في مداركي ككياني
هو رمز الوجود، سرّ التجلّي ... هو روح الأكوان معنى المعاني

وقد نظر إلى الوجود بعين البشر فاستهجن قبحه ودمامته، ورآه بعين الاله فأبصر بهاءه وسناه:

نظرت الوجود بعين البشر ... فلاح الوجود قبيح الصّور
ولما نظرت بعين الإله ... إليه بدا لي بوجهٍ أغر

ولا بدع بعد ذلك أن يصيح: اللّه أكبر!

أفكر بالسّفاسف في الحياة ... وأحسبها حقائق راهنات
فيقطع لي سلاسل ترّهاتي ... صياح مؤذن: الله أكبر
وأضرب سادراً بين الهموم ... وأسعى للوصول إلى النعيم
فيدعوني إلى النهج القويم ... هتاف مؤذّن: الله أكبر
وأفني في الرقاد ثمين عمري ... كأني ميّت في جوف قبر
فيوقظني لأحشر كلّ فجر ... صياح مؤذنٍ: الله أكبر
ونأخذ في أحاديث شتات ... ونبقى بين هاك وبين هاتِ
فأسمع صوت حيّ على الصلاة ... فأنهض صائحاً: الله أكبر

لقد عرف الصافي الغربة البدنية والروحية فجرع غصص الأولى وهفا إلى مغاني الثانية. نزح عن وطنه فقال:

حتّى مَ أقضي ثمين العمر مغترباً ... كأنني ليس لي مثل الورى وطنُ؟
فمن رآني أطوي الأرض منتقلاً ... يقول: ما ليَ لا أهل ولا سَكَنُ.
لم يرضَ بي وطني، لم يرض بي وطنٌ ... فهل تُرى يرتضيني القَبر والكفن؟

وحنّ إلى الوطن المجهول فهتف قائلاً:

أبغـي أســـافـــر، لا إلى جهـــة | كأنني عن وجــودي أبتغي السَّفـــرا
فكم قصـــدت جهـــات مـــا لها عـــدد | فما بلغـت بها قصـــداً ولا وطـــرا
فـلا الإقـــامـــة في الأوطـــان تسعـدني | ولا التغـــرّب يجلـــو عنّيَ الكـــدرا
أنّـى جلسـتُ رأيـت النفـس في قلـق | يثيرهـــا فتعـــاف الصّحب والسَّمـــرا
وأيـن سرت رأيـت القلـب منقبضـــاً | والعين في كـل شيء تبغـض النّظـــرا
كأنني بـــاحث في الكـــون عـن وطنٍ | بـــه شغفت ولم أعـــرف لـــه أثـــرا
لم ألْقَـــهُ وأنـــا حيّ وبي رمـق، | فهـل سألقـــاه لما أغتـــدي خبرا؟

إنّ هذه الابيـات المفعمة بـالضياع والحيرة والحنين لتـذكّرنـا بقصيدة شـارل بودلير: الدعوة إلى السفر، ففي هذه القصيدة يتحـدث شاعر «أزهار الشرّ» عن عالم بعيد يتمنّى أن يعيش فيـه، عالم زاخـر بالحبّ والموت، عـالم يغشاه النظـام والجمال والترف والهدوء والهيام اللاّهب، عالم تظلله الشموس المبلّلة والسموات المضطربة، يسحر الشاعر بفتنة خفية كعيني حبيبته الخائنتين اللامعتين خلال الدموع.

بل تذكـرنا هذه الابيـات بقصيدة «السفـر»، وهي من قصائد بودلير ايضـاً، يتشوّق فيها إلى وطن مجهـول ويقول: إن المسافـرين الحقيقيين هم اولئك الذين يـذهبون لأجل الـذهاب فحسب، قلـوبهم خفيفة، يستجيبـون لنـداء القدر الـذي يدعـوهم دون أن يتساءلوا عن السبب ويصيحون:

هيّا ولنذهب! ويقـول الشاعر الفرنسي: إن العـالم لصغير وانه ليجري على وتيرة واحـدة ولا يعكس إلا صورتنـا كواحـة من الهول في صحـراء الملل والسّآمـة. ثم يختتم قصيدتـه داعياً الموت، ذلك الربّـان القديم، ليعد سفينتـه ويرفع قلوعـه، فلئن كانت السماء والبحر متشحين بـالسواد القاتم، إن قلوبنـا، نحن المسافرين، مغمـورة بأشعة النور البهية ترقب المجهول لتجد فيه الجديد الذي تتطلّع اليه!

وللصـافي بعد ذلك ألـوان شتى من الشعـر، وطني واجتماعي ووصفي وغزليّ. ولـه شعر خفيـف يتّسم بالحلاوة والـدعابـة والسخريـة، كقصيدتـه «حسناء تسـوق سيارة حسناء»:

وغـــانيـــة فـــاقت على جيلهـــا | وحـق قـــــرآني وانجيلهـــــا
ســـاقـت (أو تميـــلاً) رقيقـــاً لها | يجري رُخـــــاءً وفـق مـأمـــــولها
كـأنـــــه الطيـف إذا مــــا سرى | في ســـاحـــر المقلـــة مكحـــولها
ألطف مـــا قـــد صيغ من جيلـــه | فيـــه التي ألطـف مـن جيلهـــا
آخـــــر (مـــــوديـل) جمال كما | (مـــوديلـــه) حلـــو كمـــوديلهـــا
نشــــوان من نفحـــــة أردانها | يختـــال إذ خصّ بتفضيلهـــا

أضحى مليكـــاً بين أتــرابـه ... متــوّجـاً منهـا بإكليلهـا
أحيتــه فهـي الـروح حلّت بـه ... بلمس كفيّهـا ومنـديلهـا
مـرّت كما مـرّت بنـا نعمـة ... من عـاطـر الأزهـار مطلـولها
تعلّـق القلب بها فـاغتـدى ... يحوم كـالطير لتقبيلهـا
أهـوى ركـوبـاً لِيَ في جنبهـا ... أو لا فـدهسـاً بـاتـومبيلهـا

ومن ذلك بيتان قالهما في معرض دمشق الدولي:

ومليحـةٍ جـاءت لمعـرض جلّقٍ ... تخفي منـاظـره بمنظـرهـا الـوَضِي
هي مـا أتت كيما تشـاهـد معـرضـاً: ... جـاءت لتعـرض حسنهـا في المعـرض

قال من قصيدة حين خصصت له الحكومة العراقية راتباً تقاعدياً شهرياً قدره مائة دينار:

ليس مـالي فضـة أو ذهبـاً، ... مـاليَ الفكـر الـذي عـزّ نظيرا
مـاليَ الخير الـذي أعملـه، ... مـالي السعي الـذي يـرضي الضميرا
مـاليَ النـور الـذي أرسلـه ... يبـدل الظلمـة في الأفكـار نـورا
مـاليَ الـوحي الـذي يلهمني، ... مـالي الشعـر الـذي يحيي الشعـورا
لم يغير خلقـي أو سيرتي ... عـارض المال وإن كـان وفيرا
أعشق الـزهـد صريحاً فكـرتي، ... أعشق الكـوخ ولا أهـوى القصـورا
أعشـق العيش بسيطـاً هـادئاً، ... أشتهـي الارض مهـاداً لا السّريـرا
كـم هـويت الصخـر لي متكـأً ... وافترشت الصخـر لا الفـرش الـوثيرا

سجنه الانكليز عند دخولهم إلى لبنان سنة ١٩٤١ بعد دحرهم سلطات فيشي، فقال:

حبست وضـاق الحبس بي حين زُجَّ بي ... إلى غـرفـة ظلماء محكمـة السـدّ
فقلت: عـلام الحبس؟ لا أنـا سـارق ... ولا آثـم عمـداً ولا دونها عمـد
ولما رأيت الـذنب خـدمـة مـوطني ... حـلا السجن حتى خلتـه جنّـة الخلـد

وقال في أحداث لبنان التي جرح فيها (١٩٧٥):

بين الـرصـاص نفـذت ضمـن معـارك، ... فبرغم أنـف الموت هـا أنـا سـالمُ
ولها ثقـوب في جـداري خمسـة ... وقـد أخطأت جسمي وهنّ عـلائم

وصف أمين الريحاني الصافي في كتابه «قلب العراق» فقال إنه تنقل من كوخ إلى كوخ ومن بلد إلى بلد، وكـان يدعى عجمياً في النجف وعربيـاً في بلاد العجم. ثم راح يقيم بين البدو فظنّوه من الحضر، وجـاء سورية فظنـه أهلها من البـدو. ثم قـال: إنه لطير

عجيب غريب يحسن الطيران والغناء ولا يحسن سواهما. وهو. . وليد برج النحوس، فالدمامة أمه والسقم أبوه والبؤس أخوه. أما الروح منه فهي سليمة قوية، بل هي روح جبّارة في هيكل سقيم:

أســـير بجسم مشبـــه جسم ميّت كـأني إذا أمشي بـــه حـــامـل نعشي

من آخر ما نظمه احمد الصافي بيتان على لسان السياسي اللبناني صائب سلام على أثر بلوغه السبعين (١٩٧٥)، قال:

سنّي بـــروحي لا بعـــدّ سنين فـــلأسخـــرنّ غـــداً من التسعين
عمـــري من السبعين يـــركض مسرعـــاً والـــروح ثـــابتـــة على العشريـن

أيام الصافي الأخيرة ووفاته:

أصيب الصافي في أحـداث لبنان برصـاصات فنقل إلى بغـداد في ١٩ شباط ١٩٧٦ حيث عـولج. وكتب إليّ جعفـر الخليلي يقول إنـه لم ينقطع عن زيـارة الشـاعر منـذ أن جيىء به إلى بغـداد ليقضي دور النقاهة بعد استخـراج الرصاصة من صـدره. ثم قال: والعجيب أنه شفي تماماً من هـذه الاصابة الخطرة ثم مات بمرض الشيخـوخة الذي لا علاج له.

وكانت وفاته في بغداد في ١٧ حزيران ١٩٧٧

محمّد مهدي الجواهري

شاعر العراق والعرب محمد مهدي بن عبد الحسين بن عبد عليّ بن صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن المتـوفّى سنة ١٨٥٠ ولـد محمد مهدي في النجف يـوم الأربعاء ٢٦ تموز ١٨٩٩ ونشأ في كنف والده الـذي توفي سنة ١٩١٧ درس أمداً وجيـزاً في المدرسة العلويـة في مسقط رأسه، ثم أخذ علـوم اللغة والأدب عن محمد علي المظفر وعلي ثـامر وحسين الحمامي وغيرهم من مشايخ الغريّ. ونبغ في الشعـر، قرضه قبل أن يبلغ الحلم وبـرّز فيه تبريـزاً، وبـدأ بنشر قصائده منـذ مطلع سنـة ١٩٢١ في جـريدة الاستقـلال والعراق وغيرهما من صحف بغـداد. وسافـر إلى ايران لأول مرة سنـة ١٩٢٤، فرأى من طبيعتها الخلابة ومشـاهدها الجذابة ما سـاعد على تفتّح مواهبه وصقل قـريحته وتوسيع آفاقه.

وجاء إلى بغـداد سنة ١٩٢٧ فعيّن معلماً في بعض مـدارس الكاظميـة، ولم يلبث أن نقل مـوظفاً بـدائرة التشريفـات في البلاط الملكـي. واستقال من الـوظيفـة بعد ثـلاث سنوات، فأصـدر جريدة «الفرات» (ايار ١٩٣٠). وأعيـد إلى سلك التعليم في اواخر

السنة التالية، ثم أصبح رئيساً لديوان التحرير في وزارة المعارف، فمدرساً في المدارس الثانوية بالبصرة والحلة والنجف ودار المعلمين الريفية، حتى اعتزل التدريس في تموز ١٩٣٦ وقد اتهم بنشر قصيدة سياسية في جريدة «الإصلاح» البغدادية، وأحيل على القضاء فبرأت محكمة الجزاء ساحته.

وأصدر جريدة «الانقلاب» في بغداد في ١٥ تشرين الثاني (١٩٣٦) فجريدة الرأي العام (١٩٣٧) والمعرض (١٩٣٧). وأيّد حركة ايار ١٩٤١، فلما انتهت بالاخفاق مضى إلى ايران، ثم عاد في نفس تلك السنة واستأنف إصدار جريدته الرأي العام. وأصدر في آب ١٩٤٦ جريدة صدى الدستور. وانتخب نائباً عن كربلاء في المحل الشاغر بوفاة عبد الرزاق شمسة (تشرين الثاني ١٩٤٧)، لكن المجلس حلّ في شباط ١٩٤٨

وسافر إلى فرنسة سنة ١٩٤٩ فنظم ملحمته الغزلية «أنيتا» التي قال في سبب نظمها: «كان حباً عارماً لا يريد، ولا يقدّر له لو أراد، أن يقف عند حدّ». وأقام في مصر سنة (١٩٥٠ ـ ٥٢)، ولما عاد إلى بغداد حرّر في صحف منها الأوقات البغدادية والجهاد والثبات والاستقلال. واعتقل في أبي غريب في تشرين الثاني ١٩٥٢ وأصدر جريدة «الجديد» في ايار ١٩٥٣ ثم غادر العراق إلى دمشق سنة ١٩٥٦، فاتخذها سكناً وعهد إليه بتحرير جريدة «الجندي» التي تصدرها رئاسة أركان الجيش السوري.

وعاد إلى بغداد في تموز ١٩٥٧، ولم تمض سنة واحدة حتى قامت ثورة تموز، فحيّاها بشعره وأعاد إصدار جريدته الرأي العام (تشرين الأول ١٩٥٨). وانتخب في السنة التالية رئيساً لاتحاد الأدباء ونقيباً للصحفيّين. وفي سنة ١٩٦١ سافر إلى تشيكوسلوفاكية وأقام في براغ سبعة أعوام، ولم يعد إلى الوطن إلا في تشرين الأول ١٩٦٨ وأعيد انتخابه رئيساً لاتحاد الأدباء العراقيين عند إعادة تأليفه في كانون الثاني ١٩٧١ ثم عاود الرحلة الى براغ ومكث فيها أمداً طويلاً. وانتقل منها إلى دمشق حيث يعيش الآن (١٩٩٤).

ديوان الجواهري ومؤلفاته:

أصدر الجواهري «حلبة الأدب» (١٩٢٣) وهي مجموعة أدبية، ثم طبع ديوانه سنة ١٩٢٧ وصدر الجزء الثاني من ديوان الجواهري في النجف (١٩٣٥). وطبع الديوان في ثلاثة أجزاء (١٩٤٩ ـ ٥٣)، ثم طبع للمرة الرابعة في الشام (١٩٥٦ ـ ٥٧) وللمرة الخامسة في بغداد (١٩٦١)، وثم في بيروت (١٩٦٨). وشرعت لجنة بوزارة الاعلام بطبع ديوانه الكامل، فصدر الجزء الاول منه سنة ١٩٧٣، وعقبته ستة أجزاء طبع آخرها سنة ١٩٨٠

ولمحمد مهدي الجواهري عدا ذلك: شكوى إقبال وجوابها (١٩٣٦)، وهو ترجمة

شعرية لقصيدتين للشاعر محمد إقبال، بـريد الغربة (١٩٦٥) بـريد العودة (١٩٦٩) أيها الأرق (١٩٧١) خلجات (١٩٧٢).

وقد قرر المكتب الدائم لاتحاد الكتّاب الافريقيين والآسيويين في دورته الخامسة عشرة المعقـودة في موسكـو منح جـائزة لوتس الـدوليـة في الآداب لسنة ١٩٧٥ إلى الجواهـري بالاشتراك مع كاتبين آخرين باكستاني ونيجيري.

مـازال الجواهـري يعيش في دمشق. وقد حضر في ١١ آذار ١٩٩١ مـؤتمر الاحـزاب العـراقية المعـارضة لحكم صـدّام حسين في بيروت وألقى فيه كلمـة، ووضع مذكـرات بعنوان «ذكرياتي» صدر الجزء الاول في دمشق سنة ١٩٨٨، ثم صدر الجزء الثاني.

وقد رغب في المجيء الى لندن في آب ١٩٩١، لكنه مـرّ في طريقه ببراغ ومرض فبقي فيها للمعالجة. ثـم حضر إلى لندن في كانون الاول ١٩٩١ وتوفيـت زوجته بها في الشهر التالي، ونقل جثمانها إلى دمشق حيث دفن. وعاد الجواهري للاقامة في دمشق.

شعره:

الجواهري عملاق الشعر العربي الحديث، عبّاسيّ الـديباجة، طويل النفس، يرصّ كلماته وأشطره رصاً فتجييء قصائده كالصرح الممـرّد أو الطود الشامخ، ويكسو معانيه أثواباً مؤنقة من جزل الألفاظ. قرض الشعر يافعاً وجوّل في آفاقه وجلى في حلباته وتفنّن في أغراضه من غزل ووصف واجتماعيات وسياسيات ووطنيات، وله من القصائد آيات بيّنـات. ولئن كان في حيـاته الشخصيـة متقلّب الأهواء، كثير النّـزوات شأن العباقـرة النّابغين، لقد كان شعره دائماً إنسانيّ النزعـة، فوّار العاطفة، تقدّمي الأغراض. وكان الشاعر مؤمناً بجماهير الشعب، معبراً عن آمالها وآلامها.

يرثي محمد جعفر أبا التمّن فيستهلّ رثاءه أيّما استهلال:

طـالت، ولـو قصرت، يـد الأقـدار ... لـرمت سـواك، عَظُمْتَ من مختـار
من صفـوة لـو قيل: أيّ فـذّهم؟ ... لم تعـدُ شخصك أعين النظّـار
لكـن أرادت أن تحوز لنفسهـا ... عين القـلادة فـازدرت بنثـار
وأرى المنـايـا بـالـذي تختـاره ... للمـوت عـاطلـة وذات سـوار
فطـوتك في درج الخلـود فعطّـرت ... بك سـالف الأحقـاب والآثـار
واستنـزلتك لغـربـة، ولأنـت من ... عليـاك في لجبٍ مـن الأنصـار
وتجاهلـت أن البـلاد بحـاجـة ... لك حـاجـة الأعمى إلى الإبصـار

ثم يصف الراحل فيقول:

بكـر النعـيّ فما سمعت بمثلهـا ... عبثـاً على الأسماع والأبصـار
وتـرنّح الأحـرار ينـذر بعضهم ... بعضـاً بفقـدهُمُ أبـا الأحـرار

لله درّك من نقيّ لم ينل   أذياله وضر من الأوضار
في حيثُ تزدحم الشرور وترتمي   شبهاتها حتّى على الأخيار
خاض السياسة وانجلى عن لجّها   ألق الجبين، مكلّلاً بالغار
في حين رام سواه خوض عبابها   فطغى عليه، فضاع في التيّار
وصليب عود حين بعض مرونة   في ضعفها خطر من الأخطار
وطريّ نفس حين بعض صلابة   في عمقها حجر من الأحجار
وخفيّ كيد حيث يسمو كائد،   ومن المكائد جالب للعار
وصريح رأي لم يحد عن خطّة   ليلوذ من تأويلها بجدار
حرب على مستعمر وربيبه   ومسالم مستعمراً ومُجار

ويلتفت إلى حالة البلاد التي كان الفقيد يذود عنها ويريد حريتها ورفعتها فيقول:

ومفرّقين عناصراً ومذاهباً   متكفّلين سياسة استعمار
نزلوا على حكم الغريب وعرّسوا   في ظلّ مأثمة له وفجار
وتحلّبوا أوطارهم، فإذا بها   وشل لما استحلى من الأوطار
واستفرش الشعب الثرى، ودروبهم   مفروشة بنثارة الأزهار
ذعر الجنوب فقيل كيد خوارج   وشكا الشمال فقيل صنع جوار
وتنابذ الوسط المدلّ فلم يدع   بعض لبعض ظنّة لفخار
ودعا فريق أن تسود عدالة   فرُمُوا بكل شنيعة وشنار
ومشى المغيث على الجياع بقوتهم   وعلى العراة بجحفل جرّار
وتساءل المتعجّبون لحالةٍ   نكراءَ: من هم أهل هٰذي الدار؟
هي للصحابة من بني الأنصار   من كل بدريّ وكل حواري
للحاكمين بأمرهم عن غيرهم   ولصفوة الأسباط والأصهار
من كلّ غازٍ شامخ في صدره   زاهي الوسام، مدوّخ الأقطار
هي للّذين لو امتحنت بلاءهم   لعجبت من سخرية الأقدار
هي للذي من كلّ ما يصم الفتى   كاسٍ، ومن جهد يشرّف عار

ويحيّي الجواهري ثورة تموز بقصيدة عصماء يقول منها:

لم يبقَ شيء لم نقله تشكّياً   فيما مضى بالمصرحات وبالكنى
كنّا نقول لهم: حذار من لظى   إمّا اعتلت ومن اللهيب إذا دنا
ومن الصدور الحابسات زئيرها   ومن النفوس الكاظمات تحيّنا

ومن السجـون الـداجيـات، فإنها | كـانت ومـا زالت لبـاغ مـدفنـا
ومن السيـاط، فإنّ حـرّ نشيـدهـا | بنهـايـة الجلاّد كـانـتِ ملحنـا
ستحـول سلسلـة السجين وقيـده | من معـدنٍ بخس لأثمن معـدنـا
كنّـا نحـذّرهم ونضرب راعيـاً | مثـلاً لهم وقطيعـه مثـلاً لنـا
مـا أقبح الـدنيـا إذا ضلّ الصـوى | راعٍ بثلّتـه ومـا أدنى الـدّنى.

إنّ شعر الجواهري الثائر المتأجّج، المنافح عن الشعب المظلوم، النّازل على ظهر الحاكم الظالم كالسوط اللاهب، ليشبه شعر فكتور هوغو في دفاعه عن الحرية وتنديده بالطغيان والطّغاة. أجل، إنه ليشبه فكتور هوغو خطيب الجماهير في ثورة ١٨٤٨، وصاحب «نابليون الصغير» و«العقوبات»، والمبعد إلى جزيرة بحر المانش «تلك الصخرة التي حطم عليها جناحه». وسيبقى شعر الجواهري أبداً سجلاً حافلاً للجهاد العربي وتحفز الشعب وظمأه إلى الحرية والكرامة.

الرصافي والجواهري

تلاقى الشاعران الرصافي والجواهري على صعيد الفكر فتناجيا وبثّ كل منهما لاعجته وشكواه. قال الرصافي:

أقـول لـربّ الشعـر مهـدي الجواهـر | الى كم تنـاغي بـالقـوافي السـواحـر
فترسلهـا غـرّا هـواتـف بـالعلى | يـزوّد منهـا سمعـه كل شـاعـر
وتشـدد بها، والقـوم صم عن العلى | فلـم تلـقَ إلا غير واع وذاكـر؟
أتـرجـو من الحسّـاد عـونـاً ونـاصراً | فتـدعـوَ منهم خـاذلاً غير نـاصر؟
كـأنك لم تبصر سـواد قلـوبهم | فهل أنـت مغـرور ببيض المَسَـافـرِ؟

ثم ناغاه الجواهري فهزّ ـ كما قال ـ الأسد الرابض الضائق ذرعاً بعرينه، المنطوي على نفسه ألماً وغضباً وكبرياء، فزأر الأسد الرصافيّ وقال في معرض الجواب:

بِكَ الشعـرُ لا بي أصبح اليـوم زاهـرا | وقـد كنـتُ قبل اليـوم مثلك شـاعـرا
فأنت الـذي ألقت مقـاليـد أمـرهـا | إليـه القـوافي شُرّداً ونـوافـرا
بلغـت مـن الإبـداع أرفـع ذورةٍ | هـوى النجم عنهـا صـاغـراً متقـاصرا
إذا شيءَ ظلـم قمـت للظلم رادعـاً | وإن سيءَ حقّ قمـت للحقّ نـاصرا

تذكرنا هذه المطارحة الشعرية بين معروف الرصافي والجواهري المراسلة الشعرية التي جرت في اواخر القرن الماضي بين الشاعر المنفي الشيخ محمود سامي البارودي والشاعر اللبناني الشاب شكيب ارسلان، وقد نشرتها مجلة الزهور المصرية في مختاراتها.

وللجواهري صرخات ثورية مدوّية، أليس هو القائل:

يتبجّحون بأن موجاً طاغياً سدّوا عليه منافذاً ومساربا
كذبوا، فملء فم الزمان قصائدي أبداً تجوب مشارقاً ومغاربا
تستلّ من أظفارهم، وتحطّ من أقدارهم، وتثل مجداً كاذبا
أنا حتفهم، ألج البيوت عليهمُ أغري الوليد بشتمهم والحاجبا

ومن موشحات الجواهري التي نظمها في عهد شبابه «وشاح من ورد» قال فيها:

روح الصبا تسري بالبعث والنشر على البطاح
ويانع الزهر يلتفّ بالنهر مثل الوشاح

الروض مزدان
تكسوه ألوان من الربيع

***

والنبت فينان
روح وريحان صنع البديع
والرند والبان
صادٍ وريّان زاهي الفروع

والشمس في سكر من رشفة الخمر من الإقاح
تسري ولا تدري بالنهي والأمر بلا جماح

وسيمة الفجر
يفترّ عن دَرّ من السقيط

***

وكائر النّسر
يلوذ بالوكر خوف السقوط
والبدر في الأسر
يغزل للفجر بيض الخيوط

والصبح إذ يسري بطالع البشر على النواحي
وريّق القَطر يحوك للزهر ثوب ارتياح

والكأس ملآن

والشهب نُدمان بعض لبعض
والكل فرسان
والروض ميدان للقطف والعضّ
والصّدغ بستان
والحظّ وسنان كالنّرجس الغضّ

والشعر كالشَّعر في اللفّ والنشر فيه افتضاحي
والخدّ كالبدر كالشمس في الظهر في الأفق ضاحي

ناجي القشطيني

تنتسب الأسرة الى قشطين من أعمال حلب، وهي أسرة طائية امتهن أفرادها التجارة ونزحت الى بغداد بعد فتح السلطان مراد الرابع. وقد عرف منها محمود القشطيني رئيس بلدية الكرخ المتوفى في ١٩ كانون الثاني ١٩١٥، وهو عمّ الشاعر المربي محمد ناجي القشطيني.

ولد محمد ناجي بن عبد الوهاب بن عبد الحميد بن أحمد في كربلاء سنة ١٨٩٦، وكان أبوه زراعاً قبل الوظيفة على مضض لخسائر حاقت به، فعمل في كربلاء أربع سنوات، ثم عاد الى الزراعة وتوفي سنة ١٩١٣ وجيء بناجي طفلاً الى بغداد، فلما كبر أخذ يدرس على خاله عباس حلمي القصاب وغيره من العلماء. وعيّن القصاب مدرساً للمدرسة الدينية في سامراء، فلحق به الفتى ناجي وقضى في تلك المدينة سبعة أعوام يتلقّى العلم في مدرستها.

قرض ناجي القشطيني الشعر في صباه، وكان من أوائل نظمه رثاؤه لوالده الذي أدمت وفاته قلبه الغضّ فقال:

لم أدرِ مصرع والدي أم مصرعي هو لا يعي، وأنا كذلك لا أعي
وصحوت أسأل من رأيت، فلم أجد أحداً يجيب سوى غزير الأدمع

ثم رثى عمّه الذي تعهده برعايته وحنانه فقال:

موت عمي أمات منّي اللّسانا فاعذروني إذا فقدت البيانا
كان لي حجّة وكان إماماً أتلقى منه الهدى والأمانا
كان لي جُنَّة وكان حساماً أتحدّى به العدى والزّمانا

وكان شبابه عهد جدّ ودرس وصرامة، فلا عجب أن ذكره قائلاً:

شيئـــان مـــــرّا بي كلمح البصر   عهـــد شبـــابي وجمال الصُّـــوَرِ
أمـــا شبـــابي فهـــو مـــا يـــؤسفني   مضـى ومـــــا خلّـف غير العبر

واحتّل الإنكليز بغداد ففتحوا في حزيران ١٩١٧ دورة لتدريب المعلمين انضمّ إليها الشاعر فيمن انضمّ من الشباب الناهض. ولما تخرج فيها عيّن معلماً فمديراً للمدرسة البارودية (أول نيسان ١٩١٨). وقد حيّا عهد العلم والعرفان فقال:

إن المعــارف قـد لاحت بشـائرهــا   متى بنهضـــة أوطـــاني تبشّرني؟
هي التي ضـاءت الـدنيـا بطلعتهـا: لـولا المعـارف هـذا النّـور لم يكنِ

ثم عيّن بعد ذلك مديراً لمدرسة الكرخ فالكاظمية (أيلـول ١٩٢٣) ثم عيّن مدرساً للعربية في المدرسة الثانويـة المركزية (١٩٢٤)، وانتمى في السنة نفسها الى دار المعلمين العالية التي افتتحت آنـذاك وكانت الدراسة فيها مسائيـة استمرت سنتين. وعيّن مديراً لجريدة الوقائع العراقية الرسمية (آب ١٩٢٦) ثم عمل مدرساً أعواماً طويلة حتى عيّن مـديراً للمـدرسـة الشرقية المتـوسطـة (آب ١٩٣٦). ونقل في آذار ١٩٣٨ الى مـديريـة الدعايـة العامة مميزاً للمطبوعـات الداخلية ثم أعيد مـديراً للمدرسة المتوسطـة المسائية (آذار ١٩٣٩) فمميّزاً للمطبوعات العربية (آب ١٩٤١). وأعيد إلى سلك التدريس في تشرين الأول ١٩٤٦، ثم عيّن مفتشـاً إختصاصيـاً بوزارة المعـارف (آذار ١٩٥٣) حتى اعتزل الخدمة سنة ١٩٥٩ وتوفّي ببغداد في ١٥ كانون الأول ١٩٧٢

شعره:

نشر ناجي القشطيني «اللهفـات» ديوان شعر ونثر (١٩٦٨)، «ومن عيـون الشعر» (١٩٦٨)، وهي مختاراته لشعراء العربية، ونفثات الأخرس (١٩٦٩).

وشعره وطنّي النزعة، إسلاميّ الطابع، يكاد يقتصر على المواضيع القومية والدينية، وليس له شعـر وجدانيّ يذكـر. ولئن كان القشطيني المربّي قد أنشأ أجيـالاً من الشباب المثقف الواعي، لقد شـارك القشطيني الشاعر في المناسبات الوطنيـة والاجتماعية خلال نصف قـرن، فأنشد قصـائده في ميلاد الرسـول الأعظم، وارتفع صـوته في عيـد الثورة العربيـة وتكريم جميل صدقي الزهـاوي والثعالبي التونسي وطلعت حرب ورثـاء محمود شكري الألوسي والمنفلوطي وشوقي والزهـاوي وفهمي المدرس ويوسف السويدي وعبد المحسن السعدون وغيرهم من رجال الأدب والزعامة والسياسة.

إن القشطيني غيور على دينه وأمته، فلنستمع اليه يقول:

ربّ، هـب لي مـن فنـــــون الأدب   حكمـــــة الشعـــر وسحـــر الخطب
ربّ، هيّـىء لي رشـــــاداً وحجىً   ربّ، أيـــدني بـــآيـــات النّبـي
لأنـــــاجـي أمّتـي فيماأرى   وأريها مـــــــــا وراء الحجـب

أو يقول :

الحقّ أبلج وضّاح الى الأبد ... كالصبح يسطع لا يخفى على أحد
فقل عن الحق ما تهوى، فأنفسنا ... تلتذّ في ذكره المعسول كالشّهَد
وإن ترد مثلاً أعلى لتضربه ... للحقّ غير أبي الزهراء لم تجد
طه، ومن مثل طه في خلائقه، ... أثنى عليها كتاب الواحد الصّمد
سرّ من الله لم تعرف حقيقته ... ولم يَدُرْ كُنْهُ معناه على خَلَد
قد جاءنا بنظام كله حكم ... وأنعم نفّست عن كل مضطهد
كانوا يطوفون بالأصنام جامدةً ... ويسجدون لها في زيّ معتقِدِ
يدعون لله أبناءً تشاركه، ... والله حاشاه لم يولد ولم يلد

وهو وطني صلب، ثابت المبدأ، يقول :

لا السجن يُبكينا ولا التبعيد ... كلاّ، ولا الإرهاب والتهديد
سنظلّ نهزأ بالخطوب تجلّداً ... مهما استمرّ الضغط والتشديد
وإذا تناوشت الحراب صدورنا ... هتفت إليها في الصدور كبود
إنّا تحالفنا على نيل المنى ... وتسجّلت منّا بذاك عهود
الصبر شيمتنا وليس يهمّنا ... إن قال فينا ما يشاء حسود
والقيد مهما أحكمت حلقاته ... كسرته منّا أذرع وزنود

ويكبر عزم الشباب وقوة الشعب فيقول :

هو الشعب كالبركان يقذف ناره ... وهل تمنع البركان يوماً موانع ؟
لقد كان مخدوعاً فثاب لرشده ... وفحّص فيما يدّعيه المخادع
فلم يرَ إلاّ زمرة أشعبيّة ... تناضل عن غاياتها وتدافع
قد اجتمعت لمّا صفا الجوّ ضحوةً ... كما اجتمعت حول النقود الأصابع
تحاول ستر الحقّ في برقع الهوى ... وهل سترت شمس النهار البراقع ؟
وتزعم أن الشعب طوع بنانها، ... لقد كذبت فالشعب ما فيه طائع .
ألا قل لمن يبغي الخيانة بعدما ... رآها وفي أنيابها السّمّ ناقع
تكتّم وحاذر ما استطعت، فإنه ... لسرّ على رغم التكتّم شائع
لقد أنهكت ظهر العراق ضرائب ... يقدّمها من جلده وهو جائع
أناخ عليه الأجنبيّ بجيشه ... وبثّ به ما حرّمته الشرائع
فهانت كرامات وضاعت فضائل، ... وبارت تجارات وماتت مزارع .

وقد هزّته نكبة حزيران سنة ١٩٦٧ فأطلقها لهفة أخيرة من نفس ذاهلة كسيرة،

وقال:

أتبكي أم تعـــدّد أم تنـــوح، فهل يطغى اللّظى دمك النّضـــوح؟
ولـــو أنشـــدت قـــومك ألف بيتٍ وبيتـــاً هل ستنـــدمل الجروح؟
لماذا تستغيـــث ولا مغيـــث، أتسمعك الـــروابي والسّفـــوح؟
وليس لنـــا إذا رمنـــا حيـــاة يحيّيهـــا التأمّل والطمـــوح
ســـوى صبر يـــؤزّره جهـــاد ويغسل عـــاره دمنـــا السَّفُـــوح
وكم سُفِكَتْ لأمّتنـــا دمـــاء وكم هـــدمت لموطنهـــا صروح

من شعر ناجي القشطيني:

أمن مصـــائب عصر النـــور، يـــا قلم، أراك تـــرعش أم أودى بك الهرم
وهل هيـــامك فـــوق الطـــرس من ألم أم عـــادة لك هـــذا الحال لا ألم؟
صـــدى أنينك أشجـــاني وأرّقني وراعني إذ جـــرى من مقلتيك دم
إني عهـــدتك لا تخشى الخطـــوب ولم تسأم، فمن أين هـــذا الخوف والسّأم؟

وقال أيضاً:

خطـــر النّسيم الغضّ يحمل نفحـــة مسكيـــة فيهـــا ارتيـــاح الخاطـــر
والشمس صـــاغت بالشعـــاع سبائكـــاً يجلـــو النّضـــار بها جميل منـــاظـــر
وجـــرى لجين الماء فيـــه فحلّيت أشجـــاره بمعـــاضـــد وأســـاور

عبد العزيز الجواهري

شاعر عراقي عاش في إيران، لكنّ روحه بقيت متّصلة بوطنه العراق ومسقط رأسه النجف، وهو الأخ الأكبر لمحمد مهدي الجواهري: عبد العزيز بن عبد الحسين بن عبد عليّ المولود بالنجف في ٣٠ أيلول سنة ١٨٩٠

وقد أرّخ مولده الشاعر جعفر الحلي فقال:

بشراكمُ هـــذا غـــلام لكم مثل الـــذي بشّر فيـــه العـــزيـــز
سمعـــاً، أبـــاه، إنّ تـــاريخه أعقبت، يـــا بشراك، عبـــد العـــزيـــز

درس عبد العزيز الجواهري في معاهد بلدته وحصّل العلوم العربية والدينية على عادة أهل زمانه، حتى إذا ما بلغ مبلغ الشباب اتصل بالحركة الفكرية الجديدة التي هبّت أنسامها على البلد المنعزل وراء الصحراء. لقد أعلن الدستور في إيران وعقبه

إعلان الدستور في السلطنة العثمانية، وصدرت الصحف في بغداد بعد أن أطلقت حرية النشر والتعبير، ووردت الجرائد والمجلات من مصر وسورية ولبنان تحمل الأفكار الجديدة والشعر المحفّز للهمم، المفصح عن يقظة دينية ووطنية بعد سبات القرون الطويل.

وسار فتانا في ركاب النهضة الى جانب محمد رضا الشبيبي وعلي الشرقي وأضرابهما، وأخذ ينظم في المطالب العصرّية ويخلع عنه رداء الجمود والانغلاق الذهني. وقد نشر قصائده في المجلات العربية الكبرى كالعرفان والمقتطف، وتولّى طبع ديوان محمد سعيد الحبوبي في بيروت سنة ١٩١٣

ثم غادر العراق بعد الحرب العظمى الأولى واتخذ مقامه في طهران. وقد ترجم مقدّمة ابن خلدون الى اللغة الفارسية، ووضع دائرة معارف إسلامية في عشرة مجلدات، وصنّف تآليف أخرى منها: النهاية في الشرح والتحرير للكفاية (في ثلاثة أجزاء) آثار الشيعة الإمامية (في عشرين مجلداً طبع منه الثالث بالفارسية والرابع بالعربية) المكتبات الإيرانية (بالفارسية ١٩٣٣)، جواهر الآثار في ترجمة مثنوي جلال الدين الرومي شعراً (١٩٥٨) الخ.

تفّتح ذهن عبد العزيز الجواهري الشاب للحياة العاملة فخاطب الشباب قائلاً:

تطلّب في شبابك للصِّعاب ... فما عمر الفتى غير الشباب
وسلَّ حسام عزمك للمعالي ... فإن السيف يصدأ بالقراب
ودع طلب الهوان لمبتغيه ... فإن المجد أجدر بالطّلاب
وكرّر لو خطأت الجدّ يوماً ... فكم خطأ يؤول الى الصواب

وآمن بالشعر الحيّ الذي لا يموت فقال:

خليليّ، ما معنى الشعور؟ فإنني ... أرى كلّ شيء شاعراً مترنّما
أرى الكون في لوح الوجود قصيدة ... تخطّ عليها الخلق شعراً منظّما
هو الشعر باقٍ ليس تفنى حياته ... نقيم احتفالاً أو نشيد مأتما
تصوّره روح الخيال، فلو بدا ... إذن لرآه الطرف شخصاً مجسّما
وتنشر أسفار الطبيعة شعرها ... رموزاً فيمليها الهزار مترجما
هل النجم إلاّ روضة نرجسيّة ... أرى البدر فيها شاعراً متبسّما
فدىً لدموع العاشقين فإنها ... قصيدة شعر بينها الحبّ نُظِّما

عــــرائس حبّ إن تجلّت بـــدورهـــا لـدى الصبّ ليـلاً زفّها الـوجـدأنجما
تقبّـل خــــدّ الجلّنـــــارة وجنــــةً وتلثـم ثغـــــر الأقحــــوانــــة مَبْسَمَا

ويمضي الشاعـر في اقتفاء خطى الشعـر، فيسمعه في الروض الـذي تداعبـه أضواء البدر ونسيج الليل فوقه وشياً منمنماً، حتى يقول:

تقـــرّيت أسفـــار الخلائق في الثـــرى وفتّشــت أسرار العــــــــوالم في السَّمَا
فلـم أرَ إلا روضـــــة أو خـــريــــدة ولم ألْـفِ إلا شــــاعـــــراً أو متيّماً
ألا كل صــوت طــارق صوت شــاعــر وسيّـــان فينــــا من بكـى أوتــــرنّما

وليس من ريب أن هذا الصوت يعيد الى أذهاننا صوت معروف الرصافي الذي قال:

قــرأت، ومــا غير الطبيعــة مـن سفــر، صحــائف تحــوي كلّ فـنّ من الشّعــر

وخلع السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٩٠٩، فكان لخلعه صدى كبير دوّى في جوانب الدولة العثمانية المترامية الأطراف من مصر الى العراق. قال شوقي:

ســـــل يَلْـــدِزاً ذات القصـــــور هل جـــــاءهـــــا نبأ البـــــدور؟

وردّ عليه وليّ الدين يكن قائلاً:

هـــــاجتك خـــاليــــة القصـــــور وشجتـك آفلــــــــة البــــــدور
وذكــــــرت سكّـــــــان الحمـى ونسيـت سكـــــــان القبــــــور

أما صاحبنا عبد العزيز الجواهـري فبدّل الوزن واحتفظ بالرويّ، وخاطب السلطان السّجين قائلاً:

بعيشـك كــم تحنّ الى السّريــــــــر وكم تـــرنـــو بطــــرفك للقصـــــور
هــــــلاليـــــاً أراك نحلت جسماً أمـــــا تشفيـك آفلــــة البــــدور؟
طــــواك الــــرعـب قبل الموت مَيْتـــاً وأحيتـك المنـى قبـل النشــــــــور
أهــــانتـك القصـــور وكنـت ملكـــاً تهيّـب منــــــه سكـــــــان القبـــــور
قـــريت الـــوحش من جثث البرايـــا ورويّـت الـــرّبى بـــــدم النحــــور
بكت منـك الثغـــور دمـــاً مــراقـــاً وتضحك عنـــد بـــاسمــــة الثغـــور
فأقسم أن عـــود الـــدّست لـــو لم يكـن مـن حــــــرّ بـأسك في سعير
لأثمــــر في رؤوس الجنــــد روضـــاً وأزهـــــر من دمــاهـــا في غـديـــر

لقـد سقط السلطـان المخيف وتألب عليـه الشعـراء والأدبـاء يشيّعـونـه بسخطهم ولعناتهم.

وأين صاحبنـا الجواهري الذي ودّع عبد الحميـد بتلك القصيدة، أين منه هـو نفسه قبل أعوام قليلة حين مدح خليفة الإسلام قائلاً:

عُليّ بطـــــريف مجدك والتّليـــــد وليـس وراء مجدك من مـــــزيـــد
وفخـــــراً في عـــلاك فقــــد تحلّى بفيض نـــداك عـــاطل كـلّ جيـــد

ومن شعر عبد العزيز الجواهري في رثاء الشيخ محمد كاظم الخراساني :

بكـاك الحيـا دمعـاً كما بكـت الـورى فهل كنت فـوق النجم أم كنت في الثّـرى؟
تحيّر عقلي كيـف أرثيـك واصفــــاً، تعـالى الـذي صفّـاك للنّـاس جـوهـرا
لئن كنت نـوراً في حشـا الكـون مظهـراً فقـد عـدت سراً في حشـا الغيب مضمـرا

وهذه المرثية قديمة الطراز فيها المعاني المتصيّدة والمبالغة المتعمّدة. لكنّ شاعرنا حين يفقـد أخاه يثيره الـوجـد ويرهفـه الحزن والأسى، فيبثّ صبـابتـه تهزّ النفوس وتكـوي الضلوع :

بـــزغ الهلال، فـأين عهـــد وفـــائه أن لا يخون بـــودّه وإخـــائه؟
أيـــرى أخـــاه مغيّبـــاً تحت الثـــرى قمـــراً ويشرق زاهـــراً بسمائه؟
إني خضبـت أنـــاملي بمــــدامعي وطلبـت طـــوق الحزن في ورقـــائه
وعكفـت حـــول أزاهـــر مـن قبره نبتـت تسبّـح في ضريـح ثـــوائه
نـــذر عليّ لئـن زهـــا ريحانـــه لأروّيـنّ الـــورد في أنـــدائه
يـــا لهف أيـــار تفـــرّط ورده بيـــد المنـــون وجفّ قبـل نمائه .
أهـــلال عيـــدي، أيـن غيّبك الثـــرى فحـــرمتني مـن بِشْرِهِ وهنـــائه
أغنتـــه عن جـــدد الحلى أكفـــانـــه وكفـــاه صبـغ الـــدمع عـن حنّـــائه
وتـــركت قلبـي حـــول قبرك حـــائماً شبـــه الفـــراش يحوم حـــول ضيـــائه
إن شـعّ لي قبس الحيـــاة فـإنّـــه لهب السّراج يلـــوح في أطفـــائه
أأخيّ، يـــا قـــوسي ونبل كنـــانتي ومـــديـــر جيشي بـل أمير لـــوائه
أبقيـت قلبي للـــزمـــان دريئـــة ونصبتني غـــرضـــاً الى أبنـــائه .

وفي هذه القصيدة الحزينة صور متعاقبة رسمت هول الفاجعة في ذهن الشاعر الذي سلبه الموت شقيقه الحبيب: فلقـد بزغ هلال العيد، فالقمـر يتألق في العلاء لكنّ أخاه مغيّب في أطباق الثـرى. ثم هذه الخميلة الزاهيـة في فصل الربيع، تفتّح زهرهـا وجرى ماؤها وصدح عنـدليبها، لكن زهرة الشاعر قد صوّحتهـا يد الردى قبل الأوان، وبلبله رقد في قفـص التراب. ولقد حامـت نفس الشاعـر حول القبر كـالفراشة التـي يجتذبها النور، وهيهات، وهيهات، فقد خبا ذلك النور ولم يكد يشرق.

وكان الشـاعر يأمل في أخيـه نصراً ومعونة، فإذا هـو قد بات طـريدة الـزمان ونهب المصائب واللـواعج، كالفارس الذي أضـاع قوسه وكنـانته وكالجيش الذي فقـد قائده

وأميره. ويختتم الشاعر المفجوع مرثيته راجياً أن يحظى بلقاء أخيه في المنام وسائلاً رضوان أن يحفظه في فردوسه الخالد.

إن الشاعر قد فكّر في الحياة فلم ير سوى نار تضطرم ثم تخمد، فقال:

أرى عمـــر الحيـــاة شـــواظ نـــار مـن الأجســـام تكمـن في زنـــاد
ومـــا ليل الشبـــاب ســـوى دخـــان ومـــا صبـح المشيب ســـوى رمـــاد

ذكر عبـد العزيز الجواهري، فيمن ذكـره، الشيخ علي الشرقي فقال إن عبد العـزيز الأرغن الذي يجسّ بتوقيعه العـواطف ولا يغنّي في الغالب إلا على رحيق الوطنيات.
وقد توفي عبد العزيز الجواهري في طهران سنة ١٩٧٦

محمّد الهاشمي

الشاعـر الأديب القاضي محمد الهاشمي، ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٨ وأبوه يحيى بن عبـد القادر ينتهي نسبـه الى الشيخ عـلاء الدين الحمـوي الفقيـه الشافعي المتصـوّف، صاحب المزار في حماه، المتوفى سنة ٩٣٦ هـ = ١٥٣٠م. وقد انتقلت الأسرة الى هيت ثم استوطنت جـانب الكرخ من بغداد، وعـرفت بآل مطر. وللمترجم ثـلاثة أشقاء عـرفوا بالأدب، أكبرهم عبد المجيـد عمل في القضاء والتدريس وتوفي سنـة ١٩٤٦، وثانيهم عبد الـرزاق (١٨٨٣ ـ ١٩٦٤) وكان شاعـراً وقاضياً وعضـواً بمجلس التمييز الشرعي (١٩٤١ ـ ٤٦). وثـالثهم الشاعر محمد رشيـد (١٨٩٦ ـ ١٩٤٣)، وقد كانت حيـاته مأساة من المآسي.

توفي والده وشـاعرنا محمد الهاشمي لا يـزال في السابعة من عمره فتعهـده أخوه عبد المجيد بـرعايتـه وأشرف على تدريسه. ثم دخـل المدرسة الرشـدية (١٩٠٨) فـالمدرسة السلطـانية (١٩١٢) ولازم محمـود شكـري الألوسي فأفـاد منـه. ونظم الشعر صبيًّـاً، فاستدعته السلطات التركية وحاكمته عن قصيدة نشرها في جريدة «الرياض» لصاحبها سليمان الدخيل، ومطلعها:

يـا قيصر الـروس، شلّ الله عـرشك هل علمت منقـــلب الظلاّم إذ ظلمـوا؟

وقصيدة أخرى ينتصر فيها للّغة العربية قال فيها:

تـركـوك، يـا لغـة النبـي، وآثـروا في المسلمـين سيـاسـة التـتريك

وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر. واستطاع أن يسافر الى القاهرة قبل تنفيذ الحكم، وكان ذلك في أواخر ١٩١٣

وانتمى الى الجامع الأزهر فنـال شهادته الأهلية (١٩١٧). وعـاد الى مصر بعد زيارة للحجاز فـالتحق بالجامعـة المصرية، وقضى فيهـا سنتين. ثم مضى إلى دمشق ومكث فيها الى سنة ١٩٢٠ حين عاد الى مسقط رأسه بغداد.

وقد أحبّ مصر التي أقام فيها عهداً من شبابه كما أحب وطنه العراق فقال مودّعاً:

آن يـــوم من الـــرحيل قـــريب	فيـــه يـــدمى قلب وتبكـي عيـــون
مـــا بقـــاء الغـــريب في البلـــد	النـــازح إلا صبـــابـــة وحنين
كيف بـــالنيل إن ذهبت الى دجلـــة؟	إنّي بـــالـــواديين ضنين
قـــد تحيّرت بين هـــذا وهـــذا	وانتحتنـي قبل الـــرحيل شجـــون
فتمتـع قبـل الفـــراق ففـي مصر	زمـــان غـضّ وعيـش ثمين

وظف في وزارة الدفـاع كاتباً ثم نقـل الى الديوان الملكي ودرّس بعـد ذلك في المدرسة الثانوية ودخـل مدرسة الحقوق فنال شهادتها سنة ١٩٢٥ وأصـدر في الوقت نفسه مجلّة اليقين (نيسان ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥)، وكانت من المجلات الأدبية الراقية في عهدها.

وعيّن حاكماً في المحاكـم العراقية (٢٦ أيار ١٩٢٧) فخدم في القضـاء أكثر من ثلث قرن وتنقل بحكم منصبه في معظم أنحاء العراق. وكان أول تعيينه حاكماً للصلح في أبي الخصيب (أيـار ١٩٢٧) فحاكم بـداءة البصرة (حزيـران ١٩٢٨) فحاكم صلح قلعـة صالح (ت٢، ١٩٢٨) فالفلوجة (أيلول ١٩٣١) فدلتاوة (أيار ١٩٣٣) فالشطرة (آب ١٩٣٥). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بغـداد (ك٢ ١٩٣٦) فكركـوك (آذار ١٩٣٧) فحاكم كربلاء المنفرد (١٩٣٧) فحاكم جزاء النقليات ( ) فحاكم جزاء بغداد (آذار ١٩٣٩). ونقل حـاكماً في محكمة بـداءة بعقوبـا (نيسان ١٩٤٠) فحـاكم جزاء بغـداد (١٩٤٢) فحـاكم صلـح تكـريت ( ) فحـاكماً منفــرداً للكـوت (تموز ١٩٤٣) فحـاكم بداءة النـاصرية ( ) فبغـداد (تموز ١٩٤٦) فحـاكم محكمة استئنـاف تسـويـة حقـوق الأراضي في بغداد (آذار ١٩٤٧) فعضـو المحكمـة الكبرى فيهـا (آذار ١٩٤٨). ونقل مفتشـاً عدليـاً (ك١، ١٩٤٨) فنـائب رئيس محكمة استئنـاف البصرة (ك٢، ١٩٤٩) فـرئيس المنطقـة العدليـة في بعقـوبـا (نيسان ١٩٤٩) فحـاكم بـداءة الـرمـادي (أيلـول ١٩٥٠) فـالعمارة (آب ١٩٥٢). وأصبح عضـواً في مجلس التمييـز الشرعي السنّي (أيلول ١٩٥٣) فرئيساً لـه (٣ كانون الثاني ١٩٥٦)، وانتدب للعمل في محكمة التمييز العراقية (أيلول ١٩٦٠). وقـد أحيل على التقاعد فاعتزل الخدمة في أول تموز ١٩٦١

وقد أصيب محمد الهاشمي بداء عضال ألـزمه داره بضع سنوات، حتى وافاه الأجل في بغداد في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٣

مؤلفاته

له: عبرات الغريب وقد تضمن شعـره إلى سنة ١٩١٨ وطبع في الشام (١٩٢٠) أبو العـلاء المعرّي (١٩٤٤) الأبطـال الثلاثـة (١٩٣٣)، النعت (١٩٤٧) سميراميس بين الحقيقة والأسطورة (١٩٥٩) ديوان المثـاني (١٩٦٢) القضاء بين يديك (١٩٥٧). وقد نظم رباعيات الخيام شعراً ونشر ديوان عبد الله بن الدمينة مشروحاً مع السيد محي الدين

رضا في أثناء إقامته في مصر (١٩١٨) وجمع «أراجيز العرب» وهي تضم مئات الأراجيز التي عثر عليها في مصر وسورية والعراق. وله عدا ذلك ديوان شعر كبير معدّ للطبع ومقالات نشرت في مجلة المقتطف واليقين وسواهما من المجلات والصحف العربية. وقد نظم ملاحم وقصصاً شعرية منها: سميراميس الآنف ذكرها، بلقيس، إعترافات مقامر، الفتاة المخدوعة، في الوفاء وفي الغدر، قصة الإمام عليّ الخ.

شعره:

ذاق محمد الهاشمي مرارة اليتم طفلاً وخبر آلام البؤس والفاقة والغربة شاباً، فلا عجب أن جاء شعره حزيناً ناطقاً بالشجو والألم.

فهذه قصيدته «اليتيم الباكي» تعرب عن حاله وتفصح عن ذات نفسه لا زيف فيها ولا إغراب:

إلى كم أنت تكتب بالدموع ... روايات عن الخطب الفجيع؟
على قلبي دموعك نازلات ... ألم تره يدقّ من الدموع
كأن وقوعها حجرات نار ... أحرّ من الصهير على الضلوع
دموع قد أفاضتها عيون ... بها لليتم آثار الخشوع
إذا أجهشتُ أجهش لي فؤاد ... يطاوعني على الألم الوجيع
أرقّ من النسيم هوى وعطفاً ... أبيّ الطبع للزمن الفظيع
يؤاسي كلّ ذي حزن بحزن ... ويقتسم الشجون على الجميع
ولو حمّلته قسطاً ثقيلاً ... من الآلام آذن بالخضوع
ولو تشفي الدموع غليل قلب ... إذن لشفيتُ بالدمع الهموع.
سألقي نظرة ملئت حناناً ... على البؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنياء على رخاء ... ونحن نعيش في بؤس وجوع
تنام عيونهم بالليل، لكن ... عيون البائسين بلا هجوع
نسوا البؤساء في الدنيا جياعاً ... وخلّوهم الى الزمن المنوع
لكل من بنيهم ألف ثوب ... عليه علامة الصنع البديع
أناموهم على بيض الحشايا ... وفي غرف من القصر الرفيع
وأطفالٍ على الأوساخ ناموا ... كأفراخ الحمام على الجذوع
وليس لهم سوى الدقعاء فرش ... ولا التحفوا سوى الثوب اللذوع
يقضّون النهار طوى وجوعاً ... ويطوون الليالي بالدموع
أحاديث الشقاء لهم عزاء ... تعلّل نفس ذي البؤس الجزوع
ويضرب منهمُ ذو السقم عيّاً ... بليلته هزيعاً في هزيع
رأيت اليتم ذنباً لليتامى ... يراه الأغنياء بلا شفيع

وقال منها :

مضى أهلي وعـــرّضني زمـــاني لفتك مـن مصـــائبـــه ذريـع
يتيـم ليـس يعـــرفني قـــريـب ولسـت على الشقـــــاء بمستطيـع
أبي، أمـي! عـــــلامَ تـــــركتماني ضعيـف مطـــامـع وقصير بُـــوعِ
أجيبـــا دعـــوتي، أنـــا مستغيـث وليـس ســــــواكما لي مـن سميـع
لقـــد همّا بيــوم نـــوى قـــذوف ولكـن لم يهّما بــــالـــرجـــوع
تـــذكـــر أمـــه وأبـــاه يــومــاً فأسبـل ديمـــة أخـــذت بـــروعي
لـــه قلـب وليس لـــه لســـان يطـــاوعـــه على الـــدمع المطيـع
مضى أبـــواه قـــد تـــركـــاه طفـــلاً تـــرعـــرع قبل أيـــام الـــربيـع

وقصيدته «الفتاة المخدوعة» صرخة مدوّية من صرخات الألم والفجيعة تروي قصة فتاة أوقعتها أمها بين براثن وحش مفترس وعدها بالزواج لكنه نصب لها فخاً وألقى بها في مهاوي الرذيلة، فابتليت بالسل وقضت نحبها شهيدة الفضيلة والعفاف.

وهو يردّد أنغام الحزن والأسى حتى في الحبّ، فيقول في موشّحه «آلام الحياة»:

ثمَّ في الصحــــراء، في القفــــر الجديب فـــــوق غصن شـائك غيــر رطيب
أخــــذت مـــنه شمـــال وجنـــوب يتبـــاكى بلبـــل الـــوادي الغـــريب
كـــان من قبـــل محـــباً مغـــرماً علمــــته الحبّ أمـــــلاك السّـــما
فـــلـــماذا لا يـــرى مبـــتسماً بعـــــد إلا بسمات بقطـــــوب؟
أي قـــلب للمحـــبّ المبتـــلى ضـــيّع المـــاضي والمســـتقبـــلا
ذاهـــل عن كـــل شيء مـــا خـــلا نـــزعـــة من ذلك الحبّ الكئيب
يـــا غريـــباً ضـــاع في أوطـــانه يمــــلأ الصحــــراء من ألحانـــه
نغـــماً يكشـــف عـــن أحـــزانه كلّنـــا مثلك مهجـــور قـــريب

إســأل الأسحــار عـن أحــلامنــا واســأل الظلــماء عـن آلامــنا

قــد نفثــنا السّمّ مـن أقــلامــنا هــو سمّ لا يــداويــه طبيب . .

آهٍ على هـذه الدنيـا المليئة بـالأحزان والكـروب! إن المرء ليصرخ وليبكي ويستغيث، ولكن الصراخ والدموع كلها عقيمة فلا سامع ولا مجيب:

هي دنيـا كـل مـا فيـها شجــون فــاغـضِ عن كل مسـاويها الجفــون

إنما سخطــك فيــها كــالجنــون والتغــابي سلــوة الصّبّ الأرِيب

نـادِ أفــلاك السمــوات العلــى وانــدب الفجــر إذا الفجــر انجلى

وامــلأ السهـــل بكـاً والجبـلا نــادِ! هل من ســامع أو مـن مجيب؟

آهٍ مـن صمــت على الأرض عميــق خـرس الكــون فهــلاّ تستفيق

هــذه الآلام تذكــو كــالحـريق في فــؤاد دَنِفٍ كــاد يــذوب

والهاشمي يقرن الحبّ دائماً بالشجو والألم، فهو يقول في قصيدته «ليلة عاشق»:

أيّها السّــاهــر، مـــا هــذا الأرق لــذكـــرٍ أم بعـــاد أم قلـق؟

غـــرق النــــوّام في ليلهـمُ وتــولاّني هـمّ قــد طــرق

ظلمــة تـأتي وأخــرى بعــدهــا تشبــه البحــر إذا البحــر انـدفق

أنــا في الليل غــريـق، وأرى مــوجــه يسبقني قبل الغــرق . . .

فيك، يــا ليل، مــواعيـد الهوى يتقــاضــاهــا الأسى ممّن عشق

إن فلسفـة محمد الهاشمي في شعـره فلسفة اليأس والشكـوى: فـالإنسانيـة معذبـة والحياة شقيّـة بائسة، والحنـان قد مـات في النفوس، والعدالـة لا مكان لها في الأرض، والدماء تسيل مسيل الأنهر، والنـار والأعاصير تفتك بالأرواح. وهذه قصيـدته «صوت من الإنسانية» صورة مؤسية للبشرية في عصر الحضارة والعرفان، فلنصغِ إليه يقول:

أفي الأرض تبقـى أم الى النجـم تــرفـع نفـــوس لها في الأرض مبكـىً ومجزع؟

لعلّ لها بعد المنيّة رقدة | تخفّف عنها بعض ما تتوجّع
وتنسى بها بؤس الحياة وشرّها | فإنّ حياة البائسين تفجّع
لقد ساءها ما في الحياة وسرّها | لها في الثرى بين المقابر مضجع

ويقول:

تمتعت من نجم الثريّا بنظرة | لك الله، ما هذا الذي أتمتّع!
أحاول أن أرقى إليها بجثتي | وما لي إليها سلّم فيه أطلع
أهيم إذا لاحت بها وبحسنها | ويخفق قلبي كلما هي تلمع
فيا أيّها النجم المطلّ على الورى، | لمثلي أن يثوي بمثلك مطمع
فيا ليت أني قبل موتي صاعد | إليك وأني في بلادك أرتع
وكنت إذا ما جنّ ليل وأشرقت | كواكب في داجٍ من الليل شرّع
نظرت الثريّا ثم أغضيت ناظري | وقلت: ألا ليت المنيّة تسرع
لأنجو من أرض بها الفضل ضائع | وفي أهلها بالشرّ والسوء مقنع
فقد سئمت نفسي الثواء بمجمع | تزيّن فيه المنكرات وتصنع
يذلّ به المستضعفون ويعتلي | به الظالم المستكبر المترفّع.

ومحمد الهاشمي شاعر وطني يجري في عروقه حبّ العراق والأقطار العربية جمعاء، فمن قصائده الوطنية «تحية الشهداء» نظمها في القاهرة وقد شهد بعينيه مصرع شهداء الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ورأى القتلى تتخبّط بدمائها عل قارعة الطريق، فقال:

لا تدفنوا الدم بالتراب فإنّه | يجري لنصر الحقّ فهو مطهّر
بل فاكتبوا منه على أعلامكم | كَلِماً كنيران الغضا تتسعّر
هذا دم الشهداء يهدر فيكمُ | لا تتركوه على البسيطة يهدر.

وقال يذكر المجد العربي الضائع:

نقضت لك الأيام عهدا | إذ كنت للعافين سعدا
إذ كنت تبغي من بغاك | من الندى صدراً وورداً
فأطاعك العصران | والملوان معبوداً وعبدا
وإذا أبيت أبى الزمان | وإن دنوت دنا وجدا
تمضي الحوادث كيفما | مارستها حلاً وعقدا
وتدور بين العزّ والإقبال | إبراماً وردّا
ولقد حميت الملك حتّى | صار للآمال مهدا
ولقد عمرت الأرض بعد | خرابها عهداً فعهدا

وإليك أخلـــــدت الأنـــــام وأعـــــرضت عمّن تعـــــدّى
وعـــــدلت فيما كنت تحكم بينهم فـأصبت رشــــــدا
ومضيت بـــالحكم الـــرشيـــد مـــدىً فما جـــاوزت قصـــدا.
ولقـــد بنيت مفـــاخـــراً شـــمّ الـــذرى وبنيـت مجدا
وعنـت لـك الأقـــــدار إذ ملكـت يـــداك لها مـــردّا
غـــالبت دهـــراً عـــاتيـــاً حتـى تجبّر واستبّـــــدا
فـأضـــاع دهـــرك غـــادراً بك نـــاكثـــاً لك منـــه عهـــدا

ويختتم الشاعر قصيدته بالدعوة إلى النهوض وزرع بذور العزّ لحصد جناه.

ويحبّ الهاشمي الأمثال الشعرية حبّه للقصص المنظومة. فمن أشعاره «الوردة والفراشة» و «القبر والزهرة»، وكلاهما مقتبس عن فكتور هوغو، و «الذئب والحمل» أو القوة والضعف، و «النحلة والجلّنارة». وقصيدة هوغو «الوردة والفراشة» ترجمها شاعر لبنان الدكتور نقولا فيّاض (١٨٧٤ ـ ١٩٥٨) بعنوان (الزهرة والفراشة»، قال:

زهـــرة في الحقـل يـــومـــاً سألـت من فَـــراش الحقل معشـــوقـــاً صغيرا
مـــا الـــذي يلهيك عني جـــاعـــلاً لك كـــالنجم اختفـــاءً وظهـــورا؟
غـــائبـــاً حينـــاً وحينـــاً حـــاضراً مـــالئـــاً نفسي غيـــابـــاً وحضـــورا
أفما أنـــت رفيقـــي في الهوى أبـــداً أرشفـك الثغـــر الطهـــورا
عـــائشـــاً في عـــزلـــة الحبّ معي لا تـــرى إنســـاً ولا تخشى شرورا
قـــد تماثلنـــا جمالاً وسنـىً وتفـــاهمنـــا حفيفـــاً وشعـــورا
ولبسنـــا ثـــوب نـــور واحـــد فكـــلانـــا زهـــرة تسطع نـــورا
لا أرى مـــا بيننـــا فـــرقـــاً، بلى ســـوء حظي جعـل الفـــرق كبيرا
أنـت في الجوّ طليـق وأنـــــا بـــالثـــرى رابطـــة جسمي الأسيرا
كـم سرت نحـــوك أنفـــاسي فلـم تتـــزوّد عطـــرهـــا إلاّ يسيرا
هـــائماً بين أزاهير الـــرّبـى تـــائهـــاً في الجوّ زهـــواً وسرورا
وأنـــا أنظـــر ظلّي دائراً حـــول جسم عـــاجـــز عن أن يـــدورا
وأبيـتُ الليـل أشكـــو وحشتي بفـــؤاد لم يكن عنـك صَبـــورا
ولـــذا تلقى بجفني أدمعـــاً كلما عُـــدْتَ مع الفجـــر منيرا
هـــاجـــري، إن صح عهـــد بيننـــا فـــدع الهجـــر طـــويـــلاً وقصيرا
واتخذ مثلي أصـــلاً في الثـــرى أو أعِـــرْ جسمي جنـــاحـــاً فأطيرا

وقد أضاف نقولا فيّاض تكملة لقصيدة هوغو فأجاب عن لسان الفراشة يخاطب الزهرة قائلاً إنها مفتونة بهواها، متيّمة بحسنها، وبعادها عنها إنما هو سرّ من أسرار الطبيعة، فهي كالريح رسول الهوى تحمل ذرات الغبار الى الأزهار القاصية.

أما شاعرنا الهاشمي فيقول في ترجمته:

فراشة وقعت يوماً على شجر   تفتحت فيه أزهار وأكمام
قالت لها زهرة صفراء ناضرة   وقلبها فيه أحزان وآلام:
لا تهربي وأجيبيني بمسألة   عن حظّنا، وحظوظ الخلق أقسام
شأني وشأنك في أمريهما اختلفا   لغيرنا فيهما نقض وإبرام
تمضين أنت الى العلياء طائرة   ولا أطير ولا لي ثَمَّ إعزام
لقد ضجرت ولكني على ضجري   أحبّ نفسي وما في حبّها ذام
أعيش والناس عني مبعدون وكم   في قربهم علل شتّى وأسقام
أشْبَهتني فلنكن زهراً نطير معاً   لنا بها فوق هذا الروض إلمام
لكن أرى الأرض، والهفاه، تمسكني   والريح تعليك: هذا الحظّ ظلّام
إني سأعطيك من عرفي الجميل لكي   يعطّر الجوّ نشر منه نمّام
لا، لست أعطيك، إن الزهر يصحبني   وأنت يقصيك إنجاد وإتهام
رضيت عيشي وحدي في الرياض أرى   ظلّي وينعشني ضوء وإظلام
وتهربين فتأتين الضياء إذا   رأيت ناراً لها لمع وإضرام
في كل صبح بكائي دائم وعلى   خدّيَّ من عبرات الفجر تسجام
آهٍ لحبّكم الماضي الذي ذهبت   به ليالٍ سعيدات وأيام
خذي، كما لِيَ، جذراً أو هبي ورقي   جنحاً، كما لكِ، والآمال أوهام!

إنّ الهاشمي قد نظم رباعيات الخيام باللغة العربية جعلها خماسيّات واستند في نقلها الى ترجمة أحمد حامد الصرّاف النثرية، لكن ترجمته لا تتّسم بالدقة والسلاسة التي امتازت بها ترجمات عربية أخرى كترجمة الصافي النجفي وأحمد رامي. فمن أمثلة خياميّات الهاشمي:

يا الهي، إذا جنيت فإثمي
يا الهي، على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جرمي

أنا جانٍ رجوت عفواً وصفحاً   منك قد غرّه رضاك فجارا

جيئتي في الدّنيا أذىً واضطراب

وبقـــــائي تحيّر وارتيـــــاب
وبقسرٍ يكــــون منّي ذهـــاب

أيّ قصـــد مــــن جيئـــة وبقـــاء وذهـــاب؟ قــد ضلّت الألبـــاب

من حضيض الثـرى الى حيثُ يبـدو
زحـل كلّ مشكـل فيـــه عقـــد
لاح منـــه في حيلتي لي رشـــد

كـــلّ ســـرّ حلـــلت ثمّـــة إلاّ أجل مـــا كشفتـــه عـــن خفـــاء

لم يــــر الخلـــد واحـــد والسّعيرا
مـن أتـى مـن وراء مـــــوت صغيرا
أفـــزع الموت والـــرجـــاء صـــدورا

نـــازعـت مـــا يغيب عنهـــا ويخفـى غير ذكـــر الأســـماء والأوتـــار

سميراميس

نظم شـاعرنـا الهاشمي ملحمـة شعـرية عن سميراميـس بين الحقيقة والأسطـورة. وسميراميس ملكـة بـابل القديمـة حبيبـة الى الشعـراء، أثيرة لدى رجـال الفنّ، طـرق موضوعها غير واحد منهم. فهذا فولتير ينسج من حياتها رواية مسرحية مأساوية، وبول فاليري يصوغ منهـا مسرحية جديدة، وروسّيني يخرج عنها أوبرا موسيقيـة. وهذا بلند الحيدري صـاحب «خفقة الطين» يقول فيها قصيـدة تعجّ باللذة المحـرّمة والحبّ الآثم واللّظى المخمور والقشعريرة الداجية والضحكة المحمومة المغرية المغرّرة.

ويهيم بالملكـة الأسطوريـة عمر أبـو ريشة شاعـر سوريـة فيستوحي منهـا مسرحية شعرية هي قصة الحب والجمال والطيوف والأحلام، تقول سميراميس في مطلعها:

عبيرك يــــا ليل وهـج الحيـــــاة فــــــــلا تتنفـس على مضجعـي
بعثـت بــــآخـــر مـــا تمتمت شفــــــاه الــــربيـع على مسمعـي
أحـسّ بــــه رعشـــــة في دمـي وحلماً جـــريحاً على مـــدمعـي
ألا أيـن بــــدعــــة حلمـي إذا تــــرنّحتُ بـــالقـــدح المترع
وأيـن الصـــدى لنـــداء الحنين إذا عــــربــــد القلب في أضلعـي
أريـــد. ودوني انهيـــار الفتـــون على كـــلّ ذي هيــــف ممتـــع

أما سميراميس الهاشمي فصحراء ممتدّة الأطراف تكتنفها الواحات والرياض.

ينظر الشاعر الى الوجود قبل الخليقة بمنظـار الأساطير البابلية، فإذا هو فراغ عظيم لا نور فيه ولا ظلام:

قبل خلق السماء والأرض كـــان الأب «أبســــو» هـــو الإلــــه العظيما
و «تيـامـات» الأم كـانت فكـان اثنـان لا مـن ثـــلاثـــة أقنـــومـــا
حين لا ليل في المكـــان ولا يـــوم ولا مجهـــولاً ولا معلـــومـــا
قيل: لا شيء، قيل: سرّ بعيــــــد مـن عماء أن لا نـــــراه ســــديما
عـــدم من وجـــوده وهـــو صفـــر في فـــــــــراغ لا يقبـل التقسيما
أهـــو نفي، وكيف يــــدرك نفي؟ أم ثبــــــــوت، فما وعَـمَّ وفيـمَ؟

ثم كـانت الخليقـة وكـانت الآلهة وكـان الصراع والحرب. وكـانت بعـد ذلك بـابل وحمورابي ونينوس، وهذه سميراميس ترقى العرش فتخاطب شبح بعلها قائلة:

هَـــوِّنْ، وحسبك مني أنني امــــرأة لا يثقل التــــاج أحــــلامي ويلهيني
نـم مطمئنـــــاً فـإنّ الملك يشغلني عـن احتفـــــال بتحسين وتــــزيين
يكفي النســـاء عبير يـــدّهـنّ بـــه، وليس إلاّ عبير المجــــــــد يكفيني
إن الكيــاســـة في الأنثى مظــاهـــرة جمالها تقلب الـــدنيـــا مع الـــدين
حـــوريـــة أنـــا لا غـــول نـــزلت بهم من عرش مردخ[1] ذي الخمسين أو«سين»[2]
ويشهـــــدان بـأني غير قـــــانعـــةٍ حتـــى أرى مصر في ملكـــي الى الصين
فأمـــلأ الأرض مـن حــرب ومن ظفــر ومـن ســــــلام ومـن فتح إلى حين

لكن الدسائس والمؤامرات لا تلبث أن تسري في أروقـة القصر الملكي فيقول الكاهن الأشوري:

إذا سكتــــــــوا فعــن داء دفينٍ وإن نطقـــوا عــــلانيــــةً فهلكُ
يـــداهن بعضنـــا بعضـــاً ويحيى حيـــاة الموت، إنّ الموت تَـــرْكُ
عـــزيـــز النفس ذلّ، وكـل حـــرّ لــــه عيش وراء العـــزّ ضنك
وقيــــد الليث إن يصبرْ عليـــه يحصّ اللبـــــــــدتين ولا يفـكّ
ومـــــا شـمّ الأذى أنـف حَمِيّ ولـــــو أن الأذى ورد ومسـك
ومـن حلم اللبيب مغـــامـــرات تـــدكّ بها الجبـــال ولا تـــدكّ
أرى بشريـــة تـــدمى وهــدر دم حـــرّ على يـــدهـــا وسفك
وقل: كيف الإقـــامـــة في بـــلاد مشقّـــة عيشهـــا معك ودعك
وليس الملك مـن تـــاج وعـــرش وحـــاشيـــة بل الأخـــلاق ملك
صـــلاتك للحســام العضب ديـن وصـــومك عن مـــذاق الـــذلّ نسك

(١) مردخ إلـه بابلي.
(٢) «سين» القمر وهو «ود» عند العرب.

ويحلّ رأس السنة فيهرع أهل بابل للاحتفال بالمهرجان و إقامة طقوس العيد :

صبـــاح غـد عيـــد وجـاءت وفـــوده   ليحتفلـــوا والـــوافـــدون جموع
سما بهم شـــــوق الى أمّ بـــابـل   وغصّـت ديـــــار منهـم وربـــــوع
وصفت جنـــود واستعـــدّت تحيّـــة   فمنهـم سجـــود دونها وركـــــوع
وآلهة في فلكهــــا ووفـــودهــــا   أتـــوهـــا وكلٌّ ســـامع ومطيع . . .
هنـا معـرض الـدنيـا فما شئت فـاقتبس   بـــروعـــاً ، وآيـــات النبـــوغ بـــروع
فهـــذا يـــريك العلم كيف فنـــونـــه   وهـــذا يـــريك السّحـــر كيف يـــروع
وهم زُمَـــرٌ والنـــاس فـــوضـى بأنهم   لكـلٍ الى مــــا يشتهيـــــه نـــزوع
وهــزل وجــدّ بـالسيـوف وبـالقنـا   ووثب وقفـــز تـــارةً ووقـــوع .

تشهد سميراميس مشاهد المهرجان فلا تني تقول :

ســــلام وحبّ أيها البلــــد الخَصْبُ   بحبّك فلتصبـــو القلـوب التي تصبـــو
على خير أرض فـــوقهـــا خير أمـــة   إذا ذكـــرت بـــالمجـد قيـل لها : حَسْبُ
وجنّـــة عـــدن رافـــداهـــا وأرضهـــا   بها النخل والكـــرم المعـــرّش والعشب
جـــــرى كل إقليـم اليهـــــا بمائه   لها الشرق مـن أنهارهـــا ولها الغـــرب
مفجّـــــرة الماءين في كـلّ بقعـــــة   فتروى ويـروي مـا بها مـاؤهـا العـذب
خصـــوبـــة صقع من زكـــاة تـــرابــه   فــلا القحط معهــود عليهــا ولا الجدب
وكـــالتّبر لـــون الماء جـارٍ سبيكـــه   وكنـــز عليهـــا الطين والـــرّمل والتّرب
وغـــاب نخيـل ســابغ الظـل والجنى   وفـــاكهـــة مـــا تشتهـي العين والقلب
ومــا الشهـــد إلاّ تمرهــا لــو تــذوقــه   لقلت : أشهـــد في الكـــوارة أم قسب .

لكن الحياة لا تلبث أن تجور على الملكة فتبدّد أحلامها وتخيّب آمالها ، فتقول :

هــــذه حيرة الحيـــاة انتظـــــار   يُـــذْكـــر المرءَ مـــا يكـــون وَيُنْسي
والأمـــــاني شعـــاعـــــه في سراب   مـن ضيـــــاء على ظهـــــور وطمـس
لا تقل في الغنـــــاء نغمـــة سعـــــد   إن تقـل في البكـــــاء أنّـــــه نحس
هـــذه الشمس كلهـم عبـــدوهــــا   وإذا مــــا انفــــردت أعبـــد نفسي
مَنْ دليلي على ابتكـــار؟ فقـــد طـــال   وقـــــوفي على قـــــرائح دُرْس
خـــذ إليك الكـأس التي لـك واشرب   فلغيري لا ينبغـي أخـــــذ كـأسي
قتـل الأذكيـــــاء مـــــا وجـــدوه   مـن فســـاد على النفـــوس ورجـس
حيّرتها دلائل الحرص حتّـــــــــى   عقـــدت حظهــا بختم وكـــرسي

وكانت الخاتمة، فإذا نينياء الشاب يرقى عرش أمّه وإذا سميراميس الملكة المخلوعة تنسخ حمامة فتنوح قائلة:

صورٌ: برج له سبعته   صور فيها رعايا وملوك
صور: يوم وأمس وغد   وخيال وظنون وشكوك

وتقول القهرمانة ناناث:

آخر العهد كان في باب إيلا   مسحت وجنتيك أنمل بيلا
خلعت ثوبها إليك وطارت   بعد أن مسّها التراب قليلا
وأثارت في الأرض حرباً وسلماً   وأطالت إقامة ورحيلا
الوداع، الوداع، أيتها الأرض   احتملنا عليك حملاً ثقيلا
إفتحوا لي باب السماء فبئست   حفرة الأرض من سماءٍ بديلا

رشيد الهاشمي

محمّد رشيد بن يحيى بن عبد القادر الهاشمي، ولد في بغداد من أسرة فقه وأدب في سنة ١٨٩٦، ودرس اللغة العربية وآدابها على يد أخيه عبد المجيد، ولازم بعد ذلك محمود شكري الألوسي فأفاد من دروسه. ونظم الشعر، ومال الى الأدب، وآمن بالمبادىء القومية والوطنية، فقصد الحجاز سنة ١٩١٦ والتحق بالثورة. ثم شخص الى القاهرة في بداية سنة ١٩١٨ ومضى الى الشام عند تأسيس حكومتها العربية فعيّن كاتباً في المجمع العلمي العربي عند تأليفه سنة ١٩١٩

عاد الى بغداد سنة ١٩٢٠، فعمل في ميدان الصحافة. وكان محرراً لجريدة «دجلة» التي أصدرها داود السعدي (٢٥ حزيران ١٩٢١) وجريدة «الرافدين» لصاحبها سامي خوندة، وقد صدرت في ١٦ أيلول ١٩٢١ ودامت الى ٢٤ آب ١٩٢٢ ونشر شعره وبحوثاً أدبية واجتماعية في مجلة اليقين التي أصدرها شقيقه محمد الهاشمي (١٩٢٢ - ٢٥). ونشرت مقالاته وقصائده في الجرائد العراقية كالعراق والاستقلال والفلاح والصحف الحجازية والسورية والمصرية كالقبلة والعقاب والمقطم والنور ولسان العرب والمفيد والنهضة الخ.

وغالى في تطرّفه فهجا الملك فيصل الأول وحكومته، وكان قبل ذلك قد مدحه حين إعتلائه العرش سنة ١٩٢١، فقال:

رقاك، يا عرش، من ترجو وتنتظر   وزانك العلم لا الياقوت والدرر
يهنيك فيصلُ الجليل ومن   في راحتي جدّه قد سبّح الحجر
يا ابن النبّي، وأحلى الشعر أصدقه،   سيل المفاخر من واديك ينحدر
الخ.

إنتمى الى مدرسة الحقوق في أواخر سنة ١٩٢٢ ومكث فيها أربع سنوات، حتى إذا ما آن أوان التخرّج، أصيب برجّة عصبيّة فأودع مستشفى الأمراض العقلية حيث قضى نحواً من سبع عشرة سنة. وتوفي ببغداد في أوائل سنة ١٩٤٣ وقد رثاه أخوه محمد الهاشمي فقال:

قل لهم: ما وفاء حق الأديب؟ شغلوا عنك بالزمان العصيب
ليس داء الأعصاب فيك عياء بل دليل القضاء عجز الطبيب
كلهم يسألون عنك وعنّي فيقولون للدموع: أجيبي
ما افترقنا، وليس كالموت بُعْدٌ فيه عهد القرب غير قريب
ونحيبي حزن عليك وشعر وغناء الحزين صوت نحيب

وقد طبع ديوان رشيد الهاشمي سنة ١٩٦٤ بعناية عبد الله الجبوري ـ وصدّر بمقدمة لمحمد بهجت الأثري.

وقيل إن رشيد الهاشمي توفي في ١٥ تموز ١٩٤٦ في دار الشفاء ببغداد حيث قضى الـ ١٩ سنة الأخيرة من حياته لمسّ أصابه في عقله.

مأساة النبوغ:

إن النبوغ إذا اقترن بإرهاف الحسّ ورقة الشعور، وامتحن بالحرمان والفشل والجحود، وصهر في بودقة ألم النفس وعذاب الجسم، كثيراً ما يدفع بصاحبه الى الإرهاق العصبّي والجنون أو الموت. وقد سجل التاريخ الأدبيّ فواجع رهيبة في إطار من البؤس والهوان والرثاثة والدم: فهذا الفيلسوف المتصوّف أبو حيّان التوحيدي الذي اتّهم بالزندقة ولقي من العنف والاضطهاد ما حمله على إحراق مؤلفاته واستتاره عن الوزير المهلبي الذي ألحّ في طلبه، حتى مات في نحو سنة ١٠١٠م.

وهذا الشاعر الإنكليزي توماس شاترتون (١٧٥٢ ــ ١٧٧٠)، رأى نور الحياة يتيم الأب، وتمرّغ في أوحال الفاقة والجوع والحرمان، حتى إذا ما غلب عليه القنوط، مزق آثاره المخطوطة وتناول السمّ في ربيعه الثامن عشر. كان شعره يفيض باللوعة والمرارة، دعا القارىء الى البكاء معه، فقد مات حبّه تحت شجرة الصفصاف. كان حبّه فاحم الشعر كليل الشتاء، أبيض البشرة كثلج الصيف، أحمر الخدّ كضوء الصباح، وهو يرقد الآن بارد الجسم في حفرة القبر.

وتصّور الحرية ترتدي معطفاً ملوّثاً بالدماء، وقد كلّل رأسها بالأعشاب البرّية.

وذلك الشاعر الفرنسي هيجيسيب مورو (١٨١٠ ــ ١٨٣٨) قضى الحياة هائماً شريداً، وعمل ممرّضاً في أثناء تفشّي وافدة الهيضة في باريس سنة ١٨٣٢ سداً لرمقه. باع شعره لبعض الناشرين بدريهمات معدودة، وانتهى به المطاف الى ملجأ حيث وجد

الراحة أخيراً في الموت. قال في بعض قصائده: «لقد كنت تلميذاً فقيراً حالماً غريب الأطوار، ولكم نثرت فتات الخبز لطير الشاطىء فقال لي الماء: تمسّك بأهداب الأمل، فإنّ الله سوف يعيد لك خبزك! لكنّ الله لا يزال مديناً لي به».

وماذا عن جيرار دي نرفال الأديب الشاعر (١٨٠٨ ـ ١٨٥٥) الذي هام بفاوست، رواية غوتي، ونقلها الى اللغة الفرنسية بما يكتنفها من سحر و إغراء وظلمات جهنميّة؟ لقد ألم بشيء من العربية والفارسية، وانصرف الى قراءة كتب التصوّف وما وراء الطبيعة، وهام على وجهه في القسطنطينية وربوع سوريّة وجبل الدروز. وزادت هواجسه يوماً بعد يوم، واستغرق في لجج مظلمة بعيدة الغور من الرؤى والآمال، حتى انتهى به المطاف الى مصحّ للأمراض العقلية. وفي مساء يوم قارس البرد، وجد مشنوقاً في شبّاك بعض الدور المنزوية بأحد الأزقة الباريسية. لقد انتحر ذلك الشاعر الذي يقول: «إنني فتى الظلام الثاكل الذي لا يعرف السلّوان، أنا الأمير الذي هدمت قلعته. أفل نجمي الوحيد، وصدح قيثاري بأنغام الشمس السوداء والملنخوليا...».

ومأساة الشاعر الأديب المرهف الحسّ محمد تيمور (١٨٩٢ ـ ١٩٢١) ابن العلامة أحمد تيمور باشا أشهر من أن تعرّف: فقد ضاق ذرعاً ببيئته الأرستقراطية وعزف عن دراسة الطب، ثم احترف التمثيل وخالط المحافل الأدبية والفنية. ألحّ عليه المرض فقال:

هيّئوا لي في باطن الأرض قبرا ودعوني أنام تحت التراب
في ظلام القبور راحة نفسي ومن النور شقوتي وعذابي.

وقضى في ميعة الشباب.

وذلك الشاعر المصريّ أحمد العاصي (١٩٠٣ ـ ١٩٣٠) الذي قال فيه شوقي:

هذا شباب الشعر يلمح ماؤه من جدول العاصي ومن ديوانه

مرض بداء الصدر وعاش متبرماً بالحياة، غلبته هواجسه فأغلق نوافذ حجرته في مسكنه بالقاهرة وصبّ على نفسه مادة كاوية أودت بحياته.

والأديب الغريب إسماعيل أدهم (١٩١١ ـ ١٩٤٠) الذي اختلف الناس في سيرته ودراسته، نبغ في الرياضيات وألف في التاريخ الإسلامي والزهاوي الشاعر والإلحاد ونظرية النسبية وعلم الأنساب. أضناه داء السلّ، فلم يجد خيراً من الانتحار غرقاً في ساحل الإسكندرية اللازورديّ.

والشاعر إبراهيم أدهم الزهاوي (١٩٠٢ ـ ١٩٦٢) رأيناه بيننا غريب الأطوار، عجيب الأخبار، يجمع العنف الى الطيبة وسلامة الطويّة، ويمزج الورع الشديد بالتصوّف والتحلّل، يحبّ الناس حباً أفلاطونياً خالصاً ويحتقرهم ويسيء الظنّ بهم في آن واحد. ولقد طالما شهدناه يجلس في المقهى أو يسير في الشارع متثاقل الخطوات وقد أطلق لحيته وتهدّل شعره على كتفيه ورثّت ملابسه، وهو يحدّق في الفضاء ويرسل الى اللانهاية نظرات شاردة جوفاء.

أما شاعرنا رشيد الهاشمي فقد توفي والده وهو يدلف الى التاسعة، فتركه لرعاية أخويه الكبيرين، ونشأ مرهف الحسّ ثائراً تتوقد بين أضالعه النار وتنطلق في ذهنه العواصف. إنتمى الى الجمعيات السرية الوطنية، وهجا الأتراك مرّ الهجاء. ورغب في التطوّع للقتال في صفوف جيش الثورة الحجازية، ونطق بالشعر الحماسيّ الذي يلهب النفوس ويثير الهمم والعزائم.

رافقته المصائب والأحزان منذ طفولته فخاطبها قائلاً:

نوب الليـــــالي، خفّفـي، أو مـــــا سمعت تأفّفـي؟
رافقتنـي طفـــــلاً، وذا زمـن الصّبـــا، فتخلّفـي.

ثم تمرّد وقال:

زيـــدي عـــداءك، إنّ نــور قــــريحتي لا يختفـي
لا تحسبـــي أني أذلّ ونـــار عـــزمي تنطفي

وعاش رهين أسرين فقال:

بين أسريـن عشت عيش اضطــرار خـاضعـاً لــلأجسـام والأقــدار
تلك للــروح قــد قضت بــالأسـار والأخيرات حيّرت أفكـــاري:
مـــا نجـــاتي، وأين أيـن قـــراري؟

ظلمات الضلـــوع تــزعج قلبي هـي كــالليل لا يضيء بشهب
غير أني لما شعـــرت بحـبّ قلت: رفقــاً بقلب عبــدك، ربّ،
كـلّ حـبّ مخفّـف أكـــداري

آمن الشاعر بالحبّ شعاعاً لمعنى الجمال والخلود، لكن الشكوك ساورته: ما مغزى الحياة، وما الفكر، وما أسرار الوجود؟

يــا نيــامــاً تحت التراب، إلا مــا لا تخبرون عن ســؤالي كــلامــا؟
أضيـــاءاً رأيتم أم ظــلامــاً أم رأيتم في نــومكـم أحــلامـاً؟
لا تنــامــوا، قــد لاح ضــوء النّهــار.

وقد راعه حال أمته وما بلغته من جهل واستكانة فقال:

يــا نــائمين على جــور الهوان، كفى ذلّ يغــادر صــدر الحرّ مــوقــودا
هبّــوا وذبّــوا عن استقــلالكـم بظبىً تخلّف الــدهــر مضنى القلب معمــودا
لا بــدّ للعــرب أن تحيـا بــوحـدتها وأن تـرى تــاجهــا للكف مــوسـودا

وهاج بلابله الليل البهيم فحدّثه قائلاً:

أيها الليـل، يــا أبــا الأسحــار، أيـن زهـــر النجـــوم والأقمار؟

كـــان للبـــدر في ســـوادك ضـــوء ... مـــلأ الخافقين بـــالأنـــوار
كنت، يـا ليل، عبـده، ولقـد كـان ... مليكـاً لـه النجـوم جـواري
كـان يـوليك رحمة وحنـانـاً ... كـان يكسـوك حلّـة الأحـرار

ويشعر، وهو الشـاعر الشابّ الذي لا حـول له ولا طول، كأنـه مسؤول عمّا آل إليه أمر أمته وبلاده، فيقول:

دافعت عن حق قـومي حيث أنهمُ ... قـد قلّـدوني هـاتيك المقـاليـدا
بمنطق تـترك الأسماع واعيـة ... والـروح تطلب مني فيـه ترديـدا
إنّـا لقـوم ورثنـا الفضـل من قـدم ... والحلـم والعلم والإخـلاص والجودا
جَـدّي الـذي قهر التيجـان قـاطبـةً ... وشـاد للعـرب ملكـاً ليس محدودا
إنّـا هجمنـا على كسرى ودولتـه ... وبـدّدت خيلنـا الأروام تبـديـدا

ويعيد النظر في حال بلاده فيصيح:

يـا للـرجـال ويـا للصيـد من مُضَرٍ ... ضـاع العـزيـزان: ديـن الله والحسبُ
أين الحميّـة، بل أين الشهـامـة، بل ... أين الشجـاعـة والهنـديـة القضب؟
أين الأُلَى تـزأر الـدنيـا إذا زأروا ... ويغضب الله والأمـلاك إن غضبـوا؟
بغـداد بـاكيـة، والشـام شـاكيـة، ... والقـدس مـرتهب للشرّ مـرتقب
لا تبخلنّ بـروح أنت حـاملهـا ... فـالموت، يـا شهم، في نيل العُلَى ضَرَبُ

ويغضب أخيراً ويثور فيخاطب ملك العـراق خطابـاً شديـداً ويعاتبـه عتابـاً مراً، فيقول:

يـا لابس التـاج في بغـداد هُنِّيتـا ... بـه، إذا كنت لاستقـلالـه جيتـا
لا يكمل التـاج إلاّ أن يكـون لـه ... جيش يشتّت شمل الـذلّ تشتيتـا
فـزنـه بـالحقّ والعـدل الأعمّ، ولا ... تـرصع لـزينتـه دراً ويـاقـوتـا
واستعمل الحزم وانقـذ أمـة نصبت ... من بعـد نهضتهـا لـذلّ طـاغـوتـا
نحن الـذين بنينـا في جماجمنـا ... عـرش المليك وثبتنـاه تثبيتـا
شيخ الـوزارة ميت لا حـراك بـه ... إن جئت مجلسـه تلقـاه تـابـوتـا

طغت الهواجس على نفس الشـاعر وجثمت على صـدره كـالليل الرهيب، فنـاء بها جسمه الواهن ولم تحتملهـا أعصابه المرهقة. وكذلك ذُهِبَ بلبّه وطـوّح بعقله، وعاش بقيّة عمره في فراغ ذهني، حتى انتقل من ضباب الخبل الى ظلمة الموت.

* * *

في تقرير سرّي للآنسة جرترود بل كتبته إثر زيارتها لسورية في تشرين الأول ١٩١٩، حين كـان الأمير فيصل يرأس الحكـم في دمشق، قالت إنها استـدعت رشيـد الهاشمي

الذي كانت تعـرفه في بغداد، ثـم مضى فجأة الى الشام. قال لها إنه فـرَّ من العراق بعد اتهام أخ له بالاتصال بالأتراك.

قالـت المس بل إن رشيد وأخـاه محمد الهاشمي منـاوئان بشدة لـلأوروبيين، ورشيد يعمل سكرتيراً لياسين الهاشمي. وقد خطب قبل أسـابيع فقال إن دجلة ستجري دماً، ولم يصرّح أهو دم عـربي أو بريطاني. وعلى أثـر ذلك أمر علي رضا بـاشا الركـابي حاكم دمشق بالقبض عليـه وسجنه أمداً قصيراً. وقـد بدأت علاقـة رشيد بالبريطـانيين سنة ١٩١٦ في البصرة جاءها هارباً من الترك، فمنحه الإنكليز مخصصات الى ما بعد سقوط بغداد.

ولم يحصل بعد ذلك على وظيفة لأن عقله ـ كما قالت المس بل ـ لم يكن ثابتاً وظهر لها كأنه «ضئيل المسؤولية».

إبراهيم منيب الباجه جي

الشاعـر إبراهيم منيب الباجه جي ينتمي الى الأسرة البـاجه جية المعروفـة، وهو ابن أحمد بن محمد سليم بن عبد الرحمن. ولد في بغداد في سنة ١٨٧٦، وأحسن والده تربيته وتعليمه. ثم أدخل إحـدى المدارس الابتدائية عهـداً قصيراً، ووضع بعد ذلك في دائرة تحرير ولايـة بغداد للتمـرّن على الأعمال الكتابيـة (١٨٨٩). وتقدم في سلـك الخدمة، ومهر في النظـم والنثر بـاللغتين العربية والتركيـة. واستقال مـن الوظيفـة سنة ١٨٩٦، وسافـر الى استانبـول، ثـم عاد منهـا واستأنف العمل في دائرة الـولاية (١٩٠٠)، وعيّن أخيراً معاون رئيس التحرير في إدارة الأملاك السّنية.

كـان ابراهيـم منيب من فتيان زمـانـه المولعين بـالخيل واللهو والغنـاء. وقـد أطلق الـرصـاص على بعض شباب الملاهي سنـة ١٩٠٧، فحكم عليـه بـالسجن. وسجّل معروف الرصـافي تلك الحادثة ـ التي قامت لها بغداد وقعدت ـ شعراً في قصيدة رثى بها القتيل وبرّر فعل القاتل، وقال:

قضـى، والليـل معتكـــــــر بهيـم، ولا أهـل لـــــــديـــــــه ولا حميـمُ

وأصدر بعد ذلك جريدة أدبية باسم «الرياحين» في ٢٨ آذار ١٩١٣

واحتلّ الإنكليـز بغداد فعيّن إبـراهيم منيب مفتشـاً في دائرة الشرطة (١٩١٧) أمـداً وجيـزاً، ثـم عيّن كـاتبـاً في وزارة الدفـاع (١٩٢١). وأحيل على التقـاعـد في آخـر آذار ١٩٣٧، ثـم أعيد استخدامه في تموز من نفس العام لعهد غير طويل.

وتوفي في بغداد في ١١ حزيران ١٩٤٨

مؤلفاته وشعره :

وضع رسالتين في «التبصرة لمولعي الخمـرة» و «نزهة الأحداق في مباحث السباق» ، ورسالة ثالثة باللغة التركية عن رحلته الى الإستانة .

وطبع ديوانه الأول سنة ١٩١٣ ، ثم طبع مجموعة ثانية من شعره باسم «زنابق الحقل» (١٩٣٨) .

ويتسّم شعره بالرقّة والسّهولة ، ويزخر بالمعاني التقليدية والأفكار السائدة في عصره ، فقلّما تجد فيه ابتكاراً أو التماعة ذهنية .

نظر شاعرنا الى طاق كسرى فقال :

بنـــــاء شـــــاده ملك كبير ... دعــائمــه العــدالــة لا الصخــور
تســامى مشمخـــراً بـــارتفـــاع ... لــــديــــه كلّ ذي طــــولٍ قصير
كـأني بـــالسماء عليـــه شيـــدت ... كطــاقٍ حــولــه الآفــاق سُــورُ
تفـــــرّد في الفــــلاة ولا أنيـس ... ولا خـلّ لــــديــــه ولا سمير
تعــاجه الـــزعـــازع وهـــو رآسٍ ... كطـــود لا يـــزول ولا يمـــور
فكـم عصر تقضّى بعـــــد عصر ... ومـــا أبلت معـــالمه العصـــور
ومـــا قــد كــان شيّــد فـوق عــدلٍ ... فــلا تبلي معــاليــه الــدهــور

ونزعت به نفسه الى المعالي فقال :

طلبت العلى، لا بـــالحسام المهنّـــد ... ولكن بـــرأي كـــالسّهـــام مســـدّد
فـأدركتــــه حتى ملكت قيــــاده ... وأصبح عنــدي وهـو واحـد أعبـدي
لقـــد رام إذلالي العـــداة بكيـــدهم ... وهيهـــات من إذلال أروعَ أصيـــد
فإني، وإن أمسيت في السجـن غـاربـاً ، ... سأشرق بعـد اليـوم كـالشمس في غـدِ
ولا بأس أن أصبحت كـالسيف مغمـداً ... فكل حســام إن مضى الحرب يغمــد
ومـــا ضرّني سجني وتقييـــد أرجلي ... فعضب لســاني مطلق دون حُسَّـــدي

حدت به تجاربه في الحياة على العزلة والانفراد فقال :

تجرّد مـــا استطعـت وعـش وحيـــدا ... إذا مـــا رمـت أن تحيـــا سعيـــدا
أرى الإنســـان في دنيـــاه يشقـى ... إذا هـــو لم يعـش فيهـــا فـــريـــدا

وقال على لسان طاق كسرى :

يـــــد الأيــــام لم تعبـث بمثلي ... وإن أضحـت دوائرهـــا تـــدور
ولكـن قـــد رأيت العــدل ولى ... وحـلّ محلّـــــه الظلـم الكبير
فملت الى التـــزهّـــد بـــانفـــرادي ، ... ومثلي يفعـل الـــــرجـل البصير

وشعره طافح بالمعاني الإنسانية، فهو يحبّ أمه ويقول:

ولـــدت خليــاً لست أدري بما عنـــدي ولم أدر مـــا همّي ولم أدرِ مـــا قصـــدي
فـأوّل شيء حـلّ قلبـي محبّـــــــة لأمـي التـي لم تنأى عنّـي مـــــا يجدي
يـــلاطفنـي منهـــا حنـــان ولم يكن يقــابلــه مني ســوى الضحك في المهــد
وذاك لـــديها نعمـــة عـــزّ مثلهـــا تـــراقبهـــا منّي ببـــاصرة الحمـــد.

وهو في قصيدته «في سبيل البؤساء» يأسى للبشرية المتألّمة ويقول:

وافى بــــدمع ذارف هتّـــــانِ يشكـــو الـــزمـــان وقســـوة الخلاّن
شيخ مـــلامح وجهـــه دلّت على مـــاضي وجـــاهتـــه بكـلّ معـــاني
وعليـــه أطمار تـــراهـــا رقّعت مـن فقـــره بغـــرائب الألـــوان
يمشي فتـــوقفــه طـــوارىء ضعفـــه متعكّـــزاً عـــوداً من العيـــدان
والـــوجـــه منـه قـــد علتـــه صفــرة تحكي هنـــالـك صفـــرة اليرقـــان

وقف الشيخ يسأل ذليلاً وهو يتضـوّر جوعاً، فأخذه الشاعـر الى داره وأتاه بأطايب المأكل والمشرب. ثم استعلم عن حـاله فقال إنـه عاش ستين عامـاً هانئـاً سعيداً، ثم تـوالت عليـه المصائب، فبـارت تجارتـه وبقي بـلا مال ولا ولـد ولا سكن، ونأى عنـه الصحّاب حتى لقد تمنّى الموت فلم يسعفه الموت:

مـــا لي أرى الإنســـان يقســو قلبـــه تلقـــاء رقّـــة دمعـــة الإنســـان؟
مـــا لي أرى الإنســـان لم يعطف على حـــال الفقير البـــائس الحيران
أُفٍّ لقلـب لم يـــــرقّ لبـــائس لهواً مـن الـــدنيـــا بعيشٍ فـــان

وهو مولع بـالقصص الشعري، ففي قصيدته «إقبال وادبار» يـروي قصة فتاة هيفاء جميلة من الأعراب، نشأت في عز وحشمة بين أبيهـا وأمّها. ثم قضى الأب وقد فتك به خنجـر ظالم شرّيـر أراد خطف فتاتـه. ولم يمض وقت طويل حتى قضت الفتـاة حزنـاً وأسى، فشيّعهـا الشاعـر الى القبر أسيفـاً. وشاء أن يكمـل خطوط المأسـاة فجعل الأم تلقي بنفسها في بئر قريبة من تربة ابنتها، فدفنوا الثلاثة جنباً الى جنب.

إن شعر إبـراهيم منيب يطفح بالألم، لكنـه يذكر أحيـاناً لهو شبابـه وأنسه فيحن الى أيامه السّالفات ويقول:

رعى الله ســاعــات تقضّـت من العمـر بـدجلـة، والأرجـاء تـزهـر بـالبـدر
وزورقنــــا إذ ذاك طيراً تخالـــــه يمــدّ جنـاحيـه مـن الشـوق كـالنّسر
ودجلـــة تجري في مـــذاب مفضّض يمازجـــه ضـــوء المقـــاصير بـــالتّبر
يـــلاعبـــه نفح النسيم فتنجلي مـــويجاتـــه عـن نسج درع من الـــدرّ
ويطـــرب سمعي من بعيـــد خـريـــره إذا انحـط من عـــالٍ الى أسفـلٍ يجري

وتغرق الباخرة «تيتانيك» سنة ١٩١٢، فيتبارى شعراء العراق في رثائها. ويدلي شاعرنا دلوه في الدلاء فيقول:

سرت والبــــدر في أفـق السّماء   يســـاريها بـأجنحـــة الضيـــاء
سبــوح تـــزدري بــالبـــدر زهــواً   منــوّرة بنــور الكهــربـــاء.
ولما أن نــــأت عـــن كــــل أرض   ولم تـــــرَ غير آفـــــاق السّماء
أتـــاهـــا تحت طيّ الماء طـــود   يطـــــوف من الجليــــد على عماء
فشتّت شملهـــا الموصـــول قسراً   الى مـــا غير وصلٍ والتقـــاء
وأغــرقهـا بمن فيهـا ســوى مَنْ   تـــوصّل بـــالسّـــلامـــة للنّجـــاء
وأمسـت وهـي راسيـــة بقعـــر   مـن الظلماء من بعـــد الـــزّهـــاء
على حين الكـــواكـب زاهـــرات   ووجـــه البحـــر يشرق بـــالضيـــاء

وكذلك الحياة الى فناء، والكواكب زاهية والطبيعة ضاحكة:

فــلا عيـــش يـــدوم ولا صفـــاء،   وهـل بعـــد الحيـــاة ســوى الفنـــاء؟

حدثني أحمد حامد الصّراف قال: كان إبراهيم منيب الباجه جي مولعاً بالسباق لا يفوته يوم من أيامه. وكان حلاّقه يشاركه نفس الهواية، فلقيه يوماً في الحلبة وسأله عن الحصان الفائز ليراهن عليه، ودلّه إبراهيم منيب على حصان أو حصانين فلم تصدق فراسته.

وفي صباح اليوم الثاني مضى الشاعر كعادته الى دكان الحلاق وجلس على الكرسي ليحلق ذقنه. وسلّم عليه صاحبه هاشاً باشاً. وشدّ الفوطة على صدره، ووضع على وجهه الصابون ثم قال:

يا أستاذ، لم تصدقني البارحة في ساحة السباق. لقد دللتني على الخيل الخاسرة وراهنت على الفرس «الصقلاوية» التي فازت فربحت مبلغاً جسيماً.

واعتذر الباجه جي بأنه إنّما دلّه على الخيل المعروفة، أما «الصقلاوية» التي راهن عليها ففازت مصادفة، وهو ما يعرف في اصطلاح أهل السباق بـ«فلوك» أي حظّ.

ولم يقنع الحلاق بهذا الجواب، بل ظلّ يجمجم ويدمدم، وصاح: يا غلام، هات الموسى «الصقلاوية» لنحلق وجه الأستاذ. قال ذلك وهو يفرك وجهه بالصابون بحركة عصبية.

وبادر الباجه جي فنزع الفوطة وقام من الكرسي وجرى قائلاً: عفواً، لقد نسيت أمراً مهماً ويجب أن أعود الى الدار. وخرج الى الشارع راكضاً لا يبالي بالصابون الذي يلطخ وجهه.

قال الصراف: رأيته مضطرباً فهدّأت من روعه وقلت له: ماذا دهاك، ولم هذا الخوف؟

فأجاب: رأيت الشرّ في عيني الحلاق وحركاته فنجوت بنفسي. ولو ذبحني بالموسى لرقدت تحت التراب مضرّجاً بدمي، مستعجلاً قدري، مبتدراً منيّتي. وهل كان يعزيني أو يخفّف عني أن يقبض على الحلاق ويحاكم ويلقى به في غيابه السجن؟

من شعر إبراهيم منيب الباجه جي

حماسة لا سياسة:

طلبت العلى، لا بـالحسـام المهنّـد ... ولكن بـرأي كـالسهـام مسـدّد
فـأدركتـه حتى ملكت قيـاده ... وأصبح عنـدي وهـو واحـد أعبـدي
لقـد رام إذلالي اللئـام عـداوةً ... وهيهـات من إذلال أروعَ أصيـد
فإني، وإن أمسيت في السجـن غـاربـاً، ... سأشرق بعـد اليـوم كـالشمس في غـد
ولا بأس أن أصبحت كـالسيف مغمـداً ... فكل حسـام إن مضى الحرب يغمـدِ
ومـا ضرّني سجني وتقييـد أرجلي ... فعضب لسـاني مطلـق دون حُسـدّي
فـإنّ يـراعـي مفلق وفعـالـه ... لـدى الحرب أمضـى من فعـال المهنّـد
وإني بـآرائي على الـرغم منهُـمُ ... بنيت مقـامـاً فـوق نسر وفـرقـد
فإن يقـدروا فليهـدمـوا مـا بنيتـه ... وأنّى لهم لمس الكـواكب بـاليـد
سيعـرفني قـومي إذا سلّ صـارمي ... وراح جـوادي سـابقـاً كلّ أجـود
فـإنّي مقـدام وفـارس نجـدة ... إذا الحرب شبّت كنت أوّل منجـد
وإني كطـود في الثبـات لـدى الـوغى ... وإن مـاد سطح الأرض لم أتميّـد
وإني ذو سلـم لكـل مسـالم ... وحـرب لأعـدائي ولست بمعتـدي
وإني أراعي للصـديـق ذمـامـه ... كـراعي السُّهَى وجـداً بجفن مسهّـد
وإني على عهـد الصـديق محافظ ... وإن خـان يـومـاً لم يخنـه تـودّدي
وإني مقيـل للكـريـم عثـاره ... إذا جـاء في ذنب بغير تعمّـد
وإنّي حليـم دون ذي الجهـل عـالماً ... بأنّي إن أغفـر لـه الـذنب أُحْمَدِ
وهـذا يـراعي نـاطق عـن حقيقتي ... ومـالي سـواه مـن فخـار وسـؤدد

قضى الباجه جي في السجن أعوامـاً حتى أطلق سراحه بعفو سلطاني سنة ١٩١٣ ومما قاله في الحبس عند نشوب حرب طرابلس:

وذي عـزمـات أوقفتـه الموانـع ... فظلّ يـدكّ الأرض وهـو يمانـع
يـروم حـرابـاً بين مشتبك القنـا ... لنصر ربـوع زعـزعتهـا الـزعـازع
فيمنعـه سـدّ فيفـزع صـارخـاً ... وتنهـلّ مثـل السّحب منـه المدامـع
يـروم السُّرى نصراً إليهـا بنفسـه ... ولكنّها سـدّت عليـه الشـوارع
لقـد سـدّهـا كفّ من الـدهـر ظـالم ... فأقعـده عمّا نـوى وهـو جـازع

وقال في السجن أيضاً :

أمـا والـذي في صنعـه حيّر الفكـرا ... لفي السجن مـا ينسي القيـامـة والحشرا
تـرى النـاس فيـه في ازدحـام وضجّـة ... فمـن مـرتـجٍ يسراً ومن مشتـكٍ عسرا
يقـاسـون أنـواع الهوان بمـوقف ... تحكّم فيـه العبـد واستعبـد الحرّا
ولا تحسبـنّ القبر أقـوى مـرارةً ... من السجـن، لا لا والـذي فلق البحـرا

فاضل الصيدلي

الشـاعر فـاضل حامـد المعـروف بالصيـدلي، ولد في الموصل سنـة ١٨٨٢، وتعلّم الصيدلة في استانبـول دار الخلافة. ودرس اللغات العربية والتركية والفـارسية والكردية وشدا شيئاً من الفرنسية.

وقد عيّن صيدلياً في نجد، ثم عاد الى العراق، فأسندت إليه وظيفة كتابية في بغداد، واختير من بعـد مديـراً لبعض نـواحي قضاء سنجـار. وعيّن في المعهـد الوطني مفتشـاً صحياً في الموصل، وعمل صيـدلياً في الجيش في الموصل وبغـداد وكركـوك والسليمانية، حتى استقال في سنة ١٩٢٧ وعيّن كاتباً للضبط في مجلس الأعيان (١٩٢٨)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٣٣ وعـاد الى الموصل ملازماً للعزلـة، منصرفاً الى الشعر والأدب حتى توفي فيها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٩

مال فاضـل الصيدلي الى الشعر يافعاً. وأصـدر في سنة ١٩١١ كرّاساً بـاسم «بدائع الأفكار» باللغتين العـربية والتركية. ونشر ديوان شعره في دمشق بعنوان «هـدية الأحرار» (١٩٢٧)، ونظم بعـد ذلك شعراً كثيراً لم ينتظم في مجمـوعة. وكـان له شعـر غزليّ كثير أحرقه حين اعتنق مذهب التصوّف.

قـال فيه إبـراهيم الواعظ: «تعـرّفت بـه فعرفت فيـه الروح الأبيّ والـوطني المجاهـد والأديب الكامل والشاعر الذي أخلص لأمته ووطنه إخلاصاً منقطع النظير».

وقال عنه ذو النون أيّوب: «. مـؤمن متديّن الى حدّ التعصّب، متزمّت متمسّك بالقوالب الأخلاقيـة تمسّكاً لا يقبل تأويلاً ولا تعليلاً، كاره للتجديـد الذي يجد فيه كل الجراثيم التي سبّبت انهيـار هـذا المجتمع وتفسّخه السيـاسي والاجتماعي والأخـلاقي، وذلك طبيعي جداً عنـد من حبس نفسه في داره بعد أن يئس من إمكان تبـديل الفاسد وتقويـم ما اعوجّ من أمر هذا البلد».

وقـال محمد تـوفيق حسين أستاذ التـاريخ العربي في جـامعة بيروت الأميركيـة: «ولم يسعد في حيـاته العائليـة فحوّل حياة العائلـة كلها شقاءً. ولم يسعـد في حياته العـاملة فانسحب من معترك الحياة مخفقـاً بائساً. ولم يسعـد في آماله الأدبية. ورأى آمـاله في

الحياة وآراءه الدينية والوطنية تتهاوى مندحرة، فحزن وابتأس وعاش شقياً».

وقال مجيد شوقي البكري في تقديم ديوانه «هدية الأحرار»: «فهو لم يكتب إلا ما شعر ولم يعرب إلا عن هاجس، وما انقاد في كل ما كتب، (اللهم غير الغزل والنسيب اللذين هما مسرح الخيال وفاكهة الشعراء) إلا لإحساسه وقلبه السليم. وليس له رائد إلا الإخلاص، ولا قصد إلا وجه الله وخدمة الوطن والدين فالأخلاق فالانسانية».

شعره

كان فاضل الصيدلي من أوائل شعراء الموصل الذين تأثروا بالنهضة الأدبية الحديثة، فترك الأساليب القديمة وسار على نهج الزهاوي والرصافي وحافظ وشوقي وأندادهم. وقد نظم في المواضيع الوطنية والاجتماعية، واستنهض الهمم المتقاعسة، ووصف الأدوية والقطار والسيّارة والسينما وكرة القدم. ووضع الأشعار الروائية على لسان المعتصم وموسى بن نصير والمقوقس صاحب مصر والأرمانوسة وعمرو بن العاص وغيرهم من الشخوص التمثيلية.

وقد عدّ الصيدلي رسالة الشعر رسالة خلق وهداية فقال:

ألا إن شعراً ليس يدعو الى هدى فذلك شعر لا يقام له وَزْنُ

لكن بيانه كثيراً ما يقصر عن شأو شعراء النهضة الحديثة البارزين.

رأى أهوال الحرب العظمى التي فتكت بالبشرية سنة ١٩١٤ فقال:

لقد فاجأتنا بالمصائب والردى ليالٍ تردّت بالمكايد والغدر
فليت الذي قد حلّ فينا من العنا بأعدائنا، بل بالليالي وبالدهر
فيا ليت شعري، ما يكون مصيرنا وماذا لنا قد أضمر الدهر من نُكُرِ؟
فإن كان خيراً فالمراد، ولم أخل، وإن كان شراً فالزمان أبو الشرّ
وإنّا لفي يوم تشيب لهوله نواصي الرزايا السّود لو أنّها تدري
وإنّا بهذا اليوم في وسط لجّة فإمّا الى قعر وإمّا الى قفر
وإمّا حياة بعد موت مريئة وإلاّ فمن قبل الممات الى القبر

وأنكر على الإنسان عدوانه على أخيه الإنسان وخوضه غمار الحرب الطاحنة فقال:

ألا هل ترى الإنسان قد فقد اللُّبّا إذ اختار غير الخير واستهل الصّعبا
طغى فبغى واستبدل الغيّ بالهدى فجرّ على أبنائه الويل والكربا
لماذا، لماذا ذي الرجال تطاحنت، وما ذنب هاتيك النساء التي تُسْبَى؟
لِمَ البغي والعدوان في غير طائلٍ؟ ألا شاه وجه الحرص كم أمّة أصبى.

ونعى على المجتمع ضعة الأخلاق ورواج النفاق فقال:

شكـــوت لصـــاحب إدبـــار حظّي ... لـــدى أهل الـــزمـــان، وكـــان حـــاذق

وقلت لـــه: اهـــدني، جـــوزيت خيراً، ... الى نهج السلـــوك، فقـــال: نـــافق!

فجئت الســـوق، ســـوق العصر، أبغي ... نفـــاقـــاً أشتريـــه ولـــو بـــدانق

رأيت النـــاس قـــد حـــامـــوا عليـــه ... جميعـــاً بين مسبـــوق وســـابق

فلـم أظفـــر بشيء منـــه، لكـن ... تيقّنـت النفـــاق اليـــومَ نـــافـق

وقد آمن بالعزة، والإباء والكرامة، فلنستمع إليه يقول:

إنما العيش عـــزة وإبـــاءُ ... وعلى العيش دون ذَيْن العفـــاء

والـــذي يبتغي الحيـــاة صفـــاءً ... ليس تطفي أوامـــه الاقـــذاءُ.

فحيـــاة الانســـان علم وعـــز ... وحيـــاة الانعـــام تبن ومـــاءُ

ومـــا لـــذّة الحيـــاة في مـــذهبـــه؟

لـــذة العيـــش صحـــة وشبـــاب ... واقتنـــاع مع التقى وكتـــاب

وكفـــاف وكـــفء زوج لهـــا مـــن ... نعمـــة العلـــم والخـــلاق نصـــاب

وقد هوى الشعر فقال:

إني ليطـــربني السماع فـأسكـــر ... ويـــروقني نظـــر الجمال فـأشعـــر

ويميل قلبي للغـــرام مع الصبـــا ... فـأروح نشـــوانـــاً بـــه أتبختر

فـــالشعـــر لهوي والمحـــاسن لـــذتي ... والصـــوت كأسي لست عنـــه أصبر

فـأظل أشـــدو كـــالهزار مغـــرداً ... بـــرقيق وصف كـــالمدامـــة يقطـــر

ودعا الى العلم والنهوض فقال:

طـــلول العلـم والعـــصر الخـــوالي ... ويـــا عهـــد المفـــاخـــر والمعـــالي

ألا يـــومـــاً لنـــا بـــين الليـــالي ... رجـــاء في تـــلاقِ كـــالمحـــال

فيرجع فيـــك جـــيد العيـــش حـــالي؟

وصـــالاً منك، يـــا علم، جـــديـــدا ... وعـــد عَـــوْداً ولا تَعـــدِ الـــوعـــودا

بحقـــك لا تضع فيـــك النشيـــدا ... وبـــدّل نحس طـــالعنـــا سعـــودا

فنـــدرك صبحنـــا قبل الـــزوال..

بهجرك شرقنا أمسى ظلاما ... وأضحى الغرب فيك لنا إماما
مشينا القهقرى ومشى أماما ... ويا ليت اقتدينا حين قاما
لسعي فيه قد بلغ المعالي.

متى هذا العراق يقرّ عينا ... ونجلو عن نُهانا فيك رَيْنا
فبادر قبل أن يُقضى علينا ... جعلتُ بذمّتي إن عدتَ دينا
بأن أقضي بخدمتك الليالي

هام الصيدلي بحبّ وطنه وقومه فندب تأخرهم وطلب لهم اليقظة والمجد والحرية والعلى، ونظم في ذلك قصائد كثيرة. قال:

أيشرب الغير بردأ من مواردنا ... ونحن نشربها حَراً وغِسْلينا؟
أعيذ قومي، وقومي من عرفتهُمُ، ... من أن يساموا على الإذلال توطينا
يا آل يعرب، نَهْضاً للرجوع الى ... عهود مجد لنا أضحت تنادينا
لقد كفانا رقاد ملء أعيننا ... فإنّ هذا التواني كاد يُرْدينا
واهاً لأيامنا الغرّ التي سلفت ... متى تقرّ بلقياها مآقينا؟

وقال:

وطني، كيف، والحبيب حبيب، ... لك أسلو أو عن هواك أتوب؟
كيف أنسى منك الأيادي وفضلاً ... له منّي بكل عِرْقٍ دبيب؟
كيف أجفوك، والجفاء عقوق، ... وأنا في حمى ثراك ربيب؟
وطني، أنت ملجأي وملاذي ... وشفائي في علّتي والطبيب
عقدت بينك الولاء وبيني ... فطرة حرّة ودين صليب

وقال نادباً:

تولّت عن حِمانا المكرُماتُ ... فلا صدق هناك ولا ثبات
وساد على النفوس هوى الأعادي ... لحبّ الذات، فلتهنا العداة!
تعالى الله، يا قومي، لماذا ... وحتّى مَ التهاون والسّبات؟
هدمتم مجد آباءٍ مَشيداً ... فمن يبني وقد عدم البناة؟
بنوكِ، بنوك، يا أوطان، خانوا ... فمن يحمي إذا سرق الحماة؟
لقد عاد العراق غريب قوم ... فلا أهل تقيه ولا رعاة
وأضحى العرب عُرْضة كل رام ... وأمسى العرب ليس بهم رماة
وصار الشرق مطمح كلّ عين ... ولا عين تردّ ولا رُقَاةُ

بمن تثق المواطن بعد هذا | وقد خانت بذمّتها الثقات؟
فلا تذكر أباة الضيم يوماً | لدى ضيم فقد رضي الأُباة

وقد بكى شاعرنا الحق الهضيم فقال:

قضى الحقّ إلا ما به يُتمطّق | وأخلق ثوب العدل أو كاد يخلق
فلا العهد مسؤول ولا الشرط أملك | ولا الوعد مفعول ولا القول موثق
يقولون: نبغي الحقّ، والفعل عكسه، | فقلت: كذبتم، ها هو الفعل أصدق
يقولون: نقضي العدل، والنقض ظاهر، | ولو سكت الأشهاد فالحال ينطق
وما رزىء الأقوام تالله رُزْءَهُمْ | بموت حقوق دونها النفس تزهق

***

الشقاء والصيدلي:

وسم الشقاء شاعرنا الصيدلي بميسمه، فرافقه رفقة العمر وناء بأثقاله وأوصابه. ولقد وصف الشاعر الفرنسي ألفرد دي فني (١٧٩٧ ــ ١٨٦٣) Alfred de Vigny الشقاء في قصيدة له فقال:

«يجوس الشقاء خلال المدائن الباهتة، وقد لاذ بأذياله شبح الانتحار العاقّ، يرقبنا على عتباتنا الوجلة طالباً فريسته.

فيسمع الشباب المنغمس في ملذّاته ويتأوّه ويذبل ريعانه، ويهبط الشيخ الى قبره كما تسقط أوراق الشجر، وقد حرم الجذوة التي تنعشه وتغذّيه.

«أين المفرّ؟ لقد جلس الشقاء ذات يوم على عتبة داري، وأنا أحمله منذ ذلك الحين في غضون أيامي المكفهّرة.

«تلك أجنحته المفجعة تطبق عليّ كالرداء القاتم، في وهج الشمس وغيابة الدياجي وفي كلّ صقع ومكان. تلفّني ذراعاه الجشعتان بآلامهما، وتشهر يداه الذّكناوان المدية على فؤادي. . »

ونظم الشاعر الإنكليزي توماس غراي (١٧١٦ ـ ١٧٧١) Thomas Gray نشيداً الى الشقاء، فخاطبه قائلاً:

«أيها الشقاء، ذو الحول والطول، مروّض القلوب البشرية، يا من يخيف الأشرار بسوطه الحديدي وساعته الرهيبة ويبتلي الأخيار الطيّبين. . ».

ووصفه بأنه يربط بسلاسله المتجبّرين فيذيقهم طعم الألم ويترك الطغاة لابسي الأرجوان يئنون، وقد عصرت الغصص أرواحهم عصراً، لا يرحمهم أحد في وحدتهم القاسية.

ثم يبتهل الشاعر الى ربّة الشقاء ويسألها أن تسبغ على قلبه الرّقة لا الجروح والكلوم، وأن تـوقـد شرارة النّبل المنطفئـة في أعماق ذاته، وأن تلقّنـه المحبّـة والصفح والغفـران، وتستلّ شوائبه ومعائبه ليعرف نفسه رجلاً.

أمّا شاعرنا الموصلي فتغنّى بالبؤس والشقاء في أكثر من قصيدة. قال:

خلقـت، ويـــــا ليـت لم أخلـق، لكـل شقـــــــــاء، ومـن للشقـي؟
تطـــاردني عـــاديــــات الخطـــوب ولـــــو أنني لــــــذت بـــــالأَبْلَـقِ
سئمـت الحيـــــاة وعـبء الحيـــــاة وصرت مـــــن الموت لا أتّقـــــــي
حيـــــاة مضـت كلّهـــــا مُـــرّةً وهيهـــــات تحلـــــو بها قـــــد بقي
فحظي استعـــــار ســـواد الشبـــاب ولـــــون ضميري دهـى مفـــــرقـي
شبـــــاب تـــــولّى بـــــلا طـــــائل وغصـن تـــــدلّى ولم يـــــورق
ولكنّما أثقلتـــــــــــه الهمـــــــوم فـأوهـت قـــــواه فلـم يبسـق.
ولي طـــــــالـع أيـن وجّهتـــــــه أبـى أن يعـــــــــــود ولم يُخْفِـقِ
وأحـــــلام ســـــؤل تعلّقتهـــــا ولكـــــن بها الكـــــفّ لم تعلـــــق
وليـــــس طِماحـــــي لمال ولا منـــــالٍ لـــــه لست بـــــالشَّيِّـق
ولكـن لما لم يَحُمْ حـــــولـــــه ســــــــواي وفي العصر لم يَنْفُـق
ونُصرة حـقّ وقـــــــوم وديـن وخُلْـق أراه على مَـــــــــزْلَـق

وقال:

سئمت حيـــاتي بعـــد فقـد شبــابها ولـــو تشترى بـــالموت كنت أبيعهـــا
حيـاة الفتى عــام بــه الصيف والشّتــا حـــروراً وبـــرداً والشبـــاب ربيعهـــا
إذا مـــا انقضى عهـد الشبــاب تقلّصت ظـــلال حيـاة ثـم أقـــوت ربـــوعهـــا
على أنني مـــا فـــزت في لـــذّة الصبـــا ومـــرّت حيـــاتي بـــالهمـــوم جميعهـــا

وقال:

يـــــا عيش، إنك نُكـــــرُ فهـل لـــــذنبك عُـــــذْرُ؟
إن لم تـكُ الموت حقـــــــــاً فـأنـت منـــــــه أَمَـــــرُّ
إن كـــــــان بعضـك خيراً فـــــإنّ جلّـــــــك شرّ

وقد رأى النحس حتى في طلعة القمر، فقال:

أطلّ علينـا البـدر جـذلانَ ضـاحكـاً يبشرنـــا بـــالنحس والـــويل والشَّقَـــا
فـلا كنت، يـا شهـر الفجـائع، طـالعـاً ففيك قضـت آمـــالنـــا ولـك البقـــا

ساء ظنّه في الناس والإنسانية فقال:

بلـــوت النّـــاس حتى ســـاء ظنّي ... بكـل النـــــــاس حتى فيَّ نفسي
وعـــاشرت الأنـــام فشبت غماً ... لما قـــد مـــرّ من عجب بـــرأسي
وكـــدت أمـــوت من أسف وحـــزن ... ومـــــا أغنى التصبّر والتأسّي
وصرت أودّ لـــو آنست جنـــاً ... وأنفـــر وحشـــة من كل إنْسِي
وأخجل مطـــرقـــاً لّما أراني ... بأن القـــوم من أبنـــاء جنسي

لقد ساء ظنه حتى في نفسه، وقال نظير ذلك محمد رضا الشبيبي:

كلّنـــا يطلب مـــا ليس لـــه ... كلّنـــا يطلـــب ذا حتّى أنـــا

وضجّ الصيدلي بالشكوى من سقوط الأخلاق وموت الفضيلة وانتشار الرذيلة فقال:

هـوت رفعة الأخـــلاق للهوّة السّفلى ... فيـا ويح قـومي للـرزيّـة، واويـلا
أضلّـوا طـريق الحق والـرشـد حينما ... أحبّـوا على بـاقي الثنا عـرضاً يبلى؟
أضاعـوا نُهاهم مـذ شروا بالهدى الهوى ... وبـالجهل بـاع العلم أكثرهم جهـلا
وعن كـرم الأخـــلاق زاغـوا، فما ترى ... لها أثـــراً في العصر فعـــلاً ولا قـــولا

حتى يقول:

وإني لأزري بـــالحضـــارة عنـــدمـــا ... أراهـــا أذاعت بيننـــا الغشّ والغـــلاّ

وقال في قصيدة أخرى:

مـــات الـــوفـــاء وخـــانت الإخـــوان ... وتلـــوّنـت في طـــورهـــا الأزمـــان
وتقلّبـت ظهـــــراً لبطـن مثلـــــه ... أهـل الـــــزمـــان فـإنّهم أقـــران
لهفي على خـــالي العصـــور وأهلهـــا ... مـــا كـــان أعلى شـأنـــه الإنســـان!

وقد بلغ من ريبته وسوء ظنّه أنه حذّر القمر قبل أن يغزو الإنسان القمر، فقال:

إن رمت تسلم فـــاغـرب، أيّها القمـر، ... فقـــد نـــوى لك شراً، ويحك، البشر
جاســوا خـلال نـواحي الأرض قـاطبـةً ... فـدمّـــروهـــا وظنـــوا أنهم عمـــروا
واليـــوم مـــدّوا شبـــاكـــاً للسماء لكي ... يـــرمـوك في شرك الأنكـــاد، فـــالحذر

وقال:

ليلي وليلك، يـا بـدر الـدجى، سهـر ... هـل أنـت مثلي معنًى، أيها القمـــــر؟
هل غـــازلتك لحاظ الغيـــد من بُعُـــدٍ ... فـــراح يعبث فيـك الكحـل والحَوَر؟
أم قـــد دهـــاك هـوى الغـزلان أم سلبت ... قـــرارك الـــوجنـــات البيض والطّـــرر؟
أم هـــاج وجـــدك ألحان البـــلابل في ... ريـــاضهـــا أم شجـاك العـود والـوتـر؟

أم أنت تعشق مـن ذي الشهب جـاريـة وحـــال بينكما التغـــريـب والسفـــر
أم أنـت مثلي من الأيـــام في نكـــد فصرت تطلـع حينـــــاً ثـم تستتر

وكـذلك نرى شـاعرنـا قد افتقـد البهجة والهنـاء ولم يجد صديقـاً يبثّه ألمه وشجـاه، فخاطب القمر وباح له بأسراره:

هيهـات، يـا بـدر، مـا ليلي كليلك في صفـــو، ولكـنّ ليلي كلّـــه كـــدر
أبيت منفــــرد الهجـــران محتجبـــاً، وأنت حـولك تـزهـو الأنجم الـزُّهُـرُ
وأنـت تمرح في عليـــاءَ واسعـــة وإنني رهن ضيـق فيـــه أنحـــدر
وإن هـــوى لـك نجم بـتَّ مكتئبـــاً، فما أقـول وفي قـومي هـوى القَـدر؟

أحبّ الصيدلي التمثيل المسرحي فقال:

إنّ للماضين روحــــــــاً تنجلي مــــــا لها غيب وإن هـم غُـــيّبوا
إن للغيـــــــب لمرآةً بها يُجْتلى منــــــــه الحجـى والأدب
وهـي التمثيـل والفـنّ الــــــذي ليـس عنـــه غــــائب يحتجب
فهـي من جـــدّ علــوم وحجى مــــا بها هـــزل يُـــرى أو لعـب
وهـي النـــزهـــة للنفـس، بها يُجتنـى أنـس ويحلــــو طـــرب

ووصف كرة القدم قائلاً:

كمـــروق السّهـــام بعـــد السّهـــام وانقضـــاض الـــرجـــوم من أجـــرام
تـــرتقي للفضـــاء شـــوطـــاً وتهوي مثـل صقـــــر يخرّ فــــوق حَمَام
كـــرة حـــوّم الـــرمـــاة عليهـــا تـــرتميهـــا الشبّـــان بـــالأقـــدام
بين خطـف وبين جـــــذب ودفـع واقتحـــام وحملـــــة وازدحـــام
بين كـــــرّ وبين فـــــرّ وزحـف واستبـــاق وخلفـــة والتحـــام
حيّرتها الأضـــــداد أين تـــولّي وجههـــا من تقـــاذف واصطـــدام
ذا ليُمْنَـى وذا ليُسرى وهــــــذا لـــــوراء يـــــرمـي بها وأمـــام
لا تكـــاد الأنظـــار تثبت فيهـــا لمرور بسرعــــــة الأوهـــــام
أو خيـــال الأديـب عنـــد ارتجال أو كطيـــــف الحبيـــــب في الإلمام
أو كقلبـي من الـــوجيـب وجيفـــاً واضطـــرابـــاً لكـــربـــة أو سقـــام

ووصف فوّارة ماء فقال:

وفـــوارة تـــرمـي بقضبـــان فضّـــة من الماء يعلـــو للفضـــا ويـــرفـــرف
ويخرج كـــالسّلك النضيـــد مُسَلْسَـــلاً ويلـــوي كمنثـــور الـــلآلي ويعطف

إذا صعّـدت فهي السّهـام صـواعـداً ... وإن هبطت فهي الشـواقب تقـذف

فما هـو إلاّ اللـؤلـؤ الـرّطب سـاقط ... على الأرض نثـراً حين يهدي فيرجف

وهذا الوصف قد جاء على طريقة ابن المعتزّ العباسي الذي قال في الهلال :

أنظـر إليـه كـزورق مـن فضـة ... قـد أثقلتـه حمولـة مـن عنـبر

وقد سئل ابن الـرومي لِمَ لم يبلغ في تشبيهاتـه مبلغ ابن المعتز، فأجاب : واغـوثاه! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك إنما يصف ما عـون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أيّ شيء أصف؟

ونظم فاضل الصيدلي في الغزل والنسيب ، لكنه طـوى هذا الباب من شعره في عهد كهولته وعفا عنه ، وكان تشبيبه مصنوعاً لا عاطفة فيها ولا حياة ، فممّا قاله :

واعـدتنـا بـوصلهـا الحسنـاء ... ثـم لم يعقب الـوعـود وفـاء

تصـل الليل بـالنهـار وعـوداً ... فصبـاح يمضي ويأتي مسـاء

ولنـا الـوعـد والـوفـا لسـوانـا ... قسمـة مـا قضى بها الإفتـاء

نحن همنـا بحسنهـا فحـرمنـا ... ثم فـازت بـوصلهـا الـرقبـاء

وأتت مـن تشـاء قـربـاً ولقيـا ... وكـذا تمنـع اللّقـا مـن تشـاء

أنفتنـا وآلفـت بهواهـا ... لأنـاس مـا هـم لها أكفـاء

قـاضي الحبّ، هل يجوز لـديكـم ... مثـل هـذا؟ إذن فبئـس القضـاء

أنـا أهـوى والـوصل يجنيـه غيري ... فعلى العشـق، إن يكـن ذا، عفـاء

وقال :

يـا حمى ليلى، ويـا أهل الحمـى، ... كيف ليلى، هـل تـراعـي خلّتي؟

قـاتـل الله وشـاة بيننـا ... فلكـم قـد سلبـوا من نعمـةِ

ليـت ربي في الهوى أوقعهـم ... ليروا كـم للهـوى مـن غصّـة

لـوعـة الـوجـد وتبريح الهوى ... ولظـى العـزل وحـرّ الغيرة

وتصـاريـف زمـانٍ لم يـزل ... كـلّ يـوم بـارزاً في محنـة

وقال :

أمـن الحور أم ظبـاء الفـلاة ... أم سراج يضيء في الظلمات؟

غلط القـائلـون عنهـا فتـاة، ... أيّ شيء يعنـون؟ أيّ فتـاة؟

هـي شمس، وفي الملاحـة بـدر، ... وهي الـريـم، وَيْكَ، في اللّفتـات

ودعـا حسنهـا الأنـام ينـادي : ... أيّها النـاس، فـانظـروا معجـزاتي

الموصل والربيع :

وصف شعراء العرب فصل الربيع في مختلف عصورهم وأجاد الأندلسيّون في ذلك أيّما إجادة لجمال رياضهم وسناء طبيعتهم وشغفهم بالماء والخضراء. ولم يقصّر المشارقة في ذلك، فقال صفّي الدين الحلّي :

ورد الربيع فمرحباً بوروده ... وبنور بهجته ونَوْر وروده

وقال أيضاً :

خلع الربيع على غصون البان ... حللاً فواضلها على الكثبان
ونمت فروع الدَّوْح حتى صافحت ... كَفَل الكثيب ذوائب الأغصان
وتتوّجت هام الغصون وضرّجت ... خدّ الرياض شقائق النُّعمان
وتنوّعت بُسُط الرياض، فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
والظلّ يسرع في الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خِطْرة النشوان.

وقد كان لشعراء الموصل القدح المعلّى في وصف الربيع والتمتّع بحسنه ومباهجه، ولعلّ مردّ ذلك لبرد صقعهم، فيقبع أهل الموصل في دورهم طوال الشتاء، حتى إذا ما حلّ فصل الربيع، اكتست البرّية المحيطة بالمدينة والمطلة على دجلة بالورود والأعشاب وخرج إليها أبناء البلد زرافات ووحداناً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، للنزهة والاستجمام واجتلاء محاسن الطبيعة، يعقدون مجالس الأنس واللهو البريء على بُسُط الحشائش السندسية ويتلذّذون بالغناء والموسيقى تحت قبّة السماء الزرقاء بين خرير الماء وحفيف الشجر. وصف شعراؤهم مجالس الربيع ومآدبه وتغنّوا بالطبيعة التي نضت عنها سربال الغيث والصقيع والضباب، كما قال الشاعر الفرنسيّ القديم شارل دورليان Charles D'Orléans (١٣٩١ ـ ١٤٦٥م) في مقطوعته الربيعية اللطيفة :

«إنّ الزمان قد خلع رداءه، رداء الريح والبرد والمطر

وائتزر بوشاح مطرّز من السماء الساطعة الصافية الجميلة.

ولم يبق من حيوان ولا طير إلاّ تغنّى بلغته وصاح.

وقد لبس النهر والغدير والجدول حلّة أنيقة موشّاة باللّجين والنّضار، وجدّد كلّ شيء لباسه. . »

ومن شعراء الموصل المحدثين الذين وصفوا الربيع أحمد الفخري ومحمد حبيب العبيدي. ومنهم شاعرنا فاضل الصيدلي الذي قال في تحيّة فصل الزهور:

بسم الربيع بزهره وورده ... فأقرّ عين الكون عند شهوده
وشبيبة الأيّام عادت غضّة ... فرحاً بإدبار الشتا وجموده

فـالـــر وض يـزهــو في بـديـع حليّـه ... والنبـت يمـــــرح في بهاء بـــــروده
والطير بـــالألحان غنّى مطـــربـــاً ... والـــورد حـــرّك عُـــودَه لنشيـــده
والغصـن والأوراق هـــــذي صفّقت ... واهتـــزّ ذا طـــربـــاً بكلّ وجـــوده
والشمس فـــوق الـــورد ألقت نفسهـا ... شغفـــاً لترشـف من رحيق خـــدوده
والنــرجس الــزاهـي تطلّع شـاخصـاً ... من كُمّــــه بعيـــونـــه وبجيـــده
كبّرت إذ شــاهـــدتـــه متخـــاشعــاً ... متـــواجـــداً بـــركـــوعـــه وسجـــوده

وقال من قصيدة أخرى:

مـــــا لهذا النسيم هـبّ عليـــــلاً ... وأتـى وانيـــاً يجرّ الـــــذيـــــولا؟
ليـت شعـــــري أزهـــــوةً واختيـــالاً ... أم سقـــامـــاً بــه دعـــاه كليـــلا...
إنّ فصل الـــربيع ـــ طـــال بقـــاه ـــ ... لَهُوَ العيش لـــــو يعيش طـــويـــلا
فيـــــه تحيى الأرض الموات فتُـــزهَـى ... فهـــو ينفي العنـــا ويفني المحـــولا
هـــو سرّ الأزمـــان والـــدهـــر، لكن ... غير خـــافٍ معنى بليغـــاً جليـــلا
هـو بيـت القصيـد في العمـر، فـاصـدع ... ثـم رتّل آيـــــاتـــــه تـــرتيـــلا
غـرّة الـدهـر، شـــامـة الحَوْل، فيـه ... عـــاد طـرف الـزمـان أحـوى كحيـلا
مـــا أحيلى الـربيع في العيش، لـو دام، ... وإن كـــان دومـــــه مستحيـــــلا

ثم يقول:

يــــا زمـــان الـــربيـع، أنت شبـــابي ... وشبـــاب الأيـــام جيـــلاً فجيـــلا
أنت أوفى مـن الشبـــاب ذمـــامـــاً ... كـلّ عـــام تـــردّداً ومثـــولا
أنـت تأتي فتـــوسع الأرض خصبـــاً ... ورواءً وبهجــــــة وبقــــــولا

ولئن كان ربيع الموصل فصل السرور والزهـور، إنّ خريفها حزين يحمل النفس على الأسى والانقباض. وقد قال الصيدلي في ذلك:

تســاقطـت الأوراق وانتثـــر العقـــد ... فـلا شـاعـر يهفـو ولا طـائر يشـدو
إذا القيـظ ولّى والـــربيع تقـــوّضت ... خيـــام لـه فـالعيش وجهـه مُسْـوَدٌّ
ويبــدو محيـــاً للطبيعـــة كـــالح ... عبــوس كئيب قـاحـل سبطـه جعـد
ويكشف عن سـاقٍ بـه الـروح حـاسراً ... هـزيـلاً نحيفـاً أو هـو العظم والجِلْـدُ
ويغبّر وجـه الجدّ كـالأرض كـاسفـاً ... فتبكي السّما وجـداً، ومـا إنْ بها وجـد
فـلا الأفـق بسّـام ولا الشمس تـزدهي ... ولا نـــورهـــا فـــوق البسيطـة ممتـد
تـــولّى شبـــاب للطبيعـــة زاهـــر ... يليـــه مـن الثلج المشيب لَـــدُنْ يبـدو

إنّ حياة الشاعر الصيدلي كانت كهذا الخريف الموصلي الذي أجاد وصفه، تناثرت أوراقه وتصوّحت أزهاره وصمتت عنادله بعد التغريد والغناء، فلا عجب أن ودّع الأرض غير مشفق ولا آسف، يرجو في الموت أملاً لم تجد به الأيام.

عرف من أبناء الشاعر فاضل الصيدلي عبد الحق وأكرم.

عبد الحق فاضل

الأديب القاصّ اللغوي الدبلوماسي عبد الحق ابن فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١١ تخرّج في كلية حقوق بغداد، ووظف أمداً في وزارة المالية (١٩٣١) ومديرية الأوقاف العامة. ثم عاد الى الموصل ومارس المحاماة، وكان رئيس تحرير مجلة «المجلة» التي صدرت في تشرين الأول ١٩٣٨

إلتحق بالسلك الخارجي فعيّن ملحقاً في المفوضية العراقية في طهران (١٩٤٥) فملحقاً أول في مفوضية آنقرة (١٩٤٦) فمفوضية كابل (١٩٤٨). ونقل سكرتيراً ثالثاً في طهران أيضاً (١٩٤٩) فسكرتيراً ثانياً في مفوضية روما (١٩٥٤). وأعيد الى ديوان وزارة الخارجية سنة ١٩٥٧ مديراً عاماً للشعبة الشرقية. عين بعد ثورة ١٤ تموز وكيلاً لوزارة الخارجية فسفيراً في بكين (١٩٦٠)، ولما سقط حكم عبد الكريم قاسم فصل من منصبه في نيسان ١٩٦٣

مضى الى المغرب وانصرف الى الدراسات اللغوية. وعاد الى بغداد بعد نحو ٢٠ سنة، وتوفي بها في كانون الثاني ١٩٩٣

أصدر مجموعات قصصية: مجنونان (١٩٣٩) فرح وما أشبه (١٩٤٠) حائرون (١٩٥٨) طواغيت (١٩٥٨). وله أيضاً: ثورة الخيام (١٩٥٢) ٤ نساء و٣ ضفادع (مسرحية، ١٩٦٨) مغامرات لغوية (١٩٦٨) الخ.

الدكتور أكرم فاضل

أكرم فاضل الصيدلي ولد في الموصل سنة ١٩١٨ ودرس في مدرسة الصناعة، وعين معلم مدرسة ابتدائية في بعض القرى. ثم مضى الى بغداد ودرس في كلية الحقوق. وقد أولع منذ حداثته بالأدب الفرنسي المترجم واللغة الفرنسية فدرسها على نفسه. وأوفد في بعثة دراسية الى باريس فدرس الحقوق في جامعتها وحصل على درجة الدكتوراه.

كان حيناً ما كاتباً في محاكم الموصل. وعيّن أخيراً مديراً للفنون والثقافة الشعبية في وزارة الإعلام في العهد الجمهوري فقضى في منصبه أعواماً طويلة، وأشرف على إصدار مجلة «بغداد» بالفرنسية.

أدركته الوفاة ببغداد سنة ١٩٨٧

أصدر مجموعة شعر بعنوان «الكوميديا البشرية» (١٩٤٨). وله كتب منها: مأساة الشعب الجزائري (١٩٦٠). وقد اشترك في ترجمة رواية «الآباء والبنون» لإيفان تورغنيف (١٩٥٠)، كما ترجم الى العربية: يا لحياة المنفى من مهنة شاقة للشاعر التركي اليساري ناظم حكمت (١٩٥٩)، اللقيطة للسيدة لوسيت توفيق (١٩٦١) الحياة في العراق منذ قرن ١٨١٤ ـ ١٩١٤ للسفير الفرنسي بير دي فوصيل (١٩٦٨) أسطورة الشعب المختار (١٩٦٩)، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب للمستشرق الهولندي رينهارت دوزي (١٩٧١). وله أيضاً: تعليقات على لهجة بغداد العربية للويس ماسّنيّون (١٩٦٢).

أكرم فاضل شاعر خفيف الروح إنسانيّ النزعة يرى العالم كله مهزلة، فجعل عنوان مجموعته «الكوميديا البشرية». لكن هذه «الكوميديا» في الحقيقة تخفي في طياتها «دراما» بل مأساة. وأبطال شعره البخيل والغانية والضحية والراقصة والحلاق والفلاح والحمّال والشحاذ والفنانة البائسة، فضلاً عن دون جوان الجاري وراء الحبّ ومحاكمة الهررة والحظوظ بين المعدمين والمتخمين ومهزلة الغرام ودموع البائسين.

خاطب القارىء في مقدمة شعره:

أيها القارىء، هذا ديدني ... فارضَ أو لا ترضَ، فالأمر سواء

وإذا ما هجت أحسنت الى ... شاعر يهوى هياج السخفاء

وإذا لم تستسغ لفظي ولم ... تتقبّل فكرتي دون عناء

فاطرح «الديوان» واعلم، يا أخي، ... أنني لا أستضيف الثقلاء.

كان شاعرنا رقيق القلب يحنو على البائسين ويتألم للمتألمين أشخاصاً وأمماً. وبلغ به الحال أنه كاتب مجلة فرنسية تختصّ بالغجر البوهيميين. وقد نظمتُ قصيدة في الغجر فطلب منّي ترجمتها الى الفرنسية وأرسل بها الى تلك المجلة لنشرها.

قال ذنّون أيوب في مقدمة «الكوميديا البشرية» مقدماً صديقه الناظم إنه «شاب صغير السنّ، رقيق المزاج، تضيق نفسه ويضيق عقله وحسّه بكل ما في الوجود من قيود، فينطلق على سجيّته بعض الأحيان ثائراً متجاهلاً كل عرف وتقليد، ثم ينتبه فجأة كما ينتبه المرء من حلم فيدرك أنه قد اشتطّ في سلوكه، فينكص على عقبيه خائفاً خائباً تعباً. . » ثم قال: «إني أعتقد أن أكرم من أولئك الذين لا يتقصدون أن يكونوا شعراء، ولكنهم يجدون أنفسهم شعراء، فيندفعون مع الشعر محاولين أن يثبّتوا لهم قدماً فيه ويقطعوا شوطاً في مضماره».

وقال إن شعره ليس من النوع الذي يرتفع الى السماء السابعة ليشرف على العالم من عليائه ويعطي نتائج قطعية جازمة في الأخلاق والسلوك ومصير البشرية وعلل العالم،

بل يزحف على الأرض محتكاً بالمخلوقات الزاحفة مثله من حيوان وانسان، فيتبادل معها العواطف والإحساس بل والآراء أيضاً! فما أكثر ما نراه في شعره «مشاهداً» في محكمة عقدت لعقاب القطط أو محامياً عن شحاذ أو متآخياً مع كلب. وهو بذلك صوفي بطبعه، لكن شطحاته مع المخلوق لا مع الخالق.

محمّد علي اليعقوبي

الشيخ محمد علي بن الشيخ يعقوب الحاج جعفر النجفي، الشاعر الخطيب، ولد في النجف في ٢٩ شباط ١٨٩٦، وكان والده الشيخ يعقوب شاعراً (١٨٥٤ ـ ١٩١١)، ولد في النجف وتوفي في الحلة. وقد حقق ابنه ديوانه ونشره سنة ١٩٦٢

وانتقل والده الى الحلة سنة ١٨٨٣ إثر نزاع وقع بينه وبين إخوته على وقف لهم في النجف، وكان لهذا الاغتراب أثر عميق في نفس الشاعر الشيخ فقال:

تغرّبت عن أرض الغريّ، فلم تكن   تقرّ عيوني أو تطيب حياتي
حبست ركابي عندها اليوم بعدما   أذبت عليها النفس بالزفرات
مواطن آبائي بها وأحبّتي،   وفيها مغاني أسرتي وسراتي
فمن تربها أصلي ومبدأ نشأتي،   وأرجو بها مثواي بعد وفاتي

ونشأ الفتى محمد علي في الفيحاء وأخذ عن والده مبادىء علوم العربية والدين، حتى إذا ما أدركته الوفاة سنة ١٩١١، انقطع فتانا الى السيد محمد القزويني الذي أحسن تربيته وتهذيبه. ثم خرج الى قرية جناجة على ضفة الهندية اليسرى واتصل بمحمّد حسن أبي المحاسن وأفاد منه فوائد جزيلة في الشعر والأدب. ولمانشبت الحرب العامة التحق بالمجاهدين في الشعيبة تحت لواء السيد محمد سعيد الحبوبي (١٩١٥). وعاد اليعقوبي الى النجف سنة ١٩١٧ بعدتنكيل الأتراك بقيادة عاكف بك الأرناؤوطي بأهل الحلة، واشتهر خطيباً من خطباء المنبر الحسيني وداعية من دعاة الإصلاح الديني. وظلّ يتنقل بين الحيرة والكوفة حتى استقرّ في النجف، وتولى رئاسة جمعية الرابطة الأدبية فيها في كانون الأول ١٩٣٦ وتوفي بالنجف في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٥

كان الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً مجيداً عرف بقصائده الوطنية التي أشادت

بذكر العرب من الريف والجزائر الى العراق وفلسطين، وله ديوان خاص بمأساة فلسطين. وكان الى ذلك عالماً بتاريخ الأدب، اشتهرت خزانته بما ضمته من كنوز أدبية مجهولة تصدّى لنشر بعضها في أعوامه الأخيرة.

شعره وأدبه:

نشر ديوان الشيخ محمد علي اليعقوبي سنة ١٩٥٧، ومن آثاره الأخرى «البابليات»، وهي مجموعة أدبية تاريخية في ثلاثة أجزاء (١٩٥١ ـ ١٩٥٥). وله «المقصورة العليّة» (في سيرة الإمام علي ١٩٢٦) «وعنوان المصائب» (في مقتل الإمام علي ١٩٢٩) والذخائر (في مدح آل البيت ١٩٥٠) وجهاد المغرب العربي» (شعر، ١٩٦٠).

وقد حقق ونشر دواوين كثيرة، منها: الجعفريات (شعر جعفر القزويني، ١٩٥٠)، ديوان الشيخ عبد الحسين شكر (١٩٥٥)، ديوان الشيخ عبّاس الملا علي (١٩٥٥)، ديوان أبيه الشيخ يعقوب (١٩٦٢)، ديوان الشيخ محمد حسن أبي المحاسن (١٩٦٤)، ديوان الشيخ صالح الكواز (١٩٦٥)، ديوان الحاج حسن القيّم (١٩٦٥) الخ. وترك في خزانته دواوين شعرية أخرى لم يهيّأ له طبعها، منها: ديوان الشيخ مير رشيد الهندي، وديوان سبط ابن التعاويذي، وديوان صادق الفحام، وديوان الشيخ علي الناصر.

وعرف اليعقوبي بارتجال الشعر وسرعة البديهة وحدة الذاكرة والظرف والفكاهة المشوبين بالحشمة والوقار.

ويتّسم شعر اليعقوبي بنزعة إنسانية، فقد نشأ بين الشعب وعاش في أنديتهم وشارك في سرّائهم وضرّائهم، فلا عجب أن رثى لحال فقيرهم ومريضهم وجاهلهم. ومّما قاله في ألم الفقر ووطأة المرض:

يا شعب، ما أكثر هذا العنا ... من هاهنا طوراً ومن هاهنا
قد علقت فيك، ولا منقذ، ... مخالب الفقر وناب الضّنا
خطب عظيم الوقع، لكنه ... يراه من لم يعنه هيّنا
ألمّ كالضيف ثقيلاً، أما ... آن لهذا الضيف أن يظعنا؟
في مدن الشعب وأريافه ... ما شطّ منها نائياً أو دنا
ما أكثر الشاكين، لو أنهم ... تمكنوا أن يطلقوا الألسنا
من يَرَ أهليك وما نابهم ... لم يَرَ إلا منظراً محزنا

وكم لـــذي الفقـــر بجنح الـــدجى | من لـــوعـــة مـــا ذاقهـــا ذو الغنى
مستعـــــذبـــــاً مـن دون آلامـــــه | ورد المنـــــايـــــا، وهـي أقصى المُنَـى
يكتم مـــا فيـــه لفـــرط الإبـــا، | والبـــؤس يبـــدي سرّه معلنـــا.
يـــا مـــوطنـــاً كنّـــا سعـــدنـــا بـــه | دهـــراً فـأضحى للشقـــا مـــوطنـــا،
حملـت أعبـــاء الخطـــوب التي | تكـــاد منهـــا الهضب أن تـــوهنـــا
تئـنّ من سقـم ومـن فـــاقـــةٍ، | هـل غـــايـــة الحالين إلا الفنـــا؟

ومن شعره في رثاء يوسف رجيب:

مـــا مـــرّ ذكـــر أولي المكـــارم والـــوفـــا | ألاّ وكنت لـــذكـــرهم عنـــوانـــا
أولسـت في الأحـــــداث أربـط منهُـمُ | جأشـــاً وأثبت في الخطـوب جَنَـانـــا؟
لـك نفس حـــرّ للعلى وثـــابـــة | تستصغـــر الأهـــوال والحدثـــانـــا
كم مـــوطـن قـــد كنت أشجـع واقف | فيـــه وكـــان سـواك عنـــه جبـــانـــا
لا قستُ فيـك معـــاشراً لم يعـــرفـــوا | للفضل مقيـــاســـاً ولا ميـــزانـــا
العـــابـــدين هيـــاكـــلاً منصـــوبـــة | كـــالجاهليـــة تعبـــد الأوثـــانـــا
جهلـــوا مبـــادئك التي مـــا شـــابها | دنس، فكنـت أجلّ منهـم شـــانـــا
كم محنـــة في الشعـب غضّـــوا دونها | طـرفـــاً وكنت السّـــاهـــر اليقظـــانـــا
فمضـــوا وسلطتهم مضـت في إثـــرهم | وبقيـت أنفـــذ منهمُ سلطـــانـــا
وتـــركت دنيـــا لم تـــدع من وفـــرهـــا | إلاّ الثنـــا والمجـــد والإحســـانـــا

وقال في رثاء سعد زغلول:

يـــا مصر، مـــا لصبـــاح شعبك حـــائل؟ | غـــربت ذُكَـــاك وبـــدر سعـــدك آفل
يـــا مصر، مـــا نـــزلت حِماك كهـــذه | طخيـــاء جـــاء بها القضـــاء النـــازل
عصفـت على مصر فهالـت دهشـــة | هضب الشـــآم لها ومـــاجت بـــابل
مـــا خـصّ هـــذا الـــرزء شعبـك وحـــده | لكنـــه لشعـــوب يعـــرب شـــامل.
فجعـت بنـــوك بمنقـــذٍ ومحرر | وأب يكـــافـح دونها ويـنـــاضـل
ذهـب المؤمّـل والـــزعيـم المرتجى | فـــاستيأس الـــراجي وخـــاب الآمل

حتى يقول:

يـــا قطب دائرة السيـــاســـة كلما | طـــاش الحليم بها وحـــار العـــاقل
مـــا قمت عـن مصر تجادل وحـــدهـــا | بـل عـن جميـع الشرق قمـت تجادل.

إن تمضِ فــالشرف الــذي خلّــدتــه ... بـــاقٍ وذكـــرك في حيـــاتك كـــافل
أو يخلُ منك بمصر أكـــرم منـــزل ... فلك الخواطـــر والقلـــوب منـــازل
ولأن طُـوِيـتَ فقـد نشرت صحـائفـاً ... عنـــوانهن منـــاقب وفضـــائل
خلّفـت بعـــدك أمـــة أيقظتهـــا ... للعـــزّ، ليس بها نـــؤوم كـــاسل
نهضـت بأعبـــاء نهضت بها ومـــا ... وهنـت لها عـن حملهـنّ كـــواهل
مـــا مـــات من بقيت بأنـــديـــة العلى ... تثنـي عليـــه أواخـــر وأوائل

***

ومن لطيف شعر اليعقوبي :

من عـادة النّـاس لـلأصنـام تعبـدهـا ، ... من حطّـة النـفس لا مـن رفعـة الصّنم

ولا أنسى سفـرة لطيفـة الى النجف وربوع الفـرات قمنـا بها في شتـاء ١٩٥٠ برفقـة الصديقين أحمد حامد الصّراف ومصطفى جواد، ثم صحبنا الشيخ محمد علي اليعقوبي الى كـربلاء. كـان الطريق وعـراً غير معبّـد، كثير الغبار تثيره عجـلات السيّارة فيمـلأ الخياشيم ويعلق بالـوجوه والثياب، لكننا قضيناه نستمع الى لطائف اليعقـوبي وبدائعه الشعرية والنثرية، حتى بلغنا مدينـة الحسين ولم نكد نصدّق أننا قطعنا تلك المرحلة ولم نشعر بمزعجـاتها. ولعلّها كانت المرة الوحيـدة التي رضي فيها الصّراف أن يفسح لغيره مجال الكلام فلا يحتكره ويستأثر به على جاري عادته.

إشتهر محمد علي اليعقوبي خطيباً من خطباء المجالس الحسينية، وكان يقيم في بداءة أمره في بلـدة الحيرة المعروفـة باسم «الجعـارة». ثم علت شهرته وانتقـل الى النجف سنة ١٩٢٩ أو بعيـدها وصـار ينافس أبـرز خطبـاء ذلك العهد وهـو السيد صـالح الحلّي. وتطرق جعفـر الخليلي في الجزء الثاني مـن كتابه «هكـذا عرفتهـم» الى ذكر المنـافسة بين الخطيب المخضرم والخطيب الناشيء، فقـال إن نجم السيد صالح بدأ بـالأفول، وبدأ نجم اليعقوبي بالصعود، على الـرغم مما كان يوجهه الحلي اليه من نقـد وتنديد وصراحةً وكنايـة. فقد كان السيـد صالح ـ كما قـال الخليلي ـ سليط اللسـان جريئاً يخشـاه أجرأ العلماء. وكان اليعقوبي مسالماً عفّ اللسان بعيداً عـن اللمز والغمز، ولذلك لم تبد منه ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وإنما كان يظهر عليـه باطلاعه الواسع ووقوفه التام على التاريخ الإسلامي وتاريخ الأدب: فقد كان اليعقـوبي موهوباً، وكانت له ملكات طبيعية ممتـازة نماها وصقلها أبـوه الشيخ يعقوب الـذي كان هو الآخـر من خطباء المنبر الحسيني البارعين.

وقال الخليلي إن اليعقوبي عرف بسعة الاطـلاع والعلم والظرف والأدب وصوغ النكتة وسرعة الخاطر، كما عرف بارتجال الشعر وصناعة التاريخ المنظوم. ويزخر شعره بالبديع من الجناس والتورية والأمثال والتضمين يرسله عفو الخاطر بلا تكلف ولا تعقيد. ومن

طرائفه أنه هجا شاعراً تنقّص المتنبي فقال :

يـا هـاجيـاً ربّ القـوافي «أحمـداً» بلـواذع مـن قولـه وقـوارص
حسبـي وحسبـك في جوابـك قولـه : «وإذا أتتك مـذمّتي من نـاقص»!

ابراهيم أدهم الزهاوي

الشاعر إبراهيم أدهم بن الحاج صالح بن المفتي محمد فيضي الزهاوي، ولد في بغداد في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٣، ودرس في مدارسها الابتدائية ثم حضر دروس عبد المحسن آل بكتاش وقاسم القيسي وأمجد الزهاوي. وانتمى الى جامعة آل البيت وتخرّج فيها سنة ١٩٣٠ وقرض الشعر صبياً، فبرّز فيه تبريزاً حتى لقد أمل عمه جميل صدقي الزهاوي أن يكون خليفته.

كان عنيفاً في وطنيته وتدّينه، غريباً في أطواره، متقلّب النوازع والأهواء، فحفلت حياته بالمآسي والمناقضات والآلام. وقد اشترك مع عبد الستار القراغولي في طبع ديوان صديقهما نعمان ثابت عبد اللطيف باسم «شقائق النعمان» (١٩٣٨) وكتابه «الجندية في الدولة العباسية» (١٩٣٩). ووظف كاتباً في وزارة الشؤون الاجتماعية (كانون الثاني ١٩٤٠) فلم يطق قيد الوظيفة طويلاً وتوفي ببغداد في ١٥ آب ١٩٦٢

ألّف كتاب «إبطال اللانهاية في الفلسفة» (١٩٤٧). وجمع شعره عبد الله الجبوري وطبعه في القاهرة بعنوان «اللهفات» (١٩٦٩).

شعره :

له شعر وطني واجتماعي متين، شديد اللهجة.

فمن شعره الوطني :

لنـا مثلها للغـاصبين سـواعـد فما بـالنـا عـن مجدنـا لا نجـالـد؟
وأيّ حيـاة هـذه فنلـذّهـا لأيسر منهـا يشتهي الموت خـالـد
وإنّـا لفي عصر تيقّـظ أهلـه فـأدرك معنـى العيـش حتـى الخرائد
فـلا تطمعنّ الغـرب فينـا فنونـه فما هـي إلا رغبـة وعـوائد
لنـا أصلهـا النـامي، وهل من عجيبـة إذا انتقلت منـه إلينـا الـزوائد؟
فنحن الألى لـولا نتـاج عقـولنـا لما كـانت الـدنيـا على مـا نشـاهـد
لئن قـابلـونـا بـالإسـاءة والأذى فما عـرفـت غير العضـاض الأسـاود

جزى الله عنّا الحادثات فإنها … تقارب ما بين الورى وتباعد
فيثبت ودّ بين شعبين خالص … ويمحق ودّ بين شعبين فاسد
فلا يرتجوا من بعد هذا ودادنا … لقد خابت الآمال والترك شاهد
خرجنا عليها وهي منّا قريبة … إن اختلف الأصلان فالدين واحد
فهل وضعت أغلالها عن رقابنا … لتخلفها أغلالهم والمقاود؟
فأين ادّعاءات لهم يدّعونها : … أتلك ثعابين وهذي قلائد؟

ومنه :

يا بني العرب، والحروب سجال، … والليالي بمن تحطّ تقوم
وحدوا وحدوا الصفوف ولا تستـ … ـصعبوا السهل فهو خلق ذميم
لا تميّزكم الديار ولكن … لغة الضاد والنّجار الكريم
فهي لولا تخاذل السائسيها … لم يفرّق ما بينها التقسيم

وقال :

أنا الداعي الى أمجاد قومي … أذكرهم عهود الأوّلينا
وأدفع عنهم طعن الأعادي … فأترك شلو طاعنهم طعينا
أعدّد منهمُ بيض الأيادي … على أهل البسيطة أجمعينا
فكل يد لهم جحدت سنان … تراه بقلب جاحدها مكينا

وقال في رثاء سعد زغلول زعيم مصر:

هي الأعمار أثواب تعار … وأوقات تزور ولا تزار
وأيام تديم النحس حتى … تساوى الليل فيها والنهار
تغير خطوبها في الناس تترى … وما غير النفوس لها مغار

حتى يقول :

كذا الدنيا شؤون الدهر فيها … شؤون في مجاريها بحارُ
لحاها الله لم تترك عليها … مكاناً يجتبى فيه الجوار
فملك العجم مغبّر النواحي … وملك العرب أنذره البوار
فلا أمر الجزيرة مستقرّ … ولا قطر العراق له خيار
ولا حكم الجزيرة في بنيها … ولا في الشام للأحرار دار
فقد أمسوا حيارى في ديار … شعار القاطنين بها الصَّغار

تنيلهـــم ـــ إذا طلبــوا ـــ العـــوالـــي وتخبرهم ـــ إذا سألـــوا ـــ الشّفـــار
وتلـك دمـــــاؤهم نـــــادت نــــزاراً فما لبّت لها الـــدعـــوى نـــزار
ووادي النيــــــل لم يفتـــــأ مضيباً يهدّده إذا وثـب الـــــدمـــــار
وفـــارقـــه الـــزعيم فـــزاد كـــربـــاً على كـــــرب وتمّ لـــــه الخســـــار
سرت بنعيّـــــــه الأنبـــــــاء حتى أذاعتهـــــا المفـــــاوز والبحـــــار
فضّج لها بقـــــــاع الشرق حتى خشينـــــا أن تشبّ بهنّ نـــــار
وقيل: دم الحقـــوق، حقـــوق مصر، أميرَ وسعـــــدهـــــا ذاك المهار
ولـــو غير الـــزمـــان رمـــاه نـــالت منـــاهـــا مـن حشـــاشتـــه الشفـــار
ولكـن دهـــــــره أخنـى عليـــــــه فلم يـــــؤخـــــذ لها فيهنّ ثـــــار.

وكان سيء الظن بـالناس، يراهم يميلون الى الشرّ، يحفلون بـالغنيّ ويظلمون الفقير والضعيف، لا يخضعون إلا للقوة القاهرة ولا يتمسّكون إلا بأهداب الغيّ، ويسعون الى المنافع ويغترّون بـالمطامع. فإذا جـادوا بالمال أو طلبـوا العلم قصدوا التبـاهي والتعالي والتفاخر. وهم يثيرون الحرب تارة باسم الدين وطوراً بحجة نشر العلوم والفنون وإحياء المكرمات وجمع الشتات:

محال، وإن خيـل في الممكنـــــات، ركـــــون الأنـــام الى الصـــالحات
خـــلا نفـــراً شـــذّ في طبعـــه فكـــاد يعـــدّ مـن المعجـــزات
وقـــــــد يخرج الحيّ مـن ميّـت وقـــد يخرج الميت مـن ذي الحيـــاة
فـــرفقـــاً بنفسـك أن تستغـــرّ بماء يســـــاق لأرض مـــــوات
فما النـــاس مـــزرعـــة للصـــلاح ولا معـــدن الفضـل والطيّبـــات

***

كتب إبراهيم أدهم الـزهاوي في سنة ١٩٣٦ كلمـة خطية موجزة يترجم فيهـا لنفسه بضمير الغائب، قال منها:

«إبتدأ ينظم الشعـر وعمره ١٧ أو ١٨ سنة، ولـو قرأ العربيـة قبل ذلك لنظم الشعر قبل هذه السنّ. وهو شديد النقد لشعره، لا يثبت منه إلا ما جزل لفظه وحسن معناه. وينظم في كل زمـان ومكان، وأكثر مـا ينظم في المقاهي، ولا يبـالي بما يكون حـوله من الضجيج، لأنه لا يحسّ بـه أثناء النظم لاستغـراقه فيـه. وهو لا يكتب شيئـاً مما ينظم حتى تتمّ القصيدة، فيكتبها حينئذٍ بنفسه أو يمليهـا على أحد معارفه. وأحب الشعراء إليه من المتقدمين أبو الطيب المتنبيّ، ومن المتأخرين أحمد شوقي، ولا يقدم على المتنبيّ شاعـراً، ويحفظ كثيراً من شعـره، ويعتبره أستاذه. وفي ذاك يقـول من قصيدة طـويلة

ترجم فيها المتنبيّ :

أنت علّمتني نظام القوافي | أنت أعليت في البلاغة كعبي
لم يحل بيننا التراب، وأنّى | للثرى أن يغيب بالمتنبيّ

وهو شديد الولع بمطالعة الكتب القديمة والحديثة، ولا تكاد تراه إلا ومعه كتاب يطالعه، ويرى في ذلك سعادته. وهو لا يحب الظهور ولا يسعى له، لأن حب الظهور عنده رياء، والرياء من أقبح خلائق الإنسان وآلامها، لأنه غشّ، ومن غشّنا فليس منّا. وقد حرق شعره مرة وصمّم على ترك نظم الشعر، فلم يلبث طويلاً حتى عاد إليه، لأن الشاعر غير مختار في نظم الشعر، ولو ظنّ أنه مختار بحسب الظاهر، بل ليس في الكون كله حركة اختيارية إذا أمعنت النظر ولم تنخدع بالظواهر. والنثر عنده أفضل من الشعر، لأنه الأساس الذي قام عليه رقيّ البشر، والله لم يخلق الإنسان إلا للرقيّ، وليس في استطاعة الشعر أن يقوم مقامه، بل متى تورّط في ذلك خرج عن أن يكون شعراً. ويرى أن النثر العربي قد بلغ في هذا العصر شأواً بعيداً من الجودة لم يبلغه الشعر، إلا فيما خلّده شوقي من الآيات البيّنات. ولا يرى في ذلك عيباً على اللغة ولا قصوراً منها، لأن الشاعر من مواهب الطبيعة تهبه متى تشاء، وقد تشحّ الطبيعة بالشاعر النابغ وتتمادى في شحّها أجيالاً كثيرة وعصوراً متطاولة».

قال حسين الظريفي :

« . . والمرحوم إبراهيم أدهم الزهاوي كان معجباً، بل كلفاً، بشعر المتنبّي، فتراه متأبّطاً ديوانه في كل آنائه، وإني لأعجب كيف لم يحفظه مع طول قراءته له، كما كنت قد حفظته في صيف العام قبل الماضي وكما حفظه أخوه عبد الرزّاق الزهاوي.

«إن بين المتنبّي والزهاوي أكثر من شبه واحد، وقد انعكست هذه المشابه في شعر الرجلين. وهي مشابه موروثة لا يد فيها لأيّ منهما. وإن وقائع الحياة التي يمرّ بها الإنسان تتولّى ما انتقل إليه إرثاً من الآباء والأجداد بالصقل آناً وبالطمس آناً آخر، بحسب ما تكون عليه تلك الوقائع من تفاعل مع المواريث تفاعلاً موجباً أو غير موجب.

«وأول هذه المشابه تلك الشخصية القوية التي يتأثر بها القارىء تأثراً يصل به الى عمق الانفعال، فتراه مأخوذاً ببريق ما يقرأه وكأنه يركض به في فهم المعنى الطافي على وجه ألفاظه فهماً مبهراً، ومن ثمّ يكون مؤثراً، حتى إذا تكرّرت النظرة ظهر له في ما يمكن أن يحمل عليه من مأخذ . . . ».

وأضاف حسين الظريفي أن المتنبّي سلك في شعره كله طريق الغوص على المعاني أولاً، ثم إيجاد القوالب الشكلية لها بعد ذلك، مستجيباً فيما قدم وأخّر الى نداء الطبع فيه. وكذلك فعل إبراهيم أدهم الزهاوي، فإنّ المعنى الطافي على وجه شعره يكاد

يخطف البصر. ولكن متى انتهت الهزّة الأولى وأعاد القارىء أو السامع مع النظر في البيت إعادة الناقد الهادىء، تبيّن له أن وراء ما عليه من طلاء ظاهر باهر شيئاً يستوقف النظر. (جريدة التآخي، في ٩/ ٣/ ١٩٧١).

وكتب عبد القادر البراك عن إبراهيم أدهم الزهاوي فقال: «إن الزهاوي الصغير كان من الكتاب المقتدرين وقد تجلّت قدرته الكتابية وأحاطته بالعديد من العلوم العقلية والنقلية في الفصول التي ردّ بها على آراء عمه الشاعر المتفلسف المرحوم جميل صدقي الزهاوي في الفلسفة والفلك والكون وغير ذلك مما تضمّنه كتابه «المجمل مما أرى». كما سبق له أن نشر مقالات في الدفاع عن الشعر العمودي يوم انطلقت الدعوات الى الشعر المرسل والشعر المطلق والشعر الحر في مطلع القرن الحالي، فكان بحق أول المدافعين عن عروض الخليل والذابّين عن اتهامه بعدم وفائه بالتعبير عما استجدّ من أغراض الشعر الحديث. هذا إضافة الى المقالات العديدة التي ناقش بها فيلسوف الفريكة أمين الريحاني حول ما تضمنّه كتابه «قلب العراق»، والمقالات الأخرى في الملل والنحل والمعتقدات والتي يعتبر كتابه «إبطال اللانهاية» المطبوع في القاهرة في أواخر الأربعينات من أهم نماذجها».

هذا وقد جمع عبد الله الجبوري ديوان شعر إبراهيم أدهم الزهاوي وطبعه في القاهرة سنة ١٩٦٩ مع دراسته بقلم الدكتور شوقي ضيف.

عبّاس الخليلي

الشاعر الأديب العراقي المغترب في إيران عباس بن أسد بن المولى علي بن الخليل الطبيب الطهراني الأصل، المتوفى سنة ١٨٦٤ في النجف.

قدم الخليل الذي تنتسب إليه الأسرة الى العراق في نحو سنة ١٨٠٠ ومارس الطب وعمّر زهاء مائة سنة. واشتهر ابنه المولى علي (١٨١١ ــ ١٨٨٠) عالماً زاهداً بلغ رتبة عالية في الاجتهاد وألف خزائن الأحكام وسبيل الهداية وغيرهما من كتب الفقه والأصول. واشتهر أيضاً الشيخ حسين الخليلي الذي انتهت إليه الزعامة الدينية بعد وفاة السيد حسن الشيرازي، وتوفي سنة ١٩٠٨ عن نحو تسعين عاماً.

ولد عباس الخليلي في النجف سنة ١٨٩٦، ودرس في معاهدها، وقرض الشعر وهو شاب يافع. وقد اشترك في ثورة النجف الأولى على الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ ـ وهي الثورة التي قام بها الحاج نجم البقال ــ فحكم عليه بالاعدام، ولكنه استطاع الهروب والاختفاء في الآبار حتى بلغ إيران آمناً. وأقام عباس الخليلي في طهران، وأصدر فيها جريدة «إقدام» الفارسية اليومية، فظهرت أكثر من عشرين عاماً حتى سنة ١٩٤٨ وأبعد عن البلاد الإيرانية سنة ١٩٣١، فجاء الى بغداد وأقام فيها بضعة

أشهر، ثم سمح له بالعودة الى طهران.

وقد وظف في دائرة بلدية طهران، ثم كان وكيلاً لدائرة القوانين في وزارة العدلية فرئيساً لها. وعمل في وزارتي الداخلية والخارجية، ثم عيّن في سنة ١٩٤٨ سفيراً لإيران في الحبشة واليمن، وكان بعد ذلك عضواً في لجنة مصايد أسماك بحر قزوين.

قال حين فرّ من العراق:

رويداً، رجال الإنكليز ورأفةً ... إن اليوم أسرفتم فإنّ لنا غدا.

ثم التفت الى أبناء وطنه يحييهم قائلاً:

يحيّيكم، أهل العراق، على النّوى ... فتى في سبيل المجد أمسى مشرّدا
تحية عانٍ كلما هبّت الصَّبا ... ينوح كما ناح الحمام مغرّدا
إنِ اليوم أطلقت اللسان بحبكم ... فبالأمس عنكم قد سللت المهنّدا

وهو كاتب باللغتين العربية والفارسية وشاعر عربي نشرت قصائده مجلة المقتطف والهلال والعرفان الخ.

ومن شعره بعنوان «الرائد»:

أبثّك ما بي من جوى يقلق الصمّا ... يجيش إذا ما رائد الأمل احتمّا
وأخشى على نفس بجنبك حرّة ... إذا بحثت أن لا تحمل البثّ والهمّا
جوى كلما أخفيته عنك يلتوي ... على القلب صّلاً أرقماً ينفث السمّا
رعى الله قلباً قلّبته يد الهوى ... على الجمر إن سار الظلام رعى النجما
تحيّر بين الحبّ والمجد تائهاً ... فمن جانب عفواً ومن جانب رغما

وقال حين عاد الى العراق سنة ١٩٣١

قبّلت منك بعيني الأرض لا بفمي ... وجفّ دمعي فروّاك الحشا بدمي
عفّرت بالترب وجهي إذ سجدت ضحى ... فناب للسعي رأسي فيك عن قدمي
وكاد ينطق طرفي بالسّلام على ... أرض العراق فهذي أدمعي كَلِمي
ما الدمع واللفظ إلا لؤلؤ رطب ... خلطت منتثراً منه بمنتظم
رضعت فيك لبان المجد من صغر ... فلست حتى الردى عنه بمنفطم..

توفي في طهران في ١٠ شباط ١٩٧٢

وضع مؤلفات عديدة ونقل الى اللغة الفارسية تاريخ ابن الأثير وكتاب «ضحى الإسلام» لأحمد أمين الخ. وترجم الى العربية ١٧ ألف بيت من شاهنامة الفردوسي. ومن مصنفاته: إيران بعد الإسلام، إيران والإسلام، الخ.

وكانت آخر قصائده «اللوح» نظمها قبيل وفاته، قال في مطلعها:

مـــا على الصبح لـــو أزال الإزارا فمحـــا الليـل ثم خـطّ النهـــارا
بمـــداد من عسجــد ويــراع من شعـــاع الشمس استمـــدّ النّضـــارا
وبسفـــــر زمــــرّدي وكـفّ مـــن لجين تنمّـق الأسفــــــارا
هـي كفّ الفجــــرالتـي لاح فيهـــا رمــز خطّ تمحــو بـه الأسحـــارا.

قال من قصيدة نظمها بعد فراره الى إيران سنة ١٩١٨ :

أمـــا وغمام يشبـــه الظلم أســـودا ورعــد حكى قصف المدافع بـالصّـدى
وبــرق يــرينـا ومضــه الحقّ خــافقــاً، فسرعــان مــا يخفى عن الطـرف إن بـدا
وغيث همى هطــلاً يــذكّــرني الــوغى يمثّل رشــاشــاتها تمطــر الــردى
وأفق على فقــد السيــاسـة صـدقهـا جــداداً بمســودّ من الفشـل ارتــدى
وعــاصف ريـح مـرّ كـالموعــد الــذي لنـا ضرب «السكـون» نـاهيك مـوعـدا
وليل هـــو الحكـم الحديــديّ حــالك قضـى لي قهـــراً أن أبيـت مسهّـــدا
يمينـــاً، ولم يقسم فتـى قبل بــالـــذي وصفـت ولكنّـي حلفـتُ تعمّـــــدا
لقــد صبغـت منّـا الــدّمـا كـلّ بقعـة زهت فبـــدت غنّـــاء في أعين العِـــدَى

عبد الكريم العلاّف

الشاعـر الأديب، نـاظم الأغـاني الشعبيـة، عبـد الكـريم بن مصطفى بن سلمان العلاف العزّاوي، كان أبوه مصطفى العلاّف ينظم الشعر وله تواريخ منظومة بحساب الجُمَّل. ولـد في بغداد سنـة ١٨٩٤ ودرس على الشيخ عبد الـوهاب النـائب. ومال الى الأدب ونظم الشعـر منذ فجـر شبابـه، فقـال أولى قصائده في مـدح أستاذه النـائب، ومطلعها:

رعــــى الله صبـاً عنـــّفـــته عـــواذلـــه وشطّت بـــه نحـــو البعـــاد منـازلـــه

وكـان من شعـراء الثـورة العـراقيـة سنـة ١٩٢٠، ألقى قصـائد حماسيـة في جـامع الحيدرخـانة والاجتماعات الـوطنية. ثم فـرّ الى مضارب عشيرته العـزّة وسجن في دلتاوة (الخالص).

وعيّن سنة ١٩٢٦ كاتباً في دائرة المال بقضاء الكاظمية، ثم عمل أعمالاً مختلفة وتولى تحرير مجلة الفنون الأسبوعية (شباط ١٩٣٤).

وقد نظم أشعاراً رائقة لحّنت وغنّيت. من تآليفه: بغداد القديمة (١٩٦٠) الطرب عند العرب (١٩٤٥) الموال البغدادي (١٩٦٣)، نيل المرام في قاموس الأنغام، الأغاني والمغنيات (١٩٣٣) أيام بغداد (١٩٦٩) قيان بغداد (١٩٦٩) مجموعة الأغاني والمغنيات (٢٤ حلقة ١٩٣٥ ـ ١٩٤٦) موجز الأغاني العراقية (١٩٣٠)، قطف الأثمار في الأشعار والأخبار.

من شعره في رثاء شيخه النائب:

تــرحل صــاحب الفضل العميم	وخلّف في القلــوب لظى الجحيم
مضى عنّــا وكــان العيش غضــاً	بجــانب ذلك الفــذّ الــرحيم
ومــادت راسيــات الأرض حــزنــاً	عليــه وقــد هــوت زهــر النجــوم
وقــد فــاضت عليــه كلّ عين	ولم تنجُ القلــوب مـن الكلــوم

حتى يقول:

لقــد عفت الحيــاة، ونحـن فيهــا	نكــابــد لــوعــة العيش الــذميم
وحقّك مـــا الحيــاة حيــاة عــزّ	تطيـب لكـل شيطـــان رجيـم
خيــار القــوم تلقــاهـم نيــامــاً	على مضـض كأصحــاب الــرقيـم
فكيف يطيب عيش في بــلاد	يــدلّ بها الكــريم على اللئيم؟

وقد اشتدّت به الفاقة في أيامه الأخيرة وهدّ جسمه المرض، فاضطرّ أن يمتهن كتابة العرائض في دائرة طابو بغداد سداً لرمقه. ثم عيّن مشرفاً أدبياً لفحص الأغاني بمصلحة المسرح والسينما.

وتوفي العلاف في بغداد في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٦٩

كان العلاف شاعراً عاطفياً، سئل عن رأيه في الشعر الحرّ فقال: «ليس هناك شعر حرّ، فالشعر يلتزم بالقافية والوزن. وهو كما هو معروف ينمّ عن العاطفة والوجدان. وإذا تحرّر الشعر من القافية والوزن فقد أهم ميزاته ولا تكفي العاطفة وحدها لتسميته بالشعر. فنحن نقول أحياناً كلاماً عاطفياً جميلاً بكلمات منمّقة رشيقة، لكنها بعيدة من أن توصف بالشعر».

نظم العلاف مئات الأغاني الشعبية التي انطلقت من حناجر مغنيات فترة ما بين الحربين فهزت النفوس وترددت على الألسنة، وأشهرها: يا نبعة الريحان، خدّري الشاي خدّري، قلبك صخر جلمود الخ. ويصحّ مقايسة العلاف بأحمد رامي شاعر الشباب المصري لولا الفارق الفنّي الجسيم بين مصر والعراق في تلك الآونة.

وقد أعجب العلاف بالملا عثمان الموصلي فسار على نهجه في أغانيه الشعبية.

قال عبد الكريم العلاف من قصيدة له «هيا الى الحرب» في ثورة ١٩٢٠ :

أين أهل الحفاظ، أهل الحميّة | أين أحفاد قادة القادسيّة
أين أبناء يعرب ونزار | أين تلك الشهامة العربيّة
يا أسود العراق، أنتم حماه | من قديم الزمان بين البريّة
لكم في الوغى مواقف حرب | هي كالشمس في النهار جليّة
وثبات في الحادثات وعزم | ونفوس عن الهوان أبيّة
كلما الحرب جاش فيها عباب | خضتم كلّكم عباب المنيّة
كيف تغضون عن إغاثة شعب | مستجيراً يأبى قبول «الوصيّة»
كيف ترضون، يا أباة، وفيكم | رامت الحكم دولة أجنبيّة
حكمت في البلاد ظلماً وقالت: | إن هذي حكومة وطنيّة
آل قومي، هيّا الى الحرب هيّا، | إنّ فيها حياتنا الأبديّة
واملأوا مسمع العداة دويّاً | كدويّ الرعود وقت العشيّة
إنّ عين الإله ترعى حماكم | وتنير المسعى بكل قضيّة

القصص الشعري :

نظم عبد الكريم العلاّف قصصاً شعرياً على منوال معروف الرصافي في «أمّ اليتيم» و «المطلّقة» و «اليتيم في العيد»، وخيري الهنداوي في قصيدته «زينب وخالد» أو «فتاة بغداد وفتاها»، وكاظم الدجيلي في «بوليس بغداد». رسم العلاف في قصيدته «الوحش الكاسر» صورة من صور بغداد في عهد الاحتلال البريطاني، ولم ينس في مطلع قصيدته أن يصف حالته النفسية فيقول:

أرقتُ، وضوء البدر في الليل يسطع | ونجم الدجى سهران والناس هُجَّعُ
تحيط بي الأرزاء من كل جانب | وقلبي على ما حلّ فيه موجّع
كأنّي في دنيا الهموم أراكة | يميل بها عاتي النسيم فتركع
وصرت أناجي الفكر في حال أمّتي | وأحسب أشتات الأمور وأجمع
وطرفي على أطلال بغداد مرسل | سحائب دمع من جفوني تنبع

على موطن قد كان بالأمس آهلاً   وأصبح هذا اليوم والدار بلقع
سمعت به صوتاً على البعد راعني   وأيّ فؤاد بالأسى لا يروّع؟
نشيج له في ظلمة الليل رنّة   كأنّ به سيفاً لقلبي يقطع

قام من فراشه وسار يتحرّى مصدر البكاء، فجاء الى دار خيّم عليها الحزن والكآبة. ووجد فيها امرأة حسناء تبكي بحرقة، وقد أحاط بها فتيات أربع، وفي حضنها طفل ألمّ به الطوى. تقرّب منها يستطلع حالها:

تقرّبت منها، وهي تخشى تقرّبي،   أودّ على أحوالها أتطلّع
وقلت لها: من أنتِ؟ بالله خبّري،   لقد ساءني منك النشيج المرجّع
فقالت: أنا سعدى فقدت سعادتي   ويا ليت لي تلك السعادة ترجع
بكيت على حظي، على ما أصابني،   على بدر عزّ غاب هيهات يطلع

بكت سعدى على قرينها الذي كان ملازماً عسكرياً، دعاه داعي الحرب فودّع زوجه وأطفاله، ومضى يؤدي واجبه في ساحة الوغى، ومات شهيداً يناضل عن قومه ووطنه، مخلفاً أسرته بين فكّي الحزن والمذلّة والفاقة.

وقد دخل الأعداء بغداد عنوة   وصار لهم فيها نفوذ ومطمع
وجاروا علينا واستبدّوا بحكمهم   وخانوا عهود الإتفاق وضيّعوا
وبالأمس منهم واحد حلّ دارنا   يهيم كوحش بالفريسة يطمع
و مال على إحدى البنات بقسوة   فجاذبها بالرغم والبنت تدفع
ولما رأيت الغدر يبدو بوجهه   وقد أوشك الملعون للبنت يصرع
صرخت بصوت من فؤاد مروّع: الينا، الينا أيها الناس أسرعوا
أنادي فلا ألقى مجيباً سوى الصدى   ولا واحد وافى الى الخطب يدفع
وقاومت ذاك العلج في عزم حرّة   فباء بخسران الى حيث يهرع

وأسفت المرأة على ضياع النخوة وصبر القوم على الأذى وانغماسهم في الملاهي والملاذّ وتقويضهم صروح العلم لينشئوا المسارح والمراقص. ولا يبخل الشاعر عليها بالتسلية والعزاء، آملاً أن تكون الحال التي ذكرتها سحابة صيف عن قريب تقشّع، فيرتفع في البلاد علم العرب الميامين، وتزدهر الأوطان وتخضرّ المزارع والمرابع، ليعيش الناس في عزّ ونعمة.

من شعره في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠:

شعب العراق :

لـك الخير، لا راعت حِماك الأجـــانـب ... ولا بلغـت للخصـم فيـك مـــآرب
أبـى الله إلاّ أن تعيش مـــؤيّــــداً ... بـــرغم العـــدى، والله لا شك غـــالب

وقال :

نهضتم، بني قـومـي، الى عـزّكم نَهْضَـا ... وقـوّضتمُ صرح التخـالف والبغضـا
نهضتم إلى استقـلال شعبكـم الـذي ... يكـاد عليـه من يـد الجور أن يُقْضَى
طلبتم حقـوق الشعـب، والشعب قـائم ... على قـدم يبغي التقـدّم لا الفـوضى

عبد الحسين الحلّي

الشاعر العـالم الأديب الشيخ عبد الحسين بن القاسم بن صـالح الحلّي ولد في الحلة سنة ١٨٨٣ ودرس في معاهـد النجف وتصدّى للتدريس بها واشترك في الحركـة الوطنية في النجف سنة ١٩١٨ ـ ٢٠، ثم عيّن قاضيـاً للبحرين، قال في ذلك جعفر الخليلي في الجزء الأول من كتابه «هكذا عرفتهم» :

«لا أدري كيف رضيت (النجف) لنفسها أن تراه يغـادرها الى البحرين بصفة رئيس للتمييز الشرعي دون أن تحرّك النجف ساكناً؟ وهي تعلـم ـ أي النجف ـ أن الشيخ عبد الحسين قد أفنى زهرة عمره في سبيل عزتها العلمية وشهرتها الأدبية. وإني لأذهب الى أن موقف أهل بغداد مع عبـد الوهاب المالكي في القرن الـرابع، الذي حمله ضيق ذات اليـد على السفـر الى مصر والذي اجتمع حـولـه العلماء والفضـلاء ليحولـوا بينـه وبين الهجرة، فقـال أنه لو وجـد من يدفع لـه كيلاً من الباقـلاء في اليوم لعـدل عن الهجرة، فبكى الجميع ولكن لم يظهـر أحد استعداده لسـدّ هذه الخلّـة، أقول: إنني لأذهب الى القول بأن مـوقف بغداد في القـرن الرابع (الهجري) مع عبـد الوهـاب ـ على نبوّه ــ كان ألطف بكثير من موقف النجف مع الشيخ عبد الحسين في القرن العشرين.

وقد أمضـى في قضاء البحريـن نحواً من عشرين سنـة وتوفي بها سنـة ١٩٥٥ وقد قال :

تطلعـــت مــــن المربـــاً ... الى العـــود الى المبـــدأ
وسرّحـت بـــه طـــرفـــاً ... حـــديـــد الطـــرف لا يخسأ
وفكــــراً لم يـــزل يخطـــو ... ولكـــن قلّما يخطـــأ . .

نظم شعراً كثيراً نشر بعضه في مجلة الهاتف النجفيّة وسجل نماذج منه علي الخاقاني في

الجزء الخامس من «شعراء الغريّ». وألّف الحلي كتباً منها: نصرة المظلوم، النقد النزيه لرسالة التنزيه (١٩٢٩) مسائل فقهية (١٩٦٤) حياة الشريف الرضيّ (١٩٦٨) الخ.

***

روى جعفر الخليلي أن عبد الحسين الحلّي رشّح قاضياً شرعياً، لكن زعم أنه أخفق في الامتحان وعيّن بدلاً منه الشيخ مهدي سميسم. وزار هذا الأخير الشيخ جواد الشبيبي في أثناء ذلك، فقال الشبيبي وهو لا يدري أن سميسم قد حلّ محل الحلي: حسناً فعلت الحكومة، فإني لا أجد برهاناً أكبر على غباوتها وتحيّزها من رفض تعيين رجل فاضل كالشيخ عبد الحسين وترشيح حمار لا يدري أي طرفيه أطول ليحلّ محلّه.

فامتقع وجه مهدي سميسم وظهر عليه الاضطراب والخجل وقال: أؤكد لكم أنني رفضت قبول القضاء لولا إلحاح وزارة العدلية وإصرارها.

قال عبد الحسين الحلي يحيّي النجف:

حيّ أوطاني اذا سعدت ... بالتحايا الغرّ أوطان

وأصيحاباً عهدتهمُ ... وهم في الله إخوان

لهم في كل مكرمة ... أثر بالفضل ملآن

كيف يخفى فضلهم، وله ... بينهم من لطفه شان؟

جعفر نقدي

الشيخ جعفر محمّد تقي نقدي القاضي الشاعر الأديب، وهو جعفر بن محمّد بن عبد الله النقدي من أسرة تنتمي الى ربيعة، ولد في العمارة سنة ١٨٨٥، ودرس الفقه والعلوم العربية والدينية. وقد عيّن قاضياً للعمارة في حزيران ١٩١٩، وكان عضواً في مجلس التمييز الشرعي الجعفري، ثم تولّى القضاء الشرعي في كربلاء (كانون الأول ١٩٣١)، وعيّن بعد ذلك قاضياً في البصرة (حزيران ١٩٤٥)، واعتزل الخدمة سنة ١٩٤٧

توفي سنة ١٩٥١

نشر علي الخاقاني جانباً من شعره في الجزء الثاني من «شعراء الغريّ». ووضع جعفر نقدي مؤلفات كثيرة، أهمها: الإسلام والمرأة (١٩٣٠) الحجاب والسفور (١٩٣٠) أباة الضيم في الإسلام، تنزيه الإسلام (١٩٤١) الدروس الأخلاقية (١٩٣٨)، ذخائر العقبى، زهرة الأدباء (١٩٣٨)، زينب الكبرى (١٩٤٧) ضبط التاريخ بالأحرف (١٩٤٧) نزهة المحبين في فضائل أمير المؤمنين (١٩٥٠) وسيلة النجاة في شرح الباقيات

الصالحات لعبد الباقي العمري، الأنوار العلوية (١٩٥٨) تاريخ الإمامين الكاظمين (١٩٥٠) غزوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (١٩٦١) فاطمة بنت الحسين (١٩٦٤). وحقق ونشر كتاب تدابير المنازل أو السياسات الأهلية للرئيس ابن سينا (١٩٢٩).

قال جعفر الخليلي: والشيخ جعفر نقدي عالم فقيه كان لفتاواه في أحكام القضاء حين كان يشغل القضاء الشرعي أثر كبير في التيسير. وكان من كبار العلماء في تاريخ الأدب العربي، وهو بعد ذلك من الشعراء المعروفين في عصره.

كان لجعفر نقدي مطارحات شعرية مع محمد مهدي الجواهري الذي خاطبه بقصيدة مطلعها:

مرّ النسيم بريّاكم فأحيانا ... فهل كذكراكمُ في القلب ذكرانا؟

فأجابه جعفر نقدي:

لو كان يألف قلب الصبّ سلوانا ... ما بات يصلى بأيدي الشوق نيرانا
أو لم يكن ذاب وجداً في محبّتكم ... لما تعذّب بالأشجان ألوانا
حمّلتموه هموماً لو تجشّمها ... ثهلان دكت على الغبراء ثهلانا
مقدّمات على دعواه أنتجها ... قياسها مدمع الأجفان برهانا
إنسان عيني جرى دمعاً فأغرقني ... وربّما أغرق الإنسان إنسانا.

وقال الجواهري:

أنا مذ همت فيكم كان دأبي ... إنّ ما تشتهوه يحمله قلبي

فأجاب نقدي:

يا أخلاّي في الحمى، أي وربّي ... أنتمُ في الحياة منية قلبي
بهواكم أنست لا بسواكم ... ولكم في الوداد أخلصت حبّي.

وقال الجواهري:

الله يصحب بالسلام مودّعي ... عجلاً و إن أخنى عليّ بعاده

فأجاب نقدي:

أحبابنا، بعض العتاب لواجد ... شوقاً للقياكم يحنّ فؤاده
مهما تشبّب في الغريّ فأنتمُ، ... يا ساكني أرض الغريّ، مراده

قاسم الشعّار

القاضي الفقيه الشاعر الشيخ قاسم الشعّار، ولد في الموصل سنة ١٨٨٧ . وكان أبوه الشيخ محمّد ضياء الدين الشعار القادري الحاتمي عالماً شاعراً ناثراً، ألف كتاب «السعادة» المطبوع في استانبول سنة ١٨٩١ ، وتوفي في تموز ١٩١٢

درس قاسم الشعار على أبيه وغيره من علماء الموصل وتصدّى للتدريس سنة ١٩١٠ وعيّن قاضياً في المحاكم الشرعية في شباط ١٩١٩ ، وأصبح قاضياً في يعقوبا (أيلول ١٩٢٥) والموصل في كانون الثاني ١٩٣١ ، فكركوك فالموصل ثانية (آب ١٩٣٧) فالبصرة (أيار ١٩٤٢) فكركوك (شباط ١٩٤٦)، فالموصل أيضاً حتى اعتزل الخدمة في كانون الأول ١٩٤٩

توفيّ في ٨ شباط ١٩٥٥ وكان شاعراً عالماً، وضع تصانيف في الأصول والفرائض والفقه والتصوّف .

محمّد رضا الخطيب

الشاعر محمد رضا الخطيب الذي اشتهر بقصيدته في هجاء الطبيب، ولد في بلدة طويريج المعروفة بالهندية على الفرات سنة ١٨٩٣ ، وهو محمد رضا بن هاشم الموسوي، واتصل بآل القزويني فتأدّب عليهم، ونظم الشعر فأجاد فيه وأحسن .

كتب عنه عبد القادر البراك الذي عرفه حقّ المعرفة فقال : « . فرأيت أن أردّ بهذه الكلمة المحضة الى الأذهان صورة ذلك الشيخ الذي كان يضطرب في الحياة، فلا يشعر بوجوده أحد لإيثاره الدعة ولطول الكبت الذي أقعد همه عن كل طائلة يكسب من ورائها الراحة والاطمئنان. . » .

وكان الخطيب برماً بمحيطه الضيّق، فكان يزور بغداد بين الحين والحين فيلتقي بأدبائها ويحضر ندواتها . وقد حظي بتقدير الزهاوي الذي قال فيه الخطيب :

تنتاب نفسي النائبات فتلتوي ... لكن بقربك تستعيد جمالها

وخاطب محمد رضا الخطيب معروفاً الرصافي بقصيدة قال منها :

لك في القريض مواقف مشهودة ... في الشرق هزّ الغرب صوت دويّها
وسياسة كفكفت من غلوائها ... وجعلت علياها على سفليّها
وكأنني بك قد رفضت بأن ترى ... متربعاً يوماً على كرسيّها
ولو أنها قد أنصفتك لأصبحت ... ولك التصدّر في رفيع نديّها

فأجابه الرصافي قائلاً :

إني لأشكــــر من محمـــد الـــرّضــا
شعــراً ذكـرت بـه زمـانـاً قـد مضى

شعــراً غــدوت على جـريـر فـاخـراً
فيـه، ورحـت عن الفـرزدق معــرضـا

قـــد دبجّتـــه يـــراعـــة لمحمــــدٍ
أخـذت تقيم مـن القـريض مُقَـوَّضـا

هـي في التفنّـن ريشـــة لمصـــوّر
ولـــدى القـــراع هـي الحســـام المُنْتَضَى

لــو كــان في كفّ الــرضيّ نظيرهــا
حسـد الـرضيَّ بها أخـوه المرتضى.

وقد توفي محمد رضا الخطيب في مسقط رأسه في ٩ شباط ١٩٤٦. ونشرت نماذج من شعره في «بابليات» محمد علي اليعقوبي (١٩٥٥). وألف: «الخبر والعيان في أحوال الأفاضل والأعيان» (في مجلدين).

هجاء الطبيب

فكّـــر لنفسك، أيها الــــدكتــــور،
إن كـــان ينفـع قـــاسيـــاً تفكير

أصبحت تحكـم بـــالنفــوس فمـوتها
وحيـــاتها أبــــداً عليك يــــدور

يمسي الفقير يئـنّ مـن آلامــــــــه
ليـــــلاً وليلـك ضـــاحـك مسرور

لا أنـت تـــرحمه وليس يجيبــــه
مـــال ســــوى كفّ إليـك تشير

متـوسّــداً حسك القتــاد ومــالــه
منــه فــراشـك سنـدس وحـريـر

بــــدمـــائه أبـــواب قصرك صبّغت
وعلى الجماجـــم أُسِّسَـــتْ لـــك دور

كـم بـــائس هــــدمت بظلم داره
كيما تشيَّـــــد للطبيب قصـــــور

بـك يستجير ولا يجار فعنـــــد مـن
يشكـــــو إذا كــــان المجير يجور

أمقطّـــراً مــــاء الشراب وكـــان من
عبرات ذاك البـــــائس التقطير.

تـــالله إن شهـــادة طبيـــة
صـــدرت بحقك كلهـــا تــزويــر.

قلـب الغنـيّ تعيره سمّاعـــــــة
وتصـمّ أذنـك إن أتـــــــاك فقير

وإذا دعـــاك أخـــو الثــراء لــداره
تسعـى كأنـك خـــادم مأجــــور

وإذا جفـــــــا أكـل الشعير حماره
وعـــــــراه مـن أكـل الشعير شخير

أصبحت بيطـــاراً لــــه ومضمّـــداً
وحـــداك نحـــو عـــلاجـــه التـدبير

والبــــائســـون إذا أتـــوك فحظّهم
مــــن لطفـــك الإزراء والتحقير.

وأخـــوك عـــزرائيل أنـت وكيلــــه
فينـــا وصهـــرك منكـــر ونكير.

أمقصّر العمــــر الطـــويل، وسعيــه
عنـــد الحكـــومـــة صـــالح مشكـــور

بـــاعُ المحـــاكم للبريء ينـــالــه
عسفـــاً وأمـــا عنـك فهـــو قصير

وسلمت من وخـز الضمير لأنـه   مـن أيـن للـرجـل الخؤون ضمير؟

وهي طويلة اكتفينـا منها بالأبيات المتقدمة. ومن الطريـف أن الشاعر جعفر الحلّي ابتلي بطبيب نجفي اسمه صادق فقال يهجوه:

في كـلّ شيء صـادق   إلاّ إذا جـاء اليـه العليـل
يقـول: هـذا داؤه قـاتـل   ويـوجـب الإفطـار لا عن دليـل
ليس لـه في الطـب شيء سـوى   نسبتـه للشيخ مـرزا خليـل

والمرزا خليل طبيب نجفي شهير طهرانيّ الأصل.

عبد الوهاب الصافي

الشاعر القاضي عبد الوهـاب الصافي ابن عم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ينتمي الى الأسرة النجفية المعروفـة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٩٩ ودرس في معـاهدها. وكلّف في أثناء ثورة العشرين بالإشراف على الأسرى الإنكليـز والهنود في الجعارة والنجف تحت إمرة عبد المحسن شلاش (آب ١٩٢٠).

كان أحـد مؤسسي جمعيـة الرابطـة سنة ١٩٣٢ وتولّى رئاستهـا. ثم انتمى الى سلك القضاء (٢٨ كانون الأول ١٩٣٦)، فعيّن قاضياً شرعياً للبصرة (أيار ١٩٣٨) فالناصرية (١٩٤١) فالنجـف (آذار ١٩٤٢) فالبصرة ثـانية (كـانون الثـاني ١٩٤٣) فبغداد (آب ١٩٤٤) فالعمارة (أيار ١٩٤٥) فالنجف (حزيران ١٩٤٧).

واعتزل القضـاء سنة ١٩٥٠، وخوّل ممـارسة المحامـاة. ثم وظّف في مديريـة ميناء البصرة حيث قضى عدة سنين.

وهو شـاعر أديب، يحسن اللغة الفـارسية وقد تـرجـم عنها روائع من شعر شعـرائها نظماً.

أخبرني عبـد الـوهاب الصـافي أنـه اعتـزل القضاء قبل أن يكمل المدة التي تـؤهلـه لاستحقاق راتب التقاعـد، فتشبّث للعودة الى الخدمة الحكوميـة، وعيّن موظفاً في إدارة ميناء البصرة على عهد وزير المواصـلات والأشغال عبد الوهاب مرجـان. ولم يعهد إليه بعمل ما، بل أعطي كرسياً ومكتباً في غرفة واحدة مع موظف مرهق بالأعمال يشتغل ليلاً ونهاراً لإنجاز مهامّه. فقال الصافي له: لا يصحّ أن نجلس في غرفة واحدة، أنت تعمل كثيراً وأنـا عـاطل لا أدري كيف أقضي سـاعـات الـدوام. فأعطني جـزءاً من عملك لأساعـدك على قدر إمكـاني. فأجابـه: وهل تعرف اللغـة الإنكليزيـة أو تعلم أوليّات شؤون الملاحة الفنية؟ إذا كنت تعرف شيئاً من ذلك فهلّم ساعدني.

ومضى الصافي إلى رئيس الدائرة وقال له: أعطني عملاً أستطيع القيام به، فلا يصحّ أن أقبض راتباً ولا أنجز عملاً. وبعد لأي عهد إلى الشاعر الصافي بمديرية زراعة الميناء، وكلّف بالإشراف على تنظيم الحدائق والبساتين، فصار يعمل ليل نهار ولا ينجز مهام وظيفته. فقال: ألا يوجد شيء وسط؟ فإما أن تبقى عاطلاًوإما أن تشتغل آناء الليل وأطراف النهار؟

وعيّن اللواء مزهر الشاوي الجندي الشاعر بعد ثورة تموز ١٩٥٨ مديراً عاماً للميناء، فأصبح عبد الوهاب الصافي، على ما حدّثني به، سكرتيراً شعرياً له ينظر في منظوماته.

توفي عبد الوهاب الصافي في بغداد شيخاً هرماً سنة ١٩٨٩

الشيخ محمد حسن حيدر

محمد حسن حيدر ابن الشيخ باقر بن علي بن محمد علي حيدر من أسرة معروفة في سوق الشيوخ بالمنتفق ومن رؤساء قبائل الأجود. ولد في سوق الشيوخ سنة ١٨٨٨، وكان أبوه من رجال الدين جاهد في الشعيبة في بداية الحرب العظمى، ثم مرض ونقل الى بلده حيث توفي سنة ١٩١٥

درس محمد حسن العلوم العربية والدينية وحاز على مكانة روحية وأدبية، ونظم شعراً نشر أغلبه في مجلة العرفان وجريدة دجلة والهاتف والغريّ ومجلة الاعتدال. واشترك في الحركة الوطنية سنة ١٩٢٠ فلما استولت العشائر على بلدة سوق الشيوخ في إبّان الثورة (آب ١٩٢٠) عهد إليه بإدارتها.

إنتخب نائباً عن المنتفق في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) لكنه استقال. وانتخب بعد ذلك نائباً عن المنتفق في مجلس النواب سنة ١٩٢٨ ـ ٣٠و١٩٣٣ ـ ٣٤و١٩٣٤ ـ ٣٥، فنائباً عن العمارة ١٩٣٥ ـ ٣٦، فنائباً عن المنتفق أيضاً في شباط ١٩٣٧و١٩٣٧ ـ ٣٩و١٩٣٩ ـ ٤٣ و١٩٤٣ ـ ٤٤. وانتخب نائباً ثانياً لرئيس مجلس النواب في ٥ تشرين الثاني ١٩٤٠

عارض المعاهدة العراقية البريطانية في المجلس التأسيسي عند المذاكرة فيها (١٩٢٤). وقال: إن إعطاء زمام البلاد للأجنبي خيانة، والخيانة خسران الدين والشرف والعيش الحرّ. واضطر بصفته نائب رئيس مجلس النواب في عهد حركة رشيد عالي الكيلاني (نيسان ١٩٤١) الى دعوة المجلس للانعقاد واختيار الشريف شرف وصياً على العرش في محلّ الأمير عبد الإله. فلما قضي على الحركة وعاد الأمير الى بغداد لوحق الشيخ محمد حسن وأهين، فاعتذر بأنه كان مرغماً في فعلته غير مخيّر. وبقي منكسر النفس مكسوف الخاطر حتى أدركه الموت في بغداد في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٤

له مراسلات شعرية إخوانية مع إبراهيم الواعظ والملاعبود الكرخي والشيخ عبد الغني الخضري وغيرهم. ونشر شعراً كثيراً في جريدة دجلة الصادرة في بغداد سنة ١٩٢١ ـ ٢٢، منه:

هي أمّة العرب التي نهضت، وقد ... رفعت بنهضتها منار جلالها
نهضت بعبء المكرمات فأحرزت ... عليـاءها بجلادها وجدالها
حتى أشادت وحدة عربية ... في أسد غابتها وفي أشبالها
نهضت فنالت دولة عربية ... قومية قد شيّدت برجالها
نهجت بمنهاج الفخار فخلّدت ... عزاً لها يبقى الى أجيالها
ما كان لولا الإتفاق تنال ما ... رامت بمبدأ أمرها ومآلها
ما كان لولا الإتحاد بسعيها ... تحظى بسؤددها وباستقلالها
سل أمّة الفرس الأُلى والروم في ... ذي قار ما فعلته في أقيالها
سل عن معاليها المواضي والقنا ... والخيل يوم الحرب عند نزالها
بخصالها يزهو الزمان سناً غداً ... يزهو الزمان سناً غداً بخصالها
بنوالها عمّت بني الدّنيا ندى، ... عمّت بني الدنيا ندىً بنوالها
يا شرق، تِهْ فخراً فأنت مؤيّد ... ومعزّز لا زلت في أبطالها.

وله أيضاً:

أقرارٌ ولا أرى لي قراراً ... بمحيط فيه الخمول استدارا.
كم أنادي ولا حياة لمن قد ... غار في منهج الخمول وسارا
فإلى مَ الخمول باق، وهذي ... أهل بغداد قد تسامت فخارا؟
نهجت منهج الكمال الى أن ... تخذت أنجم السّماء سمارا.

الشعر العامّي

الملاّ عبّود الكرخي

الشاعر الشعبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في فترة ما بين الحربين، عبود بن الحاج حسين السهيل الكرخي، ينتسب الى فرقة البوطيف من عشيرة البوسلطان الزبيدية، ولد في بغداد في ٢٢ حزيران ١٨٦٩، ودرس في الكتاتيب وحلقات الدرس في مساجد بغداد والكاظمية. ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره انضمّ الى والده الذي كان يتاجر بالإبل والجلود ورافقه في سفراته بطريق القوافل الى إيران والشام والحجاز ومصر والأقطار التركية[١].

واستقرّ في بغداد بعد وفاة والده سنة ١٨٩٦، وتعاطى أعمالاً مختلفة من متاجرة ونقل وأنشأ سنة ١٩٠٨ شركة مع آل عارف آغا لنقل المسافرين بين أمهات المدن العراقية. ثم أصبح متعهداً للبعثة الألمانية التي قامت بمدّ خط السكة الحديد الى سامّراء سنة ١٩١١ وألمّ بشيء من اللغة الألمانية، علاوة على ما كان يعرفه من التركية والفارسية والكردية.

ولما أعلنت الحرب العامة سنة ١٩١٤، رافق الحملة التركية الى إيران ترجماناً ومجهزاً للمواد الغذائية والمواشي والخيول. وأسره الروس في بعض المعارك، لكنه استطاع الفرار والعودة الى صفوف الجيش التركي. وسمع بأخبار الثورة التي أعلنها الشريف حسين في مكة سنة ١٩١٦، فترك القوات العثمانية ولجأ الى بعض القرى والأرياف حتى آذنت الحرب بالانتهاء.

عمل بعد ذلك في الزراعة فلم يؤاته النجاح، وعاد الى بغداد. واندلعت نار الثورة سنة ١٩٢٠، فأخذ ينشد قصائده الوطنية في جامع الحيدرخانة. وطبقت شهرته الآفاق، وتسابقت الجرائد الى نشر شعره العامي الذي لقي من الجمهور إقبالاً. ثم أنشأ

---

(١) ذكر عبود الكرخي في ترجمة له كتبها سنة ١٩٣٥ انه ولد في ١٢ ربيع الأول ١٢٨٦ هـ ويوافق ذلك الثلاثاء ٢٢ حزيران ١٨٦٩ أما في ديوانه فذكر تاريخ ميلاده سنة ١٨٦١ وذكر فائق بطي تاريخ ميلاد الكرخي في كتابه «أعلام في صحافة العراق» ١٩ حزيران ١٨٦١

جريدة «الكرخ» في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٧، فكانت من الصحف الشعبيّة الرائجة. وعطلتها الحكومة فاعتاض عنها بجريدة «صدى الكرخ» (١٧ نيسان ١٩٢٨) و «صدى التعاون» (٢ نيسان ١٩٣١) و «الكرخي» (٢ تموز ١٩٣٢) و «الملاّ» (٣٠ أيلول ١٩٣٣) و «المزمار» (٤ حزيران ١٩٣٤). وعادت الكرخ الى الظهور خلال تلك المدة وبعدها، فقضى في الصحافة نحواً من خمسة عشر عاماً (الى سنة ١٩٤٢).

وأسس مطبعة سنة ١٩٣٣، ونشر في تلك السنة الجزء الأول من ديوانه. ثم نشر بعد وفاته جزآن من شعره (١٩٥٥ ــ ٥٦) ونشر الجزء الثالث سنة ١٩٦٧، والأدب المكشوف (١٩٦٧) أيضاً. وساءت صحته في سنواته الأخيرة، فلزم داره حتى قضى نحبه ببغداد في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٦

شعره:

يمثل شعر عبود الكرخي نهجاً خاصاً في الأدب الشعبي العراقي، وقد اتّسم بسّمات المرحلة الانتقالية التي مرّ بها العراق خلال السنين التي عقبت الحرب العظمى الأولى (١٩٢٠ ـ ٤٠). قرض الكرخي الشعر العامي منذ فجر شبابه، وبرّز فيه تبريزاً، وذاع بعد ذلك على ألسنة الناس وتناقلته الصحف والإذاعة والمجالس الخاصة. وهو يبدع في النقد والهجاء، وله في سائر الأغراض كالسياسيات والوطنيات والاجتماعيات والغزل والنسيب صولات وجولات. وهو يحسن إستخدام اللغة العامية العراقية بمختلف لهجاتها والقديم والحديث من عباراتها، ويطعّم شعره بالقصص والحكم والأمثال الشعبية، ويرصّعه بالكلمات الفصيحة والكردية والفارسية والتركية والهندية والانكليزية والعبريّة وغيرها ممّا هو مألوف لدى أبناء الشعب.

وكانت للكرخي مساجلات ومطارحات شعرية مع شعراء العامية في عصره وفي مقدمتهم حسين قسّام.

حظي شعر الكرخي بتقدير شعراء الفصحى وأدبائها، فقال الرصافي:

لله درّك، يا عبّود، من رجل	يا رافعاً في القوافي راية الزجل
جريت جري قدير في مزالقه،	لم تخش من زلق فيه ولا زلل

وقال الزهاوي:

الشعر ما قاله الكرخيّ عبّود	ففيه للأدب الشعبيّ تجديد
شعر يفيض من القلب المشعّ له	على اللسان، فما إن فيه تعقيد..
عبود إن عدت الأفذاذ في بلد	فأنت في أول الأفذاذ معدود
فتحت للشعر أبواباً، ولا عجب	ففي يمينك للنظم المقاليد
إذا هجوت فنيران مؤججّة،	وإن شدوت فأغرود وأغرود

وقال عبد الرحمن البناء:

إن رمت للجمهور من شاعر فشاعر الجمهور عبّود

وقال محمود الملاح:

من بعد عبّودِ الكرخيّ لا تثقن بالشعر يخلب ألباب الجماهير

وشبَّهه بالحطيئة الذي سنّ سنّة الهجاء لما رأى الفضل في الناس منكوراً غير مشكور.

وقال فهمي المدرّس: «جمع أسلوبه بين لغة العوام وما يقارب اللغة الفصحى تدريباً للعوام على الفصيح من القول، وهو أسلوب حديث في الأدب العامي، والأدب العامي في بلاد تتغلب عليها الأميّة لا يقلّ شأناً عن أدب الخواصّ. . ».

وقال محمد بهجت الأثري: «والشاعر قدير بلا شك، وهو رافع لواء الشعر العامي في العراق. . وشعره صورة للمجتمع، فإنّ فيه كثيراً من الحقائق الاجتماعية والسياسية وفق في تصويرها الى مدىً كبير. .»

وقال رفائيل بطي: «. . وهو يكنز في أشعاره ثروة طائلة من إحساس العامة وصور أفكارها ونظراتها الى الحياة، وهو يمثل عيشة طبقات الشعب ذات الصبغة المحلية البحتة. .»

وقال انستاس الكرملي يخاطب الكرخي: «وامتاز شعرك أيضاً بحفظ لغة العراق الخاصّة به، بآدابه وأخلاقه وآرائه. . . ».

وقال علي الشرقي: «تفضل عليّ الشاعر الزجلي الاجتماعي الملا عبود بتقديم نسخة من ديوانه العام. ولما تصفحته وجدتني قد تصفحت العراق كله. نعم، فإنّ بين دفتي ذلك الديوان عراق الثلث الأول من القرن العشرين، فها أنا أتجوّل في شوارعه ونواديه ومراسحه ومقاهيه، في ريفه وحواضره، أسمع الحوار السياسي والاجتماعي والنقد الأدبي واللوعة الاقتصادية، والصبر إبتسامة الأمل، وأسمع أنّة الألم بلغة عراقية وتمثيل صحيح يقوم به شاعر الجمهور. . ».

وقال القاضي جعفر نقدي: «إن شعر الكرخي يشتمل على أبّهة امرىء القيس وطرب الأعشى ورغبة زهير واعتذارات النابغة وغضبة جرير وفخر الفرزدق ومدائح أبي تمّام ومحاسن البحتري ونفسية المتنبّي ولطائف كشاجم وظرائف ابن الحجّاج وبدائع بديع الزمان، كلّ ذلك بلغتنا العراقية العاميةالتي يألفها عشاق الأغاني الشعبية. . . ».

وقال عباس العزاوي: «وفي ديوان المترجم ما يعيّن سعة اللغة العامية. وقد اتفقت كلمة أدبائنا على أن شعره من أفضل الشعر في الأدب العامي، ولم يبخسه أحد حقّه».

والكرخي بعد ذلك ظريف له دعابة حسنة وفكاهة مستملحة. وينقل عنه أنه قال: لم يغلبني أحد سوى أعرابيّ لقيته في زورق في شط العرب، وكان هذا الزورق يسير

بمحاذاة الشاطىء ويقوم مقام الباص، يأخذ الركاب وينزلهم بين القرى المنبثة على ضفاف النهر. وقد ركبته ذات يوم قاصداً بعض الأنحاء لجمع بدلات اشتراك جريدة الكرخ، فإذا بأعرابي يجلس الى جانبي ويحدثني بأحاديث لقطع الطريق. وسألني الأعرابي: ما اسمك، يا ملاّ؟

ـ ملا عبود.

ـ نعم، ماذا كنّا نقول، يا ملا أحمد؟

ـ إسمي الملا عبود. عبود.

ـ عفواً، عفواً، يا ملا.

وناداه الأعرابي في خلال حديثه بكل الأسماء، فتارة ملا حمد وطوراً ملا علي أو جواد، والكرخي يقاطعه قائلاً: إسمي الملا عبود، فيعتذر صاحبنا ويعود الى تسميته باسم آخر في سياق الكلام. وضاق الكرخي ذرعاً بالأعرابي المتغابي، فقبض على ساعده وهزه هزاً عنيفاً وقال: اسمي جرو. جرو. ألا تعرف ما الجرو؟

وهنا بلغ الأعرابي المكان الذي يقصده وأشار الى صاحب الزورق بالوقوف، فلما خرج الى الشاطىء صاح بملء فيه: «في أمان الله، يا ملاّ جرو!» قال الكرخي: «قاتلك الله، لقد نسيت الملا عبود عشرات المرات، ولم تنس الجرو مرة واحدة!».

حدثني مصطفى علي أن محمد مهدي الجواهري أصدر جريدته «الفرات» سنة ١٩٣٠ وسرعان ما دخل في مهاترات صحفية مع عبود الكرخي صاحب جريدة «الكرخ» ونوري ثابت (جزبوز) الذي كان آنئذٍ موظفاً بوزارة المعارف ويكتب في الوقت نفسه حقلاً هزلياً في جريدة رفائيل بطي «البلاد». وقد هجا الكرخي محمد مهدي الجواهري هجاءً مقذعاً بقصيدة عامية ختمها بأبيات يقرنه فيها بملهى الجواهري (وهو من ملاهي محلة الميدان المعروفة في ذلك العهد)، فلم يكن من الجواهري إلاّ أن أقام عليه الدعوى بتهمة القذف والتشهير.

وكان حاكم جزاء بغداد آنذاك عبد العزيز الخياط، فمثل الكرخي أمامه وقال: إن هذه القصيدة قديمة نظمتها في العهد التركي ولا علاقة لها بالجواهري.

قال الحاكم: وهل كان ملهى الجواهري قائماً في العهد التركي؟

فالتفت الكرخي الى نوري ثابت الواقف وراءه وقال: كيف فاتنا هذا الأمر، يا نوري؟

وقد حكم على الملا عبود بغرامة قدرها ٣٠٠ روبية دفعها عنه ـ على ما قيل ـ عبد الكاظم الشمخاني.

أصبح شعر الملا عبود الكرخي مصدراً من مصادر الفولكلور العراقي واللغة العامية

وصورة المجتمع في النصف الأول من القرن العشرين، وكان في الغالب مجتمعاً راكداً محافظاً على حالته قبل تطوره بدخول الإنكليز وتأليف الحكومة الوطنية. أما العامية فقد تطورت بعد ذلك كثيراً بتأثير الصحافة والإذاعة وانتشار المدارس. وقد استمد الكرخي ثقافته من التراث الشعبي، في حين أن شعراء الفصحى استوحوا أدبهم من التراث العربي الخالد والانفتاح الحديث على الآداب العالمية.

أشيع نبأ وفاة الملا عبود الكرخي في البصرة كذباً فخاطبه معروف الرصافي قائلاً:

أعبـــود إنـك ذو فطنـــة ... تعيش بها عيش حــر سعيـــد
قـريحة شعــرك فيــاضـة ... لها في الأنــاشيـد مـرمى بعيـد
أتيت مـن الشعــر بــالمضحكــات ... وبــالمبكيــات التي لا تبيــد

حتى يقول:

يبــاهي بك الكـــرخ أبنــاءه ... ويثني عليـك بها لا مـــزيـــد
ولكـن حسّـــادك الخاسريـن ... يبيتـــون منـك بغيظ شـــديـد
أشـــاعـــوا نعيّك من غيظهـم ... يـــريــدون للشعـر مـا لا يـريـد
ولما تبيّن بهتـــانهم لـــدى النـــاس ... عـــادوا بغيـظ جـــديـــد.

شعر عبّود الكرخي

صوّر الكرخي في شعره حياة الفلاحين والنساء القرويات والمشاكل الاجتماعية، وذكر الأمثال والخرافات العامية. ودعا الى العلم والاستقلال الوطني، حارب السفور مع الحجابيين سنة ١٩٢٤ ــ ٢٥، ورحب بالتجنيد الإجباري، وبكى على نكبة دمشق وفلسطين. نوّه بمتاعب الزراعة وبؤس الفلاح وآلام الصحافة، وانتقد العادات الشعبية المستهجنة ومهازل الانتخابات النيابية وجهل بعض النواب. ونظم شعراً غزلياً على الطريقة القديمة. وله أشعار بذيئة منع نشرها في العراق فطبعت بعد وفاته في بيروت.

المحالات:

قصيدة طويلة نظم فيها الأمور المستحيلة في رأيه. فقال: هل يتزوج وهو الشيخ الفاني بفتاة أم تكون له حورية في الجنّة؟ هل يصعد الى السماء بسلّم وهل يطلب الفرج من المصلوب؟ هل تباع الخيل في سوق الهرج، وهل يحيى الأموات في المقابر؟ هل يجمد النهر في الصيف أم يعود الشيخ الى الشباب؟ هل يأتلف القطّ والفأر أو يتساوى الفحم والماس؟ هل يغلب الحمار الحصان في السباق؟ هل تنشأ السفن من الورق وهل يأكل الأسد التبن والحشيش؟ هل يكون الهندي خطيباً في البدو؟ هل يفترس الحمل الذئب،

وهل يؤكل لحم الكلاب؟ هل يدرس العالم على الأغبياء وهل ينسج البدو القزّ والحرير؟ هل تربط البقّة بالحبل، وهل يسحب النمل السفينة؟ هل يؤسس معمل ورق في الهندية؟هل يكون الصُلَيبي أعلم من أديسن وهل يكون ماركوني غبياً؟ هل يظهر نبيّ من زرباطية وهل يكون طلاب اكسفورد وحوشاً؟ هل يطيل فورد ذقنه؟ هل يزرع التبغ في الشامية، وهل ينبت جناح للجاموس فيطير؟ هل يصدر الغبار من أمواج البحر، وهل يدخل الفيل في شقّ الإبرة؟ الخ .

حسين قسّام

الشاعر الشعبي الذي نافس عبّود الكرخي فلم ينل شهرته وذيوع صيته، وهوحسين بن عبّود قسّام الخفاجي، ولد في النجف سنة ١٨٩٧، ونشأ في محافلها ومجالسها، وتفتّحت قريحته بوحي المنابر الحسينية. وأولع بالأدب العامي، وهو غضّ العود، ومال الى النظم والظرف والمفاكهة. قست عليه الحياة ومنحته البؤس والحرمان، فلاذ بالسخرية والهزء. نمت في نفسه نزعة الى الدعابة والهزل، فظهر أثر ذلك في شعره كما ظهر في مساخره وحكاياته. وقد زار بغداد مراراً وطوّف في أنحاء الفرات الأوسط، وعرف شعره وانتشر في المحافل الشعبية ومجامع العوامّ، وكانت له مع أقرانه من شعراء اللغة العامية صولات ومساجلات ومفاخرات. وقد توفيّ سنة ١٩٥٨ طبعت مجموعات من شعره، منها: الأفكار المطلسمة (١٩٥٧) سنجاف الكلام (١٩٦٣) قيطان الكلام (١٩٦٣) محراث الكلام (١٩٦٤).

ولعلّ شاعرنا قد أشبه في هزله والقياس مع الفارق الزمني ـ محمد بن دانيال الخزاعي الموصلي المتوفّى بالقاهرة سنة ١٣١٠م، ذلك الشاعر الذي نعت بالأديب الحكيم الخليع وألف «طيف الخيال» وكان صاحب نكت ونوادر ومجون، وقد قال:

قد عقلنا والعقل أيّ وثاق ... وصبرنا والصبر مرّ المذاق

كلّ من كان فاضلاً كان مثلي ... فاضلاً عند قسمة الأرزاق

وقال سعيد الديوه جي أن ابن دانيال تفوّق في فنّ «خيال الظلّ» وكان يضع له القصة وينظم الأصوات ويلحنها ويعيّن الأزياء لها. أما حسين قسام فكان يسخر من السذّج الغرباء ولا سيّما الزوّار الهنود والفرس، ويمثّل في جموعهم مسرحيات يخرجها على قارعة الطريق، ويضفي عليها لبوس الجدّ والصرامة، ويكون في أكثر الأحيان مبدعها ومؤلفها وممثلها الوحيد.

كنّا ذات يوم نزور صديقاً لنا من أصحاب دور السينما، فجاء حسين قسام، ولم نكن نعرفه، فتقمّص دور صاحب دار سينما في بعض الألوية وأخذ يساوم صاحبنا على

شراء أفلام. وظلّ يتكلم في الموضوع كـلاماً طويلاً ويجادل ويناقش ويوافق ويعارض، وصديقنا يلاطفه ويداريه ولا يشكّ في حقيقة أمره. ولما كشف أمره أخيراً أحد الحاضرين العارفين له، استذكرنا كلامه فوجدناه سفسطة خالية من المعنى!

ومثّل في يوم آخر دور قرويّ ساذج، فجاء الى دار السينما واشترى بطاقة الدخول، ثم دافع الناس وحاول أن يدخل من شبّاك بيع التذاكر، والناس تضجّ بالضحك ولا تشك أنه جاهل يسير على سجيّته.

ترجمه محمّد هادي الأميني في مجلة التراث الشعبي البغدادية (أيلول ١٩٦٣)، فقال إنه طرق جميع أبواب الشعر الشعبي ونظم فيها، فأبدع في تصوير مشاهد الحياة وآلامها وألوان العواطف الإنسانية وخلجاتها، وأطلق صرخات الأنفس الحرّة التي يعذّبها الظلم ويكويها الألم فلا تخور ولا تستكين. ونظم القصص والحكايات والنوادر والأمثال، ونقد عيوب المجتمع، وبرع في فنون الشعر كالموال والميمر والعتاب والأبوذيّة والحزّورات والهوسات. وأدخل في نظمه من المصطلحات الشعبية ما هو متداول في أنحاء العراق وسائر الأقطار العربية كلبنان ومصر والمغرب. ومن أمثلة شعره السّاخر وصيّة ريفي معدم لا يملك شروى نقير، فهو يوصي أهله بترك البكاء والتفّجع ويعدّد الأشياء التي خلّفها فإذا هي لا تخرج عن حيوانات هزيلة وخنجر بلا قراب وأثاث محطم ولوازم بيتية عتيقة، ويشدّد على أهله بالعناية بكل تلك الأشياء والمحافظة عليها.

ومن شعره الساخر قصائد يحسبها السامع هراء لما حوت من مبالغات وغرائب تفوق حدّ المعقول، ولكنها تظهر لدى التأمّل عميقة المغزى، بعيدة الغور في الهزل القائم على فكرة التناقض والتعجيز والتلميح. فمن ذلك قصيدته التي قالها يواسي صديقاً له سرق اللصوص متاعه القليل، فهو يعده بنصره ومساعدته، ويقول له: إنني لمرسلٌ لك جنوداً من الهنود تكرّ على خيولها في منتصف الليل وعند الظهر، بنادقها من الخشب ورصاصها نارنج، ترجّ البلد رجاً، وقد ساندها جموع العرب والكرد والبربر، رجالهم تمشي على أطراف النخيل وفرسانهم تجول فوق السطوح.

***

ذكر جعفر الخليلي حسين قسّام في الجزء الثالث من كتاب «هكذا عرفتهم» عند كلامه على الظرفاء الذين عرفهم، فقال إنه تجاوز الخامسة والستين من عمره فافتقد تلك المقدرة التي كانت تعينه على تمثيل أدوار المساخر المضحكة وضاقت به الدنيا، وأعسر فلم يكن له مورد سوى راتب ضئيل يتقاضاه من دائرة الأوقاف لقاء سدانته لمقام هود وصالح بمقبرة وادي السلام في النجف.

ثم قال إن حسين قسّام نسيج وحده في تمثيل الأدوار الفكاهية والظرف ونسج الأهابيل والنكات ونظم الشعر الهزلي. وهو يجيد تقليد أغلب اللغات ويجيد حكاية اللهجة في أية لغة ولكن بدون معنى. وكثيراً ما يراه الرائي وهو يكلم أحد الهنود أو الترك

أو الإيرانيين أو الإنكليز بلغة لا ينقصها شيء غير المعنى، فيهّزون رؤوسهم أمامه ويضربون عنه صفحاً. وهو يتكلم العربية بهذه الطريقة فلا يدعك تفهم منه شيئاً. وقد يقصد بعض الحكام شاكياً، فينصت له الحاكم ويسعى ليفهم شيئاً من كلامه، فلا يفهم إلا النهاية التي يتركها واضحة ليقضي على الشك الذي يبعثه سرعة كلامه وعدم اتزانه. وهو فوق ذلك يحسن تكييف نفسه وقلب سحنته كما يشاء دون أن تبدر منه بادرة تفسر عمله أو تشكك فيه. وقد سيق في أثناء الاحتلال الإنكليزي ليعمل في السخرة ويحمل أكياس الرمل لتقوية سداد النهر. فحمل حسين قسّام أول كيس مكرهاً، فحين عاد مع العائدين، انطوى على نفسه في غفلة من الحرّاس وعوّج إحدى رجليه وصعّد حاجبه الى لأعلى وجعل أعضاءه تهتز كمن به رجفة، ومرّ على هذا الوجه بين المراقبين وهم لا يشكّون أنه بعض العاجزين المشلولين المشوّهين. ولم يزل هذا شأنه حتى تجاوز حدود المراقبة فأطلق عند ذلك ساقيه للريح.

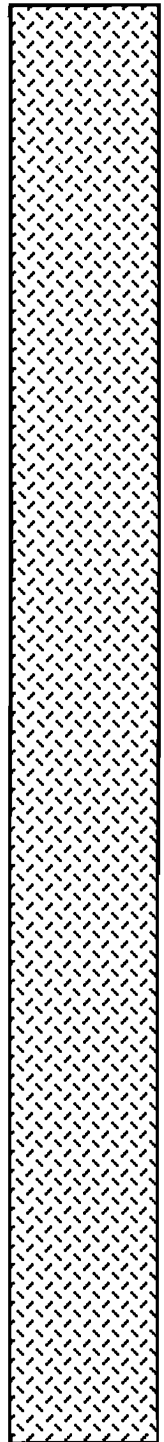
يذكرنا حسين قسّام المعوز الدائم الذي قلما يجد ما يقيت به أسرته بأبطال المقامات كأبي الفتح الاسكندراني صاحب بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السَّروجي صاحب الحريري وميمون بن خزام صاحب الشيخ ناصيف اليازجي، وغيرهم من الذين يحتالون لنيل رزقهم بشتى الحيل الأدبية واللغوية والتمثيلية. وكان حسين قسّام ينتظر قدوم الزوار الهنود والأفغانيين والأعجام الى النجف، فيقيم لهم المآتم الحسينية والعلوية ويستدرّ بكاءهم بخطبه الرنانة الفارغة وتعازيه السفسطائية، وهم لا يفهمون كلامه بل يتأثرون بكلماته وحركاته، ولا يبخلون عليه في آخر الأمر بالنقود، ثم يمضون راضين حاسبين أنهم قضوا واجباتهم الدينية.

أدب اللامعقول

LITERATURE OF THE ABSURD, OR IRRATIONAL LITERATURE

ظهر في أوربة في منتصف القرن العشرين مسرح اللامعقول، وهو تطوّر حديث للرمزية والوجودية والسريالية وما يكتنفها من غموض وإبهام، يرمي الى تجسيم سخافة الحياة وتهافتها واستحالتها. وممّن برّز فيه أوجين يونسكو EUGENE IONESCO والأديب الفرنسي الإرلندي الأصل صموئيل بيكيت SAMUEL BECKETT. وحذا توفيق الحكيم حذوهم فوضع مسرحيته «يا طالع الشجرة».

وإذا دققنا شعر عبود الكرخي وحسين قسّام وغيرهما من شعراء العامية نجد أنهم سبقوا أولئك الأدباء الغربيين في أدب اللامعقول. ومن أمثلة ذلك قصيدة المستحيلات المنشورة في ديوان الكرخي والكثير من قصائد حسين قسّام كتلك التي نظمها يواسي صديقاً له سرق متاعه القليل ووصية الريفي المعدم عن توزيع تركته الهزيلة الخ.



عصر النهضة
النثر

محمود شكري الألوسي

العالم البحّاثة الذي أحيا سنّة جدّه شهاب الدين محمود الألوسي وضرب مثالاً سامياً في الزهد والقناعة والتجرّد للعلم. ولد في بغداد في ١٢ أيار ١٨٥٧ وتوفي بها في ٦ أيار ١٩٢٤ وقد ترجمت له ترجمة وافية في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

قال الدكتور علي المحافظة الأردني في كتابه «الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ ـ ١٩١٤» (بيروت ١٩٧٥): «كان محمود شكري الألوسي مصلحاً دينياً سلفياً جمع بين مبادىء الدعوة الوهابية في الاعتماد على القرآن والسنّة ومحاربة البدع الدينية والطرق الصوفية وبين مبادىء النهضة العلمية العربية الحديثة في الاهتمام بالعلوم غير الدينية مثل التاريخ والفلك».

علي علاء الدين الألوسي

قاضي بغداد علي علاء الدين بن نعمان خير الدين بن محمود شهاب الدين الألوسي، ولد في بغداد في ١٧ شباط ١٨٦١ أخذ العلوم العقلية والنقلية عن والده وعن الشيخ عبد الوهاب النائب وإسماعيل الموصلي وابن عمّه محمود شكري الألوسي. وقد أرسله والده سنة ١٨٨٢ الى الهند، فاجتمع بالسيد صدّيق حسن خان (١٨٣٢ ـ ١٨٨٩) ملك بهوبال وفاتحه في طبع مؤلفات أبيه وجدّه، وأخذ عنه الحديث فأجازه إجازة عامة. ثم قصد الأستانة مع والده سنة ١٨٨٣، فانتمى الى مدرسة القضاة وتخرّج فيها.

وولي القضاء في عدة مدن في فلسطين وبعلبك والعمارة والديوانية. وعهد إليه، على أثر وفاة أبيه سنة ١٨٩٩، بالتدريس في مدرسة مرجان وجامع الشيخ صندل ببغداد.

وانتخب نائباً عن بغداد في مجلس النواب العثماني بعد إعلان الدستور (١٩٠٨) الى حلّه في ١٨ كانون الثاني (١٩١٢). ولما نشبت الحرب العامة أوفد مع محمود شكري الألوسي بمهمّة الى أمير نجد عبد العزيز آل سعود (تشرين الثاني ١٩١٤). وعاد الوفد

في نيسان ١٩١٥ ولم يفلح في مسعاه لحمل الأمير على مناصرة الدولة العثمانية. واختير بعد ذلك عضواً بمجلس الولاية العام.

احتلّ الإنكليز بغداد، فعيّن علي علاء الدين قاضياً لها سنة ١٩١٧ ثم أصيب بالفالج وتوفيّ ببغداد في ٧ كانون الثاني ١٩٢٢

ذكره إبراهيم الواعظ فوصفه بالرزانة والخلق المتين، وأشار الى معارضته لسياسة الاتحاديين الأتراك. وقال: «ثم عرفته قاضياً بعد الاحتلال البريطاني، وكان صلباً في رأيه، متمسّكاً بدينه. وقد كلفه ناظر العدلية بونهام كارتر البريطاني بالموافقة على استبدال أموال الأوقاف، فلم يوافق وبقي مصراً على رأيه الى أن توفاه الله».

مؤلّفاته وشعره

ترك علي علاء الدين الألوسي مؤلفات، منها كتاب الدرّ المنتثر في رجال القرن الثاني عشر والثالث عشر (طبع ١٩٦٧)، ومجاميع ضمّنها نوادر وأخباراً وطرائف من شعره. ونظم الأجرومية وكتب تعاليق وحواشي على كتب كثيرة. وقد آلت معظم تصانيفه المخطوطة الى عبّاس العزاوي تلميذه وكاتب المحكمة الشرعية في عهده.

ونشر كتباً منها: نقد مقامات الحريري لابن الخشّاب (١٩١٠) والحباء في الإيصاء لنعمان الألوسي (١٩١٠) وسيرة الرسول لعبد الباسط زين الدين الملَطي القاهري الحنفي المتوفى سنة ١٥١٤م (١٩١٠) وكتاب التوحيد للإمام جعفر الصادق (١٩١٢).

ونقل عن الفارسية رسالة للطوسيّ في معرفة التقويم.

كان ينظم الشعر مقلاً. وقد نظم ارجوزة في سور القرآن وقصائد في مدح جمال الدين شيخ الإسلام سمّاها «روضة الإفهام».

ومن شعره رثاؤه لصديقه مصطفى نور الدين الواعظ، قال:

أسفاً لقد حلّ الحِمام بفاضِل	من فقده الزَّوْرَا بأمر باهظِ
قد كان في علم الشريعة حافظاً	ولسنة المختار جدّ محافظ
وله اليراع العضب يرعف ثغره	للدين خير مؤازر وملاحظ
فقضى حقوق العلم غير مقصّر	بكتابة وخطابة ومواعظ

وقال في السمر والبيض:

قالوا جعلناك فيما بيننا حكماً	في السُّمْر والبيض، قلتُ: أصغُوا لتعريضي
كلا الفريقين عندي حبّهم حسن	لكنّ في السّمر معنى ليس في البيض!

وذكر إبراهيم الواعظ أنّ محمد رشيد رضا صاحب المنار زار بغداد سنة ١٩١٣ فحلّ

ضيفاً على بعض وجهائها . ولم يتمكن علي علاء الدين الألوسي من زيارته لبرود كان بينه وبين الوجيه صاحب الدار، فأرسل إليه بالأبيات التالية معتذراً :

أهلاً ببدر دنا، والدار نائية، ... والقلب من أهلها ـ حاشاكَ ـ نفّار
إنّي أحيّيك من بعد على ثقة ... بالودّ منك ودون القرب أعذار
قد يترك الماءَ محتاج اليه وقد ... تُعاف للهون أوطان وأوطار
لو كانت النار ما عاقتني ثانيةً ... عن الزيارة، إلاّ أنّه العار

***

ولي علي علاء الدين القضاء أعواماً طويلة في العهد العثماني وعهد الاحتلال، وكان يرى فيه رسالة سامية لإعزاز الحقّ ونصرة الضعيف. قال في ذلك :

إنّ القضاء هو البلاء، فلا تكن ... متعرّضاً فتصابَ من سوء القَضَا
وإذا ابْتُليتَ به على كُرْه فخذ ... نهج العدالة إنّها سبب الرّضا

وقال متشوّقاً الى بيروت :

لإخوان الصفاء محضت ودّي ... فأغنوني بهم عمّن عداهم
ترى عيني جميع الناس فيهم ... وإنّي لست في المعنى سواهم

وقال يحنّ الى العراق :

أومض البرق من ثنايا العراق ... فاستفاضت له شؤون المآقي
وبدا لامعاً فأجّج ناراً ... تتلظّى بين الحَشَا والتّراقي
ليت شعري، وللزمان شؤون، ... هل يضمّ الأحبابَ شملُ التّلاقي؟
وديـاري كما أحبّ دياري ... ورفاقي كما أحبّ رفاقي؟

وقال :

روحي وجسمي لمّا بنتُمُ افترقا ... فالروح في بلد والجسم في بلد
بالله جودوا بطيف من زيارتكم ... كي تجمعوا لي بين الروح والجسد

عبد المجيد الشاوي

الأديب البغدادي الظريف صاحب الكلمات اللاذعة والاشارات البارعة . ولد في بغداد سنة ١٨٦٢ وتوفي في بيروت في ١٦ أيلول ١٩٢٧ وكان في العهد العثماني نائباً في مجلس المبعوثان. وأصبح في العهد الوطني وزيراً بلا وزارة ورئيس بلدية بغداد ومتصرف لواء الدليم ونائباً. وعين عضواً بمجلس الأعيان وقد اشتدّ عليه المرض، فقال

لما بلّغ بالإرادة الملكية :

أتت وحياض الموت بيني وبينها وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية ، ورويت طرفاً من أدبه ونوادره . وقد ذكره أمين الريحاني في كتابه «فيصل الأول» فقال إنه حضر مأدبة في البلاط الملكي بثوب افرنجي عادي ولم يرتدِ اللباس الرسمي . وصفه بأنه ذلك العربي الحرّ الجريء الجامع بين محاسن البدو والحضر، ذلك الفيلسوف الذي نثر الحكم وما كتبها . وقال : كان له رأس كرأس سقراط شكلاً ومعنى ولسان كلسان صموئيل جونسن سقراط الإنكليز بفصاحته ولواذعه .

سمع الريحاني عبد المجيد الشاوي يقول في تلك الليلة : «وهذا الاستبداد الحديث العهد ، استبداد «الموضة» جاءنا كذلك من الغرب . أما نحن العرب فلا نضيع وقتنا ومالنا وتعقّلنا في سبيل «الموضة» ، فقد كان ، ولا يزال ، خلاصنا في بسيط عاداتنا وسذاجة طباعنا . أنتم تبدأون حيث يمكنكم أن تنتهوا . أقول : يمكنكم ولا أقول : يجب أو يجوز أن تنتهوا بهذه الرسميات ، بهذه الترّهات» .

فقال رستم حيدر: ولكنك أنت أيضاً خاضع لسلطة الموضة في ثوبك الإفرنجي هذا ، قابل باستبدادها . فأجاب الشاوي على الفور: وأنا أيضاً حمار!

رويت عدداً من النوادر المحفوظة عن الشاوي في كتابي المذكور. وأروي هنا بعض الطرائف الأخرى :

وقف وزير المالية ذات يوم في مجلس النواب وقال في معرض كلامه : أبشركم بزيادة الضرائب في الميزانية المقبلة . فقال النائب ثابت عبد النور: يا لها من بشرى سعيدة يبشرنا بها معالي الوزير! ولم يكن من عبد المجيد الشاوي إلا أن قال : النائب معذور، فإنه لم يقرأ قوله تعالى : وبشرّ الذين كفروا بعذاب أليم (سورة التوبة) .

وكان الشاوي النائب إذا خرج من الجلسة مرّ بكتّاب الضبط وقال لهم ما معناه : «هنيئاً لكم ، يا أولادي ، تخرجون كلاماً منمقاً من الأحاديث السخيفة التي تسمعونها في المجلس» . وقيل إن بعض النواب كانوا يمرون بكتاب الضبط فيلاطفونهم ويرجونهم أن يصلحوا من الخطب والكلمات المرتجلة التي كانوا يلقونها في قاعة المجلس قبل إثباتها في المحاضر.

وكان الشاوي في مجلسه عصراً يحفّ به رجالات بغداد ولفيف من أبناء الأسرة الشاويّة ، فإذا به يسمع منادياً في الطريق ينادي على حمار ضائع ويعد بالحلوان لمن يدلّ عليه . فأمر بإدخال الرجل وقال له : هل حمارك حساوي أم شاوي ، يا ولدي؟ فقال : إنه شاوي ، يا سيدي .

وأشار عبد المجيد بك الى أفراد أسرته وقال له : دونك هؤلاء الشاوية ، فاختر واحداً

منهم بدل حمارك، والعوض على الله.

قام الملك فيصل الأول ذات مرة بزيارة للألوية مصطحباً بعض وزرائه وخواصّه ومنهم عبد المجيد الشاوي. ولما وصل الموكب الملكي الى العمارة، وكان متصرف اللواء عبد الله الدليمي، نزلوا في دار المتصرف الذي وقف وموظفيه في خدمة الملك. وكان الشاوي يكره الدليمي ويعلم أن هذا الضابط العسكري السابق والإداريّ اللاحق قد تزوّج من مطلقة الأمير زيد، فأسرّ الأمر في نفسه.

وفي الصباح بينما كان الملك وحاشيته يتناولون طعام الفطور والمتصرف واقف في خدمتهم، قال الشاوي: أليس من المناسب، يا سيدي صاحب الجلالة، أن نقرأ شيئاً من القرآن الكريم؟ وعجب الملك، وهو يعرف مخاطبه لا يعبأ كثيراً بأمور الدين، فقال له: تفضل اقرأ. وقرأ عبد المجيد الشاوي في سورة الأحزاب ﴿**فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها..**﴾، فخجل المتصرف وانصرف.

والأسرة الشاوية التي ينتمي إليها عبد المجيد من أسر العراق القديمة تنتسب الى شاوي الشاهري الحِمْيَري رئيس قبيلة العُبَيْد من عشائر زُبَيْد، ورد ذكره لأول مرة سنة ١٧٠٧ حين ذهب مع والي بغداد حسن باشا لتأديب قبائل زبيد والدليم. وكان ابنه عبد الله بك الشاوي «باب العرب» أي مدير شؤون العشائر في مقرّ الولاية، قتله الوالي عمر باشا سنة ١٧٦٩ وعلى أثر ذلك نهض ولداه سليمان بك وسلطان بك فحشدا عشيرتهما في ناحية الدجيل وأحدثا اضطراباً.

وكان سليمان بك بن عبد الله بك أديباً شاعراً تولّى منصب «باب العرب» أيضاً، وقد قتله الوالي سليمان باشا سنة ١٧٩٤ وانتدب محمد بك بن عبد الله الشاوي في حملة أرسلها الوالي سليمان باشا الى الأحساء لمحاربة الأمير سعود بن عبد العزيز. واتهم إثر عودته بالميل الى المذهب الوهابي فقتل سنة ١٨٠٢

وعرف من متأخري أبناء الأسرة الشاعران أحمد بك الشاوي (١٨٢٨ ــ ١٨٩٩) وولده عبد الحميد بك المتوفى في البصرة سنة ١٨٩٨، وأحمد توفيق بك بن سالم بك (١٨٤٤ ـ ١٨٩٥) وكان موظفاً إدارياً تولى قائمقامية أقضية الشامية والسماوة والديوانية وخانقين.

***

رثاه إبراهيم صالح شكر عند وفاته فقال: «شعلة ذكاء متقدة عصف المنون بها فانطفأت وتركت في جوانب النفوس كآبة مظلمة ولوعة مدلهمّة».

وصف نفسه المراحة التي لم يلاطفها غير الأدب الغضّ وروحه اللطيفة الجذابة التي ملؤها الظرف والكياسة. وذكر دعابته الحلوة اللذيذة والبداهة الحافلة والحديث الطلي

الشهي المملوء عظة وعبرة والروعة اللامعة المبتسمة. ونعته بشيخ الشباب النابه وفتى الشيوخ الأفاضل.

إغناطيوس أفرام الرحماني

إغناطيوس مار أفرام الثاني الرحماني بطريرك أنطاكية على السريان الكاثوليك ومن علماء التاريخ واللغات الشرقية، ولد في الموصل في ٧ تشرين الثاني ١٨٤٨، وكان اسمه لويس بن إبراهيم رحماني درس اللاهوت في روما ورسم كاهناً (١٨٦٣) ثم عاد الى مسقط رأسه واختير نائب أبرشية الموصل سنة ١٨٨٠ ثم كان أسقفاً للرها (١٨٨٧) وبغداد (١٨٩٠) وحلب (١٨٩٤) واختير بطريركاً لطائفته في ماردين (ت١ ١٨٩٨).

وقد نقل مركز البطريركية الى بيروت سنة ١٩٠٢ وأصدر مجلة الآثار الشرقية سنة ١٩٢٦ واختاره البابا بنديكتوس الخامس عشر مستشاراً للمجمع الشرقي في روما.

كان يحسن لغات متعددة قديمة وحديثة منها العربية والفرنسية والإيطالية والسريانية واليونانية واللاتينية والعبرية، وله معرفة بالخطوط المسمارية والكوفية. وقد توفي في القاهرة في ٧ أيار ١٩٢٩ ودفن في لبنان.

من مؤلفاته: مقالة في سوريا (١٩٢٦) مقالة في مملكة أشور (١٩٢٦) المباحث الجليّة في الليتورجيات (الطقسيات) الشرقية والغربية (١٩٢٤) مختصر التاريخ القديم (١٨٧٧) مختصر تاريخ الأجيال الوسطى (١٨٧٧) مختصر التاريخ المقدس (١٨٨١) الخ. ووضع عدا ذلك قاموس اللغة السريانية ومصنفات باللاتينيّة والفرنسية والسريانية.

قال يوسف أسعد داغر في الجزء الثاني من كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» إن البطريرك رحماني «استخدم معارفه الواسعة في علوم الدين والدنيا في حرث البحث العلمي الدقيق وأمدّ الثقافة والتاريخ المدني والكنسي بهذه الدراسات المخدومة التي نشرها بمختلف اللغات وبتلك المقالات المستفيضة البحث التي دبّجها في شتّى العلوم والموضوعات التاريخية واللغوية والكتابية...».

أدّي شير

المطران أدّي شير إبراهينا ولد في شقلاوة في شماليّ العراق في آذار ١٨٦٧، ودرس بمدرسة الآباء الدومنيكيّن في الموصل، وتعلّم اللغات العربية والكلدانية والتركية والعبرية والفارسية والكردية واللاتينية والفرنسية. ورسم مطراناً على سعرد سنة ١٩٠٢،

وقتل في بعض قراها في أوائل الحرب العامة في آب ١٩١٥ خلال المذابح التي تعرض لها أبناء أبرشيته.

وضع مؤلفات كثيرة منها: الألفاظ الفارسية المعرّبة (١٩٠٨) التاريخ السعردي (لمؤلف نسطوري مجهول، حققه وترجمه الى الفرنسية في جزءين ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨) تاريخ كلدو وآثور (في جزءين ١٩١٢ ـ ١٩١٣). مدرسة نصيبين الشهيرة (١٩٠٥). ومن مؤلفاته الفرنسية المطبوعة في باريس: حوادث من تاريخ كردستان (١٩١٠) تاريخ محمد باشا المعروف بمير كور (١٩١٠) دراسة إضافية عن الكتاب السريان الشرقيين (١٩١٠) الخ. وعرّب كتاب «شهداء الشرق» في مجلدين (١٩٠٠).

كان المطران أدّي شير في مقدمة العلماء الباحثين الذين تحرّوا أصول الكلمات واجتهدوا في إرجاعها الى مصادرها. وقد قال اللغوي الدكتور إبراهيم السّامرائي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة بغداد:

«أظنّ أن تجربة أدي شير صاحب «الألفاظ الفارسيّة المعّربة» وتجارب الآخرين. غير موفّقة، لأنهم جاروا على العربية. فقد زعم غير واحد من هؤلاء الآباء الموقرين أن «كتب» و «قرأ» من المواد السريانية وهي دخيلة في العربية. ولا أدري كيف فاتهم أن هذه المواد العربية هي ساميّة الأصول، فوجودها في العربية والسريانية والعبرانية والأكدية والأشورية وغير هذه من وجود اللغة الساميّة الأم.

على أني لا أنكر أن يكون في العربية دخيل معرّب اقتبسته العربية في عصور مختلفة من لغات عدّة لسبب من الأسباب، وقد أشار الى ذلك القدماء والمحدثون».

انستاس ماري الكرملي

البحاثة اللغوي والمؤرخ المحقق الأب انستاس ماري الكرملي، واسمه قبل أن يترهب بطرس ميخائيل ماريني، ولد في بغداد في ٥ آب ١٨٦٦ وتوفي بها في ٧ كانون الثاني ١٩٤٧ أصدر مجلة لغة العرب الشهيرة وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في الشام عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة.

وضع قاموساً ضخماً بعنوان «المساعد»، طبع منه جزآن سنة ١٩٧٢و١٩٧٦ بعناية وزارة الإعلام العراقية وتحقيق كوركيس عوّاد وعبد الحميد العلوجي، وهما يتناولان حرف الهمزة وقسماً من حرف الباء فقط. والمساعد إنما هو قاموس القاموسيين، فليس هو بالمعجم الاعتيادي الذي يفيد منه القارىء والمتعلم والأديب، بل هو ثبت للكلمات الغريبة والأصول اللغوية وقياس اللغات واللهجات مع جولات في الجغرافية والتاريخ وأساطير الأمم وتتبّعات في الكتب القديمة والحديثة ومناقشات للآراء والأسماء والأقوال والأفعال واستطرادات أدبية وعلمية وفكرية وشعبية عامية.

وعني الأب انستاس بتحرّي تطور معاني الكلمات ودلالاتها وإن كان يشدد على المعنى الأصلي ويعدّ المعنى الجديد في كثير من الأحيان غير فصيح. وقد ناقشته مراراً في هذا الموضوع وقلت إن اللغة كائن حيّ يتطور بتطور الزمن وظهور حاجات التعبير عن معاني العصر. فلا بدّ إذن من الاعتراف بأن الكلمات في جميع اللغات تتحوّر وجوه استعمالها: مثال ذلك أن (القهوة) في العربية كانت تطلق على اللبن المحض والخمرة ثم اتخذها المولّدون علماً للبنّ. و (القرن) يعني حقبة من الزمن ثم اختص بمائة سنة فقيل: القرن التاسع عشر والعشرون. و (الوجدان) مصدر للوجود ثم أطلق خصيصاً على الضمير والنفس. و (المقارنة) في الأصل المصاحبة والاقتران والجمع ثم أخرجت الى معنى المقايسة والمفاضلة. و (الثقافة) أتت بمعنى التقويم والحذق فصرف الى معناها الحاضر وهو الحضارة الفكرية وتهذيب العقول والأخلاق، لتنظر الى معنى كلمة (كولتور) الألمانية والفرنسية و (كلشر) الإنكليزية. وهذه الكلمة الغربية نفسها (كولتور) كانت تعني في بادىء الأمر الزراعة والعبادة والتحسين ولم تطلق على مفهوم الثقافة الحاضر إلا في أوائل القرن التاسع عشر.

ولا يزال الكتاب والمتكلمون يخرجون للكلمة معنى جديداً على صواب أو على خطأ فيشيع ويعمّ استعماله ويعسر على الفصحاء استئصاله. وليس ذلك بدعاً في العربية: فقد نبّه الدكتور مصطفى جواد على كلمة (الصمود) وقال إن العرب لم تعرف الصمود مصدراً وإنما المصدر (الصَّمْد) كالقصد وزناً ومعنى. فإذا كان العرب قد استعملوا الصمد في حروبهم للقصد والسير الى العدوّ، فكيف يستعمل للثبات والقرار وهو عكس معناه؟

ونبّه الدكتور جواد أيضاً، وهو تلميذ الكرملي، على كلمة (الاستهتار) فقال إن معناها الغرام والولوع بالشيء وأخطأ المحدثون في استعمالها بمعنى التهاون بالشيء والاستهانة به، كأن يقال: فلان مستهتر بالقانون. وقالوا (الهاوي) وجمعها (الهواة) بمعنى المحبّ وغير المحترف كالموسيقيّ الهاوي والمصارع الهاوي وهواة الطوابع وفصيحها (الهوي) بلا ألف، إذ معنى الهاوي لغةً: الساقط والجراد الخ. وكرّر مصطفى جواد تنبيهه وبحّ صوته في «قل ولا تقل»، لكن جمهور الكتاب والقراء لم يبالوا بذلك التنبيه واستمروا على أخطائهم لا يرضون عنها بديلاً.

وقد ترجمت للكرملي ترجمة وافية في «أعلام اليقظة الفكرية» فليرجع اليها.

الأب أوغسطين مرمرجي

من علماء اللغة العربية الراهب الدومنيكي أوغسطين مرمرجي، وهو أوغسطين سِبَسْتِيان ابن يوسف المعروف بالمرمرجي ابن جرجَس بن شمعون الحائك الموصلي الأصل. ولد ببغداد في ٣١ تموز ١٨٨١ من أبوين موصليين ودرس في مدرسة الإتفاق

الكاثوليكي. ثم أرسل الى الموصل وانتمى الى المدرسة الأكليركيّة الدومنيكيّة، ورسم قسّيساً سنة ١٩٠١

عاد الى بغداد سنة ١٩٠٦ وعيّن معلّماً للعربية في مدرسة الطائفة السريانية. وأخذ يكاتب المجلات الشهيرة كالمشرق والبشير البيروتيّتين والمقتطف والهلال المصريّتين. وبعد ستة عشر عاماً مضى الى فرنسة واعتزل في بعض أديرتها سنتين. واختير سنة ١٩٢٥ مدّرساً في المعهد الكتابيّ والآثاريّ الفرنسي بالقدس الشريف. وانتخب عضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة.

إختصّ الأب مرمرجي بدراسة العربية ومقايستها بسائر اللغات الساميّة، ووضع مؤلفات في هذا الموضوع، منها: المعجمية العربية على ضوء الثنائية والألسنيّة الساميّة (١٩٣٧) هل العربية منطقيّة؟ (١٩٤٧) معجميّات عربيّة ساميّة (١٩٥٠).

وألّف أيضاً: بلدانيّة فلسطين العربية (١٩٤٨)، [وقد ترجمه الى الفرنسية أيضاً وطبعه في باريس]، العلاقات بين الأسرة والألفة الاجتماعيّة، محاضرات مختارات في الدين والفلسفة والاجتماع (١٩٤٧)، الخ.

وكانت له مناقشات لغوية مع الأب أنستاس ماري الكرملي والبطريرك إغناطيوس أفرام برصوم.

أدركته الوفاة في القدس في ٢٩ نيسان ١٩٦٣

يعقوب سركيس

أمضي فتبقى صورتي، فتعجبوا: تمضي الحقائق والرسوم تدوم

أهداني يعقوب سركيس صورته قبل سنوات فكتب عليها هذا البيت من نظم ناصيف اليازجي. ولم تمض على ذلك أشهر قليلة حتى أعياه الصمم وأوصاب الشيخوخة فاعتكف في داره منقطعاً عن أصدقائه مخلداً الى وحشته وانفراده. ووافته منيته ببغداد في مساء الأربعاء ٢٣ كانون الأول ١٩٥٩ قبيل منتصف الليل. وكذلك انطوت صفحة ناصعة من صفحات الحياة الإنسانية، صفحة حياة شيخ وقور انصرف الى البحث والتحقيق ودقق صحائف مجهولة من تاريخ وادي الرافدين وجمع خزانة كتب فريدة حافلة بنفائس المخطوطات والمطبوعات.

ولد يعقوب نعوم سركيس في بغداد في ٢١ آب ١٨٧٦ من أسرة حلبية الأصل ودرس في مدرسة اللاتين فتعلم العربية والفرنسية والتركية. ولما تخرج في مدرسته عهد إليه بالتدريس فيها أمداً وجيزاً في محل أحد المعلمين الغائبين. ثم ألحقه أبوه بعمل كتابي في

بعض البيوتات التجارية ليتعلم المراسلة والمعـاملات. ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى توفي أبـوه نعوم سركيس، وكان ملتزمـاً لمقاطعات في أنحاء المنتفك ومـلاكاً فيها، فتعهده عمه بولس وأخذه معه الى الشطرة للإشراف على مزارع الأسرة. ومنذ ذلك الحين أمضى أربعين سنـة أو نحوهـا يخرج في كل سنـة الى أنحاء الشطـرة والحي وقلعة سكـر والناصرية ليعيـش أشهراً في الخيام أو الدور القـروية متعهداً أملاكـه وزراعته. ولم يشذ عن تلك القـاعـدة إلا في سني الحرب العـالميـة الأولى وبعض السنـوات الأخـرى، ثم انصرف عنهـا بعد أن اجتـاز سن الكهولـة. وكثيراً ما كـان يبتهج بأنه نصف بـدوي أو فلاح لقضائه معظم أيام حياته في القرى والأرياف واعتياده معيشة الخيام وركوب الخيل ومجالسته للزراع ورجال العشائر ومعرفته بعاداتهم وآدابهم وأهازيجهم. وكان محافظاً يلزم نفسه بالتقاليـد القديمة ويقول في كل مناسبة تعـرض: «قطع الخشوم ولا قطع الرسوم» يريد بـذلك وجوب التقيد بالأصـول والرسوم ولو أدى الأمر الى جـذع الأنوف والإرهاق والأذى. وكـذلك أصبح يعقوب سركيس قطعـة من تـربة الـوطن وجزءاً لا يتجـزأ من تاريخه قبل أن يتصدى لتدوين صحائف من أحداثـه وشؤون رجاله وبقاعه. وقد ورث عن آله ميلاً الى جمع الوثائق والرسائل والمخطوطات، فانصرف الى هذه الهواية منذ نعومة أظفاره. ثم استبدت به هذه الهوايـة فجمع خزانة كتب ضخمة ضمت نفائس لم يتيسر اقتناؤها إلا ببـذل المال الوفير وإنفاق سنين تربو على الخمسين. وقـد حدثني مراراً عن المتـاعب التي لقيها في شراء الكتب، لا سيما في صـدر شبـابه في أثنـاء عهد الاستبـداد الحميدي. فلقـد كان بيع عـدد كبير من الكتب ودوائر المعـارف محظوراً لاحتـوائها على مباحث في الحرية والنظريات الاجتماعية والاقتصادية. واضطر الشاب يعقوب سركيس أن يكلف صـديقـاً لـه زار أوربة في مطلـع القرن الحاضر ــ وكـانت تلك الـرحلـة من الأحداث النـادرة آنذاك ـ كلفـه بتهريب نسخـة من دائرة المعارف الفرنسيـة ليضمها الى مكتبته، وبقي بحاثتنا يحتفظ بهذه النسخة ويحرص عليها الى آخر حياته.

وقد أشرف بحـاثتنا على الأربعين من عمـره دون أن تخطر الكتابـة ببالـه. ثم أصدر الأب انستاس مـاري الكرملي مجلتـه «لغة العـرب» فشجعه على تـدوين معلومـاته عن المنتفك، فكتب نبذة عنوانها «خواطر في المنتفق وديارهم» بتوقيع مستعار. لكن يد الأب تناولت هذه النبذة بالتنقيح والتصحيح حتى «شوهتها» فطواها يعقوب سركيس وأغفل نشرها في مجموعته.

بيد أن تلك النبـذة كانت فاتحة عهـد جديـد في حياة الأستاذ يعقـوب، فقد واصل الكتـابة منـذ سنـة ١٩١٣ ونشر مقالاتـه وبحوثـه الممتعـة في مجلات وصحف عديـدة كمجلة لغة العرب وغرفة تجارة بغداد والنجم الموصلية والاعتدال النجفية والأدب والفن اللندنية ومعـالم الغد والبيان والجزيرة وسـومر والنور والمجمع العلمي العراقـي وجريدة البلاد والـزمان والعراق والأخبار والشعب والطـريق والأوقات العراقية الخ. وقـام بعد

إلحاح شديد من أصدقائه بجمع مقالاته في كتاب «مباحث عراقية» في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ, فأصدر القسم الأول سنة ١٩٤٨ بتقديم محمد رضا الشبيبي، وأردفه بالقسم الثاني سنة ١٩٥٥ وقد قدمه رفائيل بطي ومير بصري. تضمن هذان الجزآن أغلب كتاباته التي تستوعب مجلدين آخرين.

واختاره المجمع العلمي العراقي في كانون الأول ١٩٤٩ عضواً فخرياً فكتب مقالات نفيسة في مجلة المجمع أهمها بحثه في النقود العراقية الذي جاء بشكل تعليق على كتاب الأب انستاس الكرملي في النقود العربية وعلم النميات، وهو بحث مسهب يشكل كتاباً متوسطاً قائماً بذاته. وترجم يعقوب سركيس في أخريات أيامه الفصول المتعلقة ببغداد من رحلة أوليا جلبي، نقلها عن اللغة التركية وشرع بكتابة الحواشي والتعليقات مما قدر له أن يتجاوز المتن، لكن الزمن لم يسعفه لإنجازها.

وطريقته في الكتابة والبحث أن يراعي الدقة ويتحرى التفصيل، لكن قلمه لم يكن يطاوعه ـ على ما كان يقول ـ فكان يصرف في كتابة البحث أو المقالة أياماً وأسابيع يراجع المصادر وينقل النصوص ويزن كل كلمة وعبارة خشية مجانبة الحق أو إساءة التعبير. وكان قلما يعنى بطلاوة الأسلوب وجمال الصياغة، فلم يكن يعتبر نفسه أديباً وإنما كان يرمي الى الإفادة دون أن يهمه الإمتاع. وكنت أعرض عليه أحياناً شيئاً من شعري أو كتاباتي الأدبية فكان يقرأها بإمعان ثم يقول متواضعاً في صراحته المعهودة: «لعل هذا جيد، ولكنني لا أستطيع الحكم». أو ما كان في هذا المعنى. ومن أمثلة دقته أنه كتب ذات يوم يرد على أحد الأدباء في موضوع تاريخي فأشار الى إسم الكاتب «فلان الملقب نفسه بالفلاني». فلما سألته لماذا لم يكتب «فلاناً الفلاني» كما هو المألوف قال «إن هذا الرجل يدعي الانتساب الى قوم مضوا، فإذا ذكرت اسمه على علاته حسب مني ذلك إقراراً بنسبه».

ولقد تحدثت قبل سنوات طويلة عن يعقوب سركيس البحاثة المؤرخ فقلت: حظي يعقوب سركيس بالصفات المطلوبة في المؤرخ المحقق، فأولع منذ حداثته بتتبع الأخبار واستقصاء الأنباء، وأوتي جلداً على التمحيص والتنقيب، ومعرفة بلغات تعين على الإستطلاع والاستقراء، وبصيرة نقادة تحاكم الوقائع وتميز بين المعقول والمختلق، وغيرة على الحقيقة لا ترضى عن الصدق بديلاً، وروحاً علمياً ينزع الى التدقيق والتحقيق يذلل الصعاب ويهزأ بالنصب والعناء. ورزق الى جانب ذلك قلما إن يكون رزين العبارة غير مشرق الديباجة، فإنه واضح الأسلوب قريب المتناول بعيد عن التعسف والتكلف لائق بالبحث العلمي التاريخي. إختص سركيس بعهود مجهولة من تاريخ هذه البلاد وأتيح له أن يجمع وثائق ومخطوطات نادرة ثمينة ذات صلة بهذه الحقبة من الزمن وأن يرث من أسرته أوراقاً يرجع أقدمها الى نيف ومائة سنة، ويحوي بعضها معلومات ذات شأن لم ترد في مرجع معروف ويفسر وجودها هذا الميل المتأصل في نفسه الى التحقيق والتدوين.

ومن أثمن ما ضمته خزانة كتبه مجموعة كبيرة منقطعة النظير من الرحلات الى العراق لمختلف الرحالين الـذين أتوا هذه البلاد منذ أقدم العصور حتـى عهدنا الحاضر. وهذه المجمـوعة التي بـذل صـاحبها في سبيل الحصـول عليهـا جهداً ومـالاً وفيرين، كتبت بلغـات مختلفة وفيهـا المطبوع والمخطـوط، ومعظمها نـادر عسير التطلاب. وإذا كـان بحاثتنا قد جـد في طلب هذه المصادر القليلة الشهيرة وأنعم النظر في ثنايـاها، فلا بدع أن جاءت أبحاثه غزيرة المادة طريفة الموضوع كـاشفة لمناح مجهولة من تاريخ هذه البلاد في الأزمنة الأخيرة. ولا شك أن هذه الأبحـاث سوف تبقى أسانيد تاريخيـة جليلة القدر كبيرة القيمة.

لقد عرفت الراحل الفاضل عشرين سنة ونعمت بصحبته وتمتعت بأحاديثه وأخذت من علمه وفضلـه وطالعت من مكنونـات خزانته مـا شئت ورغبت، فوجدتـه، على ما بيننا من فارق السن، نعم الصديق الوفي الكريـم والرجل المهذب الوقور والعالم المتخلق بأفضل الأخلاق والمتبع لسنن العدالة والحق والمتسم بالرصانة والصراحة والصدق. لقد كان عصاميـاً بالرغم من ثروته وجـاهه، وكان معتدلاً في كل أمـوره مبتعداً عن التفريط والإفراط، وكان حليماً واسع الصدر متواضعاً للصغير والكبير، فيا لأسفي على فقده ويا للوعتي وأسـاي على وفاته. إن الجيل الذي أنجبـه قد مضى وانطوى في ذمـة التاريخ، وقد بقي فقيدنا الى آخـر أيامه مثالاً حياً لآبائنا الجادين الأخيار البسطـاء وأنموذجاً طيباً لأحسن صفاتهم وشمائلهم. فيا أيها الشيخ النبيل والـراحل الفاضل الجليل، لقد آلمني المصاب وأخـرسني الحزن والشجن، فماذا أقول في تأبينك وكيف أثني عليك وأعـدد ما شهـدت من مزايـاك وسجايـاك؟ إنك حي في نفوس عـارفيك، مأثور الفضل منشـور الذكر، وقديماً قال المتنبي:

كفل الثنـــاء لـــه بـــرد حيـــاتـــه   لما انطـــوى فكأنـــه منشـــــور

آثاره ومصادره:

إن أبحاث يعقوب سركيس ودراساته سـوف تبقى مصدراً من مصادر تاريخ العراق في العهد العثماني الأخير يـرجع اليها مؤرخ المستقبل في تحقيق مـوضوعه وتدوينـه. وقد كان فقيدنا مولعـاً بمباحثه يحبها حباً جماً ويتلذذ بكتابتها وتـدقيقها وإعادة النظر فيها. وكان يقـول: «أظن كتاباتي جيدة، ولكنني كـالأب يحب أولاده في جمالهم ودمامتهم». وكان يتبجح ـ وهو الرجل المتواضع الذي يـؤثر العزلة ويتحاشى الظهور ـ فيقول: «إن المصادر التي هيئت لي قلما هيئت لغيري. . ».

إن دراستنا لسيرة البحـاثة الـراحل لا تكون كاملـة إذا لم نردفها بنظـرة عامـة في آثاره ومـراجعـه. إن كتـابات يعقـوب سركيس التي دونها ونشرهـا خـلال حقبـة تنيف على

الأربعين سنة تتناول مواضيع شتى وتستند جميعها الى مراجع مخطوطة أو نادرة. ومن أهم هذه المواضيع:

١ ـ تاريخ المنتفق وآل السعدون، وقد كتب في هذا الموضوع صفحات كثيرة اعتمد في أغلبها على وثائق ذات شأن وصلت إليه من أبيه الذي كان وثيق الصلة بآل سعدون.

٢ ـ خطط بغداد وآثارها كمنارة سوق الغزل وجامع الخلفاء والمدرسة المستنصرية وجامع قمرية والمدرسة العمرية ودار المسناة والقصر العباسي وخان جغالة زادة المعروف بخان جغان الخ.

٣ ـ بحوث أثرية كموقع خرائب تلو (تل هوارة) وواسط وطاق كسرى.

٤ ـ بحوث في طائفة من مدن العراق كالبصرة والنجف والعمارة والكوت والبغيلة وآلتون كوبري.

٥ ـ بحوث في الملل والنحل كاليزيدية وعقائدهم.

٦ ـ تراجم أشخاص كنظمي وآله وإبراهيم يحيى العاملي وحكيم زاده البغدادي.

٧ ـ شؤون العشائر كآل قشعم وقبيلة العزة.

٨ ـ طرائف تاريخية كرحلة أول عراقي الى العالم الجديد وظهور حوت في دجلة والأسود في العراق واشتداد الحر وسقوط الثلج ومقاييس الماء وظهور أول سيارة وأول طيارة في بغداد وهلم جرا.

٩ ـ مباحث في تاريخ العراق الاقتصادي. وضع يعقوب سركيس دراسات ذات قيمة في هذا الموضوع. وقد سألته ذات مرة أن يجمع هذه الشذرات والمقالات بين دفتي كتاب يطلق عليه اسماً ذا دلالة على الموضوع، فقال إنه يؤثر إدراجها في محلها من مجموعة مقالاته بحسب تسلسل تاريخ كتابتها. وقام فعلاً بذلك فنشرها في القسم الثاني من مجموعته «مباحث عراقية» فاستوعبت زهاء ١٦٠ صفحة من القطع الكبير. ويصح أن يضاف إليها بحوث أخرى منها «بعثة جسني رائد الفرات» بصدد الملاحة في هذا النهر (مجلة دار المعلمين العالية ـ ١٩٤٨) ورسالة مطولة في «النقود والنميات» (مجلة المجمع العلمي العراقي ـ ١٩٥٠) الخ.

وأستطيع أن أقول إن إقدام يعقوب سركيس على تدوين مباحث في التاريخ الاقتصادي قد كان بطلب وإلحاح مني. فقد تعرفت عليه في مجلس أنستاس الكرملي في سنة ١٩٤٠ فلم ألبث أن دعوته الى الكتابة في مجلة غرفة تجارة بغداد التي كنت أشرف على تحريرها، كما دعوت فريقاً من أفاضل الكتاب والعلماء أمثال انستاس الكرملي وعباس العزاوي ويوسف غنيمة ومصطفى جواد وداود الجلبي وهاشم جواد وعبد القادر رشيد وشيت نعمان وغيرهم.

وقد واصـل يعقوب الكتـابة في هذه المجلـة من سنـة ١٩٤٠ الى ١٩٤٤ ، فتناول في مواضيعـه مبدأ زراعـة بعض الثمار والخضر في وادي الرافـدين ، وتاريخ التبـغ والقهوة والنقود العثمانيـة وآخر العهـد بضربها في بغداد، وواردات العراق بين عهـدين، ورسم الاستهلاك في القرن التـاسع عشر، وكمرك بغداد في عهد السلطان مراد الـرابع، وتعرفة الاحتسـاب، وواردات المنتفق، وتجارة البصرة في صـدر المائة الماضيـة وهلم جـرا. وفي وسعي أن أقول إن كل كلمـة خطها وكل رقم ذكره يستند الى مصدر مـن كتاب قديم أو رحلة نادرة أو وثـائق وأوراق خطية عثر عليها في الـزوايا والخبايا. ومن المعلـومات التي حققها أن زراعة الطماطة والفاصولية والبطاطة حديثة عهد في هذا القطر، وإن التتن قد عرف في العـراق منذ مطلع القرن السـابع عشر وعرفت القهـوة قبل ذلك، وقد بني أول مقهى في بغداد سنة ١٥٩٠ م. وكانت واردات ولايـات العراق الثلاث في أواخر العهد العثماني قبل الحرب العظمى الأولى ـ على مـا خمنه ـ لا تزيـد على ٩٠٠ ألف ليرة. وكان والي بغداد مفوضاً بسك النقود في دار الضرب (السكـة خانة) ثم انقطع الضرب في سنة ١٨٣٥ على عهد الوالي على رضا باشا اللاز.

أما مصـادر يعقوب سركيس التي كـان يرجع إليهـا في تدوين مبـاحثه فأهمهـا، بلا ريب، رحلات الرحـالين الذين أموا العراق في القرون الماضيـة. وقد جمع في مكتبته من هـذه الـرحلات الشيء الكثير ولا سيما كتب الـرحـالين الإفـرنج الذين جـاؤوا الى بـلاد الـرافـدين منـذ سنة ١٥٦٥ الى أوائل القـرن العشرين. وهـذه الكتب بلغـات مختلفـة كـالفرنسيـة والإنكليـزية والإيطـاليـة والألمانية والتركيـة، ومعظمهـا مطبوع قبل مئـات السنين، وهي تجلو صفحـة خفية من تاريخ هذا القطـر وأحواله المعاشيـة والاقتصادية والسياسية.

ومن المصادر النادرة التـي هيئت لبحاثتنا وثائق آل سعدون التـي سبق الإشارة إليها وأوراق ورسائل لآل عبود أسرة والدته ـ وترجع هذه الأوراق الى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ــ وقد استخرج منها فوائد كثيرة تتعلق بأخبـار العراق وتجارته في ذلك العهد. وقد رأيت لديه سجلات يوميـة مخطوطة لعدد من الأشخاص باللغات الفرنسية والإنكليـزية والإيطالية، منهـا ما يعود الى أوائل القرن الماضي وكـان يرجع إليها بين الحين والحين لاستخراج معلـومات طـريفة وأخبـار فريـدة. ولا ريب أن أهم تلك السجلات يوميات يوسف زفوبودا البغدادي المتوفى سنة ١٩٠٨ كان هذا الرجل كاتباً في باخرة شركة لينج التي كانت تمخـر عباب دجلة بين البصرة وبغداد، وقد حرص على تدوين مذكـراته يوماً فيومـاً باللغة الانكليزية خـلال ٤٦ سنة فجاءت في ٦١ دفتراً وقع أغلبها في يدي يعقوب سركيس. كان زفوبودا يدون يومياً ما يسمعه من الأخبار والوقائع وما يحدث له من الأمور غثّها وسمينهـا، وقد كتب آخر كلماته قبل يومين اثنين فقط من وفاته.

إنني لأذكر هذه الدفاتر جيداً فهي على وفرة عددها بحجم واحد تفتح طولاً ومجلدة بجلد أحمر وقد كتبت بخط دقيق ظهر عليه الضعف واضحاً في الدفتر الأخير. ولغة الكاتب الانكليزية تتسم بالركة والخطأ، وأكثر مدوناته لا تعدو أخباراً شخصية أو عائلية تافهة، حتى ليحتاج قارئها الى حظ وافر من الصبر والجلد. ومع ذلك عكف يعقوب سركيس على مطالعتها سنين طويلة ووضع لها فهارس وجداول واستخرج من آلاف سطورها طائفة من الأخبار والوقائع والطرائف. وحري بالذكر أن معظم هذه الدفاتر آلت الى بحاثتنا قبل أعوام طويلة، ثم وجد في السنوات الأخيرة عدداً من الدفاتر الناقصة فكان فرحه بها عظيماً أشدّ من فرح الطفل بدمية جديدة يعثر عليها. وكانت معرفة سركيس باللغة الانكليزية ضئيلة فكان يستعين بي وبغيري من الأصدقاء لترجمة ما يريد من أخبارها.

يعقوب سركيس ومخطوطاته

خلف لنا أناتول فرانس، أديب فرنسة الفذّ، في بعض رواياته شخصية حيّة عجيبة هي شخصية «سلفستر بونار» عضو المجمع العلمي الذي يمثل البحاثة المدقق المنصرف الى التنقيب والتحقيق، المعتكف بين كتبه وأوراقه، الناظر بروحه وفكره الى زمان سالف. أولع الأستاذ بونار في صدر شبابه بالتحقيق التاريخي حتى انشغل به عن الزواج. واختص بتاريخ القرون الوسطى التي حجبتها سدل من الظلام كثيفة، فأكبَّ على دراسة مظانّها وتحرّي أخبارها وكشف مجاهلها.

وقف صاحبنا اتفاقاً، في بعض المراجع القديمة، على ذكر مخطوطة فريدة في بابها تضمنّت طرفاً نادرة من أنباء الحقبة التي أنفق عمره في تحقيق تاريخها، فهام بها وهو لا يدري أباقية هي في إحدى الزوايا أم قد ذهبت بها يد الحدثان. أصبحت هذه المخطوطة العدمليّة منية فؤاد أستاذنا، يحلم بها في يقظته ومنامه ويتغزل بها ويشتاق إليها، والأذن تعشق قبل العين أحياناً. ومرت السنون وهو على عهدها مقيم، حتى أتيح له ذات يوم أن وجد اسمها في فهرس لأحد الكتبيّين الإيطاليين. فطار لبه فرحاً بها، وشدّ الرحال الى صقلية في سبيل شرائها، وهو الشيخ الذي مضت عليه ثلاثون سنة في دار واحدة لا يكاد يبرحها. لكنه تجشّم مشاق السفر الى ذلك البلد البعيد ليجد مخطوطته الحبيبة قد انتقلت الى نفس باريس التي خرج منها، فعاد اليها على عجل، والمخطوطة تمعن في الفرار منه، وهو يجدّ في أثرها، حتى حظي بوصلها، ولأياً ما فعل، إذ أهدتها إليه، بعد أن يئس من اقتنائها، جنّية من بنات الإنس راعية للجميل.

لم يدر في خلدي أن آنس ذات يوم بلقاء «سلفستر بونار» بشراً سوياً حتى هيء لي التعرف بيعقوب سركيس المؤرخ المحقق والتنعم بصحبته الكريمة وصداقته النبيلة. أنفق سركيس سنين طويلة في جمع خزانة كتبه التي تضمّنت كل ما استطاع حيازته من مصادر تاريخ العراق، وفي مقدمتها رحلات الرحالين الشرقيين والغربيين الذين زاروا

بلاد الـرافدين خـلال الأعوام الألف الأخيرة، من ابـن جبير وابن بطوطـة وسيدي علي وأوليـا جلبي ودرّي أفنـدي ومصطفى الصدّيقـي وأبي طالب مـرزا، الى بـالبي وتكسيرا وديلا فالي وتيفنو وتافرنية ونيبوهـر وروسو وشيزني وجونس ولوفتس وسون وجرترود بل.
لكن هذه المجموعة الفريدة في بابها قد أعوزتها مخطوطة لا تقوّم بثمن: فقد علم الأستاذ سركيس في أثناء مراجعاته، بوجود رحلة مخطوطـة لرحالة برتغالي قديم مجهول الاسم زار العراق في نحو سنة ١٥٥٤، وكانت هذه المخطوطـة النادرة في حوزة الميجر مارتن هيوم الانكليـزي في مطلع المائة العشرين. أشار الى هـذه الـرحلة البرتغـالية المستشرق غـاي لسترانج في هامـش كتابه «أراضي الخلافـة الشرقية» مستنـداً في ذكرهـا الى ما كتبـه عنها مـالك نسختهـا الفريـدة نفسـه في صحيفـة «الأثينيوم» في عـددهـا المؤرخ في ٢٣ آذار ١٩٠١ ولم يقرأ بحاثتنـا العراقي خبر هذه الرحلة في هـامش لسترانج حتى ملكت لبّه وشغلت بـاله، فشرع يبحث عن عـدد الصحيفة الانكليزيـة التي وصفتها. لكـن هذا العدد نفدت نسخه، وقد مرّت على صدوره عشرات الأعوام، فلم ينل ذلك من عزيمة البحاثـة المحقق، بل استمر على طلبه حتى وفّق للحصـول على نسخة منه ــ بعد بضع عشرة سنة! وقد سرّه أن يجد على صفحات هذا العدد رسالة من الميجر هيوم يصف فيها مخطوطته المجهولـة المؤلف ويسأل القراء أن يرشدوه الى صاحبها الـذي خرج من لشبونة في منتصف القـرن الســادس عشر، وجـاب أوربـة غـربيّهـا وشرقيهــا، ثم عـرج على الأناضـول وسوريـة وفلسطين ومصر ووصل أخيراً الى وادي الرافـدين والخليج العربي.
وقد كتب البرتغـالي الذي غمـر اسمه وشخصـه حجاب النسيان يصـف البلدان التي زارها والمغامـرات التي خاضها في رحلته الطويلة الشـاقة، فكانت مدوّناتـه بعد مئات السنين سجلاً رائعاً لعهود بعيدة وأقطار مغمورة.

يـا لسرور الأستـاذ بـالعثور على وصـف مخطوطتـه الحبيبـة بقلم من حـاز نسختهـا الوحيدة! لكن هذا الوصف لم يكن ليبلّ الغلّة، بل إنه لم يكن إلا ليزيد الظمأ الى الرحلة الموصوفة كما يشتدّ جوع الجائع عند ذكـر الطعام السائغ المريء. فكيف الحصول عليها وأين الوصول إليها؟ لقد امتلكها ضابط انكليزي في مطلع القرن، فماذا فعل الدهر بهذا الضابـط وماذا حلّ بمخطـوطته الثمينة؟ أهـي لا تزال في قيـد الوجود خبيئـة في بعض الزوايا، أم قد ذهبت بها يد العبث والإهمال فزال أثـرها ورال بزوالها آخر سجلّ لمغامرات عجيبة شـائقة؟ أم لعلها قد وقعت في قبضـة هاوي كتب متبلّد الـذهن، فعضّ عليها بالنواجذ وضمّها في خزانة مغلقة ينفس عليها نور الشمس وأعين الناس. لقد نقب بحـاثتنـا وأمعن في التحقيق والتـدقيـق، وراجع فهـارس دور الكتب وقـوائم الكتبيّين والهواة، وكتب الى «لوزاك» وأمثال «لوزاك» من قنـاصة الآثار الشرقية النادرة. ولكن هيهات أن يجد الى ضالتّه المنشودة سبيلاً.

وقد أهـديت كتب يعقـوب سركيس ومخطوطـاته بعـد وفاتـه الى جامعـة الحكمة في

بغداد، فعهد الى كوركيس عوّاد بوضع فهرست للمخطوطات صدر سنة ١٩٦٦ ثم نقلت الى مكتبة المتحف العراقي في تموز ١٩٧١

كان ليعقوب سركيس دائرة معارف بريطانية تتألف من عشرات الأجزاء مطبوعة قبل سنة ١٩٠٠، وكان يعتز بها كل الاعتزاز. وقد اشترى طبعة جديدة بعد ذلك، لكنه بعد أن أهدى الطبعة القديمة عاد فاسترجعها وضمّها الى مكتبته. وقد سألته عن السبب فقال: إن طبع الكتب والجرائد واستيرادها كان ممنوعا في عهد الاستبداد الحميدي يعاقب عليه بأشدّ العقوبات، لا سيّما تلك التي تذكر الحرية والحقوق المدنية والثورة والتاريخ الحديث. وقد سافر صديق له الى أوروبة سنة ١٩٠٠ فكلفه بجلب دائرة المعارف له، فتحمل مشقة كبيرة في إدخالها الى ميناء البصرة وحملها الى بغداد خوفاً من الكمارك والرقباء. ووضعها يعقوب سركيس في مكان خفيّ من داره حذراً من العيون يطالعها سراً، حتى إذا ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ وتم تحرير المطبوعات، أخرجها الى النور بلا وجل.

كان يعقوب سركيس يمتلك مخطوطاً في تاريخ آل سعود والوهابيين كتبه أحد كتابهم في نحو سنة ١٨٧٥ وقد ترك المؤلف خدمتهم والتحق بخدمة آل سعدون في المنتفق، فأجرى في مخطوطته بعض التصليحات.

وكان يعقوب سركيس يحرص على هذه المخطوطة ويعدّها فريدة في موضوعها، وقال لي إنه يرضى ببيعها الى الحكومة السعودية إذا دفعت فيها ثمناً كبيراً، لا سيّما أنها تقبض إيراداً جسيماً من مواردها النفطية.

ودعونا الشيخ عبد الله الخيّال سفير المملكة العربية السعودية في بغداد ورفائيل بطّي لفحص المخطوطة، فأبدى السفير اهتمامه بها ووعد أن يكتب الى حكومته حاثاً إياها على شرائها. ولكن لم يحصل أي نتيجة.

ولما توفي يعقوب وقام أخوه يوسف بإهداء مكتبته الى جامعة الحكمة، أخبرته بقيمة المخطوطة، فآثر الإحتفاظ بها ولم يهدها مع الكتب والمخطوطات الأخرى التي آلت بعد ذلك الى الحكومة العراقية عند تأميم الجامعة.

هذا وقد جمعت مقالات سركيس في كتابه «مباحث عراقية: في الجغرافية والتاريخ والآثار وخطط بغداد الخ. (الجزء الأول ١٩٤٨، الثاني ١٩٥٥). وله أيضاً: تلّو أي تل هوارة (١٩٣١) شهداء حلب (١٩٣٤) التتن والقهوة في العراق (١٩٤١) كمرك بغداد في عهد السلطان مراد الرابع وخلفه السلطان إبراهيم (١٩٤٢) واردات العراق بين عهدين (١٩٤١). وعني بنشر الجزء الثالث من «مباحث عراقية» معن حمدان علي سنة ١٩٨١

أصيب يعقوب سركيس في السنتين الأخيرتين من حياته بمرض الشيخوخة فصار

ينسى الحوادث القريبة. سألته يوماً عن الجزء الثالث من مباحثه العراقية الذي جمع مقالاته وهيأها للنشر فقال لي لا أذكر ذلك. ثم سألته عن مجيء سليمان البستاني مترجم الإلياذة الى العراق قبل سبعين سنة، فانبرى يذكر التفاصيل بدقة وقال إن البستاني جاء الى بغداد والبصرة وأقام فيهما ثماني سنين ومارس التعليم والتجارة واقترن بفتاة عراقية. . ولم ينس بحاثتنا الشيخ الأحداث التي مرت قبل عشرات السنين.

رشيد السعدي

محمّد رشيد بن داود السعدي، كان أبوه الشيخ داود من علماء بغداد وعيّن مدرساً ومفتياً للمنتفق سنة ١٨٥٥ ثم تولّى إفتاء الجيش في الاحساء وألف رسالة في «طريق الحج من الاحساء الى الرياض فالحجاز» طبعت سنة ١٨٧٢ وتوفي ببغداد سنة ١٨٧٦

درس محمد رشيد على علماء عصره وأنشأ مطبعة في بغداد سنة ١٩٠٣ وألف كتباً منها: غاية المراد في الخيل والجياد (١٨٩٦) قرّة العين في تاريخ الجزيرة والعراق وبين النهرين (١٩٠٧)، ونشر من الكتب: سبائك العسجد لعثمان ابن سند (١٨٩٧!) وديوان الشيخ كاظم الأزري (١٩٠٢)وقد طبعت تلك الكتب جميعها في بومبي بالهند.

قال إبراهيم الدروبي في كتابه «البغداديون»: «كان هذا الرجل أعجوبة في قوة الحجة وبعد النظر والاطلاع الواسع على قياسات أغلاط أهل المنطق، يناظر ويبحث في علوم الملل والأديان فلا يجعل للخصم حجة ولا يبقي له كلاماً. كان آية في عرض الكلام في معارض بلاغية متنوّعة. . ».

كان له شعر، وتوفي ببغداد سنة ١٩٢١

الدكتور سليمان غزالة

الطبيب الشاعر الأديب الدكتور سليمان غزالة، وهو عبد الأحد سليمان بن جرجس بن يوسف غزالة، ولد ببغداد في ٢١ أيلول ١٨٥٣ ودرس فيها. ثم قصد الموصل لمواصلة الدراسة، وعاد الى مسقط رأسه سنة ١٨٧٠، وعيّن معلماً في مدرسة الأليانس الأهلية (١٨٧٣)، وشدّ الرحال بعد ذلك الى بيروت سنة ١٨٧٩ فكان معلماً بمدرسة اليسوعيين، لكنه أكبّ على الدرس في الوقت نفسه.

وسافر الى باريس في السنة التالية فانتمى الى كلية الطبّ (١٨٨١) وتخرّج طبيباً سنة ١٨٨٦ واختصّ بالقبالة وطبّ العيون والبكتريولوجية ثم عاد الى الاستانة سنة ١٨٨٧ وحصل على وظيفة طبيب صحة العراق.

وقد وصل الى البصرة في حزيران ١٨٨٨، وجعل مقرّه في الحلة، وعهد إليه بمكافحة وباء الهيضة والطاعون في الألوية الجنوبية. وفي سنة ١٨٩٣ أوفد بمهمة صحية الى طور سيناء، ورحل منها الى الاستانة وسيواس ونواحي الأناضول وحلب في سبيل أداء أعماله الطبية.

عيّن طبيباً في طرابلس الغرب في كانون الأول ١٨٩٥، ثم نقل الى دمشق سنة ١٨٩٧ وتوفيت زوجته الأولى صوفي كرومي، فسافر الى باريس مجازاً. وتعرّف بالأديبة الفرنسية جان التي اشتهرت باسمها المستعار غي دافلين GUY D'AVELINE واقترن بها في العاصمة الفرنسية في ١٢ آب ١٨٩٧، وعمرها آنذاك نحو ٣٠ سنة.

وعاد الدكتور غزالة بزوجته الى الأستانة فأعيد تعيينه الى طرابلس الغرب (شباط ١٨٩٨). وظلّ فيها الى الاحتلال الإيطالي، فغادرها الى مالطة (تشرين الأول ١٩١١)، ومن ثمّ قصد الأستانة فعيّن طبيباً للسفارة التركية في طهران. وقد وصل إلى إيران في آذار ١٩١٢، واختير رئيساً لمجلس الصحة الدولي في العاصمة الفارسية في تشرين الأول ١٩١٤ الى كانون الثاني ١٩١٦

وقد رجع الى بغداد بعد غياب طويل في كانون الثاني ١٩٢٠ واتخذ مقامه في البصرة وانتخب نائباً عنها في المجلس التأسيسي (أيار ١٩٢٤)، وبعد ذلك في مجلس النواب (١٩٢٥ ـ ٢٨). وأدركته الوفاة في بغداد ١٨ تشرين الأول ١٩٢٩

مؤلفاته

وضع سليمان غزالة مؤلفات كثيرة بالعربية منظومة ومنثورة، منها: رواية لهجة الأبطال (١٩١١) سوانح الفِكَر (١٩١٥) سوانح الكَلِم (١٩١٥) السّبيل الأقصد (١٩١٧) سبب الموت الطبيعي (بالعربية والفرنسية)، القصيدة الفيصلية (١٩٢٤) الحرية فلسفياً (١٩٢٤) الاعتماد على النفس (١٩٢٧) المعضلة الأدبية (١٩٢٧) حياتي الشخصية والوظائفية (١٩٢٩) الخ.

وصنّف «الوضيعة في الحكمة الخلقية في ١١ كتاباً (١٩٢٤ ـ ٢٧)، وهي تتناول: الحياة الاجتماعية (١٩٢٤) منهاج العائلة (في جزءين ١٩٢٤ ـ ٢٦) خلاصة أركان الاقتصاد السياسي (١٩٢٦) العشق الطاهر (١٩٢٥) القصيدة الفردوسية (١٩٢٤) تاريخ الحرية البشرية (١٩٢٦) الهوى (١٩٢٦) الحبّ البشري (١٩٢٦) خلاصة الأدب الرياضي العملي (١٩٢٧) الاقتصاد السياسي (١٩٢٧) الأدب النظري العمومي (١٩٢٧).

أما زوجته الثانية الفرنسية فكانت روائية معروفة ولها مشاركة في الفنّ كالرسم بالزيت على قماش الكتان. ولدت سنة ١٨٦٧، وعاشت مع قرينها في طرابلس الغرب وطهران والبصرة وبغداد وتوفيّت بعده. ونشرت باسمها المستعار «غي دافلين» روايات لطيفة باللغة الفرنسية أشهرها «أتيلا» ملك الهون الذي دمّر الحضارة الأوروبية في القرن

الخامس الميلادي، وكان يقال إنّ العشب لا ينبت حيث وقعت سنابك خيله. وقد قال الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) في هذا الفاتح الطاغية:

إنّ آتيــــلا، ومــــا كــــان ســـوى ... نقمـــــــــــة الله وسيــف الغضـب
مــــــلأ الأيـــــام هــــولاً ودمــــاً ... فحَشَــــاهــــا خـــافـق من رهـب
وهـــــو المأثـــور عنـــه قـــولـــه ... في سبيل الفخـــر فـــاسمـع واعجب:
«لم يغـــادر بي جـــوادي تـــربـــة ... وعليهـــــا أثـــــر للعشـب!»

ومن رواياتها الأخرى: رسّام السيّدة، سكن بيننا، كنز علي خوجه، نجم بزغ، وردة الشواطىء، مريم المجدليّة (١٩٢٧) الياقوت القتّال (١٩٢٧)، الخ.

وكان للدكتور غزالة وقرينته، بعد إقامتهما في بغداد سنة ١٩٢٤، مجلس يؤمّه رجال البلد وتبحث فيه موضوعات العلم والأدب والفن والاجتماع.

آغا بزرك الطهراني

الشيخ محمّد محسن بن علي الرازي المؤرخ البحاثة المعروف باسم «آغا بُزُرْك الطهراني»، ولد بطهران في ٧ نيسان ١٨٧٦ ودرس على علمائها.

قدم النجف سنة ١٨٩٥، فتتلمذ على يد الشيخ محمد كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الأصفهاني والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمّد طه نجف وغيرهم. ثم قصد سامرّاء ولازم محمد تقي الشيرازي أعواماً. وعاد الى النجف سنة ١٩٥٥ فانصرف الى التأليف والتصنيف. وجمع خزانة كتب حفلت بنفائس المطبوع والمخطوط، وقفها على طلبة العلم سنة ١٩٥٥ ورحل الى إيران والهند وسائر الأقطار الإسلامية والعربية بحثاً عن المصادر للموسوعة التي عكف على وضعها في تصانيف الشيعة.

توفي بالنجف في ٢٠ شباط ١٩٧٠

قال فيه سلمان هادي الطعمة: «إنّ هذا المفكر الذي عرفته عالماً بارعاً وأديباً فذاً ورجل بيان أمضى حياته بالتتبّع والدراسات العميقة، أوتي مكانة فريدة في الثقافة الجامعة وأحاط بأسرار اللغتين العربية والفارسية. . .».

وضع مصنفات كثيرة أهمها: الذريعة الى تصانيف الشيعة (صدر منه ١٨ جزءاً في ٢١ مجلداً، ١٩٣٧ ـ ٦٧)، الكرام البررة (في جزءين ١٩٥٤ ـ ٥٨)، نقاء البشر في القرن الرابع عشر (٤ أجزاء ١٩٥٤ ـ ٦٨). وله أيضاً: حياة الشيخ الطوسي (١٩٥٧) ذيل كشف الظنون (١٩٦٧) المشيخة (١٩٣٧) مصفّى المقال في مصنّفي علم الرجال (١٩٥٩) الخ.

اسماعيل باشا البابان

من فضلاء الأسرة البـابانية اسماعيل بـاشا المعـروف بالبغدادي أو النـوري ابن محمد أمين باشـا بن سليم بـاشا، ولد ببغـداد ودرس في استانبـول. وكان من رجـال الجيش التركي في عهد السلطـان عبد الحميـد الثاني، نـال رتبة أمير لواء. وكـان آخر منـاصبه مديـرية الشعبـة الثانيـة لدائرة الضبطيـة (الشرطة) في استـانبول قبل أن يعتـزل الخدمة وينصرف الى التأليف.

إشتهر بكتابـه «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنـون» (طبع في مجلدين سنة ١٩٤٥ ـ ٤٧)، وقـد أنفق في تأليف هذا الذيل نحـواً من ثلاثين سنة وفـرغ من تصنيفه سنة ١٩١٢ وألف أيضاً «هدية العارفين» في أسماء المؤلفين وأثار المصنّفين (في مجلدين ١٩٥١ ـ ٥٥).

توفي إسماعيل باشا في استانبول سنة ١٩٢٠

قال عباس العزاوي إنه كان دؤوباً على العمل، عارفاً بالكتب والمخطوطات، وكان الى ذلك خطاطاً ماهراً يشار اليه بالبنان.

يوسف رزق الله غنيمة

الوزير البحاثة الأديب يوسف رزق الله غنيمة ولد في بغداد في ٩ آب ١٨٨٥ وتوفي في لندن التي قصـدها مستشفياً في ١٠ آب ١٩٥٠ كـان وزيراً للمالية والتمـوين وعضواً بمجلس الأعيان ومديرا عاماً للآثار الخ.

من مـؤلفاتـه: تجارة العراق قـديماً وحديثاً، نـزهة المشتـاق في تاريـخ يهود العراق، محاضرات في مدن العراق، الحيرة: المدينة والمملكة العربية الخ.

أسهبت في ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

***

نشر المحامي حارث ابن يوسف غنيمة كتاباً في سيرة والده: يوسف غنيمة من أركان النهضـة العلمية في العـراق الحديث (طبع ببغـداد، ١٩٩٠) وكـان قد نشر أيضـاً قبل ذلك «يوميات يوسف غنيمة: رحلة الى أوروبا ١٩٢٩» (بغداد، ١٩٨٦).

ذكر حارث ان الجدّ الأعلى للأسرة القسّ يشوع بـن الشماس غنيمة كان من النساطرة متزوجـاً حسب عادة الكهنة الشرقيين، وكان يقيم في بغـداد في النصف الأول من القرن السابـع عشر. وانتمى حفيده عيسى بن الشماس غنيمـة الى الكنيسة الكـاثوليكيـة سنة ١٧٤٣ أما والد يـوسف، وهو رزق الله غنيمة، فكان رئيس كتـاب المكوس في بغداد

وتوفي في الثامنة والثلاثين من عمره. ولما ولد يوسف سمي يوسف نعمة الله قرياقوز لكنه عرف باسمه الأول. وتوفي والده وهو في الخامسة من عمره فكفتله والدته ورعاه عمّاه شكر الله ونصر الله.

درس في المدرسة الكلدانية الابتدائية ثم انتقل في أوائل سنة ١٨٩٨ الى مدرسة الأليانس وتخرج فيها سنة ١٩٠٢، وقد تعلم فيها اللغات العربية والفرنسية والانكليزية وشيئاً من التركية والعبرية إضافة الى العلوم والرياضيات والجغرافية والتاريخ. وألم بعد ذلك باللغة السريانية، ودرس العربية على الأب انستاس ماري الكرملي. وافتتح سنة ١٩٠٦ محلاً تجارياً وحصل على وكالات لاستيراد المضخّات والمحرّكات الخ.، وأسس فندقاً عصرياً بعد الاحتلال البريطاني. وأنشأ سنة ١٩٠٩ بالاشتراك مع المعلم داود صليوا جريدة «صدى بابل».

انتخب عضواً في مجلس إدارة لواء بغداد (شباط ١٩٢٢)، وتولى تدريس تاريخ المدن العراقية في مدرسة المعلمين العالية المؤسسة في كانون الأول ١٩٢٣ وانتخب نائباً في المجلس التأسيسي (١٩٢٤) وكان مقرراً للجنة تدقيق لائحة القانون الأساسي. وأصدر جريدة «السياسة» اليومية في ٣ آذار ١٩٢٥، الى ٣ تموز ١٩٢٥، وانتخب نائباً عن لواء بغداد (حزيران ١٩٢٥) ثم أوقف صدور جريدته.

أصبح وزيراً للمالية (١٩٢٨ ــ ٢٩) و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ــ ٣٥ و١٩٣٥، ووزير التموين (١٩٤٤ ـ ٤٦) ووزير المالية (١٩٤٦) مع وكالة وزارة التموين، ووزير المالية (١٩٤٧ـ٤٨).

غادر العراق بإجازة مرضية في تموز ١٩٢٩ قاصداً الاستشفاء فزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر وإيطالية وفرنسة وانكلترة وعاد عن طريق فرنسة وايطالية وتركية وسورية ولبنان في تشرين الأول ١٩٢٩

أعاد إصدار جريدة السياسة بعد تعطيل جريدة نداء الشعب لتكون لسان حال حزب الآخاء الوطني (٣٠ كانون ثاني ١٩٣١) ثم عطلتها الحكومة في ٢٤ آذار ١٩٣١ ثم عين مديراً عاماً للواردات (٢٤ كانون أول ١٩٣٢) فمديراً عاماً للمالية (١٦ حزيران ١٩٣٤) فوزير المالية (٢٧ آب ١٩٣٤) نائب بغداد (كانون أول ١٩٣٤) الى نيسان ١٩٣٥ وزير المالية (٤ آذار ١٩٣٥) الى ١٦ منه. عين مديراً عاماً للمالية للمرة الثانية (٢٧ حزيران ١٩٣٥)، تولى مديرية الأملاك والأراضي الأميرية العامة أيضاً بالوكالة (تموز ١٩٣٥) ثم عين مديراً عاماً للمصرف الزراعي الصناعي بالوكالة (آذار ١٩٣٦). ثم نقل من مدير المالية العامة مديراً عاماً للمصرف أصالة (١٢ كانون أول ١٩٣٦). الى ١٩ تشرين ثاني ١٩٤١ حين نقل مديراً عاماً للآثار مع بقائه مديراً عاماً للمصرف بالوكالة الى ١٧ آذار ١٩٤٢ ثم تولى مديرية المصرف بالوكالة أيضاً من ٢٧ تشرين أول ١٩٤٣ الى ١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ بالإضافة الى مديرية الآثار وبعد ذلك مديرية

التموين العامة. وقد قام المصرف بإمداد الزراع بالسلف والتدخل في الأسواق لرفع أسعار المحاصيل كالقطن وبذر الكتان والمساهمة في المشاريع الصناعية كشركة السمنت العراقية وشركة استخراج الزيوت النباتية وشركة تجارة وطحن الحبوب ومشاريع أخرى تتعلق بنسج القطن وأهراء الحبوب ودباغة الجلود وصيد الأسماك.

عين مديراً عاماً للآثار القديمة (٢٠ تشرين ثاني ١٩٤١) وكان نائب رئيس لجنة التموين الاستشارية أيضاً (نيسان ١٩٤٢). ونقل مديراً عاماً للتموين (٢٥ حزيران ١٩٤٤) وأصبح وزير التموين (١٨ تشرين ثاني ١٩٤٤ الى ٢٣ شباط ١٩٤٦ وعين عضواً بمجلس الأعيان خلفاً للبطريرك يوسف عمانوئيل الثاني المستقيل (١٤ أيار ١٩٤٥). ودخل في وزارة أرشد العمري وزيراً للمالية ووزير التموين بالوكالة (١ حزيران ١٩٤٦). وقد استقال من وكالة التموين في ٣١ تموز ١٩٤٦ واستمر في المالية الى استقالة الوزارة في ٢٠ تشرين ثاني ١٩٤٦ وتقلد وزارة المالية أيضاً في وزارة صالح جبر (٢٩ آذار ١٩٤٧)، وتم في عهده تأسيس البنك المركزي الذي عرف باسم المصرف الوطني العراقي (تشرين الثاني ١٩٤٧). واستقال من الوزارة بعد أحداث الوثبة المعارضة لمعاهدة بورتسموث في ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨

تكلمت عن أدبه ومؤلفاته في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية». وقد ذكرت مقالاته التي نشرها سنة ١٩٢٩/ ٣٠ عن «حقوق الفلاح والعامل في العراق». وقد قال هاشم جواد عنه إنه سبق الصحفيين والتقدميين في ميدان المطالبة بحقوق الفلاح والعامل وأشار بكل قوة وحماس الى ضرورة العناية بالطبقة العاملة في المعامل والمزارع. وذكر ما كتبه يوسف غنيمة سنة ١٩٢٩ إن من واجب العدل ومقتضيات النظام الاجتماعي الراقي أن تضمن راحة كل أفراد الأمة وتكفل طمأنينتهم مدى الحياة، فضلاً عن وجوب الاهتمام بإعالة ذويهم بعد موتهم، وذلك بتحديد ساعات العمل وتوفير شروط الصحة في محلات سكناهم وأعمالهم وأمان ومستقبل كل فلاح وعامل وغيرهما ويفكر في وسائل معيشتهم عند العجز والهرم وحلول العاهات، ويقام بإعالة أيتامهم وأراملهم بعد موتهم.

وتساءل هاشم جواد هل قال لورد بيفيريج أكثر مما قاله هذا الرجل العراقي قبله بستة عشر عاماً؟

وقال يوسف غنيمة إن مطالب الفلاح يجب أن تشمل بقاء الحكومة مالكة لرقبة الأرض، وتفويض الأراضي للفلاح والعامل بيده وترجيحه على من سواه، وتشجيع الملكية الصغيرة والحدّ من مساحة الأراضي التي يملكها الشخص الواحد، وتأليف مصرف زراعي ونقابات زراعية، وحماية الإنتاج الزراعي وإيجاد الأسواق له، الخ.

أما مطالب العمال فلخصها في تحديد سنّ العمل وساعات العمل والأجرة الصغرى، وضمان العمال في حالة المرض وعند وقوع الحوادث المهنية وعند الشيخوخة

والعجز، ومعاونة العمال في أيام العطل، ومكافحة البطالة، والمساعدة في إيجاد مساكن صحية ورخيصة، ورفع مستوى التهذيب، الخ.

طـه الـراوي

الكاتب المحقق اللغوي «معلم الجيل» طه الراوي ولد في بلدة عانة المقابلة لراوة على الفـرات (كما أعلمني بذلك ولـده حارث) سنـة ١٨٩٠ وتوفي في بغـداد في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٦ كـان أستاذاً في جـامعـة آل البيت ودار المعلمين العـالية ومـديـراً عامـاً للمعارف وعضو المجمع العلمي العربي في الشام ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. نشرت ترجمته في «أعلام اليقظة الفكرية».

كتب الشاعر المصري علي الجارم إلى طه الراوي يقول:

«هذه والله، يا طه، صلة الـروح التي لا تنفصم وإن بعد المكان وتعاقبت الأزمان. ماذا أكبر فيك؟ والله لا أدري. أهو علمك؟ أهو أدبـك؟ أهو كريم خلقك، أم هؤلاء جميعاً؟ أم هناك أخوة بعيدة المدى منذ خلقت الأرواح لا أعرفها. رأيت كثيراً من العلماء وعاشرت عديـداً من الأدباء وخالطت جمهرة من ذوي الخلق الكريم. فما كـانوا لك ندا ولا لشخصك العظيم في نفسي ظلاً. . »

وقال توفيق السويدي:

«وقد أحببت صديقي الفقيد لميزة زادته في نظـري إعجاباً، وهو أن تفكيره كان بعيداً عن تفكير بعض المعمّمين. وأريد بهذا أن الراوي لم يكن يتسّم بالجمود بل كان يريد أن يساير الزمن ويواكب تطوراته، ولكن تقدّميته هذه كانت تقف عند حدود معيّنة بحكم النشأة والتربية التي نشأ وتربّى عليها.

«وفي رأينا أن المرحوم الراوي كان يعتقد برسالة روحية سامية دأب على التغنّي بها منذ حداثته الى اليوم الذي ودّع فيه الحياة، رحمه الله».

وقال عباس العزاوي:

«. ولا أخـالني مبـالغـاً إذا قلت أن الفقيـد استكمل أدب النفس، وهـو أصل التهذيب الحقّ وأداة العلم الـوافر. ولم يكتفِ بما ذكر، بل خدم بما عنـده مدارك الأمة في تعليمها وتلقينها، ولا زال على ذلك الى أن لفظ نفسه الأخير. فهو أستاذ معروف، وفاق أكثر في تـوجيه اللغة العـربية، وكان وافـر الاطلاع فيها، عـارفاً بحقائقهـا، مشبعاً في حبها. . .».

وقال الدكتور مصطفى جواد في رثائه:

أرى الموت لم يترك لـــذي اللّبّ مفــزعـــاً غـــداة رمى طـــه فأصمى وروّعـــا .
فقـــدنـــا عميـــد الألمعيّين ذا النّهى وذا الـــرأي، محمــود المفـــارس مــونعـــا
هـــوى كهـــويّ العبقـــرّيين لم يكن لقلبهـم صبر على حمل مـــــا وعـى
قضى عمـــره في نصرة العلم ســـالكـــاً سبيل خـــلال الخير مـــا حـــاد إصبعـــا
أبـا هـاشم، أضحى مصـابك شـامـلاً، فكيف التـأسي والأسى قـــد تـــوزعـــا؟
لقـــد كنت لـــلآداب والعلم مـــوئلاً فـــلا غـــرو أن أضحى ممـــاتك مفــزعـــا
وقـــد كنـت قـــوّالاً بحـقّ وآمـــراً بعـــرف ومـــدعـــاة الى الخير مقنعـــا
تسـاميت عن جهل التعصّب مبغضـــاً لأربــــابـــه، عن خبثهـم مترفّعـــا
طـــوتك يـــد الأقـــدار سفــراً مكــرّمــاً ستقــــرأه الأجيـــال أجلى وأنصعـــا

وقال الدكتور زكي مبارك :

فجعـت بـألطـف العلماء روحـــــــاً وأفصحهـم إذا اشتجـــــــر الجدال
أديـب لا يســـــــاميـــــــه أديـب لـــــه في كل معضلـــــة مقـــــال . .

***

كتب أحمد حسن الزيات الى طه الراوي سنة ١٩٣٨ رسالة جاء فيها :

«لا أحب أن أتحدث في هـذه الرسـالة عما أحمل لك في قلبي من جميل الأثـر، وأكنّ لك في نفسي من عظيم التجلّة، فإنّ معرض ذلك في خطاب يشبـه أن يكون رسمياً فيه معنى لا أرتضيه لنفسي. فلأترك ذلك إذن الآن. . . » .

قال طه الراوي :

أميـل مع الحقيقـــــة حيـث مـــــالـت وأجعـل ظـلّ رايتهـــــا شعـــــاري
وأدمغ بـــالـــدليل هـــراء خصمي فـإن مـــــارى فـإني لا أمـــــاري

وكتب معروف الرصافي الى طه الراوي يقول :

أبلغ أبـــا هـــاشـم عنّي مغلغلـــــةً يعجّ فيهـا القـريـض الغضّ شكـرانـا
إنّي عهـــدتك حـــرّ النفس متخّـــذاً لك العـــلا مـأربـاً والصـدق ديـدانـا
نماك جـــدّ كـــريـم للعلى، فلـــذا زكـــوتَ نفسـاً كما قـــد فقت تبيـانـا
ظننتني قـــد هجـــرتُ الشعـــر مُـــذ زمنٍ، وهل أطيـق لحبّ النفس هجـــرانـــا؟

***

طه الـراوي كاتب مشرق البيان، جميل الأسلوب. وقـد كتب في المواضيع الاجتماعية

فدعا الأغنياء الى التنبّه لموجة السخط من الطبقة الكادحة الفقيرة وترك البذخ وإنفاق جزء من ثرواتهم في التخفيف مما يعانيه إخوانهم في البشرية وبناء المشاريع المفيدة كالمستشفيات والمدارس والملاجىء. وقال:

«تنبّه البشر اليوم الى ما لم يكن يحلم به البشر القديم. وتكتسح العالم اليوم موجة سخط من هذا التفاوت الهائل بين الإنسان والإنسان: فألوف من الناس لا يصلون الى قوتهم اليومي وإلى ما يستر أبدانهم من الكساء والى ما يأوون إليه من المسكن إلا بعد الكدح المضني والكدّ المجهد.

وقد قام أولئك الألوف يطالبون بالمساواة الاجتماعية ويقولون لأصحاب التكاثر: نحن وأنتم في البشرية شرع، ولولا جهودنا لما أصبتم هذه الكنوز. فنحن نريد المساواة، نريد العدل الاجتماعي. .».

وارتأى لذلك وجوب النزول على حكم الواقع ورفع مستوى العيش بين الفئات الكادحة وتخفيف الضنك عن تلك الطبقات البئيسة لتهدئة سورة الغضب التي كادت توقد حرباً شعواء بين الفقراء والأغنياء. فإذا أراد الأغنياء أن يخففوا من حدة هذا الغضب الذي أخذ يتطاير شرره حولهم فما عليهم إلا أن يعالجوا ذلك بالأفعال لا بالأقوال.

هذا ولقد قلت في ترجمة الراوي أن تلامذته خير آثاره. وقد سئل المؤرخ المصري الأستاذ محمد شفيق غربال عن أهم مؤلفاته فأشار الى تلامذته المتحلّقين حوله في مجال الجواب على ذلك السؤال.

طه الراوي

عتب طه الراوي على معروف الرصافي في كانون الثاني ١٩٤٢ هجره للشعر بقصيدة أرسلها الى راويته مصطفى علي مطلعها:

أمصطفى بن عليّ، يا أخا ثقتي، ... إنّي عهدتك للإخوان معوانا
أبلغ مليك القوافي كلّ خالصة ... من التحايا تمجّ العطر ألوانا
ما باله، حرس الرّحمن مهجته، ... قد أوسع الشعر إعراضاً وهجراناً؟

فأجابه الرصافي بقصيدة منها:

أبلغ أبا هاشم عني مُغَلْغَلَةً ... يعجّ فيها القريض الغضّ شكرانا:
أحسنت ظنّك بي إذ جئت تمدحني ... بما به زدت حسن الظنّ إحسانا
ظننتني قد هجرت الشعر مذ زمن ... وهل أطيق لحبّ النفس هجرانا؟
ذاك الحبيب الذي أوسعته مِقَةً ... منّي، وصيّرته للمجد عنوانا.

ومضى الرصافي يقول أن حبّ الشعر قد شفّه حتى هجر له طيب المنام، يصحو بصحوته وينتشي بنشوته، يسلّيه إذا اعتلجت همومه، ويشدو به في المحافل مفتخراً. وختم قصيدته في لهجة حزينة مشفقاً أن يبوح بشعره في معشر الطغاة الذين لا يقيمون وزناً لحرية الفكر.

منير القاضي

العالم الفقيه الحقوقي منير القاضي ولد في بغداد سنة ١٨٩٥ وتوفي بها في ٩ شباط ١٩٦٩ كان رئيس المجمع العلمي العراقي وعضو مجمع دمشق وعميد كلية الحقوق ورئيس ديوان مجلس الوزراء ووزير المعارف. ترجمت له في كتابي «أعلام اليقظة الفكرية».

كان منير القاضي لطيفاً حسن الدعابة على وقاره. ذكر جعفر الخليلي في الجزء الخامس من كتابه «هكذا عرفتهم» أنه جرى في الندوة الأدبية لصبيحة الشيخ داود بحث الطلاق وهل يجوز للمرأة أن تمنح حق الطلاق. وكانت المناقشة عنيفة، وارتأت صاحبة الندوة وجوب تعديل قانون الأحوال الشخصية لمنح المرأة هذا الحق. وكان منير القاضي يخالف هذا الرأي ويرى فيه خروجاً على الشريعة الإسلامية.

وقال الخليلي إن المذهب الجعفري يجيز منح المرأة حق تطليق زوجها إذا نص عقد الزواج على هذا الحق. وأراد منير القاضي أن يمزح فقال: لو أردنا أن نجعل الطلاق بيد المرأة لما غبن أحد غيري في عالم الرجال، لأنني سأكون أول من تطلقه زوجه لإنعدام المزايا التي تتطلبها الزوجة في زوجها في شخصي.

وضجّ المجلس بالضحك.

عباس العزاوي

مؤرخ العراق عباس العزاوي ولد في أنحاء ديالى سنة ١٨٩١ وتوفي في بغداد في ١٧ تموز ١٩٧١ كان محامياً معروفاً وعضواً في المجمع العلمي العراقي ومجمع دمشق وعضواً مراسلاً في مجمع القاهرة وعضواً في جمعية الدراسات التاريخية المصرية ومجمع اللغة التركية في أنقرة. إشتهر بمؤلفاته عن تاريخ العراق وفي مقدمتها «تاريخ العراق بين احتلالين في ثمانية أجزاء». نشرت ترجمة وافية له في «أعلام اليقظة الفكرية».

عين العزاوي معلماً في بعض المدارس الابتدائية في بغداد سنة ١٩٠٨، لكنه واظب على الدراسة. ونقل بعد ذلك معلماً أول في كربلاء، وكان جندياً كاتباً خلال الحرب العامة. وعيّن سنة ١٩١٧ كاتباً في المحكمة الشرعية، لكنه استقال من الوظيفة حين تخرجه في مدرسة الحقوق (١٩٢١) وانصرف الى المحاماة. وتولى التدريس أمداً غير

طويـل في المـدارس الأهليـة .

جمع عباس العزاوي مكتبة ضخمـة تعدّ عشرات الآلاف من الكتب والمخطوطات . وقد رأيتـه يومـاً يستعير كتاباً من مكتبـة المتحف العراقي لمراجعتـه . فقلت : أليس هذا الكتاب في خزانتـك؟ قال : بلى ، لديّ عدة نسخ منـه مخطوطة ومطبوعـة ، لكنها كلها ليست في متناول اليد ، وأيسر عليّ أن أراجع الكتاب في مكتبة المتحف!

حين ابتنى عبـاس العـزاوي داره الجديـدة على شـاطىء نهر دجلـة خصّص الـدور الأسفل جميعه لمكتبته العظيمة . لكن الكتـب بقيت تتوارد وتتراكم وتملأ الغرف الأخرى حتى وصلت الى غرفة النوم . فقالت له زوجته : «آن لك أن تختار بيني وبين كتبك!» .

وقد روي عن الشاعر الانكليزي جون درايدين (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) John Dryden أنه كان مكباً على كتبه حتى ضاقت زوجته بالأمر ذرعاً وقالت له : «ليتني كنت كتاباً فأجد في رفقتك وقتاً أكثر» . فقال لها الشاعر الشيخ : «يا عزيزتي ، إذا أصبحت كتاباً فلتكوني تقويماً لأستطيع استبداله كلّ عام» .

حاولت جـامعة بغـداد شراء مكتبة عبـاس العزاوي وفـاوضته على السعـر ، وكانت مستعـدّة لدفع مـائة ألف دينار أو دون ذلـك لجميع المطبوعـات والمخطوطـات . لكن العزاوي رفض العرض وقال : لا أقبل بيعها بأقلّ من ٢٥٠ ألف دينار .

وزاره ذات يـوم وفـد أدبي مصري بصحبتـه سفير مصر وبعض الأدبـاء العـراقيين . وتناول الكلام بيع مكتبته الى الجامعة أو الحكومة فقال إنه ليس على استعداد لبيعها مهما دفع لـه من ثمن . وقال السفير المصري : ألا تخشى أن تـؤممها الـدولة وتأخـذها قسراً؟ فقال العزاوي مشيراً الى نهر دجلـة الذي يطلّ عليه من شرفة داره : إننـي أرميها كلها في النهر قبل أن يستولي عليها أحد!

وتوفي مؤرخ العراق . وكنت سائراً ذات يوم على شاطىء دجلة فرأيت موظفي مكتبة المتحف ينقلـون الكتب والمخطوطـات الثمينة من دار العـزاوي ويضعونها في سيـارات الحمل بلا عناية ولا اهتمام . أما الثمن الـذي قدّر لها فلم يتجاوز ، على ما أذكر ، ١٧ أو ١٨ ألف دينار .

طريقة العزاوي في تدوين التاريخ :

طريقة عباس العزاوي في تدوين التاريخ هي كتابة تسلسل الوقائع حسب السنين ، بعد الـرجوع الى المصادر المتيسرة . وكانت أكثـر مصادره للحقبة التي بدأت بـالاحتلال المغولي مخطوطـة ومكتوبة بالتركية القـديمة أو الفارسية . وكثيراً ما شكـا من قلة المصادر لفترات معيّنـة . لكنـــه استعمل مصـادره الى أبعـد مـــا استطـاع ، وسرد الحوادث التي سجّلتها دون تمحيـص في معظم الأوقات ، نـاقلاً أخبـاراً متضادّة أو متنـافرة حينـاً بعد حين .

ومما يروى أن أحمد حامد الصرّاف قال عنـد صدور بعض أجزاء «تاريخ العراق بين

احتلالين» وفيها نقل عن كتاب «كُلْشَنَ خلفا»: «وهل يعرف العزاوي اللغة التركية القديمة العويصة لنعتمد على ترجمته لما جاء في «كلشن خلفا؟»».

فقال العزاوي حين نقل إليه ذلك الكلام: «وهل رأى الصرّاف مخطوطة «كلشن خلفا» ليستطيع الحكم على ما جاء فيها ونقل عنها؟»».

ثم لما بلغ العزاوي النصف الثاني من القرن التاسع عشر فتيسّرت له مصادر كثيرة عربية وتركية، مخطوطة ومطبوعة، وصحف منشورة تذكر الأخبار والأحداث على علاّتها. فقال:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فما يدري خراش ما يصيد!

وخراش كلب صيد كان لا يجد ما يصيده، ثم تكاثرت عليه الظباء فحار أيّها يصيد.

قال العزاوي في مقدمة الجزء الثامن من «تاريخ العراق» بين احتلالين: «تزايدت المراجع وتكاثرت بسبب تكاثر المطبوعات. وتأسست خزائن الكتب فوصلت الى درجة الإشباع. وصرتُ في حالة تردّد أو حيرة في الاختيار. . »

ثم يقول: «وعهدنا هذا أدركنا الكثير من أيامه وذقنا حلوه ومرّه. شاهدنا أيام الاستبداد وزمن الدستور وأوقات الحرب بما فيها من غوائل وآلام ومحن وما فيها من أفراح وأتراح. وصفحات هذه الحقبة تدعو الى تنقّل الكاتب تنقلاً غير مطّرد، بل تضطره الى تحوّل مضطرب. يرى المرء نفسه في حاجة ماسّة الى تدوين صفحات قد يكون شاهد عيانها أو من المطلعين على كثير من أوضاعها. ولكن المرء تعوزه المعرفة التاريخية المتقنة الصحيحة أو الى ما يذكّر بالحالة المشهودة والتبصّر بها لم يكن من شهوده. . ».

لقد اكتفى العزاوي بتدوين الوقائع خطِيرها وتافهها، صارفاً النظر عن المحاكمة والغربلة والتحليل، تاركاً مهمة المؤرخ لمن يأتي بعده فيستعمل المادة التي جمعها له بجهد كبير وعناية فائقة خلال عمر كامل.

قال الشاعر كمال عثمان:

رأيت الرجال بآثارهم وتاريخ «عبّاس» آثاره.
فمن كأبي فاضل في الرجال وأصل التواريخ أسفاره

نشر عباس العزاوي سنة ١٩٥٣ «سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية»، وهو منظومة لداعي الدعاة علي بن حنظلة أصدرها له المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق. وعلى أثر ذلك تلقى كتاباً من أحد المستشرقين المقيمين في حيدر آباد بالهند ـ وأظنه فريتز (سالم) كرينكو ـ يدعوه الى الانتماء الى الجمعية الاسماعيلية، وهي جمعية علمية تضم المؤرخين والعلماء المهتمين بتاريخ الاسماعيلية وعقائدهم، ولا ينتمي هؤلاء

بطبيعة الحال الى فرقة الغلاة .

قرأت الكتاب للعزاوي ـ وكان باللغة الإنكليزية ـ فقال العزاوي : يريدني أن أصبح إسماعيلياً؟

قلت : إنها جمعية علمية لا شأن لها بالعقيدة . ولما نشرت سمط الحقائق أصبحت أهلاً للانخراط في سلك أعضائها .

فهزّ رأسه وقال : كلا . من ذا يصدّق أن العزاوي قد أصبح من أعضاء الجمعية الاسماعيلية ، وهو لا يؤمن بالفكرة؟

وزار المستشرق الفرنسي الشهير لويس ماسّينيون بغداد في أعقاب الحرب العالمية الثانية . وأتى يوم الجمعة الى دير الأب أنستاس الكرملي ، وكان هناك فريق كبير من رجال العلم والأدب والفضل . ولم يكد يستقر به المقام حتى أخذ كعادته يتكلم عن الحلاج ويشرح مأساته ويسأل هل عثر على آثار أو مخطوطات جديدة له؟ فقال عباس العزاوي : «ما قيمة الحلاج وأية مأساة حلت به؟ لقد كان كافراً زنديقاً فكفّره علماء المسلمين واستحلّوا دمه . وأنا ، كفقيه إسلامي معاصر، لو جيء به اليّ الآن بعد ألف عام، لأفتيت بتكفيره وقتله عوداً على بدء! » .

وكان هذا الكلام مثار دهشة الحاضرين وإشفاق ماسّينيون .

نوادر العزاوي :

كان عباس العزاوي يطبع الجزء الثاني من كتابه «تاريخ الأدب العربي في العراق» . وكان على عادته يجلس في غرفة المحامين أو المقهى أو إحدى المكتبات ويسأل أوّل قادم أن يساعده في تصحيح مسوّدات الطبع .

وجلس ذلك اليوم في المكتبة العصرية ، فجاءه ولده فاضل بآخر مسودات الكتاب ، وقد تناولت مبحث الشعر في العهد العثماني الأخير. وألقى بعض الجالسين نظرة عليها فقال للعزاوي : إنك لم تفِ الحبوبي حقه ولم تذكر شعراء لهم مكانتهم كحيدر الحلي وجعفر الحلي .

فغضب العزاوي وصاح بابنه فاضل : إحذف هذا الفصل برمته ، أخرج هؤلاء الشعراء من الكتاب، أخرجهم! .

فضحكت وقلت : يا أبا فاضل ، هل أنت رضوان خازن الجنان وهل كتابك فردوس الأدب لتدخل من تشاء وتخرج من تشاء؟

وضحك المؤرخ واحتفظ بذلك الفصل من كتابه وأشار في آخره الى الشعراء الذين أغفل ذكرهم من أصحاب الدواوين .

كنت ذات يوم في زيارة لمنير القاضي رئيس ديوان مجلس الوزراء في دائرته ، فجاء

عباس العزاوي، وقد طبع كتاباً جديداً له، فأهدى نسخة منه الى السيد منير. ثم دفع اليه نسخة ثانية ورجاه تقديمها هدية الى رئيس الوزراء، فاستدعى رئيس الديوان أحد موظفيه وقال: هذا كتاب الأستاذ العزاوي يهديه الى رئيس الوزراء فقدّمه الى فخامته.

وخرج عباس العزاوي، فلم تمض هنيهة حتى عاد الموظف يحمل الكتاب وسأل رئيسه: كم أعطي للعزاوي، ديناراً أو دينارين؟ فقال منير القاضي: إنك على ما يظهر لا تعرف أقدار الناس، وعباس العزاوي محام ومؤرخ جليل، وهو يهدي كتابه تفضلاً منه لا طلباً لمبلغ زهيد أو كبير.

وخرج الموظف الجاهل وهو يجرّ أذيال الخيبة.

***

كثرت المداعبات مع عباس العزاوي في المقهى الذي اتخذه منتدى له أعواماً طويلة على شاطىء دجلة وفي نادي القلم وغرفة المحامين.

وقد قال له بعض الأدباء: إنّك لا تحسن الأدب ولا تعرف كتابة التاريخ، ولكن لديك مصادر من المخطوطات والمطبوعات النادرة، مناجم زاخرة بالمعلومات الثمينة والعوائد والفوائد، فأعرنا طائفة من هذه المراجع لنفيد منها وندوّن جوانب من تاريخ العراق وأدبه في عصور الانحطاط.

فغضب العزاوي وقال: إنني حصلت على هذه المخطوطات والمطبوعات بالجهد الجهيد، وبذلت في سبيلها النفس والنفيس، وسعيت أجمعها آناء الليل وأطراف النهار، ولم تأتني عفواً ولا هيّأتها لي الدولة أو أية مؤسسة عامة. فلماذا أنتم قاعدون متقاعسون، تعضّون على الفلس والدّانق بالنواجذ وتريدون الشيء بلا بذل ولا جهد؟ والله لأحفظنّ هذه النوادر في الخزائن المغلقة وأنفس عليها النور والهواء، لأرجع إليها في مباحثي دونكم وأجيئكم كلّ يوم بالأخبار الغريبة والآثار التي يجهلها عالمكم وجاهلكم.

وقد مضى العزاوي الى الرفيق الأعلى وآلت مكتبته الى خزانة دار الآثار، فأين الذين حلموا بتقليب صفحاتها والنهل من ينابيعها الصافية؟ لقد مات أكثرهم ولاذت بقيّتهم بالعزلة والخمول.

وأخبرني عباس العزاوي أنّ في الاجتماع الذي عقده نادي القلم لتأبين جميل صدقي الزهاوي عند وفاته، قال محمد رضا الشبيبي: رحم الله الزهاوي، هل كان شاعراً، أو أنه لم يكن شاعراً؟ ولعلّ الشبيبي قصد الإشارة بذلك إلى ما قاله النقّاد الأقدمون من أنّ أبا تمّام والمتنبّي حكيمان والشاعر البحتري.

وكان عباس العزاوي وأخوه علي غالب كثيراً ما يمرّون بدارنا عند عودتهما من المقهى الذي اعتادا الجلوس فيه مساء، فأقول لهما: تفضّلا واشربا القهوة، فيعتذران بتأخر

الوقت. وأجيبهما مداعباً ببيت الشاعر القديم:

تمرّون الـديـار ولا تعـوجـوا، كـلامكمُ عـليَّ إذن حـرامُ!

والبيت من شواهد النحو على حذف الخافض لاقتضاء الضرورة، فقال الشاعر «تمرون الديار» بدلاً من «تمرّون بالديار».

وكان العزاوي يقسو أحياناً في مداعبته لأصدقائه وزملائه فيردّون عليه بالمثل. وقد سألوه بعد يوم تسجيل النفوس: كم سجّلت عمرك؟ فقال: دون التسعين! وقالوا له: إنك قد شخْت وهرمت وبلغت من العمر عتيّاً، فأجاب متمثلاً بقول الشاعر البدوي:

شـايـب وعـايـب والهوى مـا نسينـاه!

وذلك أن فتيات الحيّ رأين شاعر القبيلة الشيخ وهنّ يجلبن الماء، فقلن له: قد كبرت! فقال: أجل، قد شخت ونحلت، لكنني لم أنسَ الحب.

وقد قال جميل صدقي الزهاوي:

ليس الحـديث عـن الهـوى مـن شـاعـر شيخٍ جـريـرة

وروى عبّود الشالجي في كتابه «الكنايات العاميّة البغدادية» أن المحامين في غرفتهم كانوا يقسون في مداعبة عباس العزاوي ويعيرونه بأنفه وقسمات وجهه. وفي ذات يوم دخل الشالجي فوجد المحامي محمد جواد الخطيب جالساً بين عباس العزاوي وعباس عبد اللطيف البلداوي فدسّ في يده رقعة كتب فيها:

إنّي رأيتـك جـالـسـاً في مجلس حلـو ظـريـف

مـا بين عبـاس اللطيـف وبين عبـاس «الكسيـف»

يريد بالكسيف الكثيف أو الثقيل أو الغليظ المعاشرة.

انتخب عباس العزاوي عضواً بالمجمع العلمي العربي، فقال صديقنا إبراهيم الواعظ: إذا لم يكرّمه الأدباء فنكرمه نحن المحامين. وسعى لدى نجيب الراوي نقيب المحامين فأقام للعزاوي حفلة تكريم شائقة.

تأخر افتتاح الحفل حتى جاء فاضل العزاوي بمعروف الرصافي وأجلسه في الصفّ الأمامي، وكان يلبس الكوفية والعقال والعباءة وتبدو عليه آثار الشيخوخة.

وتكلم الواعظ فداعب المحتفى به دعابة ثقيلة لم يكن مناسباً، ويا للأسف، ورودها في خطاب تكريم.

ثم تكلمت ووفيّت مؤرخ العراق حقّه على ما أعتقد. وأشرفت، وأنا أستهلّ كلامي، على الحفل فوجدت النادي يغصّ بالرجال وليس بينهم سوى سيّدة واحدة، فقلت: سيّدتي وسادتي، وكان ذلك مثار بهجة الحاضرين وضحكهم.

كان عباس العـزاوي يكثر من التنادر بأخبار عشيرتـه، فيقول إن العزاوي يخرج على فرسه ويدور بين مضارب العشائر وقرى الريف سنة واحدة، ويقضي في كل مكان مدة الضيافة المألوفة، وهي ثلاثة أيام. فإذا ما عاد الى ديار قبيلته واستشرف خيامهم، قال: وأسفاه، عدنا الى مهجّات أهلنا!.

وكان عباس العزاوي يتوكل في الدعاوى في كربلاء والنجف وكركوك وبعقوبا وسائر أنحاء العراق ويذهـب للمرافعة أمام محاكمها. فيقول لـه موكّله: ماذا تحب أن نحضر لك في الغداء؟ فيعدّد العزاوي أصنافاً مختلفة مـن الطعام، ثم يقول: هذه بالإضافة الى ما تعدّونه عادة للضيف!.

وقال إن عزاويـاً تطوّع في الجيش التركي وخدم فيه عدة سنين. وعاد إلى أهلـه فقالوا له: هل تعلّمت التركيـة؟ قال: نعم، لقـد أتقنتها. فقالـوا: إذن، يا مسيعد، تفيـدنا حين يأتي موظفوا الكودة (ضريبة الأغنام) فتتفاهم معهم وتخفّف عنّا عبء الضريبة.

وفي ذات ليلـة جاءت الخيل تحمل مـوظفي الكودة، فصـاح رجال القـرية: اليـوم يومـك، يا مسيعد، فتعـال وكلّم الجماعة. لكن مسيعـد هرب واختبأ في بعـض الخيام قائلاً: إنني أحسن التركية في النهار، فكيف تريدونني أن أعرفها في الليل؟

قرر مجلس أمانة العاصمة تسمية شوارع بغداد، فاختار لها أسماءً بعضها لأشخاص مغمورين ذكرتهم الكتب الصفر القديمة وعثر عليها عبد اللطيف ثنيّان.

قال عباس العزاوي: أقترح أن تسموا شارعاً باسم هولاكو، فإنه على طغيانه، أشهر في الأقل من النكرات التي أطلقت أسماؤهم على بعض الشوارع.

عاد عباس العزاوي من فينّا سنة ١٩٦٢ وقد أجرى جراحة لعينيه فقال:

وجـدت في مستشفى العيـون بعـاصمــة النمســا رجلين عـراقيين أعميين من أهل الكاظمية، وقد جاءا لمعالجة بصرهما. وقاما بناءً على إشارة الطبيب بابتياع قرنيتين لترقيع باصرتيهما من عجوزين فقيرين مشرفين على الموت.

وكان الـرجلان يقيمان في المستشفى وينتظران مـوت صاحبيهما لكي يتمكن الطبيب من قلع قرنية المتوفى فوراً وتركيبهـا خلال ساعات معدودة على شبكة عين الأعمى فيتاح له أن يبصر النور.

لم يكن للـرجلين من حـديث سـوى التمنّي على الله أن يعجّل بقبض روح الشيخين اللذين اضطرتهما الفاقة على بيع عينيهما بيعاً آجلاً. وبعد أيام توفي أحد البائعين، فهرع صاحبه إلى غرفة الجراحة وغـرزت قرنية عين الميّت في عينه، فلم تمض أسابيع حتى تمّت المعجزة.

أما الثاني فانتظر طويلاً، ولم يمت صاحبه، بل انتعش وعادت قواه وحسنت حاله. وكان يقول كل يوم: ربّاه! أليس لهذا الليل من آخر؟ كم أنتظر وقد عددت لهذا الرجل قيمة عينيه نقداً، وهو يرفض أن يموت! ربّاه، أنقذني من هذه الحال التي لا تطاق وعجّل بخلاصي!.

وعاد العزاوي إلى بغداد، والأعمى لا يزال يبتهل إلى الله أن يميت صاحب عينه ليستردّ البصر.

ذكّرتني هذه القصة بما كتبه الأديب الفرنسي دنيس ديدرو (١٧١٣ ـ ١٧٨٤) عن طبيب كان بحاجة إلى جثّة لتشريحها. فسأل الممرّض الذي قال: لقد جئت في الوقت المناسب حقاً، فلدينا رجل محتضر لن يعيش ساعتين.

قال الطبيب: ساعتين؟ لا، إنّ هذا لا يفيدني، فأنا ذاهب هذا المساء في رحلة قصيرة لن أعود منها قبل مساء الغد.

ـ لا بأس امض لطيّتك. وسنحاول إطالة عمر المريض قليلاً في انتظار أوبتك.

وذهب الطبيب، أما الممرّض فمرّ بالصيدلية وجلب دواءً منعشاً ناوله إلى مريضه فنام نوماً هنيئاً طوال الليل. وجاء الممرض صباحاً فوجد صاحبه جالساً يسعل ويبصق، وقد خفّت وطأة الحمّى وسكن الألم. وشكره المريض قائلاً: لا أدري أي دواء أعطيتني، ولكن يحقّ لك أن تفخر بأنك أعدتني إلى الحياة.

قال الممرض: حسناً، حسناً، ولكن ماذا سيقول الطبيب؟

ـ ماذا سيقول الطبيب؟

ـ لا شيء، لا شيء.

واستمرّت حال المريض على التحسّن. وعاد الطبيب في المساء فبادر الممرّض قائلاً: أين الجثة؟

ـ ليس هناك جثة.

ـ كيف، ألم يمت المريض؟

قال الممرض: إنها غلطتك، فقد كان مشرفاً على الهلاك، غير أنك ذهبت وتركته يبدّل رأيه ويتمسّك بأهداب الحياة.

فقال الطبيب: لا بأس، اترك الأمر إلى فرصة ثانية.

ومن قبيل ذلك ما حدّثني به أحد الاصدقاء قال: كان في الكوت حفّار قبور شيخ فقير مختلّ الشعور يعيش من تكفين الأموات ودفنهم ولا يكاد يصيب كفافاً من القوت. وكان، إذا شحّ الرزق، يجيء إلى مقهى التجار فيرفع يديه ضارعاً إلى الله تعالى وصائحاً

بأعلى صوته: يا ربّ، ألا يموت أحد من الناس؟ هل أموت جوعاً لأن عبادك في خير وعافية؟ اللهم، افتح علينا ووسع لنا.

فما يكاد يمضي في استغاثته وشكواه حتى يبادر التجار إلى نفحه بالدراهم واسكاته وصرفه.

العزاوي في أيامه الأخيرة:

لقي عباس العزاوي في أعوامه الأخيرة معارضة واضطهاداً. لقد أصبح النشر والطبع يكاد يكون محصوراً في أيدي وزارة الاعلام، فقدم كتاباً له عنوانه «برج الأولياء» إلى الوزارة لنشره، فقيل له إنه يجب أن يعرض على لجنة للنظر فيه وإقراره. فغضب وسحب مخطوطته وقال: وأية لجنة تنظر في مصنّف لرجل وضع ونشر عشرات الكتب؟

وقد سلق موظفي وزارة الاعلام بألسنة حداد، فامتنعوا عن نشر مقالاته في مجلات الوزارة وحالوا دون إعادة انتخابه عضواً بالمجمع العلمي العراقي. واضطرّ على نشر بحوثه في المجلات السعودية ومجلة المجمع العلمي الكردي في بغداد. وظل متألماً إلى أن أدركه الحمام، لكن ولده فاضل واصل شنّ الحرب الكلامية على المؤسسات الثقافية الرسمية وشهد الاستيلاء على مكتبة أبيه الفريدة ونقلها إلى المتحف العراقي. ورفض تسلّم حصته من المبلغ الضئيل الذي قدّر ثمناً للمكتبة التي أنفق والده سنين طويلة من حياته وأموالاً وفيرة حصّلها بعرق جبينه لانشائها وتوسيعها.

وكان عباس العزاوي يضيق ذرعاً بالنقد الذي يوجّه إليه، فيقول: الانتقاد سهل والتأليف شاقّ عسير. ثم يقول: لا بأس، من ألّف فقد استهدف.

الدكتور مصطفى جواد

العلامة اللغوي المحقق المؤرخ مصطفى جواد ولد في بغداد سنة ١٩٠٤ وأدركته الوفاة فيها في ١٧ كانون الاول ١٩٦٩ كان استاذاً في دار المعلمين العالية وكلية التربية وعميداً لمعهد الدراسات الاسلامية العليا وعضواً بالمجمع العلمي العربي في دمشق ونائب رئيس المجمع العراقي وعضواً مراسلاً لمجمع القاهرة. ترجمت له في «أعلام اليقظة الفكرية».

ألف الدكتور مصطفى رسالة في «جاوان القبيلة الكردية المنسية» نشرت في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم نشرها المجمع العلمي الكردي سنة ١٩٧٣ وترجمت إلى اللغة الكردية.

أخبرني مصطفى علي أنّ مصطفى جواد كان في أثناء دراسته في دار المعلمين الابتدائية ينشر نظماً ونثراً في مجلة «التلميذ العراقي» التي أصدرها سعيد فهيم في تشرين

الاول ١٩٢٢، وكان توقيعه «مصطفى جواد الدلتاوي».

وقال مصطفى علي ايضاً: كنت كاتباً عدلاً في بغداد سنة ١٩٣٤، فجاءني مصطفى جـواد لتصديق كفـالته حينما أوفـدته وزارة المعـارف للدراسـة في باريس. ومن غـريب الاتفاق أن المكفول كان مصطفى (جواد) والكفيل السيد مصطفى (من أهل الكاظمية) والكاتب العـدل مصطفى (علي)، وكذلك كـان اسم الكاتب في دائرة الكـاتب العدل الذي أنجز المعاملة مصطفى ايضاً!.

كان مصطفى جواد، وهـو طالب في باريس، يقضي معظم أوقات فـراغه في المكتبة الوطنيـة. وقد نقل بخطـه اللطيف عشرات الدفـاتر من المخطوطـات القديمـة النادرة والمجهولة وأطلق عليها عنوان «أصول التاريخ والأدب». وصار بعد ذلك يرجع إليها في كتاباتـه ويشير إليها في الهامش، فيذكر «الأصـول» ج (كذا) ص (كذا) دون أن يصرّح بالمصدر الأصلي. وقد سألته يوماً لماذا لا يذكر المرجع المخطوط عنه مع الإشارة إلى رقمه في المكتبة الوطنية، فقال: لقد أجهدت نفسي وأفنيت أيام شبابي في البحث عن مصادر لم يلتفت إليهـا أحد، ونقلتهـا بخطّ يدي حـرفاً حـرفاً، ومحصّت معـروفها من مجهـولها وصحيحها من مغلوطها، ثم أصرّح بعنوانها ورقم تسلسلها ومحلّ وجودها، ليطلبها كل طالب ويفحصها كل راغب؟ ذلك ما يأبـاه العقل وينكره الفضل ولا ترضى به المروءة! وليذهب من شاء وليبحث ويحقّق ويدقّق، وليهنأ بما يعثـر عليه بكدّه وتعبه، ولا يكون كلاً على السابقين ولا عائلاً على العاملين.

قـال ذلك مصطفى جواد، لكنـه لم يكن بخيلاً على السـائلين والطلاب، بل كـان يـدلّهم راضيـاً مسروراً على المراجع التي يـرجعـون إليهـا والمصـادر التي تيسّر لهم مـواد بحوثهم وكتـاباتهم. وكان عبـد الرحمن بن عيسى بن حماد الهمذاني الكـاتب قد صنّف «الألفاظ الكتابية»، فقال الصاحب ابن عبـاد: «لو أدركته لأمرت بقطع يده! فقد جمع شـذور العـربيـة الجزلة في أوراق يسيرة فأضـاعهـا في أفـواه صبيـان المكـاتب ورفع عن المتأدّبين تعب الدرس والحفظ الكثير».

عـرفت مصطفى جواد في بـاريس سنـة ١٩٣٧ مع حقي الشبلي ونفر من الطـلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون فيها. لكن صلتي به لم تتوثق الا بعد عودته إلى بغداد عند نشوب الحرب العالمية سنة ١٩٣٩، وكان صلة التعارف بيننا أحمد حامد الصراف.

وقرّر سنـة ١٩٣٨ إنهاء بعثة مصطفى جواد، فجـاء إلى بغداد وراجع وزيـر المعارف الشيخ محمد رضا الشبيبـي وكلّمه في استئناف دراسته. ونصحه الشيخ بمـراجعة رئيس الـوزراء جميل المدفعي، فنظم مصطفـى قصيـدة في مـدح المدفعي نشرهـا في جـريـدة الـزمان، يتـوسّل فيها بـالحصول على عطفـه. وأثمر مسعـاه، فأوعز الـرئيس إلى وزارة المعارف بإعادة ايفاده للحصول على شهادة الدكتوراه.

وكان مصطفى جواد قـد تزوج في بغداد قبل ايفاده إلى القاهرة وبـاريس، لكنه ترك

قرينته وأولاده في بلد الرشيد. وتعرّف في باريس بفتاة فرنسية ساعدته في كتابة أطروحته عن الناصر لدين الله العباسي باللغة الفرنسية ـ على ما رواه لي ـ فصاحبها طوال إقامته في ربوع السّين وأنجبت له ولداً. ولما عاد إلى بغداد ترك لديها كتبه، وكثيراً ما كان يشكو لنا في أثناء الحرب أنها باعت كتبه وتصرّفت في الاشياء التي أودعها لديها. فقال له الصرّاف: وهل أرسلت لها ولابنها بشيء من المال تستعين به على العيش؟ فصمت ولم يجب.

وعلمنا منه بعد ذلك أنها توفيت هي وولدها بداء السلّ خلال سني الحرب العجاف.

وحريّ بالذكر أنّ مصطفى جواد أنهى دراسته الجامعية ووضع أطروحته وقدّمها إلى «السوربون». ونشبت الحرب العالمية قبل أن يهيّأ له مناقشتها وقبولها وتسلّم شهادة الدكتوراه، فترك فرنسة عجلاً خوف انقطاع الطرق مع طلاب آخرين كانوا يدرسون في باريس.

ولمّا جاء إلى بغداد، لم تعترف وزارة المعارف بشهادته. وظلّ يراجع أشهراً محتجاً بالظروف الاستثنائية التي حالت دون مناقشة أطروحته وحرمته إعلان حصوله على الدكتوراه رسمياً، فقبل الوزير صالح جبر عذره أخيراً وأوعز بتعيينه للتدريس في دار المعلمين العالية في الدرجة التي تؤهله لها الشهادة.

ودعي مصطفى جواد على أثر عودته من باريس إلى الالتحاق بدورة ضبّاط الاحتياط (١٩٣٩) مع احمد حامد الصراف وغيره من خريجي الكليات والمدارس العالية. وقد داوم أياماً، وكان ينتقد العريف الموكل بالتدريب على الأخطاء اللغوية في ايعازاته العسكرية. وظهر بعد ذلك في الفحص الطبيّ أن قدمه رحّاء (أي منبسطة لا أخمص لها) فأعفي من الخدمة.

مصطفى جواد وشكيب أرسلان

حدثني الدكتور مصطفى جواد أنه، حينما كان يدرس في باريس، نشر نقداً لمقال كتبه الامير شكيب أرسلان الذي كان يقيم آنذاك في جنيف من أعمال سويسرة. وردّ الامير على منتقده ساخراً من الطالب العراقي المغمور الذي يتطاول على أمير البيان ويتصدى لدحض آرائه.

ولم يكن من مصطفى جواد الاّ أن كتب رسالة شخصية إلى شكيب أرسلان، يؤيد انتقاداته ويسندها إلى مصادر لا يرقى اليها الشك. ثم قال ما معناه: انكم، أيها الأمير المجاهد الجليل، ترفعون نسبكم إلى التنوخيين ملوك الحيرة وإلى النعمان بن المنذر اللخمي ابن ماء السماء، وليس لديكم سند تاريخي يؤيد هذا النسب. ثم ذكر له

المراجع الكثيرة التي تفسد هذا الادعاء وتخرجه عن إطاره التاريخي الصحيح وتجعله بعيد الاحتمال غير معزز بالأسانيد المعتبرة.

وقرأ الارسلاني رسالة مصطفى جواد، فكتب إليه معتذراً، مقراً بفضل الطالب العراقي، معترفاً بعلمه وطول باعه. ثم سأله أن لا ينشر رأيه في نسب آل أرسلان ولا يطعن فيه، وقال: لقد اضطربت حين قراءة رسالتكم اضطراباً شديداً، وكنت مزمعاً السفر فأسقط في يدي وفاتني موعد القطار!.

كان مصطفى جواد آية من سعة المعرفة وقوة الحافظة وشمول الاطلاع. وقد أفاد من دراسته في باريس وألمّ بأساليب البحث المنهجية الحديثة وطرق التأليف والتصنيف. لكنه، وقد كتب مئات بل آلافاً، من المقالات والمباحث في التاريخ واللغة والأدب والخطط والتراجم، وأضاع أوقاتاً ثمينة في الردّ على المؤلفين والكتّاب وتغليطهم وتعرية جهل جاهليهم وخبط عالميهم، لم يتفرّغ لتأليف كتاب مستقلّ جامع في بعض تلك المواضيع يدلّ على نبوغه وتتبعه ويبقى أثراً للأجيال الآتية وشاهداً على فضله ومبرراً للشهرة التي حازها في حياته.

لقد وضع عباس العزاوي تاريخه وعشائره وسائر مصنفاته التي أصبحت مراجع في بابها بالرغم من ضعف أسلوبها وجمعها للغثّ والسمين. وهيّأ عبد الرزاق الحسني مصادر ووثائق لا تقدّر بثمن للباحثين في تاريخ العراق الحديث. ووضع انستاس ماري الكرملي معجمه «المساعد» فكان خلاصة وافية لجهود حياة كاملة.

أما مصطفى جواد وأكثر الباحثين والمؤرخين المعاصرين له فبعثروا جهودهم وشتتوا أبحاثهم، وقلما نسّقوا ثمار علمهم في مؤلف جامع في موضوعه تحتفظ به الاجيال الآتية وترجع اليه. ومع ذلك يجد الكتاب والباحثون في كتابات مصطفى جواد وبحوثه المبعثرة في الكتب والمجلات والصحف وفي الأصول والمراجع التي نقل عنها ونوّه بها موادّ دسمة تغذّي المواضيع التي وقف عليها حياته.

أوفد مصطفى جواد إلى انكلترة في حاشية الملك فيصل الثاني حين أرسل للدراسة سنة ١٩٤٧، وكان معه ايضاً الأميرة عبديّة بنت الملك علي واللواء عبد المطلب الامين الهاشمي مدرّس التاريخ والجغرافية وبعض رجال الحاشية.

حدّثني مصطفى جواد أنّ المدرسة كانت بجوار بلدة سالسبوري، فاشترت العائلة المالكة داراً نزل فيها الملك، أمّا مصطفى فاستؤجرت له غرفةٌ في بعض الفنادق. وكان يذهب مرتين في الاسبوع إلى دار الملك لتدريسه اللغة العربية. كان أول الأمر يذهب بسيارة أجرة، ثم طلب منه أن يتعلم السياقة فتمرن عليها في دروس قليلة وأعطي سيارة يتنقل بها ويسوقها بنفسه.

وذهب الملك وحاشيته في السنة التالية الى سويسرة للتزلّج في جبالها، فحاول مصطفى ممارسة تلك الرياضة وسقط وأصيب برضوض وكسور بسيطة.

بين مصطفى جواد
ومحمد رضا الشبيبي

أولع مصطفى جواد منذ عهد شبابه بالمؤرخ البغدادي كمال الدين عبد الرزاق ابن الفُوَطي المتوفى سنة ١٣٢٣م. وقد حقق كتاباً في التاريخ ناقص الأول مغفل العنوان ظنه ـ كما ظنه غيره ـ كتاب «الحوادث الجامعة» لابن الفوطي وأصدره سنة ١٩٣٢ واهتم الشيخ محمد رضا الشبيبي ايضاً بالمؤرخ نفسه ووضع مقدمة للكتاب المنسوب اليه.

ولابن الفوطي كتاب آخر اسمه «تلخيص مجمع الألقاب» وجدت نسخة مخطوطة من المجلد الرابع منه في الخزانة الظاهرية بدمشق، لكنها نسخة مشوّهة. فصفحاتها على شكل جداول ذكر اسم الشخص في الصفحة اليمنى وجاءت ترجمة موجزة له في اليسرى، لكن الصفحات تفرقت وتداخلت، ثم أعيد جمعها وتصحيفها بغير ترتيب لعدم ترقيمها، فظهرت التراجم على وجه مضحك. فربّ شاعر نشرت أمام اسمه ترجمة قائد أو فقيه، وربّ رجل عاش في المائة الثالثة نقل إلى المائة الخامسة أو السادسة، وهلم جراً.

عانى مصطفى جواد جهداً كبيراً في إعادة ترتيب التراجم وإلحاق كل ترجمة بصاحبها مستدلاً بمعلوماته الواسعة في التاريخ ومستعيناً بكتب التراجم والرجال لحلّ الألغاز والمعميّات في هذه المخطوطة الغريبة. ولما فرغ من عمله وأيقن أنه صحّح النسخة وأعطى كلّ ذي حق حقه، تقدم إلى المجمع العلمي العراقي ملتمساً نشر كتابه المحقق. لكنه فوجىء بأن الشيخ الشبيبي يقوم بنفس العمل ويرغب أن لا يسبقه أحد في نشر الكتاب. وكظم مصطفى جواد غيظه، لكنه كان يقول لأخصّائه أنه لا يحق للاستاذ الشبيبي أن يحول دون نشر كتابه وأنه يعتقد أن الشبيبي على سعة علمه وفضله لا يستطيع أن يعيد المخطوطة المشوّهة إلى أصلها الصحيح.

وأخيراً نشر الشبيبي الجزء الأول من كتابه «مؤرخ العراق ابن الفوطي» سنة ١٩٥٤، وقد باشر طبعه قبل أربع سنوات وتلكأ في إكماله وإصداره خوفاً من مصطفى جواد. ثم أصدر الجزء الثاني بعد خمس سنوات. فجرّد مصطفى قلمه وكتب في نقد الشبيبي مئات الصفحات نشرها في مجلة المجمع العلمي العراقي خطّأه تخطئة فاضحة وأحصى عليه أغلاطه التاريخية وجهّله تجهيلاً ولكن بأسلوب أدبي جميل واحترام غير قليل.

وقد سكت الشبيبي على مضض ولم يردّ على النقد بكلمة، ـ عالماً أنه، ولا ريب، شاعر كبير وأديب قدير، لكنه لا يداني مصطفى جواد في التاريخ ولا يلحق به.

رثاء سعد زغلول :

رثى سعد زغلول عند وفاته سنة ١٩٢٧ بقصيدة مطلعها :

ناشدتك الله قُلْ ما حلّ في مصرا ... من المصائب إذ لم استطع صبرا

قال منها :

أمات سعد حبيب الشعب عن عُمرٍ ... منزّه عاش فيه مخلصاً حِرا؟

أمات سعد رئيس الوفد؟ واحَرَبِي ... على الذي كان في مصرٍ لها ذخرا .

عليك، يا سعدُ، أبناء العراق غَدَوا ... حمّال حزن يزيل الصبر والفكرا

أودعت حبّك في كل القلوب، وما ... أبقيت قلباً يكمن الحقد والنكرا

إن العراق ليبكي آسفاً كَدِراً ... حزناً عليك، وقد ساءت به البشرى

كان مصطفى جواد يقيم في محلة شعبية، وقد وضع على باب داره لوحاً كتب عليه «الدكتور مصطفى جواد». وفي ذات ليلة طرق الباب عليه طرقاً عنيفاً في منتصف الليل، فقام إلى الباب وفتحه، فإذا بامرأة عجوز تقول له : إن ابنتي مريضة وفي حالة شديدة من الألم. ونحن جيرانك، يا دكتور، فتعال افحصها لعل الله يمنّ عليها بالشفاء على يدك المباركة.

فقال مصطفى : لست طبيباً، يا خالة، وإنما أنا استاذ ودكتور في التاريخ .

وعبثاً حاول اقناع المرأة انه ليس طبيباً. وأخيراً قالت له بغيظ : إذا لم تكن طبيباً، فلماذا تغرّ الناس وتضع على دارك لافتة باسم دكتور؟

وفي الصباح بدّل مصطفى جواد اللافتة ورفع عنها كلمة الدكتور.

ومما يروى من قبيل ذلك أن ممثلي الدول العربية في الجامعة بالقاهرة كانوا في حين من الأحيان الدكتور فاضل الجمالي (العراق) وفارس الخوري (سورية) والدكتور فوزي الملقي (الاردن). وكانوا يحترمون الخوري لكبر سنّه ويدعونه بـ«العمّ». وكان الدكتور الملقي بيطاراً، لكن الجمالي كان يظنه طبيباً.

وفي ذات يوم شعر فارس الخوري بوعكة ألزمته الفراش، فعاده الجمالي وقال له : لماذا لا نستدعي الدكتور فوزي الملقي لفحصك؟ فردّ عليه الخوري من فوره : وهل عمّك حمار؟

كنت سائراً مع الدكتور مصطفى جواد في شارع الرشيد فقرأنا على باب أحد الدكاكين عبارة مكتوبة بخطٍ قبيح غير متناسق : «هنا تنباع البوال»، فلم يكن من الدكتور إلا أن دخل وخاطب صاحب الدكان العامي قائلاً :

ـ هل تبيع الطوابع؟

ـ أجل، ولديّ منها أنـواع نادرة شرقية وغربية . ماذا تـرغب أن أريك؟ هل تريد «البوم»؟

ـ لا ، يا عزيزي، لا أريد شيئاً منها، ولكن .

ـ ولكن لدينا كل ما تريد . . إصدارات خاصة لا يوجد مثلها .

ـ يا سيدي ، أنا لا أريـد الشراء ، ولكن يحسن بك أن تكتب على باب الدكان قطعة بعربية صحيحة : «هنا تباع الطوابع» .

واغتاظ البائع وقال :

ـ إذا كنت لا تريد الشراء فلماذا تـدخل وتعترض على الناس؟ وماذا يهمّك أن نكتب بعربية صحيحة أو غير صحيحة .

وأسرعنا بالخروج إلى الشارع . وقد ذكرتني هذه الحادثة بقصة الشاعر الفرنسي Mal-herbe ماليرب (المتوفى سنة ١٦٢٨) . كـان محتضراً يعالج سكرات الموت ، والراهب إلى جنب سريـره يلقّنه التعاليـم الأخيرة . وفتح عينيه بعـد غفوة قصيرة ، فسمع ربّـة الدار تكلمـه بكلمات لم تكن آية في الفصـاحة ، فقـال : «يجدر بك ، يـا سيدتي ، أن تـراعي قواعد اللغة . . » .

فقـال الراهب : «الأولى أن تهتم بـآخرتك» . وأجـابه الشـاعر على الفـور: «انني لا أستطيع ، ولو في مقام الموت ، أن أغضّ النظر عن فصاحة اللغة الفرنسية!» .

وروي عن اللغوي الفـرنسي دومنيك بوهـور (١٦٢٨ ـ ١٧٠٢) Dominique Bou-hours إنه قال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة : «إنني مشرف على الموت ، أو أنا أموت ، يصحّ استعمال كلا العبارتين» :

وقال نحويّ عربيّ قديم : أموت وفي نفسي شيء من «حتّى» .

كـان لنـا صديق أديـب لا يحسن النظم ولا يكـاد يفرق بين الشعـر والنثـر . وأعلن الملحق الصحفي للسفـارة البريطانيـة في بغداد خـلال الحرب العـالمية الثـانية ، وأمّتـه تخوض غمار حرب ضارية يتوقف عليه بقاؤهـا ، عن مسابقة شعرية تتعلق بمواضيع لها صلة بانتصار الحلفاء وعدالة قضيتهم ، وخصّص لها الجوائز، واختار لجنة التحكيم من شعراء وأدباء معروفين في طليعتهم الدكتور مصطفى جواد .

وجاء صديقنا الأديب إلى مصطفى جواد وقال : رغبت في الاشتراك في هذه المسابقة ، وقد نظمت قصيدة أرجو أن تنظر فيها قبل الارسال بها . فتناول الدكتور القصيدة ونظر فيها فقال : اسمح لي أن أصارحك ، يا عـزيزي . فهذه ليست شعراً ولا يستقيم لها وزن ولا قافية ولا معنى . قال صاحبنا : فهل تصلحها؟

قال : لا سبيل إلى إصلاحها ، ولكنني أنظم لك قصيدة تقدمها إن شئت إلى لجنة التحكيم .

ووافق الصديق شاكراً ، فنظم الدكتور مصطفى قصيدة على لسانه في الموضوع المقرّر وقدمها الأديب المتشاعر إلى لجنة المباراة باسمه ، فنال بها الجائزة الثانية أو الثالثة ! .

حين توفي الشيخ محمد رضا الشبيبي عضو مجمع اللغة العربية بمصر رشح مصطفى جواد وعبد الرزاق محيي الدين لملء الكرسيّ الشاغر في المجمع . وقد اختار الأعضاء مصطفى جواد ، لكن عبد الرزاق محيي الدين ، وهو آنذاك وزير الوحدة ، أسرع إلى مقابلة جمال عبد الناصر ورجاه أن يؤيد ترشيحه ، ففرضه الرئيس المصري على المجمع وصدر الأمر باعتماده .

وقد بلغ ذلك مصطفى جواد وهو في بغداد فآلمه الخبر ألماً شديداً .

كان مصطفى جواد يدّعي معرفة علم الفراسة ، فإذا نظر إلى رجل في الطريق يقول : هذا فارسيّ وهذا كردي وهلم جراً . فإذا سألناه : كيف علمت؟ يقول : سيماؤهم في وجوههم . وقال إنه كان ، وهو طالب في باريس ، يدخل إلى بعض المخازن لشراء حاجة له ، فينظر إلى وجه البائع فيعرف انه يهودي أو أرمني ، فيحدثه بحديث قريب من نفسه يحصل منه على سماح أو مهاودة في الأسعار .

وذهب مصطفى جواد إلى طهران مع جعفر الخليلي بدعوة من الحكومة الايرانية ونزلا في بعض الفنادق الراقية . وكانت موظفة الاستقبال في الفندق لطيفة لم تنِ جهداً في خدمة الأديبين ورعايتهما ، فانتحى مصطفى جواد ناحية بصاحبه وقال له : أترى هذه الفتاة الجميلة ، إنها يهودية .

قال الخليلي : كيف عرفت؟

ـ إن ذلك ظاهر في سيمائها !

ومضى الخليلي إلى مدير الفندق وكلمه بالفارسية قائلاً : إن موظفة الاستقبال بذلت جهدها في خدمتنا ، فهل لك أن تدعوها لنشكرها؟ فصاح المدير : علوية فاطمة ، تعالي إلى هنا فالسيد يريد أن يشكرك .

وضحك الخليلي وقال لمصطفى جواد : أين فراستك؟ إنها علويّة وفاطمة !

ظل مصطفى جواد يتحدث أعواماً طويلة في الاذاعة والتلفزيون . وكانت برامجه الاسبوعية في التلفزيون تجتذب الناس عامّتهم وخاصتهم ، إذ كان له أسلوب محبّب يبسّط به أحداث التاريخ وقصص الخلفاء والوزراء والشعراء ومواقع الآثار والبلدان . وإذا كان لي أن أشبّهه بأحد في هذا المجال فأنا أشبهه بأديب مصر الكبير الشيخ عبد

العزيز البشري (١٨٨٦ ـ ١٩٤٣)، فقد كان له مريدوه الكثيرون في ندواته الاذاعية.
قال الدكتور ابراهيم علي أبو الخشب في كتابه «تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر»:

«وأنا أذكر أن أول عهد الناس بالاذاعة، هنا بمصر، اختار القائمون على الاذاعة رجلين اثنين توسموا فيهما أن يربطا الاذهان والقلوب بها. وكان الرجلان هما الصحفي الظريف فكري أباظة والأديب الكبير البشري. وكان ترقب الناس لكل واحد منهما يفوق الحدّ ويتجاوز المعقول، إلا أن جمهور البشري كان أضعافاً مضاعفة. .»
ويضيف قائلاً إنك لا تسأل أحداً إلاّ أخبرك أن الشيخ البشري إنسان جذاب إلى أبعد الحدود، وقد أكبرته في عيون الناس خفة الروح والألمعية والذوق وحضور البديهة.
ولعلّ كل تلك الصفات تنطبق على مصطفى جواد في ندواته التلفزيونية، يضاف إليها، شخصه الماثل على الشاشة الصغيرة ببساطته وهدوئه ومسبحته التي لا تفارق أصابعه، وعينيه اللتين كثيراً ما يغمضهما للتركيز على حديثه المتسلسل الذي يلقيه في أناة وصوت لطيف راتب، مما يضفي على المواضيع الأدبية والتاريخية الجامدة لذة وحلاوة ويقربها إلى أفهام عامّة الناس.

وقد سألته مرة لماذا يغمض عينيه في أكثر الأحيان وهو يتكلم في التلفزيون؟ قال: لو رأيت الاضوية وآلات التصوير الموجهة إليك وأنت تتكلم لشرد ذهنك واختلّ رأيك وعيّ لسانك!.

المطران سليمان الصائغ

ولد سليمان بن داود الصائغ في الموصل في ١٨ أيلول ١٨٨٦، وانتمى الى مدرسة مار بطرس البطريركية في مسقط رأسه سنة ١٩٠١، فأتم دروسه الاعدادية والفلسفية فيها في تموز ١٩٠٨ ورسم كاهناً.

وعمل في سلك التعليم وإدارة المدارس الابتدائية، وعيّن سنة ١٩١٤ مديراً للمدرسة الاعدادية الكلدانية، وكان عضوا في لجنة المدارس الابتدائية في الموصل على العهد العثماني.

عهد إليه على أثر احتلال الموصل تحرير جريدة «الموصل» التي أصدرتها الحكومة في ١٤ تشرين الثاني ١٩١٨، فتولى العمل بها أكثر من سنة. ولمّا نظر في قضية الموصل وألفت لجنة الدفاع الوطني لضمّها الى العراق، كلف بكتابة القسم التاريخي من تقرير اللجنة في سنة ١٩٢٥

وأصدر في ٢٥ كانون الأول ١٩٢٨ في الموصل مجلة «النجم»، وهي مجلة علمية أدبية بقيت تظهر الى سنة ١٩٤٠ واختير سليمان الصائغ عضواً مراسلاً بالمجمع

العلمي العراقي في أيار ١٩٤٩ وقد رسم مطراناً في حزيران ١٩٥٤ وعيّن نائباً بطريركياً للكلدان في الموصل.

وتوفي في تلك المدينة في ١٨ أيلول ١٩٦١، وهو يوم عيد ميلاده الخامس والسبعين.

وللمطران صائغ مؤلفات تاريخية، منها: تاريخ الموصل (الجزء الأول ١٩٢٣، الثاني ١٩٢٨ الثالث ١٩٥٦)، كتاب يزدان دوخت (صفحة من تاريخ العراق في العهد الساساني، ١٩٣٤)، تاريخ الكنيسة الكلدانية (١٩٣٩). وقد سعى لتنشيط التمثيل في المدارس وألف مسرحيات، منها: الزبّاء (١٩٣٣) مشاهد الفضيلة (١٩٣١) الأمير الحمداني (١٩٢٨)، وترجم مسرحية هوراس لبيير كورناي (١٩٥٢).

شكري الفضلي

شكري بن محمود بن أحمد آغا؛ من رؤساء عشيرة الكروية، ولد في بغداد سنة ١٨٨٢، وقضى في السليمانية أربع عشرة سنة برفقة خاله صالح أفندي إسماعيل الذي كان رئيس كتاب الحامية العسكرية، ودرس فيها دروسه الإبتدائية. وعاد الى بغداد سنة ١٩٠١، فانتمى الى المدرسة الرشدية العسكرية ودرس اللغات العربية والكردية والفارسية. وعيّن بعد ذلك معلماً في مدرسته الرشدية ومدرسة القديس يوسف.

شدّ الرحال الى الأستانة سنة ١٩٠٨ فأمضى فيها عامين، ثم عاد الى بغداد، وحضر دروس الشيخ عبد الوهاب النائب، وألمّ بشيء من الانكليزية والفرنسية. واطلع على الثقافة التركية الحديثة، ومن طريقها على الأدب العصري الغربيّ، فتأثر بمبادىء الحرية والتقدم الاجتماعي، ولقي في سبيل ذلك عنتاً وإرهاقاً. فقد سجنه الفريق رفيق باشا في كركوك، ثم ألقي القبض عليه مع فريق من رجال العراق المناوئين لحزب الاتحاد والترقي، وطلب إرساله الى الأستانة لمحاكمته أمام ديوان الحرب العرفي بأمر من طلعت باشا وزير الداخلية التركية، لكن أطلق سراحه مع رفاقه بشفاعة الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني.

ولما احتلّ الإنكليز بغداد وجلا عنها الأتراك، عيّن سنة ١٩١٧ رئيساً لكتاب محكمة الصلح، ثم اختير عضواً بلجنة ترجمة القوانين العثمانية على عهد ناظر العدلية بونهام كارتر. وحرّر في الوقت نفسه في صحيفة «العرب» وبعض الصحف الفارسية والكردية التي أصدرتها سلطات الاحتلال. وكتب في الجرائد الصادرة في بغداد كجريدة الشرق والعراق والاستقلال. ونقل في سنة ١٩٢١ رئيساً لكتاب ديوان مجلس الوزراء. وأصيب بالسلّ، فتوفيّ ببغداد في أول حزيران ١٩٢٦ ورثاه جميل صدقي الزهاوي قائلاً:

حـــال بيني وبين شكـــري التراب إذ قضى نحبــه، فجلّ المصـــاب.
قـــد بكتـــه الأقـــلام منكسرات وبكتـــه الأخـــلاق والآداب

وكان شكري الفضلي نفسه قد حيّا الزهاوي بقصيدة قال فيها:

لقـد قلت شعـراً، بل نظمت شعـوراً نـــذيـــراً لقـــوم تـــارة وبشيرا
يغيّر منهـــاج الحيـــاة بسرعـــة ويحدث من بعـــد الأمـــور أمـــورا
يكلم جهـراً في الجبـان شجـاعـة ويجعـــل همس الخائفين زئيرا
يـريك شحيح القـوم يبسط كفّـه ويشرك في مـــال الغنـيّ فقيرا
يثقف أحـلام الـرجـال ليتّقـوا بها الـدهـر خطبـاً منكـراً ونكيرا
يـوحّـد غـايـات الهداة ليـدركـوا نعيماً وملكـاً لا يـــزال كبيرا
فـدونك شعـراً للـزهـاويّ خـالـداً تـريك قـوافيـه الشعـور بحـورا

مؤلفاته وشعره:

نشر شكـري الفضلي بحوثـاً في مجلة «لغـة العـرب» وغيرها من المجـلات والجرائد. ووضع كتباً في تـاريخ العراق قديماً وحديثـاً، وذيل جغرافية العراق التـاريخية، وفلسفة الخيام، ونظـرات سياسية واجتماعيـة. وله ديوان شعـر ومؤلف بـاسم «مكتبة الفضلي» يبحث في العلـوم المختلفـة كـالحكمـة الطبيعيـة والكيميـاء والفلك وطبقـات الأرض الخ. وقد بقيت آثاره متفرقة في الصحف والمجـلات وأوراقه المخطوطة لم يقدر لها الجمع والطبع.

وأدب شكري الفضلي كثقـافته مـزيج من القديم والحديث، وقـد أطل على الآداب العصريـة من نـافذة الأدب التركي الجديـد. وأفقـه واسع شأن الأدبـاء المخضرمين من أقرانه، فهو ينظم وينثر ويبحث في التاريخ والجغرافية والاجتماع وهلم جراً.

ومن شعره في «المستنصرية»:

نهضنـا، وكـان الـدهـر تترى كتـائبـه، يحاربنـا طـوراً وطـوراً نحـاربـه
فكم قـد قتلنـا الـدهـر خُبْراً فـزادنـا ببلـواه علماً حينما نـاح نـادبـه
وكم قـد حلبنا أشطـر الـدهـر دربـة وفـزنـا بَـدرّ الحقّ، لله حـالبـه!
وكم قـد علـونـا هـام أسـود يـومـه بأبيض عـزم فـاستنـارت غياهبـه..
فهـذي هـي المستنصريـة تشتكي بـلاهـا وبـالصمت البليغ تخاطبـه
ألا دولـة المستنصر اليـوم قـد علت بـدولتكم واعتـزّ بـالعلم طـالبـه
إذا مـا أتخذت العلم للشعـب سـاعـداً ضربت بسيف لم تخنك مضـاربـه.
الى العلم، يـا أهل العـراق، فإنـه لموردُ عـذبٍ لم تعكّـر مشـاربـه

صدّيق الدملوجي

البحّاثة الإداري صدّيق بن سعيد الدملوجي ولد بالموصل سنة ١٨٧٧، وكان موظفاً إدارياً في العهد التركي. وعلى أثر تأليف الحكومة العراقية، عيّن في أيلول ١٩٢٣ قائمقاماً للشطرة فالقرنة (تموز ١٩٢٥)، وكان أيضاً قائمقاماً للأقضية الشمالية العمادية والشيخان وسنجار وتلعّفر.

إنصرف الى البحث والتأليف بعد اعتزالة الخدمة الرسمية. وأدركته الوفاة في مسقط رأسه الموصل في ١٥ نيسان ١٩٥٨ من مؤلّفاته التاريخية: الأنقاض، الموصل (١٩٤٩) اليزيدية (١٩٤٩) إمارة بهدينان الكردية أو إمارة العمادية (١٩٥٢) مدحت باشا (١٩٥٣).

وهو أخو الدكتور عبد الله الدملوجي وفاروق الدملوجي.

رزّوق عيسى

ولد رزوق بن عيسى بن زكـرّيا الموصلي، في بغداد في ٦ حزيران ١٨٨٥، ودرس في المدرسة الانكليزية الثانوية ونال شهادتها سنة ١٩٠٠ وعمل موظفاً في بعض الشركات التجارية في البصرة، لكنه لم يلبث أن عاد الى بغداد وقام بالتدريس في المدرسة الانكليزية (١٩٠١ ـ ١٤).

وأصدر مجلة العلوم في أول تشرين الثاني ١٩١٠ فلم يظهر منها سوى عددين. وأعلن النفير العام في أواخر سنة ١٩١٤ فجنّد، ثم اعتقل في آذار ١٩١٥ بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن ستة أشهر. وعيّن على أثر الاحتلال الانكليزي سنة ١٩١٧ مترجماً ومعاوناً للحاكم السياسي في العزيزية والنعمانية. لكنه استقال من منصبه بعد أمد وعاد الى التعليم في المدارس الأهلية عدة أعوام. وأصدر مجلة المؤرخ في كانون الثاني ١٩٣٢، فاستمرت سنة واحدة.

وقد وضع مؤلفات متعددة منها المطبوع والمخطوط، منها: بغية الأنام في لغة دار السلام، تاريخ العراق قديماً وحديثاً، تاريخ التمدّن العراقي، حضارة بابل وأشور، تاريخ مدن العراق القديمة والحديثة، حضارة العرب في الجاهلية والإسلام، تاريخ الصحافة في العراق، جغرافية العراق الخ. وألف روايات وكتباً مدرسية، ونشر مقالات وبحوثاً كثيرة في الصحف والمجلات.

ومن رأيه أنه لا يصلح العالم إلا المذهب الإشتراكي المعتدل الذي بشّر به الأنبياء، وقال به الفلاسفة، وأقرّه الساسة والمشترعون في كل العصور. ومن رأيه أيضاً أن الدكتاتورية لا يطول عهدها لأنها عدوّة حرية جماهير الناس. وقد قال: «أليس من

الظلم أن تكون حياة الأمة تتوقف على كلمة ينطق بها فرد من أفرادها؟ أليس من الظلم أن يكون الضعيف سنداناً لمطرقة القويّ؟».

وقد توفي في ٢٣ أيلول ١٩٤٠ في بغداد.

محمّد جواد البلاغي

من رجال العلم والتأليف الشيخ محمد جواد بن حسن بن طالب البلاغي، ينتمي الى أسرة معروفة تنسب الى قبيلة ربيعة، وقد ولد بالنجف سنة ١٨٦٤، ودرس على محمد طٰه نجف ورضا الهمذاني وغيرهما. ثم انتقل الى سامرّاء ولبث فيها عشر سنين درس فيها علي محمد تقي الحائري الشيرازي الذي اشتهر في إبان الثورة العراقية. وغادر سامراء حين احتلتها الجيوش البريطانية سنة ١٩١٧، فأقام في الكاظمية سنتين، ثم عاد الى النجف.

أكبّ على التأليف والتدريس واشترك في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ وكان يعرف الفارسية وشيئاً من اللغة الانكليزية. قال جعفر محبوبة في كتابه «ماضي النجف وحاضرها» (الجزء الثاني) إنه كان لجواد البلاغي اليد الطولى في الدعوة الى إنقاذ الدار التي اتخذها البهائيون محفلاً لهم في جانب الكرخ من بغداد، وقد اشتدّ النزاع على هذه الدار ورفعت الشكاوى بشأنها الى عصبة الأمم سنة ١٩٣١

توفيّ بمسقط رأسه النجف في ١١ كانون الأول ١٩٣٣

كان عالماً شاعراً أديباً وضع مؤلفات عديدة، أهمّها: آلاء الرحمٰن في تفسير القرآن (طبع منه ٣ أجزاء ١٩٣٣ ـ ٣٤) أنوار الهدى، أعاجيب الأكاذيب (١٩٢٧) البلاغ المبين (في الإلهيات)، التوحيد والتثليث، الرحلة المدرسية (١٩٢٤) العقود المفصّلة (في الفقه) نسمات الهدى، مسألة في البداء (١٩٥٥) الهدى الى دين المصطفى (في جزءين، ١٩٦٥) الخ.

ردّ على الماديين والطبيعيّين والدهريّين ورمى بسهامه أرباب الالحاد ودافع عن أركان الدين. ونظم الشعر، فمن نظمه رثاء محمد سعيد الحبّوبي، ومطلع قصيدته:

شاقك البرق فأسرعت سِباقا   وتركت الصبّ يلتاع اشتياقا

ومعارضة قصيدة ابن سينا الشهيرة في النفس، قال:

نعمت بأن جاءت بخلق المبدع   ثمّ السعادة أن يقول لها: ارجعي

محمد صادق الأعرجي

الصحفي الكاتب المدرس محمد صادق الأعرجي، ولد سنة ١٨٨٣ ودرس علوم العربية والدين في المعاهد القديمة. ومال الى الكتابة في شبابه، فأصدر في بغداد جريدة الرصافة (١٧ حزيران ١٩١٠). وعطلتها الحكومة بعد سنة واحدة، فاعتاض عنها بجريدة الصاعقة التي أنشأها عبد الكريم الشيخلي في ٨ حزيران ١٩١١ وأدّت به جرأته في الكتابة الى السجن، ولم يفرج عنه إلا بأمر من استانبول بعد مراجعة برقية من بعض الوجهاء. وأصدر في نيسان ١٩١٣ مجلة الرصافة، لكن لم يبرز منها سوى عدد واحد. واختير الأعرجي بعد ذلك عضواً في مجلس ولاية بغداد (١٩١٤) على عهد الوالي جاويد بك.

وامتهن التعليم على أثر الاحتلال الانكليزي فعيّن مدرساً (أول تشرين الأول ١٩١٧)، وزاول هذه المهنة في المدارس الثانوية الرسمية للبنين والبنات أكثر من ثلاثين سنة.

وتوفي ببغداد في أوائل شهر آب ١٩٦٠

كان الأعرجي شاعراً، قال من قصيدة له في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠

أسد العراق، بلغتم شأو عزكمُ ... ونلتم بعلاكم أرفع الرتب
في باب روض علاكم آية كتبت: ... حمالة المجد لا حمّالة الحطب
هذا العراق حماكم، وهو خير حمى، ... فعالجوه لكي يشفى من الوصب
عار عليكم، بنيه، أن تمدّ يد ... إليه ما لم تعالجها يد العطب
إن لم تذبّوا حفاظاً عن حريمكمُ ... فمن يذبّ وينجيه من الرهب؟

***

أرض العراق بأهليها محصّنة ... محميّة بهمُ من سالف الحقب
كم قام فيها مليك جيشه لجب ... وحلّها خير جيش باسم خير نبي
شبانها لحماها خير مدّخر ... أنتم فجدّوا فليس الوقت للّعب
ألقوا على الشعب ضوءاً من بسالتكم ... كي ينجلي عنه ليل الشكّ والريب..

حتى يقول:

لا تخضعوا لعداكم في مساومة ... عار على الرأس أن ينقاد للذنب
صبّوا عليهم جحيماً من مدافعكم ... وأحرقوهم بنيران من الغضب
روّوا صعيد حماكم من دمسائكُمُ ... كيما يجيد ثمار العزّ والنشب
واسقوه ماءً نميراً من مكارمكم ... كيما يجيد ثمار العلم والأدب

علي ظريف الأعظمي

الصحفيّ المؤرخ علي ظريف الأعظمي ولد بضاحية الأعظمية من بغداد سنة ١٨٨٣ وتوفي سنة ١٩٥٨ عمل في التدريس. وأصدر مجلة الأقلام (شباط ١٩٢٨)، فاحتجبت قبل أن تكمل عامها الأول. وقد عين رئيساً لبلديةالأعظمية سنة ١٩٢١

وضع كتباً منها: دروس التجويد (١٩١٣) الدرّ والياقوت في محاسن السكوت (١٩١٣) دروس الصحّة، تاريخ ملوك الحيرة (١٩٢٠) تاريخ الدولة اليونانية في العراق (١٩٢٣) مختصر تاريخ بغداد (١٩٢٦) مختصر تاريخ البصرة (١٩٢٧) تاريخ الدولة الفارسية في العراق (١٩٢٧).

ولده: الشاعر حسين الظريفي، ولد بالأعظمية سنة ١٩٠٩ وعيّن مدرساً في البصرة (١٩٢٨)، لكنه انتمى في السنة التالية الى كلية الحقوق في بغداد وتخرّج فيها سنة ١٩٣٣ وعيّن حاكماً في المحاكم المدنية (١٩٣٥)، ثم انصرف الى مزاولة المحاماة.

من مؤلفاته: حاكم التحقيق (١٩٣٦) البيّنات العامة (١٩٤٥) في سبيل الوطن (مسرحية شعرية، ١٩٤٨) جميل صدقي الزهاوي في بعض مجالسه (شعر روائي). وله أيضاً: أناشيد (١٩٢٢)، ظرائف الأعظمي (١٩٢٥).

قال الظريفي من قصيدة له بعنوان «من وحي الفنّ».

للنفس في فنّ الغناء إذا وعت ... ما تشتهي من طاعم أو كاس
وإذا أمضّ الحزن في قلب امرىء ... واساه من حسن الغناء مواسي
ولطالما أحيا به ميت الهوى ... من كان قد واراه بالأرماس
وبه لدى الجُلّى يذبّ عن الحمى ... كالماء من حجر تفجّر قاس.
قلم الأديب كنغمة الشادي به ... ينجاب ما يضنيه من إيلاس
ويبثّ من مرّ الهوى حرّ الجوى ... وصنوف ما قاسى به ويقاسي
ولقد يبيت به الفتى وكأنه ... يحيا على عرس من الأعراس
كم لذة لي في الحياة غنمتها ... ويراعتي بيدي على قرطاسي
أملي عليها من بنات خواطري ... ما هنّ كالريحان أو كالآس
إنّي لأغفل عن حياتي ساعة ... فيها أعبّر عن مدى إحساسي
لي من بياني صورة ليست على ... شيء من الإغماض والإلباس

عبد الحميد عبادة

من الكتاب الباحثين، ولد في خانقين سنة ١٨٩١ ، واستقرّ في بغداد حيث توفي سنة ١٩٣٠   مال الى البحوث التاريخية والتحقيقات العمرانية شاباً وكتب مقالات في مجلة لغة العرب وغيرها من المجلات والصحف .

وألف كتاب مندايي أو الصابئة الأقدمين (١٩٢٧)، وترك مصنفات مخطوطة منها «العقد اللامع في ذكر الآثار والمساجد والجوامع»، و «شجرة الزيتون في نسبة آل السعدون» .

قال عبد القادر البرّاك : «من يستعرض أمّهات المجلات العلمية والأدبية والتاريخية التي صدرت في العراق وبعض الأقطار العربية في أوائل القرن العشرين ، يجدها حافلة بالعديد من المقالات والبحوث التاريخية القيّمة التي تحدّد مواقع بعض معالم الحضارة وتعرّف بالعديد من الملل والنحل والمعتقدات والآراء ، للمؤرخ البغدادي المرحوم عبد الحميد عبادة ، صاحب أهم مصدر عن تاريخ «الصابئة» ومعتقداتهم ، لكونه قد كتبه بعد أن سكن في قراهم وعايش أقطابهم . . . » وقال البرّاك أن الدكتور مصطفى جواد كان يعتمد على آرائه فيما كان يكتبه عن خطط بغداد القديمة وغير ذلك من المواضيع .